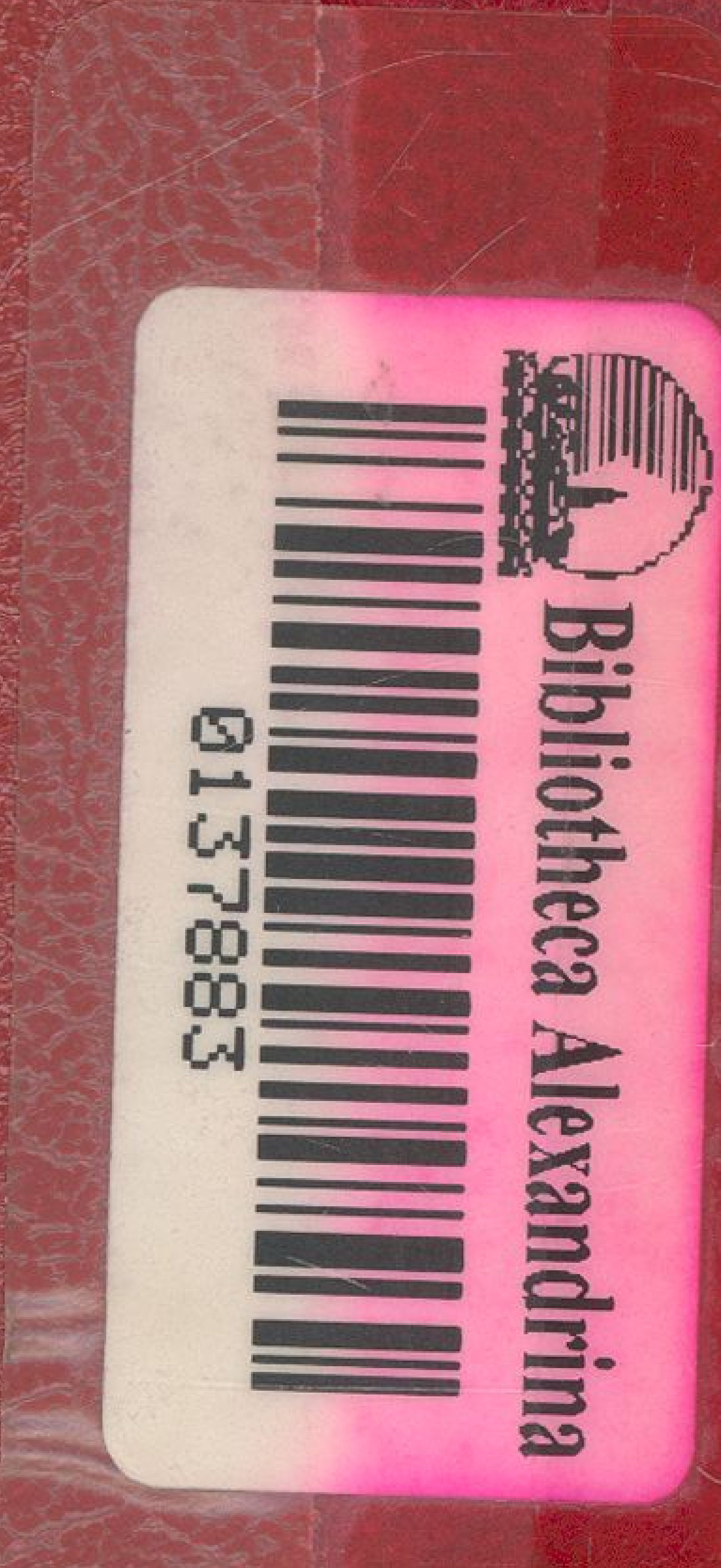
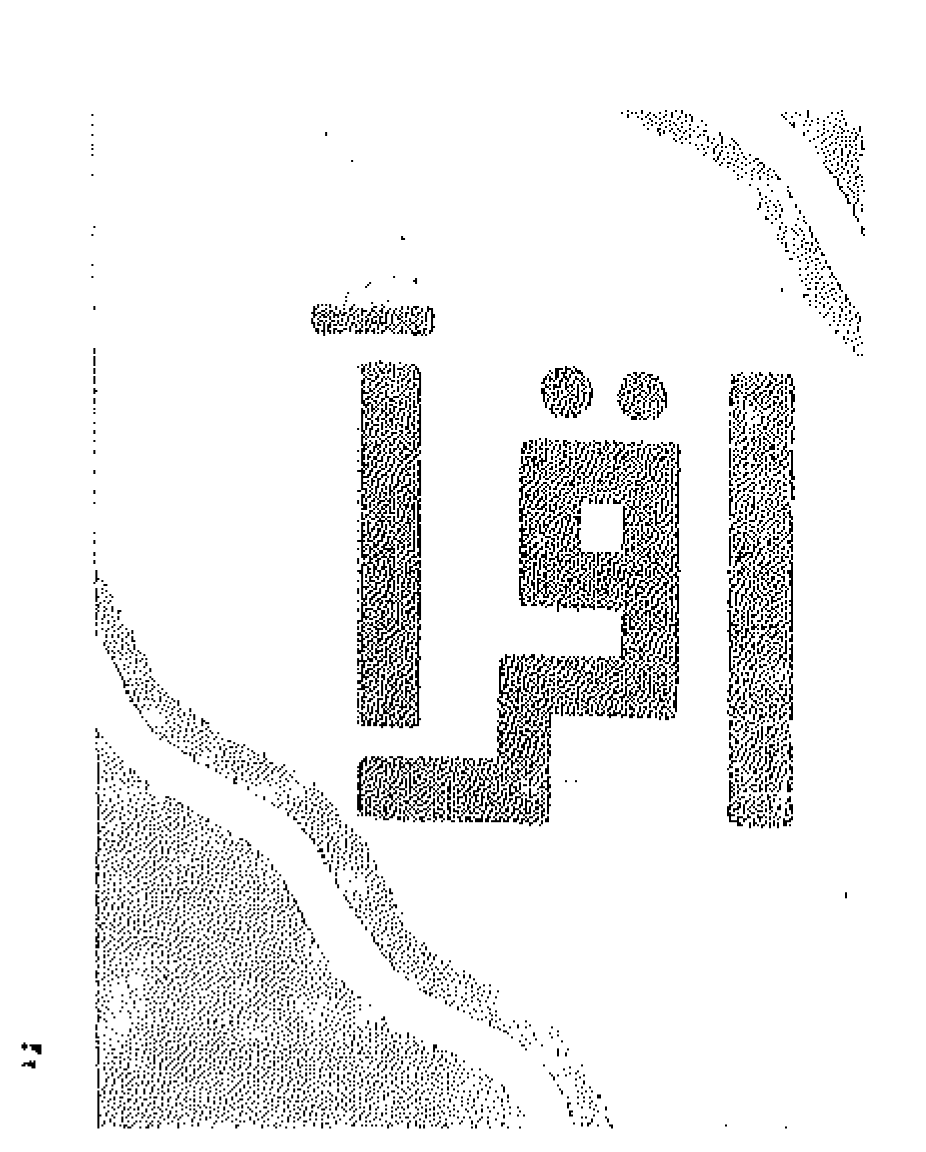
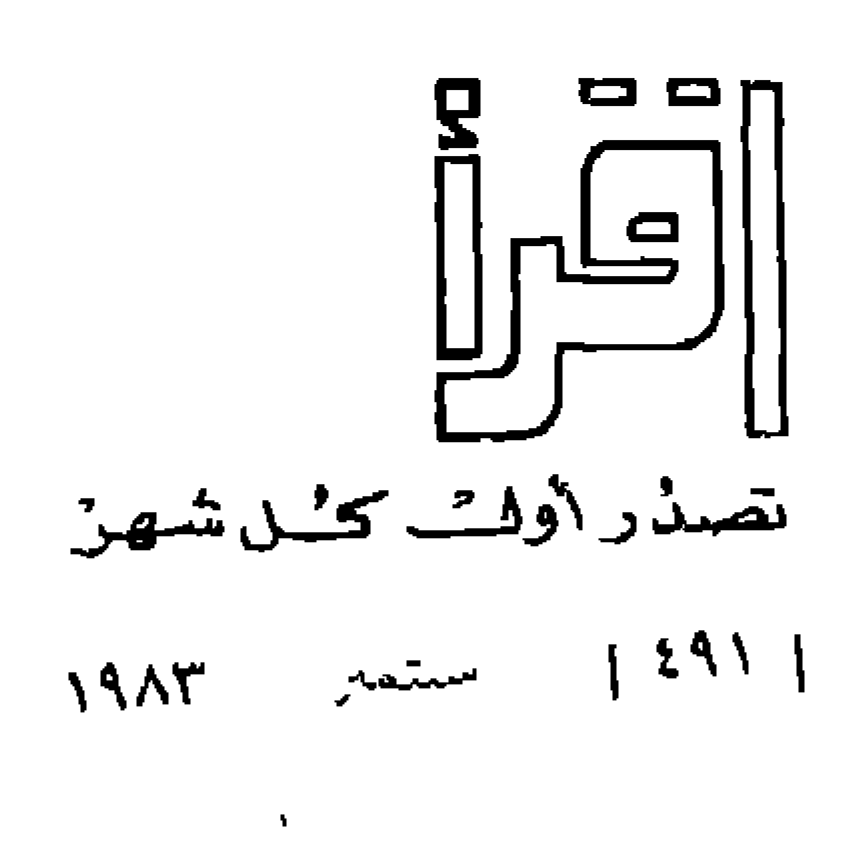

Bibliotheca Alexandrina
0137883



د . سعاد الشرقاوى

الأحزاب السياسية وجماعات الضغط



تصدر أول كل شهر

| ٤٩١ | سبتمبر ١٩٨٣

رئيس التحرير **أنيس منصور**

دكتورة سعاد الشرقاوى

الأحزاب السياسية وجماعات الضغط



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتحدد شكل النظام السياسى فى أى دولة تحت تأثير عوامل متعددة يمكن تقسيمها إلى مجموعتين : المجموعة الأولى : عوامل تتعلق بالمحيط الخارجى للنظام السياسى ، والمجموعة الثانية : عوامل تتعلق بالعناصر الداخلية للنظام السياسى .

ويقصد بالمحيط الخارجى للنظام السياسى ، ظروف الدولة الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية والديموجرافية ، وثقافة الشعب وتقاليده وعقائده ، ومدى تقدم المجتمع علميًا وتكنولوجيًا .

أما العناصر الداخلية للنظام السياسى ، فيقصد بها أساساً الأحزاب السياسية وجماعات الضغط التى تلعب دورًا هامًا فى الحياة السياسية ، وفى رسم معالم النظام السياسى لأى دولة . بل إن البعض يعتبر أن الأحزاب السياسية وجماعات الضغط هى المحرك الأساسى للعبة السياسية فى جميع النظم .

وإذا كان اصطلاح الأحزاب السياسية اصطلاحًا قديمًا ومألوفًا ، فإن اصطلاح جماعات الضغط اصطلاح جديد أدخله الأمريكيون إلى قاموس العلوم السياسية تحت تأثير المدرسة السلوكية ، وانتقل اصطلاح Pressure groups إلى اللغة الفرنسية تحت اسم Groupes de pression ، ثم دخل إلى لغتنا العربية وأصبح موضع اهتمام الباحثين .

والفارق الأساسى بين الأحزاب السياسية وبين جماعات الضغط ، يتمثل فى أن الأحزاب تهدف إلى الوصول إلى السلطة وممارستها ، فى حين تكتفى جماعات الضغط ، بالتأثير على السلطة من الخارج وإرغامها على تحقيق مطالبها دون محاولة الوصول إلى كراسى الحكم .

لقد أدرك الفكر السياسى الحديث أهمية الأحزاب السياسية وجماعات الضغط ، وأوضح أن الدراسة الوصفية للنظام السياسى شكلية وغير واقعية . ذلك أن القرارات التى تتخذها السلطات السياسية هى نتاج العلاقة بين القوى التى يهمها اتخاذ القرار . وهذا الواقع يحتم الاهتمام بدراسة الأحزاب وجماعات الضغط وعدم الاكتفاء بتحليل النصوص الدستورية .

ومن ناحية أخرى فإن المواطن فى أى دولة يشعر أن السلطة لا تتخذ القرارات بمفردها ، وإنما تأخذ فى الاعتبار القوى المنظمة فى المجتمع ، والتى يمكنها فى كثير من الأحيان إرغام السلطة على اتخاذ قرارات معينة .

ومن هنا فإن اهتمام الرأى العام فى دول العالم أجمع ، وفى مصر بصفة خاصة ، يتضاعف لمعرفة المزيد عن دور كل من الأحزاب السياسية ، وجماعات الضغط وأنواعها ونظمها وكيفية عملها ، ومدى تأثيرها على السلطة ، وذلك لفهم ما يجرى على المسرح السياسى ومعرفة محركات اللعبة السياسية .

وقد دفعتنا هذه الاعتبارات إلى وضع هذا الكتيب لنجيب فيه على أسئلة كثيرة

تدور فى الأذهان، ولنعطى للقارئ العربى فكرة واضحة عن دور الأحزاب السياسية وجماعات الضغط فى العالم المعاصر ، فى محاولة لسد فراغ فى المكتبة العربية .

ويتضمن الكتيب قسمين : القسم الأول نخصصه للأحزاب السياسية ، والقسم الثانى نعالج فيه جماعات الضغط .

القسم الأول

الأحزاب السياسية

أهمية الأحزاب السياسية

يرد النص على الأحزاب السياسية فى مادة أو مادتين على الأكثر من نصوص الدستور ، بل قد لا يرد مطلقاً ذكر للأحزاب فى الدستور ، فالمادة (٤) من دستور ١٩٥٨ الفرنسى تنص على أن « تسهم الأحزاب والجماعات السياسية فى التعبير عن الرأى بالاقتراع . وهى تتكون وتباشر نشاطها بحرية . ويجب عليها احترام مبادئ السيادة الوطنية والديمقراطية » ، وهى المادة الوحيدة فى الدستور الفرنسى التى ورد فيها ذكر للأحزاب السياسية .

وتنص المادة (٥٠) من دستور جمهورية مصر العربية لسنة ١٩٧١ المعدلة فى ٢٢ مايو سنة ١٩٨٠ على أن « يقوم النظام السياسى فى جمهورية مصر العربية على أساس تعدد الأحزاب ، وذلك فى إطار المقومات والمبادئ الأساسية للمجتمع المصرى المنصوص عليها فى الدستور ، وينظم القانون الأحزاب السياسية » .

في حين لم يرد ذكر الأحزاب في دستور الولايات المتحدة سواء الدستور الأصلي الصادر سنة ١٧٨٧ ، أو تعديلاته التي تزيد على عشرين تعديلا .

غير أن الأحزاب السياسية تلعب من الناحية العملية دورًا هامًّا في الحياة السياسية ، وقد أوضحت المادة الرابعة من الدستور الفرنسي ، على الرغم من إيجازها ، العلاقة بين الأحزاب السياسية وعملية الاقتراع ، إذ هناك آراء في الدول الغربية الليبرالية تقترح أن تصبح هيئة الناخبين سلطة إلى جانب سلطات الدولة الثلاث المعروفة ويسمى موريس هوريو هيئة الناخبين بـ « سلطة الاقتراع » Pouvoir de suffrage ، ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار الأحزاب مؤسسات تنظم سلطة الاقتراع .

وعلى أية حال فإننا يجب أن نتذكر دائمًا أن هيئة الناخبين تؤثر على السلطات الأخرى ، فهي التي تختار أعضاء البرلمان ، وبالتالي فهي التي تنتخب الحكام ، بل إنها أحيانًا بواسطة الاستفتاء تقرر مباشرة دون حاجة إلى وسيط .

ومن ثم تبدو الأحزاب عناصر هامة وحاسمة في النظم السياسية . فكيف يمكن تحليل النظم السياسية البريطانية دون التعرض لنظام الحزبين الذي ساد حتى أوائل سنة ١٩٨١ ؟ وكيف يمكن تفسير الهوة بين نصوص الدستور السوفيتي وبين ما يجري عليه العمل في الاتحادالسوفييتي إذا لم ندرس دور الحزب الوحيد الذي ركز بين يدي الزعماء السوفييت كل السلطة السياسية ؟ .

ولذا فإننا سندرس النظرية العامة للأحزاب باعتبارها مؤسسات هامة في الحياة السياسية لجميع النظم ، سواء أكانت ليبرالية أم ماركسية ، وسواء أكانت دولا متقدمة أم متخلفة .

الصعوبات التى تحيط بدراسة الأحزاب السياسية :

ظل موضوع الأحزاب السياسية بعيدًا عن البحث والدراسة حتى ثلاثين عاما مضت . وعندما حاول الفقهاء ارتياده لاستخلاص نظريات عامة لاحظوا أن الأحزاب محاطة بالغموض والسرية ، مما يجعل معرفة الحقيقة بشأنها صعبة .

وعن الصعوبات التى تقابل دراسة الأحزاب السياسية يقول ديفرجيه أستاذ العلوم السياسية وهو من أوائل من تعرضوا للأحزاب بدراسة جادة مقارنة حوالى سنة ١٩٥٠ – إن الموضوع جديد وتكتنفه صعوبات . وسبب ذلك أن تنظيم الأحزاب يرتكز أساسًا على عرف وعادات غير مكتوبة.وحتى لو وجدت نصوص مكتوبة منظمة لكيفية سير العمل داخل الحزب ، فإنها لا تتعرض إلا للقليل من المسائل ، ونادرًا ما تعكس ما يجرى من الناحية الواقعية . لأنها نادرًا ما تطبق بشكل جامد . ومن ناحية أخرى فإن طريقة سير وحياة الأحزاب تكون عادة محاطة بغموض ، وليس من السهل الحصول على معلومات من القائمين على الأحزاب لأنهم يتعمدون الاحتفاظ بأسرارهم وعدم البوح بها . وفى رأى ديفرجيه يعنى هذا أن النظام القانونى للأحزاب نظام بدائى ، قوانينه وطقوسه سرية ، يحاول القائمون عليه جاهدين إبقاءه بعيدًا عن أنظار عامة أفراد الشعب ، بل إن معرفة أسرار ومناورات الأحزاب لا تتوفر إلا لدى المناضلين القدامى من كل حزب ، وهؤلاء ليس لديهم قدرة على تقديم صورة موضوعية لما يجرى داخل الأحزاب ، كما أنهم يرفضون التحدث والإدلاء بالمعلومات التى لديهم .

وبرغم هذه الصعوبات فقد أحرزت العلوم السياسية تقدمًا كبيرًا خلال الثلاثين سنة الأخيرة فى دراسة الأحزاب السياسية ، وذلك بسبب تضافر جهود الأساتذة ومراكز الأبحاث ، من أجل إجلاء الغموض الذى يحيط بموضوع الأحزاب ،

وظهرت مؤلفات وأبحاث بعضها متخصص فى دراسة الأحزاب فى دول محددة . وبعضها دراسات مقارنة مدعمة بالإحصاءات والبيانات والجداول والرسوم .

وسنعرض الأحزاب السياسية فى فصول خمسة :

الفصل الأول : تعريف الأحزاب السياسية .

الفصل الثانى : أصل نشأة الأحزاب .

الفصل الثالث : وظائف الأحزاب .

الفصل الرابع : أنواع الأحزاب .

الفصل الخامس: نظم الأحزاب .

الفصل الأول

تعريف الأحزاب

إن تعريف الحزب تعريفًا دقيقًا ، يجب أن يكون مسبوقًا بتحديد العصر والوسط الاجتماعى والسياسى الذى يعيش الحزب فى ظله . فكلمة حزب معروفة منذ العصور القديمة ، ولكن الحزب السياسى فى العصر الحديث وعلى وجه التحديد منذ حوالى قرن من الزمان ، أصبح له معنى محددا . ومن ثم يتعين أن يستجمع عناصر معينة .

وعلى ذلك فتعريف الحزب فى العصور القديمة يختلف عن تعريفه فى العصور الوسطى ، وعن الحزب إبان الثورة الفرنسية وما تلاها . وإذا كانت فكرة الحزب تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فإن هناك عنصرًا لا يتغير ويكاد يكون قاسمًا مشتركًا فى جميع الأحزاب ، هذا العنصر هو التضامن المعنوى والمادى الذى يجمع أعضاء الحزب . إذ توجد بين هؤلاء الأعضاء أفكار سياسية متشابهة ، تجعلهم

يعملون معًا من أجل وضع سياستهم موضع التنفيذ .

وسنعرض تعريف الأحزاب فى فرعين : الفرع الأول ، نتتبع فيه تطور تعريف الحزب ، والفرع الثانى ، نفصل فيه التعريف الحديث للحزب السياسى .

الفرع الأول
تطور تعريف الحزب السياسى

تطور مفهوم الحزب وازدادت مهامه وتحددت وظائفه تدريجيًّا بمرور الزمن . ولذا فإن محاولات الفقهاء لتعريف الحزب تطورت بدورها لتتابع التطور الذى حدث فى الواقع . وسنعرض لأهم التعريفات موضحين كيف أن كل تعريف كان يتقدم خطوة فى مجال إيضاح فكرة الحزب وتحديد ماهيته .

يعرف بنجامين كونستان (١٧٦٧ – ١٨٣٠) الحزب بأنه « تجمع أفراد يؤمنون بنفس الفكر السياسى » .

ويقدم كلسن إضافة عندما يعرف الأحزاب بأنها : « تجمعات لأفراد يعتنقون نفس الأفكار ، تهدف إلى تمكينهم من ممارسة تأثير حقيقى على إدارة الشئون العامة »

ويتقدم جوجيل خطوة أخرى عندما يؤكد أن الرغبة فى الوصول إلى السلطة هى أحد العوامل المهمة التى تميز الحزب عن التجمعات أو الجمعيات الأخرى . ويتضح هذا من تعريف جوجيل للحزب بأنه : « تجمع منظم للمساهمة فى الحياة السياسية بهدف الاستيلاء على السلطة استيلاء كليًّا أو جزئيًّا ، والتعبير عن أفكار التجمع وتحقيق مصالح أعضاء الحزب » .

وفى رأى ماركس يعتبر الحزب تعبيرًا عن مصالح طبقة اجتماعية . ومن ثم فإن

المجتمع المقسم إلى طبقات يسمح بتكون الأحزاب . أما إذا ألغيت الطبقات وأصبح المجتمع بلا طبقات فلا محل لتعدد الأحزاب ، ويكون نظام الحزب الواحد هو الحل الحتمى للمجتمع الشيوعى .

فى حين يرى الأستاذ الفرنسى الشهير « بيردو » أن الحزب« هو تجميع أفراد يؤمنون بنفس الأفكار السياسية ، ويعملون على انتصارها وتحقيقها ، وذلك بجمع أكبر عدد ممكن من المواطنين والسعى للوصول إلى السلطة أو على الأقل التأثير على قراراتها » .

ينهج « بيردو » منهجًا لتعريف الحزب يميز بين تعريف مادى وعام وعالمى للحزب ، وبين تعريف شكلى يرتكز على العلاقة بين أعضاء الحزب وعلى تحديد أهدافه .

التعريف المادى للحزب : يرى فى الحزب حركة فكرية ، تهتم أساسًا بالمسائل السياسية ، وهى حركة أصيلة ويمكن الاعتراف لها بوجود موضوعى مستقل عن الأشخاص الذين يقودون الحزب .

التعريف الشكلى للحزب : يركز هذا التعريف على الفكرة التى تسيطر على جميع الأحزاب وهى كون الحزب يشكل ويمثل إرادة مجموع الشعب ، بل وينسب أفكار الحزب وآراءه للأمة برمتها .

ويلاحظ أن من يركز على الجانب الشكلى للحزب لا ينفى أهمية الجانب الموضوعى الوارد فى التعريف الأول ، بل إن الأستاذ بيردو ، يقدم تعريفه الذى يحاول به الجمع بين التعريفين مشيرًا إلى أن أهم ما يميز تعريفه الجامع ، هو إعطاءالأهمية للرأى العام ، ولكون الحزب ممثلا لمجموع آراء الشعب ، باعتبار أن الاهتمام بالرأى العام هو أحد نتائج تطور الديموقراطية وانتشار الاقتراع العام .

وإذا كان منهج بيردو، منهجًا متميزًا يحاول أن يقدم تعريفين، تعريفًا للحزب

يصلح لكل زمان ومكان ، وتعريفاً آخر يصلح للعصر الحديث ، آخذاً فى الاعتبار أثر الديموقراطية على فكرة الحزب ، فإن ما يعيب هذا التعريف هو أنه اكتفى بأن يعمل الحزب للتأثير على قرارات السلطة العامة ، علماً بأن أهم ما يميز الحزب السياسى عن جماعات الضغط ، هو أن الحزب السياسى يسعى للوصول إلى كراسى الحكم سواء تم له ذلك أم لم يتم . وبهذا فإن التعريف الذى يقدمه بيردو ، يتسع عندما يتعرض لهدف الأحزاب ليشمل تجمعات لا تدخل بحسب ما هو متفق عليه فى مفهوم الأحزاب .

الفرع الثانى
التعريف الحديث للحزب السياسى

انتهج الكاتبان الأمريكيان : لا بالومبارا وفاينر ، منهجاً جديداً فى تعريف الحزب يرتكز على تحديد عناصر واضحة يتعين توافرها فى المؤسسة التى تعتبر حزباً سياسياً . وقد لقى هذا التعريف قبولا من عدد كبير من الفقهاء فى العالم .

تعريف الحزب : الحزب السياسى هو تنظيم دائم ، يتم على المستويين القومى والمحلى ، يسعى للحصول على مساندة شعبية ، بهدف الوصول إلى السلطة وممارستها ، من أجل تنفيذ سياسة محددة .

شروط الحزب : يبين من هذا التعريف أنه يتعين اجتماع أربعة شروط فى المؤسسة التى تعتبر حزباً : استمرارية التنظيم ، وإقامة علاقة مستقرة بين المستوى المحلى والمستوى القومى ، والرغبة فى الوصول إلى السلطة وممارستها ، وأخيراً الاهتمام بالحصول على سند شعبى من خلال الانتخابات .

١ - **استمرارية التنظيم** : يعتبر شرط استمرارية الحزب معياراً يميز الحزب عن

التنظيمات الأخرى الوقتية التى تختفى باختفاء مؤسسيها. مثل الجمعية والزمرة والجماعة والعصبة .

٢ – **تنظيم متكامل على المستوى المحلى وعلى المستوى القومى** : وهذا المعيار يميز الحزب عن الجماعات البرلمانية . فالجماعة البرلمانية لا وجود لها إلا على المستوى المحلى ، ولا تملك تنظيمًا متكاملاً منتشرًا فى كل إقليم الدولة .

٣ – **الرغبة فى ممارسة السلطة** : تعتبر الرغبة فى الوصول إلى السلطة لممارستها أهم ما يميز الأحزاب السياسية عن جماعات الضغط . فالهدف المباشر للحزب هو السيطرة على السلطة أو المساهمة فيها لممارستها . ولذا تسعى الأحزاب إلى الحصول على أكبر عدد من المقاعد فى البرلمان ، وتشكيل الحكومة . أما جماعات الضغط فلا تهدف إلى الوصول إلى السلطة ، وإنما كل ما تسعى إليه هو التأثير على من يمسكون بالسلطة والضغط عليهم لتحقيق مصالح هذه الجماعات الضاغطة .

بإيجاز تسعى الأحزاب إلى السلطة ، فى حين تود جماعات الضغط أن تؤثر على السلطة مع بقائها خارج السلطة .

وتسعى الأحزاب إلى الدفاع عن مصلحة الجماعة الوطنية ككل ، وترتكز على التضامن العام ، أما جماعات الضغط فلا تهتم بالمصلحة العامة ، وإنما تدافع عن مصالح خاصة ، كأن تهتم بمصلحة العمال أو مصلحة أصحاب الأعمال أو مصلحة الزراع . . . إلخ .

٤ – **البحث عن مساندة شعبية** : تهتم الأحزاب بالحصول على سند شعبى من خلال الانتخابات أو عن أى طريق آخر ، وهذا المعيار يميز الأحزاب عن النوادى . فالنوادى حتى لو كانت سياسية لا تشترك فى الانتخابات ، ولا تسعى إلى الحصول على مقاعد فى البرلمان .

إن هذا التعريف للحزب ، الذى لقى قبولا فى السنوات الأخيرة ، ينطبق على

الأحزاب بمعناها الحديث ، أى الأحزاب بمعناها الذى تحدد خلال القرن التاسع عشر ، وبعبارة أدق منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويبرز هذا التعريف عنصرين فى الحزب السياسى العنصر الأول هو التنظيم ، والعنصر الثانى هو المشروع السياسى .

العنصر الأول : التنظيم L'organisatian

لا شك أن التنظيم له أهمية كبرى بالنسبة للأحزاب . فالأحزاب هى منظمات مركبة Organismes structurés وبغير هذا التركيب المكون من بنيان منظم ، فإن الأحزاب لا يمكن أن تعيش أو تمد جذورها فى هيئة الناخبين ، كما لا يمكنها أن تعمل بفاعلية من أجل تحقيق هدفها وهو الوصول إلى السلطة وتنفيذ برنامج سياسى محدد .

العنصر الثانى : المشروع السياسى Le projet Politique

لا يكفى لتعريف الحزب السياسى أن تنظر إلى التنظيم وإلى وسائله المختلفة . فالأحزاب هى جماعات منظمة من المواطنين هدفها الوصول إلى السلطة وممارستها ، وهى جميعا تبحث عن وسيلة تترجم بها إلى الواقع أفكارًا رئيسية . وعلى ذلك فالأحزاب تعتبر مؤسسات بالمعنى المتعارف عليه لاصطلاح مؤسسة ، وهو كونها تنظيم فى خدمة فكرة فالتنظيم ليس هدفًا فى ذاته ، وإنما يقام التنظيم من أجل تحقيق المشروع بوسيلة أفضل . أى من أجل تحقيق هدف معين بوسيلة أكثر فاعلية .

فهدف الأحزاب الاشتراكية والشيوعية فى الديموقراطيات الغربية ، هو تغيير النظام الاجتماعى الموجود . أما بالنسبة لأحزاب اليمين أو الوسط فهدفها ، هو المحافظة على النظام الرأسمالى ، إما بإبقائه على ما هو عليه ، وإما بقبول بعض

التطورات ، وفى جميع الأحوال تكون الأحزاب منظمات فى خدمة فكرة ما ، سواء أكانت هذه الفكرة محافظة ، كما هو الحال فى الأحزاب اليمينية وأحزاب الوسط ، أم كانت فكرة تقدمية ، كما هو الحال فى الأحزاب اليسارية .

الفصل الثانى

أصل نشأة الأحزاب

الأحزاب السياسية بمفهومها الحديث أى المؤسسات التى تسعى إلى الوصول إلى السلطة وممارستها ، والتى تتوفر فيها الشروط التى شرحناها – لم تكن معروفة قبل القرن التاسع عشر إلا فى الولايات المتحدة وإنجلترا . ومنذ أوائل القرن التاسع عشر بدأت ظاهرة الأحزاب تنتشر بمفهومها الحديث حتى أصبحت اليوم معروفة تقريبًا فى جميع الدول ، ونشأت بأساليب مختلفة أحزاب فى كافة دول العالم : فى الدول الغربية ، وفى الدول الماركسية ، وفى دول العالم الثالث .

فما هو أصل الأحزاب وكيف تنشأ ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لها أهمية كبيرة فى فهم الظاهرة الحزبية . فكما أن طفولة الإنسان تترك آثارًا عميقة على حياة الشخص ، فإن الأحزاب تتأثر بأصل نشأتها إلى حد أن معرفة أصل نشأة الحزب ضرورية لفهم كيفية سيره وعمله ، فمن

المستحيل معرفة الفرق بين حزب العمال البريطانى ، والحزب الاشتراكى الفرنسى ، دون معرفة الفرق بين نشأة وميلاد كل من الحزبين . كما أنه لن يتيسر معرفة الفرق بين نظام الحزبين الأمريكى ، وبين نظام الحزبين البريطانى دون التعرف على أصل نشأة الأحزاب فى كل من إنجلترا والولايات المتحدة . وهناك فروق بين تعدد الأحزاب فى هولندة ، وتعدد الأحزاب فى فرنسا ، وهذه الفروق لا يمكن تحليلها تحليلاً جادًّا دون الرجوع إلى أصل نشأة الأحزاب فى كل من الدولتين .

بصفة عامة يمكن أن نقول إن مولد ونمو الأحزاب مرتبط بالديموقراطية وباتساع هيئة الناخبين ، وبتبنى نظام الاقتراع العام ، وتقوية مركز البرلمانات . فكلما ازدادت مهام البرلمانات وشعرت باستقلالها ، استشعر أعضاؤها ضرورة تنظيم صفوفهم . وكلما ازداد عدد الناخبين ، بدا من الضرورى تكوين لجان قادرة على تنظيم الناخبين لكى تكون أصواتهم مؤثرة .

وهكذا فإن نشأة كثير من الأحزاب فى أوربا والولايات المتحدة ، مرتبطة بنشاط الناخبين وأعضاء البرلمان . ويطلق الفقهاء على الأحزاب التى نشأت من تنظيم أعضاء البرلمان والناخبين لأنفسهم ، بأنها ذات أصل داخلى أى نشأت داخل هيئة الناخبين والبرلمانات Origine intérieure électorale et parlementaire des partis فى حين توجد أحزاب أخرى نشأت خارج البرلمانات والناخبين ، يسميها الفقهاء أحزابًا ذات أصل خارجى Origine extérieure des partis ، وهذه الأحزاب قد تنشأ نتيجة لنشاط النقابات ، أو الكنيسة ، أو الجماعات الدينية ، أو الخلايا السرية .

وإذا نحن انتقلنا إلى دول العالم الثالث ، نجد أنها جميعًا الآن بها أحزاب . باستثناء عدد قليل جدا من الدول ، منها المملكة العربية السعودية . وأحزاب دول العالم الثالث تأثرت بحركات التحرير ، فبعضها نشأ لمقاومة الاستعمار واستمر ليمسك

بالسلطة بعد الاستقلال ، وبعضها نشأ بعد الاستقلال .

وسنبدأ بدراسة أصل الأحزاب فى الدول المتقدمة ، ثم ننتقل إلى دراسة أصل الأحزاب فى دول العالم الثالث .

أصل الأحزاب فى الدول المتقدمة :

١ - أحزاب نشأت داخل البرلمانات ومن تنظيم الناخبين Les comites électoraux

تتلخص هذه الطريقة فى أن مجموعة برلمانية تتكون ، ثم تظهر جماعات منظمة من الناخبين تسمى لجان الناخبين Les comités électoraux ويتبع ذلك إقامة علاقة دائمة بين هذين العنصرين . وهذه الطريقة تتمشى مع طبيعة سير الأمور داخل المجالس النيابية ، وهو تعدد الآراء ، وتجمع الأعضاء المتفقين فى الرأى ، وظهور انقسامات داخل البرلمان ، ثم تنظيم هذه الانقسامات فى الرأى فى شكل مجموعات برلمانية . وقد يرجع الانقسام فى الرأى إلى اختلاف الأيديولوجيات أو إلى اختلاف المصالح ، والأمثلة على ذلك كثيرة :

فى داخل الهيئة التأسيسية فى فرنسا فى سنة ١٧٨٩ ، انقسمت آراء أعضاء الهيئة ، وتجمع ممثلو كل إقليم فى مجموعة برلمانية .

وفى إنجلترا خلال القرن التاسع عشر ، كان من الأفضل أن يكون تقديم المرشح للانتخابات عن طريق مجموعة من ناخبى الدائرة ، ولذا كان تجمع الناخبين فى هذه الحالة وسيلة لتقديم المرشح .

وفى الولايات المتحدة نظرًا لأن عديدًا من المناصب يتم اختيار شاغليها بالانتخاب فقد لعبت لجان الناخبين comites électeraux دورًا هامًا فى الانتخابات ، وفى تكوين الحزبين الكبيرين لضمان عدم تبديد أصوات الناخبين ،

ولضمان تنظيمها وحسن استغلالها فى الانتخابات التشريعية وانتخابات الرئاسة . وقد أدى إلى تشجيع لجان الناخبين على الاستمرار وزيادة نشاطها تبنى نظام الغنائم منذ عهد الرئيس جاكسون ، ومقتضى هذا النظام أن الحزب الفائز يعين أنصاره فى الوظائف الرئيسية .

٢ - أحزاب نشأت من النقابات والكنائس والجماعات الدينية والسرية .

توجد أحزاب نشأت نتيجة لمساندة قوية من هيئات متعددة مثل النقابات والكنائس والجماعات الدينية والخلايا السرية .

ولعل أهم مثال على حزب نشأ من النقابات ، هو حزب العمال البريطانى فقد نشأ على أثر قرار اتخذه مؤتمر الاتحادات العمالية سنة ١٨٩٩ Trades-Unions والذى أنشأ تنظيمًا من البرلمانيين ومن الناخبين . ولعل هذه النشأة هى التى تفسر لنا العلاقة الوطيدة بين حزب العمال والنقابات حتى الآن . ومن هنا يميز الفقه بين نوعين من الأحزاب الاشتراكية : الأحزاب الاشتراكية ذات النشأة النقابية ، وهذه تعتبر أحزابًا اشتراكية بمعنى الكلمة ، وأحزاب اشتراكية أنشأها برلمانيون مثقفون ، وهذه تعتبر أحزابًا اشتراكية نظرية وأقل واقعية من الأحزاب الأولى .

أما الكنائس والجمعيات الدينية فأثرها هام فى نشأة الأحزاب فى أوربا ، فقد تدخلت الكنيسة الكاثوليكية فى نشأة الأحزاب الدينية قبل سنة ١٩١٤ ، وفى نشأة الأحزاب الديموقراطية المسيحية المعاصرة .

ففى بلجيكا كانت الكنيسة وراء نشأة الحزب المحافظ الكاثوليكى ، وكذلك الحال بالنسبة للحزب الديموقراطى المسيحى الإيطالى ، والحزب الديموقراطى المسيحى الألمانى .

وأخيراً فإن بعض الأحزاب قد نشأت نشأة سرية إما لأن نشاطها كان ممنوعًا من الناحية القانونية، وإما لأنها فضلت أن يظل نشاطها غير معلن. ومن النوع الأول حركات المقاومة التى كانت موجودة إبان الحرب العالمية الثانية لمقاومة المحتلين والتى تحولت إلى أحزاب بمجرد انتهاء الاحتلال: ومثاله الحزب الديموقراطى المسيحى الإيطالى. وبالمثل فإن الحزب الشيوعى السوفيتى كان نشاطه ممنوعًا قبل سنة ١٩١٧ ثم تحول إلى الحزب الحاكم بعد نجاح الثورة البلشفية سنة ١٩١٧.

أصل الأحزاب فى الدول الحديثة العهد بالاستقلال:

يمكن بصفة عامة أن نميز بين نوعين من الأحزاب من حيث أصل النشأة فى الدول حديثة العهد بالاستقلال: أحزاب نشأت لمقاومة الاستعمار وتحرير البلاد، وأحزاب أنشأتها السلطة القائمة بعد الاستقلال لتقوم بدور السند للسلطة.

ومن الأمثلة على الأحزاب الأولى: حزب الوفد المصرى، وحزب الاستقلال المغربى، وحزب الدستور التونسى، وجبهة التحرير الجزائرية، وحزب المؤتمر الهندى، والحزب الوطنى الأندونيسى.

ومن الأمثلة على الأحزاب الثانية: حزب المصالحة الوطنية فى السلفادور، والحزب الثورى الدستورى فى المكسيك، والاتحاد الاشتراكى فى السودان، والاتحاد الاشتراكى فى مصر.

ويلاحظ أن عددًا كبيرًا من الدول حديثة العهد بالاستقلال، تصدر قوانين بمنع الأحزاب، وذلك لتفادى الصراعات التى يمكن أن تمزق وحدة الدولة. غير أن هذا الحل السهل فى ظاهره لا يمكن أن يدوم، ولا أن يقدم وسيلة منظمة للتعبير عن الصراعات الحقيقية التى توجد فى المجتمع، كما أنه لا يقدم صيغة لحل هذه الصراعات. إن هذه الصراعات الموجودة فى الواقع تحتاج إلى مواجهة، ومن الخطر تجاهلها والاكتفاء بالحل السهل وهو منع الأحزاب السياسية.

الفصل الثالث

وظائف الأحزاب

تقوم الأحزاب السياسية بدور هام فى بلورة الانقسامات الطبيعية فى المجتمع ، وتحويلها من انقسامات طبيعية إلى انقسامات منظمة ، ذلك أن الحياة السياسية مليئة بالاتجاهات المتعارضة ، والقوى المتنافسة والأمزجة المتباينة ، والطموح والأطماع والآمال والمصالح المختلفة . وهذه كلها تعتبر محركات للنشاط السياسى ، وهى تتبلور وتتحرك من خلال الأحزاب السياسية .

وتعتبر الأحزاب من أكثر الأدوات الفعالة لإيجاد نوع من النظام فى الحياة الاجتماعية ، كما تعتبر الأحزاب ملجأ لتجسيد المُثل العليا ، بل إن البعض يعتبر الأحزاب هى الوجه المتحرك للفكرة القانونية ، والأداة للمساهمة فى الحياة السياسية .

ولكى تؤدى الأحزاب هذا الدور فى الحياة السياسية فإنها تتولى القيام بعدة وظائف :

١ – نشر أيديولوجيتها بين الناخبين .
٢ – اختيار مرشحى الحزب .
٣ – توفير اتصال دائم بين الناخبين والنواب .
٤ – تنظيم النواب داخل البرلمان .
٥ – حل الصراعات داخل الحزب .

١ – نشر أيديولوجية الحزب بين الناخبين

يسعى كل حزب إلى الحصول على أكبر عدد من المؤيدين عن طريق إقناع الناخبين بأيديولوجيته وببرنامجه الانتخابى . ومن الناحية الواقعية لا يمكن لأى حزب أن يحرز انتصارًا إذا لم يكن قادرًا على التعبير عن المشاعر والآمال والأفكار الكامنة لدى قطاع من المواطنين ، بحيث يشعر هذا القطاع أنه يجد نفسه فى الحزب . حقًّا إن الحزب يطور المشاعر والآمال والأفكار ويعطيها قوة ووضوحًا ، ولكن هذه الأفكار تكون موجودة قبل الأحزاب وبدون الأحزاب . وعلى ذلك فإن أيديولوجية أى حزب تفقد تأثيرها تدريجيًّا إذا فقدت استجابتها لآمال وأفكار الرأى العام .

وهكذا فإن الأحزاب السياسية تساعد على وجود وتنمية الوعى السياسى لدى المواطنين . وهى عندما تقوم بهذا الدور ، تفتح أمام المواطن فرصة الاختيار بوضوح فى أثناء عملية الاقتراع . وبغير الأحزاب تبدو الجماهير غير قادرة على التمييز بين اتجاهات المرشحين ، ومن ثم تجد نفسها مضطرة إلى اختيار الشخصيات البارزة فى المجتمع .

ولعل هذا هو السبب فى أن الظاهرة الحزبية نمت من خلال الأحزاب

اليسارية ، وهى الأحزاب الليبرالية فى القرن التاسع عشر ، والأحزاب الاشتراكية فى القرن العشرين . وكان الهدف الأساسى لهذه الأحزاب هو الوقوف فى وجه الشخصيات البارزة التقليدية فى المجتمع ، وساعد نمو الأحزاب على تحقيق هذا الهدف .

والأحزاب السياسية تسعى – فى سبيل نشر أيديولوجيتها – إلى مواجهة الأحزاب الأخرى ونقد برامجها ، وهى لذلك تمد الرأى العام بالمعلومات اللازمة لتعضيد وجهة نظرها . وهذه المعلومات التى تقدمها الأحزاب للمواطنين ضرورية لتكوين رأى عام مستنير ، إذ يستحيل على الناخبين الوصول إلى هذه المعلومات بمجهوداتهم الفردية .

٢ – اختيار مرشحى الحزب

تختار الأحزاب مرشحيها فى الانتخابات ، وتقدمهم للناخبين على أنهم مرشحو الحزب . حقًّا ، إن الأحزاب لا تحتكر عملية تقديم المرشحين للانتخابات ، إذ يوجد بعض المرشحين الذين يتقدمون إلى الانتخابات مستقلين عن أى حزب ، ويحرز البعض منهم نجاحًا بدون تعضيد أى حزب . ولكن أغلب المرشحين الذين يفوزون فى الانتخابات ، يكونون مرشحين من قبل أحزاب قائمة وقوية . ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة لعل أهمها أن عملية الدعاية الانتخابية أصبحت مكلفة ، مما يضطر أغلب المرشحين إلى الاعتماد على خزانة الحزب فى تمويل الدعاية .

وتوجد عدة وسائل لاختيار المرشحين ، وهى تختلف باختلاف تركيب الحزب ونوعه .

فأحـــزاب القلة المختارة Les partis de cadres traditionnels تعهد

بعملية انتقاء المرشحين إلى لجان من الشخصيات البارزة فى الحزب . ويسمى هذا النظام فى الدول الأنجلوسكسونية Caucus ، وهو يعنى أن عملية اختيار المرشحين تقوم بها طبقة أوليجار شية ضيقة ومغلقة . وفى نهاية القرن التاسع عشر تحركت الأحزاب فى الولايات المتحدة نحو نظام جديد ، هو نظام الانتخابات الأولية أو التمهيدية "Le système des primaires" إذ تجرى انتخابات تمهيدية داخل الحزب لتحديد مرشحى الحزب فى الانتخابات العامة . وتظهر فى قائمة مرشحى الحزب فى الانتخابات الأولية ، التى تجرى داخل الحزب ، عدة أسماء ، ويضع الناخب علامة أمام المرشح الذى يختاره ممثلا للحزب ، ولكن اللجان الأوليجارشية هى التى تقوم باختيار المرشحين الذين يجرى عليهم الانتخاب الأولى داخل الحزب ، والذين يتم من بينهم انتخاب ممثلى الحزب فى الانتخابات العامة .

أما الأحزاب الجماهيرية Las partis de masses فتقوم باختيار مرشحيها بوسيلة أخرى . وهذه الوسيلة تتحصل فى عقد مؤتمرات قومية ومؤتمرات محلية ، يساهم فيها جميع أعضاء الحزب . ويتم فى المؤتمرات المحلية اختيار مرشحى الحزب عن طريق الانتخاب ، أى أن الديموقراطية تتحقق داخل الحزب . ويعتبر هذا النظام نظامًا جيدًا إذا كان عدد أعضاء الحزب كبيرًا ، ولكنه يكون معيبًا إذا كان عدد أعضاء الحزب قليلا بالنسبة لعدد الناخبين .

٣ – تحقيق الاتصال الدائم بين الناخبين ونوابهم

للنواب مصلحة أكيدة فى الاحتفاظ بصلة مع الناخبين ، حتى يضمنوا إعادة انتخابهم . ومن الناحية العملية يتوجه أعضاء البرلمان فى نهاية كل أسبوع إلى دوائرهم لحضور اجتماعات ومؤتمرات يقومون خلالها بإعطاء معلومات للناخبين ،

ويتلقون منهم طلباتهم ، ويتعرفون على احتياجاتهم . وهذه اللقاءات يمكن أن تتم دون وساطة الأحزاب إذا توفرت لدى النائب سكرتارية شخصية . ولكن الأحزاب السياسية تجعل هذا الاتصال أيسر على النائب ، لأنها تقدم للنائب مجموعة من مناضلى الحزب يقومون بتوفير علاقة دائمة مع الناخبين . وهؤلاء المناضلون يدافعون عن آراء النائب ، ويشرحون نشاطه البرلمانى . وهم من ناحية أخرى ، ينقلون إلى النائب مشاعر الناخبين وآمالهم ومصالحهم ، وبذا يعتبرون وسيلة لجمع المعلومات التى يستفيد بها النائب .

إن هذه الثقة التى تودع فى مناضلى الحزب لها مخاطر . إذ يمكن أن يكون هؤلاء الوسطاء وسيلة لتوفير الاتصال بين النائب والناخبين ، ولكنهم يمكن أن يكونوا حاجزًا يعزل النائب عن الناخبين . ويتوقف هذا على مدى فهم هؤلاء المناضلين لدورهم وعلى مدى إخلاصهم وولائهم للحزب .

٤ - تنظيم نواب الحزب فى البرلمان

قبل نمو الأحزاب السياسية كان النواب مستقلين فى نشاطهم داخل البرلمان ، ولكن تطور الأحزاب السياسية أدى إلى تجميع أعضاء البرلمان المنتمين إلى حزب واحد فى جماعات برلمانية "groupes parlementaires" وقد كانت المجموعات البرلمانية ممنوعة مثلا فى فرنسا قبل سنة ١٩١٤ ، ولكنها عدت فيما بعد عنصرًا رسميًا فى تنظيم البرلمانات الحديثة ، وبواسطتها يتم انتقاء أعضاء اللجان البرلمانية وتنظيم نشاط البرلمانيين المنتمين إلى حزب واحد .

ولعل أهم مشكلة هى مشكلة تنظيم التصويت . وفيما يتعلق بعملية التصويت تختلف الأحزاب من حيث الحرية التى تتركها لأعضائها ، فتوجد أحزاب مرنة

وأحزاب جامدة . الحزب المرن Le parti souple ، هو الحزب الذى لا يرغم أعضاءه على التصويت على نحو معين إزاء الموضوعات المطروحة . بحيث يترك للعضو حرية التصويت كيفما شاء . وتعتبر الأحزاب الأمريكية ، والأحزاب اليمينية فى أوربا أحزابًا مرنة . أما الحزب الجامد Le parti rigide فهو الحزب الذى يرغم أعضاءه على التصويت بشكل موحد إزاء الموضوعات الرئيسية مثل طرح الثقة بالحكومة والمشاكل الأساسية . وتعتبر الأحزاب الاشتراكية والشيوعية ، وحزب المحافظين البريطانى ، والحزب الديموقراطى المسيحى الألمانى أحزابًا جامدة . وبصفة عامة تعتبر الأحزاب الجماهيرية أحزابًا جامدة . ولكن بعض أحزاب القلة المنتقاة أيضًا أحزاب جامدة مثل حزب المحافظين وحزب الأحرار البريطانى .

٥ - حل الصراعات داخل الحزب بين النواب والقادة الداخليين

إن تنظيم نواب الحزب فى البرلمان يطرح مسألة مهمة وهى مسألة مدى استقلال هؤلاء النواب فى مواجهة قادة الحزب .

فمن المعروف أن أحزاب القلة المختارة ، مكونة من شخصيات بارزة إلى جانب النواب أعضاء البرلمان ، ويعمل النواب البرلمانيون على التفاهم مع هذه الشخصيات الهامة ، وبصفة خاصة مع الشخصيات التى تمول خزانة الحزب . ولا يجد هؤلاء النواب تنظيمًا إداريًا يمكن أن يعارضهم أو يقف فى وجههم .

أما الأحزاب الجماهيرية فيوجد داخلها جهاز إدارى معقد ، يتولى عملية تنظيم الحزب ، ويتلقى المعونات المالية ، ويقوم بالاتصال المستمر مع مناضلى الحزب فى اللجان والمؤتمرات والاجتماعات : وهؤلاء يكونون طبقة القادة الداخليين للحزب . وتضم هذه الطبقة سكرتارين أى أمناء الحزب ، وأعضاء تنتخبهم اللجان

والمؤتمرات الحزبية . وينشب تنافس بين النواب وبين القادة الداخليين على إدارة الحزب .

ويعكس هذا الصراع صراعًا بين الجماعات التى تكون قاعدة كل فريق : جماعة أعضاء الحزب التى تختار القادة الداخليين ، وجماعة الناخبين التى تختار النواب . ويظل الصراع على قيادة الحزب محدودًا لأن الحزب يحرص على استمرار علاقته بالناخبين ، كما يحرص على دوام تواجده داخل البرلمان ، وإلا فقد تأثيره فى الحياة السياسية .

والمبدأ السائد فى أغلب الأحزاب الجماهيرية ، هو خضوع الجماعات البرلمانية لسلطة القادة الداخليين . ومعنى ذلك أن الناخب يعطى ثقة لا لنوابه الذين يختارهم ، وإنما للحزب وقيادته .

الفصل الرابع

أنواع الأحزاب

Les types des partis

يمكن تصنيف الأحزاب تصنيفات متعددة . ولكن أهم تصنيف للأحزاب هو تصنيفها إلى أحزاب قلة مختارة Parits de cadres وأحزاب جماهيرية partis des masses ويعتمد هذا التصنيف على اختلاف تنظيم الأحزاب ويترتب على طريقة تنظيم الحزب نتائج تؤثر على الانتخابات وعلى التمثيل البرلمانى .

ويتقدم الفقه خطوة أخرى عندما يصنف الأحزاب الجماهيرية إلى أحزاب مناضلين partis des militants وأحزاب ناخبين partis des électeurs

١ – أحزاب القلة المختارة والأحزاب الجماهيرية

Les partis de cardres et les partis des masses

(أ) أحزاب القلة المختارة Les partis de cadres

كانت أحزاب القلة المختارة أسبق إلى الظهور فى الحياة السياسية وهى أحزاب تهدف إلى جمع الشخصيات البارزة ذات النفوذ ، فهى تهتم بنوعية الأعضاء ولا تلتفت إلى كثرة عددهم La qualilé leur importe plus que la quantité

والشخصيات البارزة التى تسعى هذه الأحزاب إلى ضمها إلى صفوفها ، إما أن تكون بارزة بسبب مكانتها الأدبية التى تمكنها من ممارسة تأثير معنوى ، وإما أن تكون بارزة بسبب ثرائها الذى يسمح لها بالمساعدة فى تغطية نفقات الحملات الانتخابية..

وقد تبنت هذا التنظيم الأحزاب المحافظة والأحزاب الليبرالية فى أوربا والولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر . واحتفظت هذه الأحزاب بصفة عامة بهذا التنظيم إلى اليوم .

كانت هذه الأحزاب فى صورتها التقليدية موزعة إلى لجان محلية تقابل تقسيم الدولة إلى دوائر انتخابية . ولما كان عدد أعضاء الحزب غير كبير فلم تكن بحاجة إلى تنظيم قوى ، ولذا اتسمت أغلبها بضعف تنظيمها ، وكان الأعضاء يتمتعون باستقلال كبير ، لأن الأجهزة المركزية للحزب لم تكن تمارس بصفة عامة سلطات واسعة عليهم . ومع ذلك فقد كانت الأحزاب البريطانية المحافظة والليبرالية منظمة تنظيمًا مركزيًا منذ القرن التاسع عشر . ثم اتجهت الدول الأخرى فى القرن العشرين نحو مركزية تنظيم الأحزاب .

ويتفق تكوين وهيكل أحزاب القلة مع الليبرالية بمفهومها الذى كان سائدًا خلال القرن التاسع عشر ، وهي الليبرالية التى كانت تعتمد على الطبقة البورجوازية (الأحزاب الليبرالية) ، أو على الطبقة الأرستقراطية (أحزاب المحافظين) ، كما كانت متوافقة مع مبدأ تقييد الاقتراع وبداية المناداة بتطبيق الاقتراع العام ، حيث كان الناخب يضع ثقته فى صفوة مختارة لها مكانتها الاجتماعية .

إلى جانب أحزاب القلة فى صورتها التقليدية ، ظهرت صورة حديثة من أحزاب القلة نمت وتطورت خلال القرن العشرين . فأحزاب القلة الأمريكية تطورت تطورًا هامًّا بواسطة نظام الانتخابات الأولية . وهو نوع من الاقتراع الأولى تدعو فيه الأحزاب المواطنين للمساهمة فى انتقاء مرشحى الحزب ، ثم يقدم الحزب هؤلاء المرشحين إلى الانتخابات الحقيقية . وقد أدى نظام الانتخابات الأولية إلى كسر الحلقة الضيقة التى كانت مقصورة على لجان الأعضاء البارزين فى المجتمع .

ومن ناحية أخرى فقد ابتكر حزب العمال البريطانى صورة جديدة من صور أحزاب القلة سنة ١٩٠٠ ، عندما تكونت لجانه من أشخاص عاملين بارزين . فلجانه الأساسية مكونة من ممثلى النقابات والجمعيات التعاونية والجمعيات الثقافية ، وهؤلاء تجمعوا لكى يعملوا معًا فى المجال السياسى ، وتتولى هذه اللجان اختيار مرشحى الحزب فى الانتخابات ، وتقوم بإدارة الشئون المالية ، أى تقوم بالدعاية وجمع الأموال اللازمة لذلك من الجماعات المختلفة المشتركة فى الحزب .

انتقل هذا النظام العمالى البريطانى إلى أحزاب اشتراكية أخرى مثل الأحزاب الاشتراكية الإسكندنافية ، والحزب الاشتراكى البلجيكى قبل سنة ١٩٤٠ . ونجد هذا النظام متبعًا أيضًا فى بعض الأحزاب الديموقراطية المسيحية مثل الحزب الديموقراطى المسيحى النمساوى والبلجيكى فى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٣٦ ، حيث

تتكون لجان الحزب من ممثلين للنقابات العمالية والمنظمات الزراعية ، وجمعيات الطبقة المتوسطة ، إلخ .

(ب) أحزاب الجماهير Les partis de masses

ظهرت أحزاب الجماهير فى الدول الغربية مع انتشار الاشتراكية ثم الشيوعية . وقد كان للأحزاب الاشتراكية فضل ابتكار هذا الشكل من أشكال الأحزاب مع بداية القرن العشرين . ثم نقلت الأحزاب الشيوعية والأحزاب الفاشية عن الأحزاب الاشتراكية هذا الشكل الجماهيرى للحزب مع إدخال تعديلات غير جوهرية على النظام . بل إن بعض الأحزاب المحافظة والليبرالية والمسيحية حاولت تقليد هذا الشكل ، متخلية عن نظام حزب القلة .

أحزاب الجماهير الاشتراكية : تبنت أغلب الأحزاب الاشتراكية شكل الحزب الجماهيرى ، حتى أن حزب العمال البريطانى الذى ابتكر صورة من صور أحزاب القلة ، بدأ منذ سنة ١٩٢٧ يقبل العضوية المباشرة فى الحزب ، بحيث أصبح الحزب اليوم مركبا من تشكيلين أحدهما غير مباشر وهو التشكيل الذى أوضحناه والذى يقبل أعضاءً من الأشخاص البارزين فى نقابات أو جمعيات ، وتشكيل مباشر مكون من جماهير انضمت إلى الحزب دون اشتراط انتمائها إلى نقابات أو جمعيات .

وترجع أسباب نشأة أحزاب الجماهير إلى دوافع مالية ملحة . فبينما لم تكن لدى أحزاب اليمين أى مشكلة مالية لأنها تضم أعضاءً قادرين على تمويلها ، واجهت الأحزاب اليسارية مشكلة نقص الأموال . ولمواجهة هذه المشكلة حرصت الأحزاب اليسارية على جمع أكبر عدد من الأعضاء ، وجعلتهم يدفعون اشتراكاً سنويًّا أو شهريًّا لتمويل خزانة الحزب . خاصة وأن هذه الأحزاب لم تكن تستطيع

الاعتماد على مساندة الموسرين ، كما لم يكن باستطاعة مرشحيها تمويل الدعاية الانتخابية ومواجهة نفقات الحزب . أى أن هذه الأحزاب اليسارية وجدت نفسها غير قادرة على الاعتماد على قلة غنية ، فلجأت إلى جمع اشتراكات بسيطة من جماهير عريضة من المواطنين العاديين . أما السبب الثانى وراء نشأة الأحزاب الجماهيرية ، فهو الرغبة فى نشر الثقافة السياسية بين طبقة العمال ، التى لم تكن لديها معلومات عن الحياة السياسية فى أوائل القرن التاسع عشر . ولتحقيق هذا الغرض كانت الاجتماعات الدورية لأقسام الحزب تأخذ شكل محاضرات سياسية مسائية . تهدف إلى نشر الثقافة السياسية بين الجماهير ، وتسمح لهم بممارسة حقوقهم ممارسة حقيقية .

الأحزاب الشيوعية : كانت الأحزاب الشيوعية الأولى التى انبثقت من الأحزاب الاشتراكية فى الدول الغربية أحزابًا جماهيرية . ولكن قراراً صدر من الكومنيترن سنة ١٩٢٤ ، فرض على الأحزاب الشيوعية فى الدول الغربية ضرورة تبنى نظام الحزب الشيوعى السوفيتى ، والحزب الشيوعى السوفيتى هو حزب قلة منتقاة ، يتم اختيار أعضائه بعد اجتياز اختبارات قاسية .

عندما كانت الأحزاب الشيوعية فى الدول الغربية أحزاب جماهير ، كانت تتميز من عدة نواح عن الأحزاب الاشتراكية . حقًّا ، إن الأحزاب الشيوعية شأن الأحزاب الاشتراكية كانت تسعى إلى جمع أكبر عدد من المواطنين كأعضاء فى الحزب ، ولكنها لم تكن تقسمهم على أساس محلى . فالأحزاب الشيوعية تهتم فى المقام الأول بمكان عمل العضو . وعلى هذا الأساس يتم توزيع خلايا الحزب على المشروعات المختلفة أى على المصانع والمتاجر والمدارس . . إلخ . ولكن هذه الأحزاب تجد نفسها مضطرة إلى تكملة خلاياها على أساس محلى ، وذلك بالنسبة للعمال الذين لا يعملون فى مكان محدد وكذا بالنسبة للفلاحين والمزارعين .

وتقدم الخلايا المنتشرة فى أماكن العمل مزايا كثيرة . إذ يسهل على الأعضاء الاتصال ببعضهم بصفة مستمرة ومباشرة ، فهم يتقابلون يوميًّا ويمكنهم معرفة تعليمات الحزب بشكل منتظم . كما أن تواجدهم فى مكان عمل واحد ، يجعل مناقشاتهم السياسية مرتبطة بالواقع وبمشاكل تقع تحت بصرهم . فالتضامن النابع من العمل فى جهاز واحد أكثر قوة من التضامن الذى يصدر عن السكنى فى حى واحد أو مدينة واحدة . وهكذا فإن أسلوب الخلايا المنتشرة فى أماكن العمل يخلق روابط متينة بين أعضاء الحزب .

أما الخصيصة الثانية التى تميز الأحزاب الشيوعية عن الأحزاب الاشتراكية ، فهى قلة أعضاء الخلية . فالخلية الشيوعية لا تضم إلا عدة عشرات ، فى حين أنه فى الأحزاب الاشتراكية يضم القسم الواحد La Section عدة آلاف من الأعضاء (سكان مدينة مثلا) . وتحرص الأحزاب الشيوعية على قلة عدد أعضاء الخلية ، بحيث إذا وجدت أن أعضاء الخلية كبير ، قسمتها إلى خليتين بمجرد العثور على سكرتير كفء . وهذا العامل بدوره – أى عامل قلة عدد الأعضاء – يؤدى إلى زيادة التضامن بين أعضاء الحزب ، لأن كثرة عدد الأعضاء تؤدى إلى اختلافهم وصعوبة تنسيقهم . حقًّا ، إن توزيع الحزب على عدد كبير من الخلايا الصغيرة قد يؤدى إلى تفرقهم ، بل إلى انفجار الحزب ، ولكن الأحزاب الشيوعية نجحت فى تفادى ذلك عن طريق تحقيق مركزية شديدة ، وعن طريق نشر أيديولوجيتها ، بحيث تضمن أن يفكر جميع أعضاء الحزب بطريقة واحدة .

الأحزاب الفاشية : ظهرت الأحزاب الفاشية فى الفترة ما بين الحربين العالميتين . وكان أولها الحزب الفاشستى الإيطالى ، ثم تلاه الحزب الوطنى الاشتراكى الألمانى (النازى) . وقد اتسم الحزب النازى بالتنظيم والدقة التى وصلت إلى أعلى درجة ممكنة .

وتعتبر الأحزاب الفاشية أحزاب جماهير ، شأنها فى ذلك شأن الأحزاب الاشتراكية . والأحزاب الشيوعية فى الدول الغربية : أى أنها تسعى إلى ضم أكبر عدد ممكن من الأعضاء . ولكن الأحزاب الفاشية تجمع الأعضاء بطريقة مبتكرة ، وهى طريقة تطبق على الأحزاب الطرق الفنية المتبعة فى النظم العسكرية . إذ تعتبر التشكيلات العسكرية (الميلشيا) جزءًا مهمًّا فى تكوين الحزب ، وإن كان لا يشترط فى كل عضو أن يكون حاملا للسلاح ، أو عضوًا ميليشيًّا .

والعنصر الأساسى فى الحزب الفاشى ، هو تجمع صغير من عشرة رجال يسهل جمعهم فى أى لحظة ، لأنهم يسكنون فى شارع واحد أو فى مبنى واحد . هذه التجمعات تنظم فى شكل هرمى على غرار التنظيمات العسكرية فى الجيش .

ويبرر هذا التركيب العسكرى أن الأحزاب الفاشية تنشأ بعد معركة شبه عسكرية . فالأحزاب الفاشية حلت محل أحزاب يمينية بدت عاجزة عن المحافظة على النظام القائم أمام المد الشيوعى أو الاشتراكى . ومن ثم فقد بدا أن العنف هو الوسيلة الوحيدة أمام قادة الأحزاب الفاشية للسيطرة على الأوضاع . وهكذا أصبح هدف الأحزاب الفاشية هو استعمال العنف والانتصار عن طريقه . ولذا يتلقى أعضاء الميليشيا تدريبًا عسكريًّا شبيهًا بتدريب الجنود . ويتعلمون النظام وضرورة ارتداء زى موحد ، وإلقاء التحية ، والسير فى طوابير ، واستخدام السلاح . وفضلا عن ذلك فإنهم يتعلمون كيف يفسدون اجتماعًا ، وكيف يكافحون معارضيهم ممن يحاولون إفساد اجتماعاتهم ، وكيف يستولون على مقر حزب أو نقابة ، وكيف يحاربون فى الشوارع .

الحزب الفاشى إذن هو نوع من الجيش الخاص ، يسعى إلى الوصول إلى السلطة بالعنف والاحتفاظ بها بنفس الطريقة . ولكن الغريب أن الأحزاب الفاشية

نجحت فى دول ديموقراطية غربية وهى إيطاليا وألمانيا ، وهى لم تنجح إلا عندما استخدمت الوسائل الانتخابية للحصول على تأييد شعبى إلى جانب اعتمادها على العنف للوصول إلى السلطة .

٢ - أحزاب المناضلين وأحزاب الناخبين

فى البداية كانت أحزاب الجماهير كلها أحزابًا اشتراكية أو شيوعية ، تؤمن بأيديولوجية وتناضل من أجلها . فالأحزاب الاشتراكية والشيوعية تهتم بانتقاء أعضاء نشطين من النساء والرجال المقتنعين بأيديولوجية ، ومستعدين للعمل من أجل تحقيقها .

ولكن لاحظ الفقهاء أنه فى الوقت الحاضر توجد أحزاب ذات ميول يمينية أو معتدلة تضم أعدادًا كبيرة من الأعضاء ، أى يمكن اعتبارها أحزاب جماهير ، وهذه الأحزاب ليست أحزابًا قائمة على أيديولوجية جامدة ومحددة . إن أهم ما يشغل هذه الأحزاب هو أن تحوز إعجاب الناخبين ، وتحصل على أصواتهم فى الانتخابات ، أى أن هذا النوع من الأحزاب يعلى الاعتبارات العملية Le pragmatisme على الاعتبارات الأيديولوجية ، وتتمثل الاعتبارات العملية فى الانتصار فى الانتخابات والفوز بأكبر عدد من المقاعد والمناصب . وهذا النوع من الأحزاب موجود فى دول كثيرة منها الولايات المتحدة ، وإنجلترا ، وألمانيا الفيدرالية (الحزب الاشتراكى الديموقراطى) ، وفرنسا (اتحاد الديموقراطيين الجمهوريين) .

الفصل الخامس

نظم الأحزاب

Les types de systemes de partis

المقصود بنظم الأحزاب :

رأينا أنه توجد أنواع متعددة من الأحزاب تختلف باختلاف طريقة تنظيم هذه الأحزاب من الناحية الداخلية ، غير أنه إلى جانب هذه الأنواع المتعددة من الأحزاب توجد اختلافات بين نظم الأحزاب داخل الدولة ، وحجم كل حزب بالنسبة للأحزاب الأخرى ، وطريقة تعاون الأحزاب مع بعضها ، واستراتيجية كل منها . إن مجموع هذه العلاقات بين الأحزاب يكون نظامًا من العلاقات الثابتة نسبيًّا . ونتيجة لاختلاف هذه العلاقات بين الأحزاب من دولة إلى أخرى ، قد يكون النظام الحزبي السائد في الدولة هو نظام تعدد الأحزاب ، أو نظام الحزبين السياسيين ، أو نظام الحزب المسيطر ، أو نظام الحزب الواحد . ومن المتفق عليه أنه لا يمكن فهم طريقة سير أي نظام سياسي لدولةٍ ما من الناحية الواقعية ، إلا إذا

عرفنا النظام الحزبى السائد ، وعلاقات الأحزاب بعضها ببعض ، وكيفية امتزاج النظام الحزبى بالنظام السياسى للدولة ككل.

يتبنى كثير من الفقهاء تصنيف نظم الأحزاب إلى نظام تعدد الأحزاب ، ونظام الحزبين السياسيين ، ونظام الحزب المسيطر ، ونظام الحزب الواحد . ويعتبر هذا التصنيف من أفضل التصنيفات لنظم الأحزاب . ولكن الفقه الأمريكى يضيف تفصيلات تجعل تصنيف الأحزاب أقرب إلى الواقع وأكثر عمقا .

وتبدأ هذه الإضافة بطرح سؤال واضح وأساسى : هل النظام الحزبى يوفر التنافس الحر فى السوق السياسى Le marché Politique إذا كان النظام يتيح التنافس ، فإنه يوصف بأنه نظام تنافسى . أما إذا كان لا يتيح التنافس ، فإنه يوصف بأنه نظام غير تنافسى . وعلى ذلك تنقسم النظم الحزبية إلى نظم تنافسية Les systémes compétitifs وهذه تشمل نظام تعدد الأحزاب ، ونظام الحزبين ، ونظام الحزب المسيطر ، ونظم غير تنافسية Les systémes Non-compétitifs وتتجسد هذه النظم فى نظام الحزب الواحد .

الفرع الأول
النظم التنافسية
Les systèmes compétitifs

منحنى تدرج التنافس بين الأحزاب :

إن النظم التنافسية تتدرج فى درجة التنافس المسموح بها للأحزاب ، وفى مدى الحرية المتروكة لتكوين الأحزاب ، وفى نوع العلاقات المتبادلة بين الأحزاب

المتنافسة . ولذلك يحسن القيام بعملية تصنيف داخلية بالنسبة للنظم التنافسية تعتمد على درجة التنافس المتاحة للأحزاب . وعلى هذا الأساس يمكن ترتيب الأحزاب التنافسية فى شكل منحى تنازلى يتدرج فيه التنافس من أعلى إلى أسفل ، وهذا المنحى يؤدى إلى ترتيب الأحزاب التنافسية على النحو التالى :

أولا : نظم تعدد الأحزاب .

ثانيًا : نظم الحزبين السياسيين

ثالثًا : نظم الحزب المسيطر .

وبعد تشييد هذا المنحى المتدرج يمكن تدريج الأحزاب بشكل أكثر تفصيلا ، فكل شكل من هذه الأشكال الثلاثة يمكن تقسيمه إلى قسمين :

فنظام تعدد الأحزاب ينقسم إلى : تعدد الأحزاب الكامل أو التام ، وتعدد الأحزاب المعتدل .

ونظام الحزبين ينقسم إلى : نظام حزبين ناقص . ونظام حزبين تام .

ونظام الحزب المسيطر ينقسم إلى : نظام حزب مسيطر عادى ، ونظام حزب مسيطر شديد السيطرة .

النظم التنافسية :

منحنى تدرج التنافس :

١ – نظم تعدد الأحزاب :

(ا) تعدد الأحزاب الكامل أو التام .

(ب) تعدد الأحزاب المعتدل .

٢ – نظم الحزبين السياسيين :

(ا) نظام الحزبين الناقص .

(ب) نظام الحزبين التام .

٣ – نظام الحزب المسيطر :

(ا) حزب مسيطر عادى .

(ب) حزب شديد السيطرة

١ – نظم تعدد الأحزاب Les systémes du multipartis ne

تتبنى أغلب الدول الغربية نظام تعدد الأحزاب بدرجات متفاوتة وذلك باستثناء بعض الدول الأنجلوسكسونية ، وهى : إنجلترا والولايات المتحدة وكندا ونيوزيلندا وأستراليا ، التى تتبنى نظام الحزبين . فبعض الدول الغربية بها عدد كبير من الأحزاب مثل النمسا قبل سنة ١٩١٤ ، وأسبانيا الجمهورية (أى فى الفترة من ١٩٣١ – ١٩٣٩) . وفى الدول الإسكندنافية توجد أربعة أحزاب : وتوجد فى بلجيكا والنمسا ثلاثة أحزاب . ومن الدول التى تتبنى نظام تعدد الأحزاب إيطاليا وفرنسا .

ويرى المحللون أن النظام الحزبى فى الديموقراطيات العربية يقوم بدور أساسى وهو تخفيف واحتواء صراع الطبقات . وتتراوح النظم الغربية بين تفضيل نظام تعدد الأحزاب أو نظام الحزبين . ويتوقف اختيار أى دولة بين النظامين على درجة جمود الفواصل بين الطبقات الاجتماعية داخل هذه الدولة ، وعلى مدى قوة وعى الطبقات إذ تميل الدول إلى نظام تعدد الأحزاب ، إذا كانت الفواصل شديدة بين الطبقات ، وكان وعى الطبقات قويًا . أما إذا كانت الفواصل غير شديدة بين الطبقات ، فإنه يمكن تجمعها فى طبقتين ، وبالتالى تميل الدولة إلى نظام الحزبين .

ويتفق هذا مع تحليل كارل ماركس للأحزاب : فهو يعتبر الأحزاب السياسية تعبيرًا سياسيًّا عن الطبقات الاجتماعية. فإذا كان التركيب الاجتماعى الاقتصادى يسمح بتقسيم المجتمع إلى طبقتين ، فإن النظام يتجه نحو نظام الحزبين السياسيين . أما إذا كان التركيب الاقتصادى الاجتماعى داخل الدولة ينقسم إلى أكثر من طبقتين ، فإننا نجد أنفسنا أمام نظام تعدد الأحزاب .

(ا) تعدد الأحزاب الكامل أو التام : Le multipartisme intégral

تعتبر فرنسا فى ظل الجمهورية الرابعة نموذجًا لتعدد الأحزاب التام ، ويقصد بتعدد الأحزاب التام النظام الذى يوجد فيه عدد كبير من الأحزاب الصغيرة التى لا تحاول التكتل أو التجمع ، إذ يحاول كل حزب أن يتمسك بموقفه المتشدد الذى يعبر به عن مصالح فئة محدودة ، دون أن يهتم بمحاولة التوفيق بين مصالح هذه الفئة ومصالح الفئات الأخرى . وهكذا يبدو كل حزب فى ظل نظام تعدد الأحزاب التام كما لو كان المتحدث الرسمى باسم فئة خاصة . بل إنه يمكن أن يقال ، إن الحزب يتصرف كما لو كان جماعة من جماعات الضغط ، يدافع عن المصالح الخاصة أكثر من اهتمامه بالمصلحة العامة .

ويعيب نظام تعدد الأحزاب التام ثلاثة عيوب رئيسية :

– عجز النظام عن تجميع المصالح . وإغفاله للمصلحة العامة . ففى نظام الحزبين يحاول كل من الحزبين المتنافسين أن يجمع أكبر عدد من المناصرين . ولذلك يسعى إلى الحصول على مساندة شعبية . ولتحقيق هذا الهدف . يتنازل كل حزب من الحزبين عن بعض مطالبه ويحصر أهدافه فى عدد محدود من الأهداف الجماعية . أى أنه بهذا . يتفادى العيب الرئيسى القائم فى نظام تعدد الأحزاب التام ، وهو عجزها عن الاهتمام بالمصلحة العامة . ومبالغتها فى الاهتمام بالمصالح الخاصة .

– يجد الناخب نفسه أمام عدد كبير من البرامج يمكن أن يختار بينها. ولكن هذه الحرية الواسعة وهمية . ذلك أن الناخب فى نظام تعدد الأحزاب لا يختار مباشرة الحكام ، كما لا يساهم فى اتخاذ القرارات الوطنية الكبرى ، وإنما يعهد بهذه المهمة إلى وسطاء هم النواب الذين يقومون بتحقيق الائتلاف والتحالف البرلمانى بين الأحزاب لتشكيل الحكومات . ونظرًا لصعوبة حصول كل حزب على حدة على الأغلبية البرلمانية المطلقة . وهكذا فإن نظام تعدد الأحزاب ، يؤدى لا إلى الديموقراطية التى تتيح للناخب اختيار الحكام مباشرة . وإنما إلى ديموقراطية يحتاج فيها الناخب إلى وسطاء لتشكيل الحكومة .

– أما العيب الثالث لنظام تعدد الأحزاب التام ، فهو غياب الأغلبية البرلمانية الثابتة والمتجانسة والقادرة على مساندة الحكومة بإخلاص لمدة طويلة . إذ يؤدى نظام تعدد الأحزاب إلى جعل أعضاء البرلمان مقسمين إلى مجموعات تنتمى كل منها إلى حزب . وهذه المجموعات تتألف لتكون حكومات مؤقتة . ثم تتفرق لتقلب هذه الحكومات . وبهذا فإن عدم الاستقرار الحكومى أو الوزارى ، هو النتيجة الضرورية السيئة لنظام تعدد الأحزاب التام .

(ب) تعدد الأحزاب المعتدل Le multipartisme tempéré

يمكن تفادى العيوب السابقه التى تشوب نظام تعدد الأحزاب بتبنى نظام تعدد الأحزاب المعتدل . ويعنى نظام التعدد المعتدل وجود تحالف ثابت ومتجانس بين الأحزاب ، يؤدى إلى تكوين جبهتين كبيرتين كل جبهة تضم عددًا من الأحزاب المتقاربة فى الاتجاهات السياسيه . هاتان الجبهتان تتقدمان للناخب ببرنامجين بحيث يسهل عليه الاختيار ، كما تقوم كل جبهه مكونة من عدد من الأحزاب بالعمل معًا كوحدة واحدة داخل البرلمان . ويؤدى هذا الائتلاف والتكتل إلى إدخال تعديل جوهرى على نظام تعدد الأحزاب إلى حد يجعله شبيهًا بنظام الحزبين السياسيين .

ويعتمد نظام تعدد الأحزاب المعتدل على درجة صلابة التحالف ، وعلى كيفية تحقيق الائتلاف . وبعبارة أخرى ، فإن تعدد الأحزاب المعتدل يتوقف على طبيعة الأحزاب الداخلة فى التحالف ، وما إذا كانت أحزابًا جامدة تفرض على النواب المنتمين إليها التصويت على نحو معين ، أم أحزابًا مرنة تترك لأعضائها حرية التصويت كيفما يشاءون ، ويعنى هذا أن طريقة ودرجة تنظيم الأحزاب الداخلة فى التحالف تؤثر على نظام تعدد الأحزاب . كما يؤثر عليه نظام الانتخاب . إذ يؤدى نظام الاقتراع بالأغلبية على دورين إلى توجيه النظام نحو نظام تعدد الأحزاب المعتدل . وهو ما حدث فى ألمانيا من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩١٤ ، وكذا فى فرنسا فى ظل الجمهوريتين الثالثة والخامسة .

فى هذه الحالة يتكون ائتلافان كبيران يعملان معًا فى أثناء فترة الانتخاب وداخل البرلمان بعد تكوينه . هذا التجمع الذى يؤدى إلى تكوين قطبين كبيرين يتمتعان بدرجة من الثبات ، هو نظام يقترب كثيرًا من نظام الحزبين السياسيين ، وبذا يعتبر نظام تعدد الأحزاب المعتدل ، مرحلة وسطى بين نظام تعدد الأحزاب

التام ، ونظام الحزبين السياسيين فى منحنى تدرج التنافس بين الأحزاب الذى أشرنا إليه فيما سبق .

٢ - نظم الحزبين السياسيين

Les systèmes du Bipartisme

يمتدح كثير من رجال السياسة نظام الحزبين السياسيين، بل ويذهب بعض الفقهاء إلى اعتبار نظام الحزبين السياسيين نظامًا تفرضه الطبيعة ويحتمه التاريخ . وفى هذا المقام يقول الأستاذ الكبير ديفرجيه : « إن نظام الحزبين يبدو نظامًا طبيعيًا ، ونقصد بذلك أن الشعوب دائمًا تكون أمام الاختيار بين سياستين فكل سياسة تحتم الاختيار بين حلين » .

إن الصراع دائمًا يكون صراعًا بين اتجاهين أو ميلين أو طبقتين . فالصراع بين الاتجاهين مثاله ، الصراع بين أنصار الاستقرار وأنصار الحركة . والصراع بين الميول ، يكون صراعًا بين ذوى الميول المحافظة . وأنصار التغيير الجذرى . والصراع بين الطبقات مثاله ، الصراع بين الطبقة البورجوازية ، وطبقة البروليتاريا . وهكذا تبدو الثنائية متفقة مع طبيعة الأمور .

وخلال تطور التاريخ فى الماضى ، كانت كل الصراعات الكبرى صراعات بين فئتين كبيرتين : كاثوليك وبروتستانت ، جبليين ويعاقبة ، محافظين وليبراليين ، رأسماليين واشتراكيين ، غربيين وشيوعيين .

وعلى ذلك فإن الرأى العام أمام المشاكل الكبرى يجد نفسه منقسمًا إلى اتجاهين متعارضين ، أي أن الحركة الطبيعية للمجتمعات تميل نحو نظام الحزبين . وهذه هى

النتيجة التى يصل إليها الفقيه الكبير ديفرجيه .

غير أن فريقًا من الفقهاء لا يسلم بهذا التحليل ويأخذ عليه مأخذين : المأخذ الأول : هو ، أن هذا التحليل يستند على افتراض غير ثابت وغير ممكن التأكد من صحته من الناحية العملية ، إذ كيف يمكن تأكيد أنه بحكم طبيعة الأمور - لكل مشكلة حلان فقط ؟ والمأخذ الثانى : هو ، أن تاريخ عديد من الشعوب يؤكد أهمية الدور الذى يقوم به المعتدلون الذين يحتلون الوسط بين الحلّيْن المتطرفيْن . وسواء أكان نظام الحزبين السياسيين نظامًا طبيعيًا أم لا ، فمن المؤكد أنه نظام مفيد لأنه يساعد على حسن سير النظام السياسى .

ويحقق نظام الحزبين مزايا متعددة :

- يؤدى نظام الحزبين إلى سهولة تجميع المصالح ، ويمكن الرأى العام من الأختيار السهل الواضح فى المسائل الأساسية ، وبالتالى فإن الناخب يقوم بدور مباشر فى الحياة السياسية ، ولا يحتاج إلى وسطاء لحسم المشاكل الكبرى ، على حين نجد الوسطاء يلعبون دورًا مهمًا فى الحياة السياسية فى ظل نظام تعدد الأحزاب .

- يقوم الناخب باختيار النواب والحكومة مباشرة ، لأن رئيس الحكومة هو بالضرورة زعيم الحزب الفائز أو المنتصر فى الانتخابات . ومعنى ذلك أن الحكومة تتحدد مباشرة بمجرد إعلان نتيجة الانتخابات ، دون حاجة إلى ائتلاف أو تحالف بين الأحزاب .

- أخيرا ، يضمن نظام الحزبين السياسيين الاستقرار الحكومى ، طالما أن الحزب الذى يمسك بالسلطة يتمتع بالأغلبية المطلقة داخل البرلمان .

يمكن تصنيف نظام الحزبين السياسيين عدة تصنيفات :

(أ) نظام الحزبين الجامد ، ونظام الحزبين المرن .

(ب) نظام الحزبين التام ، ونظام الحزبين الناقص .

(جـ) نظام الحزبين المتوازن ، ونظام الحزبين غير المتوازن .

(ا) نظام الحزبين الجامد ، ونظام الحزبين المرن :

Bipartisme rigide et bipartisme Souple

يعتمد هذا التصنيف على درجة تنظيم كل من الحزبين ، فنظام الحزبين الجامد ، يقوم على تنظيم تصويت أعضاء الحزب فى البرلمان ، بحيث يلزمهم بالتصويت على نحو معين ، فى المسائل الهامة ، أما نظام الحزبين المرن ، فيترك لأعضاء الحزب حرية التصويت .

وتعتبر بريطانيا نموذجًا لنظام الحزبين الجامد ، إذ يتعين على النواب البرلمانيين أعضاء الحزب اتباع تعليمات الحزب عند التصويت على المسائل الهامة داخل البرلمان ، وإلا وقع عليهم الحزب عقوبة العزل من الحزب . ويؤدى هذا التنظيم الجامد إلى توفير الثبات والاستقرار والسيطرة للحكومة ، إذ يكون رئيس الحكومة متأكدًا من إخلاص وولاء الأغلبية التى تسانده

وعلى العكس فإن الولايات المتحدة تعتبر نموذجًا لنظام الحزبين المرن ، فلا يفرض أى من الحزبين نظامًا للتصويت على النواب أعضاء الحزب ، فكل عضو من أعضاء الكونجرس يصوت كما يحلو له دون أن يستشير حزبه . ونتيجة لذلك فإن نظام الحزبين داخل الكونجرس لا يلعب أى دور . وبصدد أى مشكلة توجد أغلبية ومعارضة مختلفة عن الأغلبية والمعارضة بصدد المشاكل الأخرى ، ولا تقابل هذه الأغلبية والمعارضة الانقسام إلى جمهوريين وديمقراطيين .

هذه الثنائية المرنة ، هى فى الواقع قريبة من نظام تعدد الأحزاب ، ويمكن أن تؤدى إلى عدم استقرار السلطة التنفيذية إذا لم يكن هناك فصل عضوى بين

السلطات يوفر الاستقرار للحكومة . ولعل هذا هو السبب فى أن نظام الحزبين المرن فى الولايات المتحدة لا يؤثر على استقرار السلطة التنفيذية ، لأن النظام الرئاسى الأمريكى قائم على الفصل العضوى بين السلطات .

(ب) نظام الحزبين التام ونظام الحزبين الناقص :

Bipartisme parfait et bipartisme imparfait

إن نظام الحزبين الخالص لا وجود له فى الواقع ، إذ يوجد إلى جانب الحزبين الكبيرين اللذين يسيطران على المسرح السياسى ، أحزاب صغيرة تتفاوت أهميتها ، وهذه الأهمية تتوقف على عدد الأصوات التى تحصل عليها هذه الأحزاب الصغيرة فى الانتخابات .

ونتيجة لهذا يمكن التمييز بين نظام الحزبين التام ، حيث يحصل الحزبان الكبيران على ٩٠٪ فأكثر من الأصوات ، ونظام الحزبين الناقص ، أو نظام الحزبين ونصف Le bipartisme à deux et demi ، حيث يحصل الحزبان الكبيران على ٧٥ إلى ٨٠٪ من الأصوات ، فى حين تحصل الأحزاب الأخرى الصغيرة على النسبة المتبقية ، مما يحدث اضطرابًا للحزبين الكبيرين .

فى نظام الحزبين التام يحصل أحد الحزبين على الأغلبية المطلقة للمقاعد داخل البرلمان ، ومن ثم يستطيع أن يحكم بمفرده ودون حاجة إلى الائتلاف مع أحزاب أخرى ، مما يؤدى إلى تنحية الأحزاب الصغيرة - من الناحية العملية - عن اللعبة السياسية وهذا هو الوضع الذى ساد فى إنجلترا بالنسبة للحزب الليبرالى منذ سنة ١٩٣٥ حتى سنة ١٩٨١ .

أما فى نظام الحزبين الناقص ، فإن الحزبين الكبيرين لا يحرزان انتصارًا كبيرًا ، ولا يحصلان على أغلبية مطلقة داخل البرلمان ، ومن ثم فإنهما يلجآن عادة إلى

الائتلاف مع الأحزاب الصغيرة أو يأتلفان معًا . وتعتبر ألمانيا الفيدرالية نموذجًا لنظام الحزبين الناقص : ففى الفترة من سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٦ تم الائتلاف بين الحزبين الكبيرين ، وهما الحزب الديمقراطى المسيحى ، والحزب الاشتراكى الديمقراطى وفى الفترة من سنة ١٩٦٩ إلى اليوم (أوائل ١٩٨٢) تم ائتلاف بين الحزب الاشتراكى الديمقراطى والحزب الليبرالى .

ويوجد وضع شبيه بذلك فى بلجيكا ، حيث يتمتع الحزب الليبرالى بمركز قوى ، يحول دون إمكان تكوين أغلبية مطلقة من الحزبين الآخرين ، وهما الحزب الاشتراكى ، والحزب المسيحى الاشتراكى .

يعتبر نظام الحزبين الناقص مرحلة وسطى بين نظام تعدد الأحزاب ، ونظام الحزبين التام وذلك فى سلم تدرج تنافس الأحزاب .

(جـ) نظام الحزبين المتوازن ونظام الحزبين غير المتوازن :

Bipartisme équibibré et bipartisme dominé

يمكن تصنيف نظم الحزبين السياسيين على أساس كمّى متعلق بعدد الأصوات التى يحصل عليها كل حزب فى الانتخابات بشكل مطرد ، ويؤدى هذا إلى تصنيف نظم الحزبين إلى نظم حزبين متوازنة ، ونظم حزبين غير متوازنة .

ونظام الحزبين المتوازن ، هو نظام الحزبين الحقيقى ، إذ يكون حجم كل حزب من الحزبين الكبيرين مساويًا تقريبًا لحجم الحزب الآخر ، ويكون الحزبان متعادلين من حيث القوة ويتبادلان الحكم تبعًا لانحياز أصوات الناخبين الهامشيين أو المترددين لهذا الحزب أو ذاك . ويكون الفارق بين الحزبين فى الأصوات التى يحصلان عليها فارقًا ضئيلاً . وهذا هو الحال الذى كان سائدًا فى إنجلترا ، حيث

حكم المحافظون فى الفترة من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٧١ ، لمدة ١٤ عاما على حين حكم العمال لمدة ١٢ عامًا .

أما إذا كان الفارق بين الحزبين كبيرًا إلى حد أن يستمر أحد الحزبين فى الحكم لمدة طويلة ، ويفقد الحزب الآخر الأمل فى الوصول إلى السلطة ، فإن نظام الحزبين يكون غير متوازن . وفى مثل هذه الحالة نخرج من نطاق نظام الحزبين بمعناه الحقيقى لندخل فى نطاق نظام الحزب المسيطر . وقد ساد نظام الحزبين غير المتوازن فى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٣ فى بعض الدول الأفريقية وهى فولتا العليا والنيجر ومالى وموريتانيا . حيث كان أحد الحزبين متسلطًا مستبعداً الحزب الآخر . ولكن هذا الوضع لا يدوم طويلا إذ سرعان ما يختفى ليحل محله نظام الحزب الواحد .

٣ - نظم الحزب المسيطر

Les systèmes à Parti dominant

فى ظل نظام الحزب المسيطر ، يكون داخل الدولة أكثر من حزبين ، أى أن نظام الحزب المسيطر يقوم فى ظل تعدد الأحزاب ، ولكن أحد الأحزاب وهو الحزب المسيطر يستأثر بالسلطة ، نظرًا لقوته ولحصوله على أغلبية كبيرة تحول بين الأحزاب الأخرى وبين إمكانية وصولها إلى كراسى الحكم . ومن النادر أن يسود نظام الحزب المسيطر فى ظل حزبين فقط ، لأن الحزب القوى فى هذه الحالة يمحو الحزب المنافس نهائيًا ليقيم نظام الحزب الواحد .

ولقد كان للفقية الكبير ديفرجيه فضل اكتشاف ظاهرة الحزب المسيطر وهو الذى أدخل اصطلاح Parti dominant أى حزب مسيطر فى قاموس العلوم السياسية سنة ١٩٥١ . ويرى ديفرجيه أنه لتكييف نظام متعدد الأحزاب بأنه نظام

حزب مسيطر يتعين توافر خصيصتين .

الخصيصة الأولى هي : أن يتفوق الحزب على الأحزاب المنافسة تفوقًا واضحًا خلال فترة طويلة نسبيًا ، حتى ولو فشل فى الانتخابات مرة أو مرتين .

الخصيصة الثانية : هى أن يجسد الحزب آمال الأمة وأفكارها بحيث تجد الأمة نفسها فى برنامج الحزب وطريقة عمله .

ولكن الحزب المسيطر قد يأتى على رأس قائمة الأحزاب ويترك مكانًا للأحزاب الأخرى . وهنا يكون الحزب مسيطرًا سيطرة عادية ، وقد يحتل الحزب المسيطر القمة دون أن يترك للأحزاب الأخرى إلا مكانة ضئيلة لا تكاد تذكر ، وهنا يكون الحزب شديد السيطرة . ومن هنا يمكن التمييز داخل نظام الحزب المسيطر بين نظام الحزب المسيطر العادى Le parti dominant ونظام الحزب شديد السيطرة Leparti ultra-dominant.

(ا) الحزب المسيطر العادى : Le parti dominant

فى فترة من فترات الجمهورية الثالثة الفرنسية ، كان الحزب الراديكالى هو الحزب المسيطر لأنه كان يتمتع بثقة أغلبية الناخبين بشكل واضح ومستقر ، كما كان الحزب الراديكالى يجسد آمال الأمة الفرنسية . فكان الفرنسيون يؤكدون أن « الراديكالية هى فرنسا ذاتها »

ويرى بعض الفقه المعاصر أن الديمقراطيات الغربية ساد فيها نظام الحزب المسيطر لفترة طويلة نسبيًا فى خمس دول هى : السويد ، والنرويج ، والدانمارك (حيث الحزب المسيطر هو الحزب الاشتراكى) ، وأيسلندا ، وإيطاليا (حيث الحزب المسيطر هو الحزب الديمقراطى المسيحى) .

ويتميز الحزب المسيطر بأنه يتمتع بمركز وحجم كبيرين بشكل مطلق ، كما يتمتع بمركز متميز بالمقارنة بجميع الأحزاب الأخرى . فمن ناحية يتعين أن يحوز الحزب

المسيطر على نسبة ٣٠٪ أو أكثر من مجموع أصوات الناخبين . وفى الدول الخمس المشار إليها يحصل الحزب المسيطر على ٤٠٪ أو أكثر من الأصوات فى الانتخابات وهى نسبة تبلغ ضعف ما يحصل عليه الحزب التالى له فى الترتيب والأهمية . ومن ناحية أخرى يتفوق الحزب المسيطر على الأحزاب المتعددة الأخرى التى يصل عددها إلى ٤ أو ٥ أحزاب ، وهذه الأحزاب لا تحوز إلا نسبة منخفضة من الأصوات تتراوح بين ١٠٪ ، ٢٠٪ من مجموع الأصوات المعطاة .

ويحتفظ الحزب المسيطر بمركزه المتفوق وبمكانته نتيجة لتعدد وضعف الأحزاب المنافسة له ، وهو بذلك يختلف اختلافًا جوهريًّا عن نظام الحزب الواحد ، الذى يحتكر الأرض نتيجة لتحريم إنشاء أحزاب أخرى بنص القانون أو الدستور .

ويزداد الاختلاف بين نظام الحزب المسيطر ، ونظام الحزب الواحد وضوحًا عندما يكون الحزب المسيطر خارج السلطة لأن الأحزاب الأخرى ائتلفت ضده ، وكونت الحكومة . وهذا ما حدث فى النرويج سنة ١٩٦٥ وفى الدانمرك سنة ١٩٦٨ حيث تكونت حكومات من اليمين المعتدل ، (مكون من المحافظين والوسط والليبراليين) . وبهذا انتزع اليمين السلطة من الديمقراطيين الاشتراكيين الذين أمسكوا بالسلطة لمدة خمس عشرة سنة دون إشراك أى اتجاه آخر معهم ، كما حدث هذا فى السويد فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٧٦ ، حيث ائتلف الوسط (٢٤٫٦٪) ، والليبراليون (١١٫٢٪) ، والمحافظون (١٥٫٨٪) مكونين أغلبية ٥١٫٦٪ استطاعت إبعاد الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، الذى ظل مسيطرًا من سنة ١٩٤٥ إلى ١٩٧٦ . على الحكم دون إشراك الأحزاب الأخرى معه فى الحكومة ، حيث كان يحصل بمفرده على الأغلبية المطلقة فى أغلب الفترات . ولكن الوضع الغالب هو أن يتولى الحزب المسيطر السلطة لأنه يتمتع بأغلبية برلمانية توفر الاستقرار الحكومى .

يحقق نظام الحزب المسيطر ميزة أساسية ، هى توفير الاستقرار الحكومى فى ظل

نظام تعدد الأحزاب . وأحيانًا يكون هذا الاستقرار لصالح الاتجاه الاشتراكى ، كما هو الحال فى السويد والنرويج والدانمارك ، أو لصالح الاتجاه الوسط المعتدل ، كما هو الحال فى إيطاليا ، أو لصالح اليمين ، كما هو الحال فى فرنسا حتى سنة ١٩٨١ ، وأيسلنده . بغير هذا يؤدى تعدد الأحزاب إلى عدم الاستقرار الذى يسود هولنده وفنلنده والذى ساد فى فرنسا فى ظل الجمهورية الرابعة (من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٨) .

غير أن هذه الميزة الأساسية لنظام الحزب المسيطر ، تقابلها ثلاثة عيوب رئيسية تشوب وتترتب على سيطرة حزب على الحياة السياسية :

– يؤدى نظام الحزب المسيطر إلى انعدام الدافع المنشط للحياة السياسية والوصول إلى حالة عجز عن الحركة . ذلك أن استقرار حزب واحد فى السلطة لعدة سنوات ، وشعوره بالثقة والارتياح نتيجة مساندة غالبية الناخبين له يؤدى إلى ركود وفتور الحزب عن الحركة والنشاط . إن المعارضة هى التى تحفز على محاولة إدخال تحسينات ، فبغير معارضة لا يمكن إحراز تقدم . وبعبارة أخرى يؤدى الحكم بغير منافسة إلى اختفاء المواهب الخلاقة .

– يؤدى نظام الحزب المسيطر إلى نقل العمل السياسى إلى أرضيات أخرى . فاقتناع الجماهير وأصحاب المصالح بعدم جدوى العمل من خلال الأحزاب يؤدى إلى نقل النشاط السياسى إلى مواقع أخرى غير الموقع التقليدى ، المتمثل فى الحوار داخل البرلمان ، وهو حوار يعتمد أساسًا على التنظيمات الحزبية . وتحاول المعارضة أن تعبر عن مصالحها وتحقق أهدافها بطرق مختلفة . فقد يقوم رجال الأعمال بممارسة ضغوط على الحزب المسيطر ، كما كان يحدث فى السويد ، حيث كانت تقوم أوساط رجال الأعمال بالضغط والتأثير على الحزب الاشتراكى . وفى فرنسا ظل اليمين مسيطرًا على الحكم منذ سنة ١٩٥٨ حتى سنة ١٩٨١ ، وخلال هذه الفترة كانت نقابات العمال تعوض عجزها عن الوصول إلى السلطة ، بالضغط على اليمين

المسيطر عن طريق الاضرابات والمفاوضات . وبهذا تتحول أحزاب المعارضة إلى جماعات ضغط أو جماعات ذات مصالح تحاول التأثير فى اتخاذ القرارات السياسية بوسائل مختلفة .

ومعنى هذا أن النشاط البرلمانى الذى يتميز بالعلنية والوضوح ، والذى يحظى باحترام الرأى العام ، لأنه يتم تحت بصره وسمعه ، ومن ثم فهو خاضع لمراقبة من الشعب صاحب السيادة ، هذا النشاط البرلمانى ، يتقلص ويحل محله نشاط جماعات الضغط الذى يعيبه أنه يتم فى سرية وفى الدهاليز ، وبعيدًا عن بصر وسمع الرأى العام ، ويعتبر هذا تراجعًا وتقهقرًا فى النظام السياسى غير مرغوب فيه . حقًّا إن كثيرًامن جماعات الضغط ، خاصة النقابات العمالية تمارس نشاطها بطريقة علنية واضحة ومفتوحة ، ولكن إحلال المفاوضات السرية والضغوط الخفية محل الوسائل الصريحة الواضحة فى تصارع المصالح يمثل خطرًا كبيرًا . وينتهى هذا الوضع إلى إحلال اللوبى ، أى وسائل جماعات الضغط محل الحوار البرلمانى ، أى استبعاد حكومة الأحزاب Le gouvernement des partis وقبول حكومة اللوبى أو جماعات الضغط . Le gouvernement des lobbies

– أخيرًا يؤدى نظام الحزب المسيطر إلى التخلى عن الرضا كأساس للنظام السياسى نتيجة لإقصاء قطاع من الرأى العام عن السلطة لسنوات عديدة .

إذ يؤدى نظام الحزب المسيطر إلى تربع حزب واحد على السلطة لمدة طويلة مبعدًا نصف الرأى العام تقريبًا عن السلطة . وهذا القطاع المستبعد يكون يائسًا تمامًا من الوصول إلى السلطة نتيجة لتمتع الحزب المسيطر بمركز قوى . وهنا يكمن خطر كبير . إذ تؤدى حالة اليأس هذه التى تصل إليها الأحزاب المعارضة ، إلى أن تعتبر هذه الأحزاب الحزب المسيطر مجسدًا للنظام . وبدلا من أن تعمل المعارضة من خلال النظام لتحقيق أهدافها تجد نفسها مضطرة إلى مناهضة النظام بأسره والعمل

ضده . وهذا الوضع يحمل مخاطر كبيرة على النظام القائم وعلى الحزب المسيطر وعلى المجتمع بأسره .

(ب) الحزب شديد السيطرة Le parti Ultra-dominant

يكمن الخلاف الأساسى بين نظام الحزب المسيطر العادى ، ونظام الحزب شديد السيطرة فى حجم الحزب المسيطر ، وعدد أصوات الناخبين التى يحصل عليها ، ونسبة المقاعد التى يحتلها داخل البرلمان . فالحزب المسيطر العادى لا يتعدى ما يحصل عليه نسبة الأربعين فى المائة من الأصوات التى تم الإدلاء بها ، إلا فى حالات نادرة استثنائية . من هذه الحالات الاستثنائية السويد من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٤٤ ، والنرويج من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٦١ ، وفرنسا من سنة ١٩٦٨ إلى سنة ١٩٨١ .

هذا الاستثناء هو القاعدة العامة بالنسبة للحزب شديد السيطرة . بمعنى أنه فى حالة الحزب شديد السيطرة يحصل الحزب المسيطر على الأغلبية المطلقة من الأصوات أو أكثر . كما يفوز بأكثر من نصف عدد مقاعد البرلمان . ولقد ظل حزب المؤتمر فى الهند لفترة طويلة حزبًا شديد السيطرة ففى انتخابات ١٩٥١ – ١٩٥٢ ، حصل حزب المؤتمر على ٣٦٤ مقعدًا من مقاعد مجلس الشعب البالغ عددها ٤٨٩ . وفى انتخابات سنة ١٩٥٧ ، حصل على ٣٦٥ مقعدًا من ٤٩٤ مقعدًا ، وفى انتخابات سنة ١٩٦٢ ، حصل على ٣٦١ مقعدًا من ٤٩٤ مقعدًا . وفى انتخابات سنة ١٩٦٧ ، حصل على ٢٧٥ مقعدًا من ٥٠٧ مقاعد .

وعلى أثر هذا التراجع فى انتخابات سنة ١٩٦٧ ، انقسم حزب المؤتمر إلى جناحين ، حزب المؤتمر القديم ، وحزب المؤتمر الجديد . واختفى نظام الحزب شديد السيطرة لفترة ، ثم عاد على أشده فى انتخابات سنة ١٩٧١ ، حيث حصل على ثلثى مقاعد مجلس الشعب . غير أن حزب المؤتمر هُزم فى انتخابات سنة ١٩٧٧ ،

يعتبر حزب المؤتمر فى الهند وبعض أحزاب دول إفريقيا ، وأحزاب بعض دول أوربا الشرقية ، أمثلة واضحة لنظام الحزب شديد السيطرة ، وهذا النظام يعتبر وسطًا بين نظام تعدد الأحزاب ، ونظام الحزب الواحد . ففى نظام الحزب شديد السيطره توجد عدة أحزاب تتنافس فى الانتخابات . ولكن من بين هذه الأحزاب يوجد حزب يتفوق بوضوح على منافسيه ، ويضمن بصفة مستمرة ومنتظمة الأغلبية المطلقة لأصوات الناخبين . كما يضمن أغلبية المقاعد داخل البرلمان بمفرده . ويكون الأمل فى إبعاده عن السلطة مستحيلا . ومن ثم فإنه فى ممارسته للسلطة يتمتع بمركز ثابت ومستقر يجعله فى وضع شبيه بوضع الحزب الواحد .

ولكن برغم ذلك فإن الأحزاب الأخرى ليست ممنوعة ، بل إنها مشروعة ، ويمكنها ممارسة نشاطها بحرية ، وتحظى بثقة وأصوات عدد لا بأس به من الناخبين . وعلى ذلك فإن الحزب شديد السيطرة يواجه معارضة وانتقادات ، على عكس وضع الحزب الواحد الذى لا يسمح لأصوات أخرى أن ترتفع . أى أنه فى ظل نظام الحزب شديد السيطره يوجد حوار ورقابة ، وهذه السمة تحيط النظام بجو شبيه بالجو الذى يحيط بنظم تعدد الأحزاب .

وقد لوحظ أن الحزب شديد السيطرة فى الدول الأفريقية ، يتمادى فى استغلال مركزه ووضعه بالنسبة لبقية الأحزاب ، ولذا فقد عمدت بعض دول أفريقيا إلى التحول من نظام الحزب شديد السيطرة إلى نظام الحزب الواحد ومن هذه الدول فولتا العليا والنيجر ومالى وموريتانيا . .

وهذا التحول من الحزب المسيطر إلى الحزب الواحد مؤسف . وذلك لأن الحزب المسيطر يعمل فى ظل تعدد الأحزاب . مما يجعل نظام الحزب المسيطر متفقًا مع ظروف الدول النامية . ذلك أنه يجنب الدول النامية خطر التحول إلى الدكتاتورية التى يؤدى إليها بالضرورة نظام الحزب الواحد ، دون أن يعرض الدولة

النامية إلى الانقسامات الشديدة التى قد تتولد عن تعدد الأحزاب ، لأن تركيب المجتمعات النامية ، ينطوى على عناصر عديدة ومتنوعة ، قد يؤدى تركها أن تعمل دون سيطرة حزب إلى تهديد وحدتها الوطنية واستقرارها الحكومى .

الفرع الثانى

النظم غير التنافسية

Les systèmes non compétitifs

يحتل نظام الحزب شديد السيطرة آخر درجة فى منحنى تدرج التنافس بين الأحزاب ، ويعتبر على الحدود بين النظم التنافسية والنظم غير التنافسية . وقد أوضحنا أن نظام الحزب شديد السيطرة إذ أساء استغلال مركزه بين الأحزاب الأخرى ، فإنه يقترب كثيرًا من نظام الحزب الوحيد الذى لا يسمح بإقامة أحزاب أخرى ، ولا يتيح الفرصة للتنافس ، ومن ثم فإن نظام الحزب الواحد ، هو نظام يجعل الحزب الوحيد محتكرًا للعمل السياسى . ولذا يمكن أن يقال إن النظم غير التنافسية هى نظم الحزب الواحد ، أو إن التعبيرين (تعبير النظم غير التنافسية ، وتعبير نظم الحزب الواحد) مترادفان .

تتفرع نظم الحزب الواحد إلى عدة فروع ، وهذه الفروع تختلف بعضها عن بعض باختلاف معنى ودور وأيديولوجية الحزب . وعلى هذا الأساس توجد نظم الحزب الواحد الماركسية ، ونظم الحزب الواحد الفاشستية ، ونظم الحزب الواحد فى الدول النامية .

١ - الحزب الواحد الشيوعي :

يعتبر الحزب فى تحليل كارل ماركس ولينين ، تعبيرًا سياسيًّا عن طبقة اجتماعية . إذن بمجرد قيام الثورة ، وتوحيد المجتمع ، وإلغاء الطبقات ، واختفاء الصراعات بين هذه الطبقات فلا ضرورة لوجود أكثر من حزب واحد فى أى مجتمع بلا طبقات ، ولا يوجد أى مبرر لوجود عدة أحزاب . بمعنى أن المجتمع الاجماعى أى غير المنقسم يحتم تبنى نظام الحزب الواحد .

٢ - الحزب الواحد الفاشيستى

إن تبرير نظام الحزب الواحد الفاشيستى يختلف تمامًا عن تبرير نظام الحزب الواحد الشيوعي . إذ يفسر منظِّرو الفاشستية سبب تبنى نظام الحزب الواحد ، بأنه يرجع إلى التخلى عن مبدأ حياد الدولة السياسى . فالدولة الليبرالية دولة محايدة ، تقبل تبادل وجهات النظر ، وتداول السلطة بين أصحاب المذاهب المختلفة . أما الدولة الفاشستية ، فهى دولة تحمل فكرًا معينًا ، وتدافع عنه ، ولا تقف موقف الحياد ، ويعبر عن هذا الموقف الجديد للدولة الفاشستية بأنها دولة حاملة لمثل عليا "L'E' at porteur d'idéaux"

ويؤكد موسوليني أن « الدولة الليبرالية » ، لا توجه التقدم المادى والمعنوى للجماعات ، ولكنها تقتصر على تسجيل النتائج التى يصل إليها المجتمع . أما الدولة الفاشستية ، فهى دولة واعية لها إرادة وتدافع عن قيم أخلاقية . فالدولة كما تتصورها الفاشستية وتحققها ، هى واقعة روحية وأخلاقية .

ويترتب على هذا أن حياد الدولة الليبرالية يسمح بتعدد الأحزاب ، لأن الدولة العلمانية تحترم كل الأفكار والمذاهب والأحزاب . غير أن الأمور تختلف فى ظل

الدولة الفاشستية التى تعلن أنها تدافع عن أيديولوجية معينة ، إذ يؤدى هذا إلى عدم قبول أحزاب أخرى غير حزب الدولة . فالدولة الشمولية ليست دولة متسامحة ، ومن ثم فهى تتبنى نظام الحزب الواحد ، ولا تقبل أى حلول أخرى بديلة .

٣ - الحزب الواحد فى دول العالم الثالث :

تتبنى كثير من دول العالم الثالث نظام الحزب الواحد . وتختلف هذه الدول فى تبريرها لتبنى نظام الحزب الواحد ، فهى أحياناً تستند إلى الرغبة فى الحفاظ على الوحدة الوطنية ، موضحة أن تعدد الأحزاب يهدد بانقسامات قبلية ومحلية . وتثير هذه الدول أيضا أن جهود التنمية الاقتصادية يجب تعبئتها جميعًا من أجل مصلحة الدولة ، ومن ثم لا تسمح بتفرق الجهود فى صورة أحزاب . ومن المبررات التى تبرزها دول العالم الثالث للدفاع عن نظام الحزب الواحد ، عدم كفاية وكفاءة النخبة السياسية الإدارية القادرة على تبنى وتسيير نظام تعدد الأحزاب بسلام ، وبشكل يفيد المجتمع .

دور الحزب الواحد :

يؤدى الحزب الواحد دورًا رئيسيًا فى جميع أشكاله أى سواء أكان شيوعيًا أم فاشستيًا أم فى دولة نامية . وهذا الدور هو الاحتفاظ بالاتصال بين القادة والجماهير ، ويعتبر هذا الدور هامًا ، لأن الانتخابات والبرلمانات تغدو خالية من معناها المعترف به فى الديمقراطيات الغربية ، ولا تؤدى هذه النظم أىّ دور فعال فى ظل نظام الحزب الواحد ، فى حين يقدم الحزب بتشكيله الهرمى وخلاياه المنتشرة فى المجتمع إلى نشر الدعاية لأفكار القادة بين الجماهير ، كما يعتبر الحزب وسيلة يتعرف بها القادة

على ردود فعل القاعدة الجماهيرية بالنسبة للسياسة التى يتبعها الحزب .

فى ظل أى نظام تنافسى للأحزاب ، تكرس الأحزاب نفسها للانتخابات وللأعمال البرلمانية التقليدية . أما فى النظم غير التنافسية ، فإن الأحزاب تقوم بوظائف أخرى متعددة ، ومتنوعة . خاصة إذا كان النظام شموليًّا يراقب كل أنشطة المجتمع .

ففى النظم الشيوعية يعتبر الحزب الوحيد هو الطليعة الثورية والنخبة الواعية التى تتعهد بإقناع الجماهير ، والأداة المحركة للمجتمع فى جميع المجالات والأنشطة الجماعية .

أما الحزب الفاشستى فلا يهدف إلى إيقاظ الوعى السياسى لدى الجماهير ، وإنما يتوجه إلى العواطف ولا يخاطب العقول ، وباعتباره تنظيمًا عسكريًّا ، فإنه يهتم فى المقام الأول بالأمن والبوليس ، ولذا يقوم بتشكيل جهاز يتولى حراسة القادة .

أما فى الدول النامية فيركز الحزب الواحد على تعبئة الجماهير ، ويستخدم فى تنمية الشعور بالوحدة الوطنيه . وإقناع الجماهير بشرعية سلطة القادة ، ودفع المواطنين للمساهمة فى الحياة السياسية .

مكانة الحزب الواحد فى الدولة :

تتوقف المكانة التى يشغلها الحزب الواحد فى الدولة ، على ثقل الحزب بالنسبة لأجهزة الدولة الأخرى التى تتقاسم معه السلطة .

وقد لاحظ أحد الباحثين أنه فى كل دولة – يسير نظامها السياسى بلا معارضة – توجد عادة ثمانية أجهزة وهى : الحزب ، والجيش ، وإدارة الدولة والبوليس السياسى ، والبيروقراطية ، وتنظيمات الشباب ، ولجنة الخطة ، والنقابات ، وأن أحد هذه الأجهزة المركزية يفرض نفسه باعتباره الجهاز

الرئيسى appareil principal محولا الأجهزة الأخرى إلى أجهزة ثانوية appareils secondaires تعمل تحت سيطرته وسلطته .

وهذا الجهاز الرئيسى يختلف من دولة إلى أخرى ، فهو فى الاتحاد السوفيتى الحزب ، وفى الدكتاتوريات العسكرية يكون الجهاز الرئيسى هو الجيش ، وفى ألمانيا النازية كان الحزب يقوم بوظائف أساسية . أما فى إيطاليا الفاشستية فقد كان دور الحزب محدودًا .

فى ختام دراسة نظام الحزب الواحد ، لا يفوتنا أن نذكر أن الحزب الواحد يعتبر أساسًا لنظام دكتاتورى ، وإن كان هذا النظام الدكتاتورى مؤقتًا فى بعض الأحيان . وهذه الدكتاتورية التى ترتكز على الحزب الواحد ، يمكن أن تكون دكتاتورية ثورية ، كما يمكن أن تكون دكتاتورية محافظة . الدكتاتورية الثورية تدفع التطور وتعمل على ميلاد نظام اجتماعى جديد . أما الدكتاتورية المحافظة فتقف فى وجه التطور وتحافظ بالقوة على النظام التقليدى .

القسم الثانى

جماعات الضغط

أهمية جماعات الضغط

تلعب جماعات الضغط دورا تتزايد أهميته فى جميع الدول ، سواء من حيث التأثير على اتخاذ القرارات . أم من حيث التأثير على بنيان وهيكل السلطة السياسية . ولذا فقد نبه الفقه الحديث إلى ضرورة اتباع منهج جديد فى دراسة جماعات الضغط ، فلا يكفى الوقوف عند تحليل المؤسسات ، وإنما يتعين دراسة كيفية سير وتحرك السياسة .بعبارة أخرى نبين للمتخصصين فى العلوم السياسية أن الدراسات الوصفية للمؤسسات L'approche descriptive غير مجدية لأنها شكلية أكثر مما يجب ولا تهتم بمجريات الأمور ، كما أنها بعيدة عن الواقع . فالواقع أن القرارات التى تتخذها السلطات السياسية ، هى نتاج العلاقة بين قوى الجماعات التى يهمها القرار . وهذا الواقع جدير بالبحث وأولى بالعناية لمحاولة فهم ما يجرى على المسرح السياسى . وإذا كان هذا هو الهدف من الدراسات الحديثة فإنه يتعين

الاهتمام بعملية اتخاذ القرار أكثر من الاهتمام بشكل وتركيب المؤسسات ، أى إعطاء الأولوية للجماعات التى تسيّر السلطة وترغمها على اتخاذ القرارات وعدم الاقتصار على تحليل النصوص الدستورية التى تنظم سلطات الدولة . إن هذا المنهج الجديد الذى أدخلته المدرسة السلوكية الأمريكية ، يتسم بالديناميكية والواقعية ، ويحلها محل الجمود والشكلية ، اللذين يسمان المنهج الوصفى الذى يقف عند مجرد دراسة تركيب السلطة وتحليل شكل وهيكل المؤسسات العامة والخاصة .

إن أهم ما يميز جماعات الضغط عن الأحزاب السياسية هو ، كما سبق أن أوضحنا أن جماعات الضغط تكتفى بمجرد التأثير على السلطة من الخارج دون محاولة الوصول إليها أو ممارستها . أما الأحزاب فهدفها الرئيسى هو الوصول إلى كراسى الحكم وممارسة السلطة سواء نجحت فى تحقيق هذا الهدف أم لا .

وتشمل جماعات الضغط هيئات عديدة ومتنوعة أهمها : النقابات المهنية ، والنقابات العمالية ، والجمعيات النسائية ، والهيئات المدافعة عن حرية التعليم أو علمانيته ، والنوادى ، وقدامى المحاربين ، والجمعيات الفكرية ، ومنظمات الفلاحين ، والتجمعات الدينية ، وتنظيمات الشباب ، وجمعيات الأسر . . إلخ .

وسنقوم بدراسة ظاهرة جماعات الضغط فى خمسة فصول :

الفصل الأول : تعريف جماعات الضغط .

الفصل الثانى : جماعات الضغط والقوى السياسية الأخرى .

الفصل الثالث : تصنيف جماعات الضغط .

الفصل الرابع : وسائل نشاط جماعات الضغط .

الفصل الخامس: جماعات الضغط وهيكل السلطة .

تعريف جماعات الضغط

يمكن تعريف جماعة الضغط بأنها تنظيم قائم للدفاع عن مصالح معينة . وهو يمارس عند الاقتضاء ضغطًا على السلطات العامة ، بهدف الحصول على قرارات تخدم مصالح هذه الجماعة .

ويبين من هذا التعريف أنه يتعين توافر شروط ثلاثة لكى تعتبر الجماعة من جماعات الضغط :

أولا : وجود علاقات ثابتة بين أعضاء الجماعة ، أى وجود تنظيم.

ثانيًا : توفر شعور يوحد أفراد التنظيم من أجل الدفاع عن مصالح معينة .

ثالثًا ، وأخيرًا : قدرة الجماعة على ممارسة ضغط على السلطات العامة لتحقيق مصالحها .

بالتأمل فى الشروط التى يجب توافرها فى جماعة الضغط يتضح أن ظاهرة

جماعات الضغط ظاهرة قديمة . فبعض القواعد التى تفرضها سلطات الدولة وتفرغها فى قالب قانونى ، قد تؤدى إلى التضييق على طبقة اجتماعية أو الإضرار بمصالحها ، وقد تكون مكلفة بشكل باهظ لممارسى مهنة معينة ، وقد تكون عائقاً أمام المفكرين أو الكتاب أو أنصار مذهب معين . ومن هنا يلزم أن يتدخل أصحاب المصلحة لدى سلطات الدولة ، لشرح وجهة نظرهم ، والدفاع عن مصالحهم . ويأخذ التدخل من جانب الجماعات المختلفة أشكالاً متباينة ، تختلف باختلاف مركز الجماعة داخل الدولة ، وباختلاف الوسائل المستخدمة للتأثير على السلطة .

وبرغم أن ظاهرة جماعات الضغط ظاهرة قديمة ، فإن تزايد أهميتها فى السنوات الأخيرة من الناحية العملية والنظرية يحتاج إلى تبرير . ولعل أهم سبب وراء ازدياد أهمية جماعات الضغط ، هو تطور ونمو وظائف الدولة ، وتدخلها فى مجالات كثيرة كانت بعيدة عنها فى ظل الدولة الليبرالية خلال القرن التاسع عشر ، وتعد جماعات الضغط بالمئات فى فرنسا اليوم ، على حين يصل عددها إلى عدة عشرات من الآلاف فى الولايات المتحدة . وأمام قوة بهذه الضخامة لم يكن من الممكن تجاهل الظاهرة ، ولذا فقد واجهتها الدول المختلفة بأساليب متنوعة .

وقد اختلفت وجهات النظر فى تقييم انتشار ظاهرة جماعات الضغط . فبينما يذهب البعض إلى اعتبار الظاهرة ازدهاراً للديموقراطية ، يراها البعض الآخر دليلا على انتشار الفساد فى السياسة .

أما من يعتبر جماعات الضغط ظاهرة ديموقراطية ، فهو يرى أن الديموقراطية الحقيقية هى تلك التى لا تضع عقبات كئود أمام القوى السياسية أيًّا كانت طبيعتها سواء أكانت قوى اقتصادية ، أم اجتماعية ، أم روحية ، أم فكرية ، ويتعين على

سلطات الدولة الاستجابة للرغبات النابعة من الأمة لأن هذا هو معنى الديموقراطية .

وأما من يعتبر انتشار ظاهرة جماعات الضغط دليلاً على تفشى الفساد فى السياسة ، فهو ينظر إلى تأثير جماعات الضغط على اتخاذ القرارات عن طريق الوسائل المتعددة التى تستعملها باعتباره انتصارًا للقوى القادرة على الضغط على السلطات السياسية ، ومن ثم فإن هذا يعنى أن قوة المال أو التهديد هما اللذان يسيطران على السياسة . ويعد هذا تراجعًا للديموقراطية التى تقوم على المساواة باعتبارها ركيزتها الأساسية .

والحقيقة أن توفير وسيلة للتعبير عن المصالح الخاصة ، مسألة ضرورية ولا تتعارض مع الديموقراطية ، ولكن ترك نشاط جماعات الضغط بلا تنظيم ، قد يؤدى إلى إفساد الحياة السياسية ، ومن ثم تهديد الديموقراطية وإقرار سيادة الأقوى ، ولذا فإن الحل الأمثل هو السماح لجماعات الضغط بممارسة نشاطها فى التعبير عن المصالح المختلفة ، ولكن يتعين إخضاع هذا النشاط لتنظيم بحيث يتم النشاط علانية ، وفى إطارات محددة يبينها القانون ، وفى حدود تحول دون الانحراف أو إفساد الحياة السياسية .

يعبر الفقهاء والساسة عن جماعات الضغط باصطلاح لوبى Lobby فى كثير من الأحيان . وتستحق كلمة لوبى منا وقفة لتوضيحها . لوبى Lobby ، كلمة إنجليزية تعنى ردهة أو دهليز أو قاعة انتظار . وفى البداية كان أصحاب المصالح ينتظرون رجل السياسة ، سواء الوزير أو عضو البرلمان فى ردهات البرلمان ، لتقديم طلباتهم للوزير أو عضو البرلمان . ومن هنا نشأ اصطلاح لوبى Lobby . الذى أصبح اليوم يعنى كل نشاط يمارسه أى شخص لدى السلطات العامة أيًا كانت ، بهدف الضغط عليها ، أو التعبير عن مصلحة معينة .

ويعنى اصطلاح لوبى Lobby أيضًا الأشخاص أو الجماعات التى تمارس هذا النشاط ، أى التى تعبر عن مصالح خاصة ، وتمارس تأثيرا على رجال السياسة .

وقد يهدف تدخل جماعات الضغط فى الحياة السياسية إلى الضغط على الهيئات المختصة لإصدار تشريع أو لمنع إصدار تشريع . ويتم هذا النشاط فى مواجهة جميع سلطات الدولة العامة سواء أكانت سياسية أم إدارية أم قضائية . وفى الولايات المتحدة ، حيث يعتبر نشاط جماعات الضغط مشروعا ومقننًا ومنظمًا ، تمارس جماعات الضغط أو اللوبى أنشطتها بصفة أساسية فى واشنطن ، وعلى وجه الخصوص لدى الكونجرس أى البرلمان الأمريكى . ولعل نجاح جماعات الضغط فى التأثير على قرارات الكونجرس ، هو السبب وراء إطلاق اسم المجلس الثالث على جماعات الضغط . أى أن جماعات الضغط اعتبرت مجازًا مجلسًا ثالثًا من مجالس الكونجرس الذى يتكون من مجلسين هما مجلس النواب ومجلس الشيوخ .

وجدير بالذكر أن الجماعات ذات المصالح ، ليست كلها جماعات ضغط إذ لا تتحول الجماعة إلى جماعة ضغط إلا عندما تمارس ضغطًا على السلطات العامة للوصول إلى قرار يحقق مصلحة لها . وتعتبر البنوك والمصانع الكبرى وشركات التأمين جماعات لها مصالح خاصة ، وهى تتحول إلى جماعات ضغط حتى ولو كانت مؤممة ، لأنها قد تتدخل لتطلب من الدولة أن توفر لها مزيدًا من الحرية أو لتخفف من مركزية إدارة المشروعات المؤممة . وتعتبر جماعات الضغط فى هذه الحالة جماعات ضغط عامة groupes de pression puplics

ولفكرة جماعات الضغط فى الدول الشيوعية معنى يختلف عن معناها ودورها فى الدول الرأسمالية . فالدولة فى البلدان الشيوعية تلعب دورًا هاما فى الاقتصاد ، ولذا فإن أهم جماعات الضغط ، هى جماعات ضغط عامة groupes de pression publics

فالقطاع الاقتصادى العام يمارس ضغطًا على سلطات الدولة لتحقيق مطالبه . ولكن إلى جانب الضغط الذى يمارسه القطاع العام الاقتصادى ، يوجد نشاط ضغط تمارسه النقابات ومنظمات الشباب ، والجمعيات النسائية ، وتنظيمات الأحياء على الحزب الوحيد وهو الحزب الشيوعى . ومن المعروف أن كل عضو فى الحزب ، هو عضو أيضًا فى أحد التنظيمات الموازية للحزب المشار إليها . ويعتبر هذا النظام وسيلة فعالة لإحكام رقابة الحزب على الأنشطة الأخرى ، ونشر الأيديولوجية التى يعتنقها على نطاق واسع فى جميع قطاعات الشعب . ويعتبر الاتحاد السوفيتى والصين وفيتنام أفضل نماذج لهذا النظام .

الفصل الثانى

جماعات الضغط والقوى السياسية الأخرى

تعتبر القوى السياسية ظاهرة اجتماعية ، وكل ظاهرة اجتماعية بطبيعتها لا تتسم بالاستقرار وإنما هى فى حالة تطور دائم . كما أن كل قوة سياسية تؤثر وتتأثر بالقوى الأخرى ، فلا توجد قوة سياسية معزولة عن المجتمع أو عن غيرها من الظواهر الاجتماعية السياسية . فلا يمكن للأحزاب السياسية تجاهل الرأى العام ، وجماعات الضغط ليست بعيدة عن الأحزاب ، كما أن الرأى العام ليس معزولا عن الفكر أو الأيديولوجيات .

إن تأثير الجماعات ذات المصالح على السياسة ، وتحولها إلى جماعات ضغط ، يأتى أساسًا من مساهمتها أو تأثيرها على إصدار القوانين واللوائح .

وسنقوم بدراسة جماعات الضغط والقوى السياسية فى فرعين : الفرع الأول ، جماعات الضغط والسياسة ، والفرع الثانى ، مكان جماعات الضغط من القوى السياسية الأخرى .

الفرع الأول

جماعات الضغط والسياسة

يرجع اشتراك جماعات الضغط فى النشاط السياسى إلى أحد سببين :

السبب الأول : أن يجد أصحاب المصلحة – أعضاء جماعة الضغط – أنفسهم فى وضع يستحيل عليهم فيه حل مشاكلهم بالوسائل الخاصة التى بين أيديهم ، بمعنى أن معونة سلطات الدولة تكون ضرورية ولا غنى عنها لحل مشاكل جماعة الضغط . ومثال ذلك ضرورة الحصول على معونة الدولة لبناء مسجد ، أو تشييد مدرسة ، أو شق طريق . . إلخ .

السبب الثانى : عدم رضا أصحاب المصالح عن طريقة سير الأمور ، وعن الأوضاع القانونية فى المجتمع . ويدفع هذا الشعور بعدم الرضا أصحاب المصالح ، إلى السعى لتعديل النظام القانونى ، بالضغط لإصدار تشريعات ولوائح جديدة . والأمثلة على ذلك عديدة منها صعوبة استيراد مواد أساسية ، نتيجة لأن النصوص القانونية تضع قيودًا شديدة على استيرادها ، ومنها التضييق على نشاط بعض الشركات ، ومنها ارتفاع الضرائب بشكل مبالغ فيه بالنسبة لبعض الأنشطة الضرورية لتنمية المجتمع . فى كل هذه الحالات تضطر جماعات الضغط للتدخل لتعديل النصوص القانونية التى تقف عقبة فى وجه نشاطها والتى قد تكون أيضًا عقبة تحول دون تنمية المجتمع .

وسواء أكان سبب تدخل جماعات الضغط هو أن معونة الدولة لازمة ، أم كان السبب هو إزالة العقبات القانونية ، فإن المشكلة تنتقل من نطاق العلاقات الخاصة إلى نطاق العلاقات العامة أى إلى مجال السياسة .

ومع أن جماعات الضغط تدخل فى مجال السياسة ، فإنه يمكن التمييز بين مجموعتين كبيرتين من جماعات الضغط من حيث موقفها من المشاكل الوطنية الكبرى : المجموعة الأولى ، لا تتخذ أى موقف حيال الصراعات الوطنية الكبرى مثل إعلان الحرب والمشاكل المتصلة بالعلاقات الخارجية ، وإنما يتركز اهتمام هذه الجماعات فى تحقيق مصالحها الخاصة والمباشره . أما المجموعة الثانية ، من جماعات الضغط فلا تتردد فى اتخاذ موقف من المشاكل الوطنية أى أنها تبدى رأيها فى موضوعات الساعة التى تواجه الدولة ، ويندرج تحت هذه المجموعة الثانية النقابات ، وأصحاب المشروعات الصغيرة ، وإن كان موقف أصحاب المشروعات الصغيرة والتجار يتسم بالاعتدال ، ويميل إلى الاتجاه المحافظ فى أغلب الأحيان .

ويلاحظ أن النقابات تلعب دورًا هامًّا فى المسائل التى تهم الأمة ، وهذه الظاهرة موجودة فى كل دول العالم . ذلك أن نشاط النقابات يهدف إلى أبعد من مجرد تحقيق مصالح أعضاء النقابة ، إنه يذهب إلى مدى أبعد من ذلك ، ويرمى إلى تقدم المجتمع وتحقيق مصلحة الدولة كلها . وعلى سبيل المثال لقد تدخلت النقابات البريطانية بشكل فعال فى مشكلة التسليح النووى .

إن الدور المتزايد الذى تلعبه جماعات الضغط ، وبوجه خاص النقابات فى السياسة العامة للدولة محل نظر ويعارضه بعض المفكرين والساسة . إذ يرى هؤلاء أن النقابات يحسن أن تحدد نشاطها فى الدفاع عن المصالح التى تمس أعضاء النقابة مباشرة . وذلك لأن انشغال النقابيين بالمشاكل الوطنية الكبرى يؤدى إلى انصرافهم عن هدفهم الأساسى ، ومن ثم فإنهم يسيئون الدفاع عن مصالح النقابة . غير أنه من الصعب قبول وجهة النظر هذه ، نظرًا لأن المشاكل السياسية والاجتماعية معقدة ومتشابكة . ومن ثم فإن عزل النقابة عن بقية المجتمع ، ومطالبتها بحصر نشاطها وتفكيرها فى مصالحها المباشرة ، يؤدى إلى شل النقابات وعجزها . إن أى

مشكلة سياسية لا يمكن حلها إلا بالارتفاع والنظر إلى المشكلة من أعلى للتعرف على أسبابها . فأجور العمال مسألة مرتبطة بالميزانية وبالتعليم وبالتسليح . وعلى ذلك فخفض التسليح يعتبر مسألة مؤثرة بشكل مباشر على مطالب النقابات ومصالح أعضائها .

وهكذا فإن كل جماعات الضغط الأخرى ، مثل منظمات أصحاب الأعمال والنقابات المهنية والطبقات المتوسطة والممولين ، تجد نفسها مضطرة إلى مناقشة المسائل المتعلقة بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية الكبرى . فمن المنطق أن كل مشكلة جزئية ، تؤدّى بالضرورة إلى مناقشة الموقف العام ، وأن أى تحسن أو حل للجزء ، يعتمد على التحسين الكلى والحل الشامل لمشاكل المجتمع .

وجدير بالملاحظة أن المصالح التى تهم جماعات الضغط متنوعة ، كما أن ثقل الجماعات متباين ، فالشركات العملاقة ، والبنوك القوية ، والنقابات العمالية ، تأثيرها أقوى بكثير من تأثير الجماعات النسائية ، أو جمعيات آباء التلاميذ . وتختلف طبيعة النقابات كما يتباين ثقلها ، كنتيجة لمدى قوة الروابط التى تربط أعضاء جماعة الضغط ، فالعلاقات بين أعضاء النقابة العمالية أو المهنية ، أقوى من العلاقات بين أعضاء جمعية آباء التلاميذ أو الجمعيات الخيرية

تصل بعض جماعات الضغط إلى درجة من التنظيم بحيث يمكن اعتبارها مؤسسات دائمة مستقرة . فى حين لا تتوفر فى بعض جماعات الضغط الأخرى الشروط القانونية التى تجعلها مؤسسات . وهذه الجماعات الأخيرة تكون مؤقتة وغير ثابتة ، لأنها تعمل دون الاعتماد على إطار قانونى ، ولذا فهى أقرب إلى الحركات الفكرية منها إلى جماعات الضغط . فعلى سبيل المثال يمكن على أثر أحداث معينة أن تتحرك الأوساط الجامعية أو الزراعية أو العمالية لتتخذ موقفاً . هذه التحركات

تكون قوية ولكنها مؤقتة وتنحل بسرعة ، وذلك لأنها ليست منظمة ولا تملك وسائل مؤثرة قوية . ولذا تستطيع السلطات الرسمية أن تفرق هذه الحركات وتحتويها بسهولة .

الفرع الثانى
مكان جماعات الضغط من القوى السياسية الأخرى

تتأثر كل قوة سياسية بالقوى السياسية الأخرى وتؤثر فيها ، كما سبق أن أشرنا ، بحيث لا توجد قوة سياسية معزولة عن القوى السياسية الأخرى . ولذا يحسن أن نعرف ما هى القوى السياسية داخل المجتمع ، ثم نحدد مكانة جماعات الضغط من القوى الأخرى .

تعتبر قوة سياسية كل طاقة اجتماعية موجهة إلى السلطة ، إما لأن هذه الطاقة تمسك بالسلطة ، وإما لأنها تحرك السلطة . ويبين من هذا التعريف أن القوة السياسية هى طاقة اجتماعية متحركة ، ومن ثم فلا يمكن لإنسان أن يكون قوة سياسية إلا إذا إستقطب جماعة من الأفراد حوله ليصبح حركة اجتماعية . ومن ناحية أخرى يبدو من تعريف القوة السياسية أن السلطة هى محور القوة السياسية ، فلكى تعتبر القوة قوة سياسية ، يتعين أن يكون لها موقف من السلطة ولا يشترط أن يكون موقف القوة السياسية هو الرغبة فى تغيير الأوضاع ، فقد يكون هدف القوة السياسية المحافظة على ما هو قائم .

لقد تعددت القوة السياسية فى العصر الحديث ، وهى تتمتع بوسائل متنوعة تؤثر بها فى المجال السياسى ، ولكن بعض هذه القوى فقط تعتبر سلطة لأن السلطة يشترط لتوافرها أن يكون وراء القوة السياسية فكرة ، وأن تكون القوة قادرة على

فرض نظام اجتماعى ثابت ، وتنفيذ قراراتها بالقوة .

ويمكن التمييز بين نوعين من القوى السياسية : القوى السياسية المنظمة Les forces politiques organisées والقوى السياسية المنتشرة بلا تنظيم Les forces politiques diffuses وتندرج جماعات الضغط تحت القوى السياسية المنظمة . ذلك أن القوى السياسية المنتشرة بلا تنظيم ، هى تلك التى تستخلص من عقلية الأفراد ، دون أن يكون لها قاعدة قانونية محددة ، أى دون أن تكون مؤسسة . ولعل أهم صور القوى السياسية المنتشرة بلا تنظيم الرأى العام ووعى الطبقة . وهذه القوى المنتشرة تأثيرها محدود ، لأنها ليست منظمة ، ومن ثم لا يمكنها أن تناضل للوصول إلى هدف محدد . أما القوى المنظمة مثل الأحزاب وجماعات الضغط والصحافة فإنها تملك وسائل يمكن تنسيقها واستخدامها للتأثير وتحقيق الأهداف السياسية .

كما أن هناك علاقات بين القوى السياسية المنظمة والقوى السياسية المنتشرة ، فهذه الأخيرة هى محرك الحياة السياسية . وتدرك القوى السياسية المنظمة تمامًا أنها لا تستطيع إحراز نجاح إلا إذا لمست وعى المواطنين واستمالت الرأى العام .

وقد رتب الفقيه الكبير بيردو فى الرسم التالى القوى السياسية ، وحدد مكانة كل منها من مركز النظام ، الذى يتمثل فى القادة والحكومة . ونجد على الحدود الخارجية من مركز الجاذبية المجتمع ككل La société glo bale ، تليها الجماعات الجزئية Les groupements Particles ونجد فى مكانة أقرب من مركز النظام القوى المنظمة Les forces organisées ، ثم تأتى الطبقة السياسية La classe politique ، وفى وسط النظام أى فى مركز الجاذبية يظهر القادة والحكومة Leaders et gouvernement

وتعتبر جماعات الضغط إحدى القوى السياسية المنظمة ، وبذلك فهى ليست بعيدة عن مركز الجاذبية ، أى أنها تلعب دورًا هامًّا فى الحياة السياسية ، ومن أهم القوى السياسية المنظمة ، هيئة الناخبين ، والأحزاب السياسية ، وجماعات الضغط ، والصحافة ، والجيش .

تتخذ جماعات الضغط مواقف متباينة من الأحزاب السياسية ، وهذه المواقف تحدد كيفية تأثير جماعات الضغط على السلطات العامة . ويمكن التمييز بين خمسة مواقف تتخذها جماعات الضغط من الأحزاب . الموقف الأول هو الحياد حيال الأحزاب المختلفة . ونتيجة لذلك فإن جماعة الضغط تقيم علاقات مباشرة مع رجال السلطة دون وساطة أى حزب . وهذا هو الموقف الذى تتخذه المشروعات الخاصة الصغيرة ، ولعل أحسن مثال على ذلك هو الاتحاد الوطنى للفلاحين فى إنجلترا وويلز "The National Union Farmers of England and Wales"



أمّا الموقف الثانى ، فهو قريب من الموقف السابق ، ويتمثل فى مساندة رجال السلطة الذين يقدمون خدمات لجماعة الضغط بغض النظر عن انتماءاتهم الحزبى أو ميولهم الأيديولوجية . وهذا هو الموقف الذى تتخذه كثير من جماعات الضغط الفرنسية فى أثناء الانتخابات ، كما أنه هو ذات موقف النقابات الأمريكية ، فهى تتبع أسلوب مكافأة الأصدقاء ، ومعاقبة الأعداء . وتكون الانتخابات هى الفرصة المتاحة أمام النقابات لمنح المكافأة أو توقيع العقوبة . وهناك موقف ثالث يمكن أن تتخذه جماعة الضغط ، وهو إقامة علاقات مع حزب من الأحزاب ومناصرة الحزب بشكل عام ، وهذا هو الموقف الذى يتخذه اتحاد الصناعات البريطانية "The Federation of British industries"

إذ يقيم علاقة ثابتة مع حزب المحافظين ، بحيث يلتزم الحزب بمساندة الاتحاد ، كما يتعهد الاتحاد باعتباره أحد جماعات الضغط بتأييد الحزب ومساعدته . فى مثل هذه الحالات يستجيب الحزب لمطالب جماعة الضغط ، وتقدم جماعة الضغط مساهمة مالية تعضد بها الحزب . أما الموقف الرابع الذى يمكن أن تتخذه جماعة الضغط فهو تكوين حزب سياسى للدفاع عن مصالحها . وأوضح أمثلة على هذا الموقف نشأة حزب العمال البريطانى ، والحزب الاشتراكى النرويجى ، والحزب الاشتراكى السويدى . أخيرًا هناك موقف آخر لجماعة الضغط يمكن أن تسلكه إزاء الأحزاب ، وهو خضوعها التام لحزب قائم ، ويتيح هذا الموقف للحزب التغلغل فى أوساط اقتصادية وصناعية وثقافية مختلفة .

أنواع جماعات الضغط

لما كانت جماعات الضغط ، هى منظمات داخل المجتمع هدفها ممارسة نشاط عام ، والتأثير على السلطات السياسية ، فإنها تضم مجموعة متباينة الاتجاهات ومختلفة فى تركيبها ، ولذا فمن المستحسن محاولة تصنيف جماعات الضغط على الرغم من صعوبة القيام بهذه العملية ، ويقترح الفقهاء عدة تصنيفات لجماعات الضغط تختلف باختلاف المعيار الذى يؤخذ فى الاعتبار .

التصنيف الأول لجماعات الضغط يعتمد على أهمية عملية الضغط على السلطة بالنسبة للجماعة . فبعض الجماعات مهمتها الأساسية أو الوحيدة هى التأثير ، ومثالها الجمعية البرلمانية الفرنسية للدفاع عن حرية التعليم ، وكذلك اللوبى أو جماعات الضغط المؤسسة فى واشنطن . على حين توجد جماعات لا تمارس الضغط إلا بصفة عرضية وبشكل ثانوى إلى جانب نشاطها الرئيسى ، الذى قد يكون نشاطًا صناعيًا

أو زراعيًا أو دينيًا أو غير ذلك.. والأمثلة على هذه الجماعات عديدة : الأكاديمية الفرنسية ، والكنائس ، والجمعيات الأدبية ، وشركات التأمين ، والمصانع . . . إلخ . من هنا يمكن أن نقول إنه يمكن التمييز بين جماعات ضغط بحتة groupes de pression exclusifs وجماعات ضغط جزئية groupes de pression partiels

أما التصنيف الثانى الهام لجماعات الضغط ، فهو تصنيفها إلى جماعات ضغط عامة Groupes de pression Publics وجماعات ضغط خاصة . Groupes de Pression Privés إذ توجد داخل تنظيمات الدولة هيئات تمارس ضغطًا على هيئات أخرى ، وقد تزايدت جماعات الضغط العامة نتيجة لتدخل الدولة فى مجالات لم تكن تطرقها من قبل ، مما أدى إلى ازدياد الأجهزة والمنظمات التابعة للدولة . غير أن الفقه الكلاسيكى يرفض الاعتراف بوجود ضغط من داخل السلطة ، لأنه لا يزال يتمسك بوحدة الدولة ، ومن ثم لا يتصور إمكان ممارسة ضغط من وحدات السلطة بعضها على بعض .

ويعتمد التصنيف الثالث لجماعات الضغط على المصلحة التى تدافع عنها الجماعة ، ومن ثم يمكن التمييز بين جماعات ضغط ذات أهداف أيديولوجية des groupes à but idéologiques ، ويسميها البعض جماعات ذات فكر groupes d'idées ، وبين جماعات ضغط ذات مصالح مادية des groupes d'intérêts matériels

ويصادف هذا التصنيف صعوبات عند محاولة تطبيقه ، لأن الجماعات لا تعلن دائمًا عن طبيعة مصالحها ، وغالبًا ما تغلف الجماعات ذات المصالح المادية أهدافها بفكرة سامية حتى تلقى قبولا عند محاولة التأثير على السلطات .

وإذا أخذنا فى الاعتبار عدد الأفراد الذين تضمهم الجماعة ، يبرز لنا التصنيف

الرابع لجماعات الضغط ، وهو جماعات جماهيرية groupes de masses ، وجماعات قلة منتقاة groupes de cadres تسعى جماعات الضغط الجماهيرية إلى ضم أكبر عدد من الأفراد لأن ضخامة عدد المنضمين إليها يعتبر مصدر قوتها الرئيسي ، وهذا النوع من جماعات الضغط يحتاج إلى تنظيم قوى . والأمثلة عديدة على جماعات الضغط الجماهيرية فنقابات العمال والفلاحين ، وجماعات قدامى المحاربين ، والجمعيات النسائية ، كلها جماعات تضم أعدادًا هائلة من الأفراد . أما فى جماعات الضغط التى تتكون من قلة منتقاة ، فليس المهم هو عدد الأفراد المنضوين تحت لواء الجماعة ، وإنما المهم هو قوة المصلحة التى تمثلها جماعة الضغط سواء أكانت مصلحة مادية أم معنوية . ومثال جماعات القلة ، الجمعيات الفكرية والثقافية والنوادى .

أخيرًا يمكن تصنيف جماعات الضغط على أساس الوسائل الفنية التى تستخدمها للتأثير على السلطة ، وهذه الوسائل قد تكون مباشرة وقد تكون غير مباشرة . وستكون وسائل التأثير هذه هى موضوع بحثنا فى الفصل التالى .

الفصل الرابع

وسائل نشاط جماعات الضغط

لكى تتمكن جماعات الضغط من التأثير على السلطة ، يجب أن تقيم شبكة من العلاقات الدائمة الثابتة مع الهيئات العامة . وفى أغلب الأحيان تكون هذه العلاقات ذات طبيعة شخصية ، وتتطلب حضور احتفالات واجتماعات ولقاءات ، إذ تعتبر هذه الاحتفالات واللقاءات فرصة للحديث ، ولإثارة موضوعات الساعة . ومن ناحية أخرى قد يكون نشاط الجماعة مباشرًا على السلطة ، كما قد يكون غير مباشر ، بمعنى أن تتوجه الجماعة إلى الجمهور وتقنعه بوجهة نظرها وتنتظر من الجماهير أن تمارس ضغطًا على الحكومة . وبينما تفضل بعض الجماعات العمل فى سرية وهذا هو منهج الصناعات الكبرى ، تميل جماعات أخرى إلى العمل فى الضوء كما هو الحال بالنسبة للنقابات .

ولا شك أن الاتصال بأعضاء البرلمان ، يعتبر وسيلة هامة للضغط وتحقيق

أهداف الجماعات ومصالحها . ويتم هذا الاتصال قبل إجراء الانتخابات وفى أثناء الانتخابات ، كما يتم بعد إعلان نتيجة الانتخاب ومعرفة الفائزين . إن هذه الاتصالات قد تمثل خطرًا على استقلال أعضاء البرلمان ، وقد تحجب عنهم رؤية المصلحة العامة فى سبيل إشباع مصالح جماعات الضغط . لذا حرصت بعض النظم على النص على بعض الضمانات التى تكفل استقلال البرلمان وتحرر أعضاءه من الضغوط . ومن أهم هذه الضمانات النص على عدم إمكان الجمع بين عضوية البرلمان وتولى منصب آخر .

وفى السويد نلتقى بمثال هام لتنظيم نشاط الجماعات ذوات المصالح ، حيث يقيم القانون مؤسسة تعترف بجماعات الضغط . ففى أثناء الإعداد لإصدار قانون تتكون جمعية ملكية لدراسة مشروع القانون ، وإعداد تقرير يتضمن الآراء المختلفة حول المشروع ، ويقدم هذا التقرير إلى الحكومة . تتكون هذه اللجنة الملكية من أعضاء فى البرلمان ، ورجال من الإدارة العامة ، وممثلين عن الهيئات ذات المصالح المتصلة بهذا المشروع . وتكون جلسات هذه اللجان مغلقة . ويتعين أن تكون الاقتراحات النهائية بعد المناقشات صادرة بإجماع الحاضرين . ويتطلب هذا الإجماع أن تكون الاقتراحات عبارة عن توفيق بين أصحاب المصالح ، ومن هنا فإن جماعات الضغط فى السويد ، تساهم بصورة رسمية فى وضع التشريعات .

وفى الولايات المتحدة تسمح اللجان المسماة "Standing committees" للمنظمات التى لها مصالح متعلقة بتشريع معين ، بعرض وجهات نظرها فى جلسة عامة علنية ، ويتبع هذا العرض مناقشة وأسئلة يمكن أن تؤدى إلى نتائج خطيرة .

وتستخدم جماعات الضغط المفاوضات ، وتثير الحجج لإقناع الموظفين وأعضاء

البرلمان حتى تصل إلى تحقيق أهدافها . وتأخذ المفاوضات شكلين : شكلاً رسمياً ، وشكلا غير رسمى . وتعتبر الموائد المستديرة التى تضم الجماعات ذوات المصالح ورجال الحكومة الرسميين ، صورة من الصور الرسمية لإجراء المفاوضات . وفى هذه الحالة تقدم الجماعات دراسة جادة عن نشاطها ، والمشاكل التى تصادفها ، وذلك لإقناع السلطات المعنية بوجهة نظرها .

أما الشكل غير الرسمى للمفاوضات ، فتلجأ فيه جماعات الضغط وخاصة النقابات إلى إحدى وسائل أربع :

الوسيلة الأولى : إرسال متحدث باسم الجماعة يتفاوض مع الحكومة .

والوسيلة الثانية : هى الضغط للحصول على المساعدة المطلوبة .

والوسيلة الثالثة : هى وضع الإدارة فى موقف المفاوض الضعيف وتسليح جماعة الضغط بقوة تجعلها فى موقف الأقوى مثل الاضرابات

والوسيلة الرابعة والأخيرة : هى خلق أزمة بين النقابة والسلطات العامة لإجبار هذه الأخيرة على حل المشكلة .

وجدير بالذكر أن الإضرابات تعتبر وسيلة فعالة للتأثير على السلطات ، لأنها تمس المصالح الاقتصادية للدولة . حيث يتوقف العاملون عن العمل لفرض وجهة نظرهم على أصحاب الأعمال ، وتنجح الإضرابات كوسيلة للضغط لتحقيق أهداف العاملين ،، وعلى سبيل المثال ، فقد أضرب المعلمون فى فرنسا سنة ١٩٦١ عن تصحيح أوراق الامتحان ، لإجبار الحكومة على الاستجابة لطلبات هيئة التدريس . وقد أثر هذا الإضراب على الأمة بأسرها لأنه مسّ كل أسر الطلبة ؛ واضطرت الحكومة إلى الاستجابة لطلبات المدرسين .

إلى جانب المفاوضات كوسيلة ، يمكن لجماعات الضغط أن تلجأ إلى تعبئة الرأى العام للضغط على الحكومة ، وذلك عندما تكون جماعات الضغط مقتنعة

بأن الوسائل التى تملكها عاجزة عن تحقيق أهدافها . فى هذه الحالة يقوم الجمهور بتنظيم أعمال أو مظاهرات تجبر الحكومة على الاستجابة لطلبات جماعات الضغط ، ومعنى ذلك أن الجمهور يقوم بدور الممثل فى حين يكون محرك النشاط ، هو جماعات الضغط .

ومن الوسائل الفعالة التى تلجأ إليها جماعات الضغط استخدام الأموال ، وهذا الاستخدام قد يكون إيجابيًّا وقد يكون سلبيًّا ، والاستخدام الإيجابى للأموال ، يكون بتقديم هدايا أو دعوات للسفر ، أو مبالغ نقدية تقدم للموظفين وأعضاء البرلمان ، أما الاستخدام السلبى ، فيكون بالامتناع عن دفع الضرائب ، أو بالعمل على خلق أزمات اقتصادية لإزعاج السلطات العامة . إن استخدام الأموال بهذه الطريقة ، يثير تساؤلا حول مدى شرعية هذه الوسيلة من وسائل الضغط ، وبعبارة أخرى هل هذه الوسائل تؤدى إلى إفساد الحياة السياسية ؟

الفصل الخامس

جماعات الضغط وهيكل السلطة

إن الضغط الذى تمارسة الجماعات السياسية على الحياة السياسية ، دفع كثيرًا من علماء السياسة إلى طرح سؤال هام : هل الديمقراطية النيابية واقع أم مجرد واجهة ؟ بعبارة أخرى ، من الذى يملك السلطة من الناحية الفعلية فى المجتمعات الحديثة ؟ .

إن كل الدراسات تصل إلى نتيجة واحدة ، وهى أن إدارة السلطة تمارسها أقليات ، ولكن الخلافات تبدأ عندما يتعلق الأمر بتحديد طبيعة الأقلية الممسكة بالسلطة . وتوجد بهذا الصدد ثلاث نظريات رئيسية عن هيكل أو تركيب السلطة .

النظرية الأولى : نظرية النخبة أو الصفوة : La thèse Elitiste

ترى هذه النظرية أن السلطة تمسك بها نخبة أو صفوة فى المجتمع ، وهذه النخبة

عبارة عن مجموعة من الأفراد تجمع بينها روابط تضمن وحدتها ، ويستحيل على أى منظمة دستورية أن تنتزع السلطة من هذه النخبة المتحدة .

النظرية الثانية : نظرية التعدد La thése Pluraliste

وفى رأى هذه النظرية لا توجد طبقة واحدة تتولى السلطة ، وإنما توجد مجموعات متعددة تتولى القيادة ، وهذه المجموعات تتعاون أحيانًا ، وتتصارع أحيانًا ، وهى عندما تواجه بعضها بعضًا تمثل الضغوط النابعة من القاعدة ، وتقدم بهذا توازنات مرغوب فيها .

النظرية الثالثة : النظرية الماركسية La thése Marxite

تتبنى النظرية الماركسية فكرة أن السلطة يمسك بها الطبقة المسيطرة ومساعدوها وأن هذه الطبقة المسيطرة تغلف سيطرتها بأيديولوجية . وبتطبيق هذه الفكرة على المجتمعات الرأسمالية ، ترى النظرية الماركسية أن الطبقة البورجوازية تغلف سيطرتها على السلطة السياسية بالأيديولوجية الديموقراطية .

الفرع الأول
نظرية النخبة أو الصفوة
La thése Elitiste

نادى بنظرية « السلطة نخبة » المفكر الأمريكي رايت ميلز C. Wright Mills فى مؤلفه "The power Elite" الذى نشر سنة ١٩٥٦ ، حيث يرفض ميلز التبسيط الماركسى للسلطة ، الذى يجعلها بين يدى من

يملكون وسائل الإنتاج ، كما يرفض من ناحية أخرى التصور الليبرالى الذى يعتمد على وجود نظام سياسى مستقل عن النظام الاقتصادى .

ويرى ميلز أن السلطة يمسك بها مجموعة من الهيئات التى تلعب أدوارًا استراتيجية فى المجتمع . ويستطرد ميلز قائلا إن السلطة فى المجتمع الحديث مؤسسة : ومن بين المؤسسات المتعددة داخل المجتمع توجد ثلاث منها تحتل مراكز رئيسية : المؤسسة السياسية ، والمؤسسة الاقتصادية ، والمؤسسة العسكرية . ومن هنا فإن الأشخاص الذين يشغلون قمة هذه المؤسسات يملكون سلطات استراتيجية فى المجتمع .

وباختصار يرى ميلز أن القرارات الهامة "Key decisions" تتخذها نخبة تتكون من قادة هذه المؤسسات الكبرى الثلاث : القادة السياسيون فى المقام الأول ، ثم أقطاب الصناعة ، ثم كبار العسكريين .

وبصفة عامة ، فإن النخبة التى تتولى السلطة تجعل دور السياسيين المحترفين دورًا ثانويًا ، وذلك لأن القرارات الرئيسية التى تتخذها هذه النخبة ، لا يساهم فيها سياسيون منتخبون من الشعب إلا بقدر ضئيل . وينتهى ميلز إلى تقرير أن الولايات المتحدة تقودها نخبة محدودة ، هى طبقة أوليجارشية غير منتخبة من المواطنين . وهذه الرؤية قاسية لأنها تتجاهل دور رئيس الولايات المتحدة ورؤساء اللجان البرلمانية ، وهؤلاء ينتخبون مباشرة أو بطريق غير مباشر بالاقتراع العام . ولكن لا شك أن وجهة نظر ميلز بها قدر من الصحة . لأن الرئيس الأمريكى والكونجرس يحكمون وسط نخبة غير منتخبة ، مما يجعل السلطة – فى الواقع – بين يدى أقلية أوليجارشية وإن كانت فى الظاهر تبدو بين يدى ممثلى الشعب .

الفرع الثانى

النظرية التعددية

La thése pluraliste

يرفض عديد من علماء السياسة نظرية ميلز عن النخبة الموحدة التى تمسك باستراتيجية السلطة السياسية ، وعلى رأس هذا الفريق نجد روبرت دال وبنتلى وترومان وجالبرث وريسمان وريمون أرون . ويرى هؤلاء أنه لا توجد طبقة قائدة وإنما مجموعات قائدة فالواقع لا يبدو بسيطًا كما تصور نظرية النخبة وإنما تتميز السلطة السياسية بالتعقد فى العصر الحديث بمعنى أن القيادة تتولاها مجموعات عديدة لا مجموعة واحدة ، وهذه المجموعات القائدة تتعاون أحيانًا وتتصارع أحيانًا أخرى ، وهى بذلك تمثل الجماعات الضاغطة كما تتوازن فيما بينها .

يرى دال "Dahl" أن الحياة السياسية الأمريكية تتميز بتعدد واستقلال مراكز اتخاذ القرارات ، ولا يوجد فى ظل هذا التعدد السياسى Polyarchie ، نخبة أو طبقة تسود الحياة السياسية أو تسيطر عليها . بل على العكس يوجد عديد من القادة الذين يرأسون جماعات مستقلة . وهؤلاء يتنافسون أحيانًا ويأتلفون أحيانًا أخرى بشكل يغير صورة المجتمع بلا توقف تحت رقابة الشعب .

فإلى جانب النخبة السياسية ، التى أشار إليها ميلز ، توجد خمس مجموعات قائدة تؤثر فى اتخاذ القرارات السياسية :

١ – قادة الفكر ورجال الدين الذين يؤثرون فى كيفية تفكير أفراد المجتمع وفى عقيدتهم (رجال الدين ، المفكرون ، الكتاب ، العلماء ، منظرو الأحزاب) .

٢ – قادة الجيش والبوليس .

٣ – مديرو العمل الجماعى مثل الملاك ورؤساء المصانع والمزارع .

٤ – قادة الجماهير مثل رواد النقابات العمالية وقادة الأحزاب السياسية .

٥ – كبار الموظفين الذين يمسكون بالسلطة الإدارية .

وهكذا تفسح النظرية التعددية La théorie pluratiste مكانًا هامًّا لجماعات الضغط فى تركيب وهيكل السلطة السياسية . وهو مكان لا تعترف به نظرية النخبة كما تتجاهله النظرية الماركسية .

الفرع الثالث

النظرية الماركسية

La thése Marxiste

يرفض الماركسيون نظرية النخبة التى نادى بها ميلز ، كما يرفضون نظرية التعدد التى قدمها دال . وهم يرفضون النظرية الأولى لأنها لم تتبن فكرة أن السلطة يمسك بها من يملكون وسائل الإنتاج ، ويرفضون النظرية الثانية لأنها تعتبر فى رأيهم وسيلة للدفاع عن النظام الليبرالى ، بقولها إن النظام السياسى مستقل عن النظام الاقتصادى .

وقد تولى الرد على هاتين النظريتين (نظرية النخبة ، ونظرية التعدد) نيكوس بولانتزاس "Nicos Poulantzas" فى كتاب صدر سنة ١٩٦٨ بعنوان ، السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية فى الدولة الرأسمالية .

ففيما يتعلق بنظرية التعدد : يرى أنها ليست إلا ردًّا أيديولوجيًّا على النظرية الماركسية ، وهو رد تبنى المنهج الوظيفى الذى كان ماركس أول من طبقه فى مجال

العلوم السياسية . وينتهى بولانتزاس إلى أن نظرية التعدد تهدف إلى إخفاء صراع الطبقات والتمويه على حقيقة طبيعة سلطة الدولة ، وذلك بتصوير السلطة كما لو كانت موزعة بين مجموعات متعددة ، فى حين أنها فى الحقيقة بين يدى طبقة مسيطرة وهى الطبقة التى تملك وسائل الإنتاج . كما تحاول نظرية التعدد كما يقول بولانتزاس – الدفاع عن فكرة لا وجود لها فى الواقع ، وهى استقلال السياسة وحياد الدولة .

أما فيما يتعلق بنظرية النخبة : فإن بولانتزاس يشن عليها هجومًا أشد قسوة وذلك لأن هذه النظرية تنادى بوجود سيطرة سياسية مستقلة عن السيطرة الاقتصادية ، وهو ما لا يقبله أى ماركسى . فبالنسبة لأى ماركسى تعتبر الطبقة المسيطرة سياسيًا هى الطبقة المسيطرة اقتصاديًا ، أى التى تملك وسائل الإنتاج .

تعقيب

بعد أن استعرضنا النظريات الثلاث الرئيسية المتعلقة بهيكل السلطة ، نستطيع أن نقرر أن تبسيط الأمور على النحو الماركسى ، والقول بأن كبار الرأسماليين ، يتخذون بمفردهم القرارات الوطنية الهامة فى الدول الغربية ، أمر لا يتفق مع الواقع . ولا شك أن رجال السياسة يلعبون دورًا هامًا ، كما أن العسكريين يساهمون فى اتخاذ القرارات الكبرى ، ولذلك فإنه يتعين إضافة الحتمية السياسية والحتمية العسكرية إلى الحتمية الاقتصادية التى ينادى بها الماركسيون . بل إن عديدًا من الجماعات التى أشارت إليها نظرية التعدد ، تساهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فى اتخاذ القرارات بحسب طبيعة كل قرار والمجال الذى يعالجه .

خاتمة

إن الحياة السياسية فى أى دولة مليئة بالقوى والاتجاهات والمصالح المتعارضة . وتسعى كل قوة سياسية ، إلى تحقيق أهدافها بوسائل مختلفة ، إما بالضغط على السلطة ، وإما بمحاولة انتزاع السلطة .

هذه الظاهرة عامة فى جميع المجتمعات ومنذ أقدم العصور . ولكن الفارق الأساسى بين المجتمع المتقدم والمجتمع المتخلف ، هو فى درجة تنظيم القوى السياسية . فالمجتمعات المتقدم تسمح للقوى المعارضة للسلطة أن تكون مؤسسات قائمة على أسس قانونية مشروعة . أى أن الدول المتقدمة دول منظمة فى كل شىء ، إلى درجة – أن المعارضة ذاتها تأخذ شكلاً منظمًا . وتتعامل السلطة مع المعارضة فى إطار من التسامح ، يصل إلى حد تبادل السلطة بين الأغلبية والمعارضة ، وفقًا لما تسفر عنه نتائج الانتخابات التى تتم بصفة دورية كل أربع أو خمس سنوات .

ويعتبر التعبير عن الآراء والمصالح المختلفة داخل الدولة من خلال الأحزاب السياسية وجماعات الضغط ، معيارًا للحكم على مدى تنظيم المجتمع ، وبالتالى معيارًا للحكم على مدى تقدمه .

فالدول الصناعية المتقدمة ، تزدهر فيها الأحزاب ، ويزداد نشاطها لصالح المجتمع بأسره ، على حين تضيق المجتمعات المتخلفة على الأحزاب ، وتحد من نشاطها ، بل وقد تصل بعض الدول إلى منع الأحزاب كلية بحجة الحفاظ على الوحدة الوطنية . ويعتبر هذا الحل الذى يمنع الأحزاب حلا سهلاً فى ظاهره ، ولكنه خطر فى المدى البعيد ، لأنه يتجاهل الصراعات الحقيقية فى المجتمع والتى قد تنفجر بصورة أو بأخرى وتؤدى غالبًا إلى استخدام العنف ، مع ما يترتب عليه من آثار سلبية على المجتمع . أما إذا كانت الخلافات ، منظمة ومقبولة فى المجتمع عن طريق السماح بنشاط الأحزاب وجماعات الضغط ، فإن هذه الصراعات ستجد وسيلة متمدينة وسلمية لحل الصراعات داخل المجتمع ، بما يكفل له التقدم بهدوء ودعة ، ويجنبه الأحداث الدموية والانفجارات العنيفة .

تم بحمد الله وتوفيقه

أهم المراجع

- **Burdeau** : Traité de Science. politique; 7 Volumes, L.G.D.J., 1966–1970.
- **Duverger** : Les partis politiques, 1967.
- **Hauriou** : Droit Constitutionnel et institutions politiques, 1980.
- **Meynaud** : Nouvelles études sur les groupes de pression en France, 1962.
- **Schwartzenberg**: Sociologie politique, 1971.

فهرس

الصفحة

مقدمة ٥

القسم الأول

الأحـــزاب السياسية

أهمية الأحزاب السياسية ١١

الصعوبات التى تحيط بدراسة الأحزاب السياسية ١٣

الفصل الأول : تعريف الأحزاب السياسية ١٥

الفرع الأول : تطور تعريف الحزب السياسى ١٦

الفرع الثانى : التعريف الحديث للحزب السياسى ١٨

الفصل الثانى : أصل نشأة الأحزاب ٢٣

الفصل الثالث : وظائف الأحزاب ٢٩

١ – نشر أيديولوجية الحزب بين الناخبين ٣٠

٢ – اختيار مرشحى الحزب ٣١

٣ – تحقيق الاتصال الدائم بين الناخبين ونوابهم

٤ – تنظيم النواب داخل البرلمان ٣٣

٥ – حل الصراع داخل الحزب ٣٤

الصفحة

الفصل الرابع : أنواع الأحزاب	٣٧
١ - أحزاب القلة المختارة والأحزاب الجماهيرية	٣٨
٢ - أحزاب المناضلين وأحزاب الناخبين	٤٤
الفصل الخامس : نظم الأحزاب	٤٥
المقصود بنظم الأحزاب	٤٥
الفرع الأول : النظم التنافسية	٤٦
منحنى تدرج التنافس بين الأحزاب	٤٨
١ - نظم تعدد الأحزاب	٤٨
(أ) تعدد الأحزاب الكامل أو التام	٤٩
(ب) تعدد الأحزاب المعتدل	٥١
٢ - نظم الحزبين السياسيين	٥٢
(أ) نظام الحزبين الجامد ونظام الحزبين المرن	٥٤
(ب) نظام الحزبين التام ونظام الحزبين الناقص	٥٥
(جـ) نظام الحزبين المتوازن ونظام الحزبين غير المتوازن ...	٥٦
٣ - نظم الحزب المسيطر	٥٧
(أ) الحزب المسيطر العادى	٥٨
(ب) الحزب شديد السيطرة	٦٢
الفرع الثانى : النظم غير التنافسية	٦٤
١ - الحزب الواحد الشيوعى	٦٥

الصفحة

٢ – الحزب الواحد الفاشستى ٦٥
٣ – الحزب الواحد فى دول العالم الثالث ٦٦
دور الحزب الواحد ٦٦
مكانة الحزب الواحد فى الدولة ٦٧

القسم الثانى
جماعات الضغط

أهمية جماعات الضغط ٧١
الفصل الأول : تعريف جماعات الضغط ٧٣
الفصل الثانى : جماعات الضغط والقوى السياسية الأخرى ٧٩
الفرع الأول : جماعات الضغط والسياسة ٨٠
الفرع الثانى : مكان جماعات الضغط من القوى السياسية
الأخرى ٨٣
الفصل الثالث : أنواع جماعات الضغط ٨٧
الفصل الرابع : وسائل نشاط جماعات الضغط ٩١
الفصل الخامس : جماعات الضغط وهيكل السلطة ٩٥
الفرع الأول : نظرية النخبة أو الصفوة ٩٦
الفرع الثانى : النظرية التعددية ٩٨
الفرع الثالث : النظرية الماركسية ٩٩

الصفحة

تعقيب ١٠٠

خاتمة ١٠١

أهم المراجع ١٠٣

رقم الإيداع	١٩٨٣/٤٣٤٢
الترقيم الدولى	٥-١٠٥٩١-٠٢-٩٧٧ ISBN

١/٨٢/٢٤٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

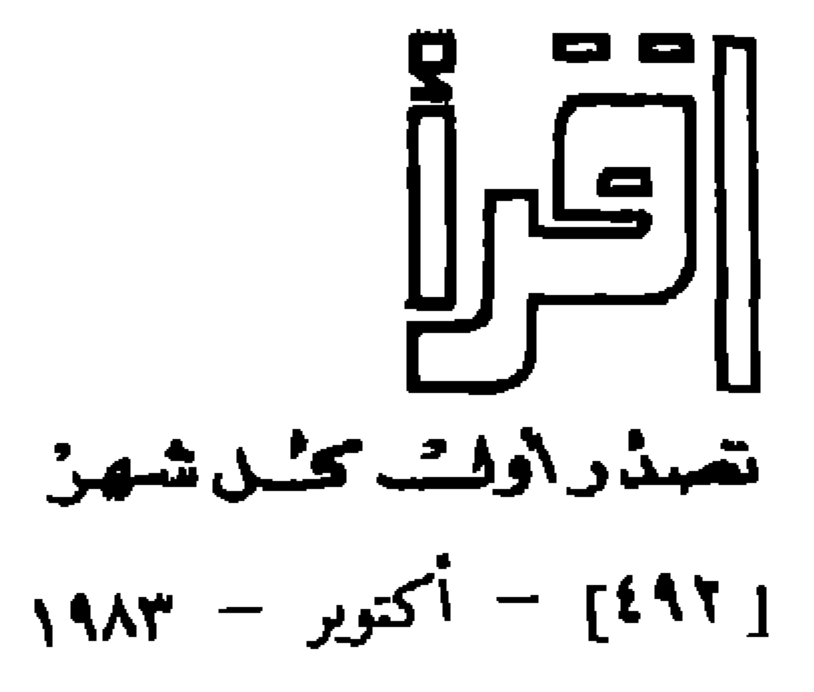




عبد العزيز صادق

نافذة على أفريقيا

عدد ممتاز



رئيس التحرير أنيس منصور

عبد العزيز صادق

نافذة على أفريقيا



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

كلنا أفريقيون

بعد السادس من أكتوبر ١٩٧٣ راحت دول أفريقيا المستقلة ، الواحدة تلو الأخرى ، تقطع علاقاتها مع إسرائيل دعما لنا فى حربنا التحريرية . ولم يبق لإسرائيل من علاقات فى القارة الأفريقية إلا مع حكومتى جنوب أفريقيا وروديسيا العنصريتين ، وثلاث دول صغيرة (مليون أو نصف مليون مواطن) ، تقع تحت نفوذهما ، وداخل أراضيهما . بالإضافة إلى المستعمرات البرتغالية فى « أنجولا » و « موزامبيق » ، وهما بلدان لم يحصلا على الاستقلال بعد ، وتناضلان الآن من أجل التحرير . وبدأت تتردد فى أرجاء العالم الآن ، نغمة جديدة ، تربط بين جنوب أفريقيا وروديسيا والبرتغال وإسرائيل . وبين العنصرية والصهيونية .

☐ الطبعة الأولى لهذا الكتاب – بهذه المقدمة – صدرت فى يناير ١٩٧٤ أى بعد أقل من ثلاثة شهور من حرب أكتوبر . وفى ذلك الوقت لم تكن جمهوريتا أنجولا وموزامبيق قد حققتا استقلالهما بعد .

ولا شك أن ما حدث ، يعنى أن تحولا عامًا ، وهامًّا ، يجرى الآن فى أفريقيا . ويعنى أن قرارات الدول الأفريقية بقطع العلاقات مع إسرائيل ، أول خطوة جادة على طريق الالتزام والتضامن بين أبناء القارة الواحدة .

ثم جاءت الخطوة التالية فى مؤتمر وزراء خارجية دول أفريقيا ، الذى انعقد فى نوفبر ١٩٧٣ فى أديس أبابا ، والذى تقرر فيه تصفية المصالح الاقتصادية والثقافية وباقى العلاقات المتبادلة مع إسرائيل .

إن هذا الموقف الأفريقى الواحد ، يفرض علينا . أن نعرف قيمة ما حدث . ويفرض علينا أن نعطى هذا الموقف ما يستحقه من متابعة . وأن نعطيه من التنمية ما يكفل دعم علاقاتنا مع أفريقيا فى كافة المجالات .

إن أشقاءنا الذين وقفوا - إلى جانبنا - وقفتهم المجيدة جديرون باهتمام جاد ، وحقيق ، من جانبنا ، وجديرون بأن نعرفهم معرفة أفضل وأعمق .

وربما كنت واحدًا من الذين يعتبرون أن البداية الجادة للمعرفة الحقيقية لشعب ما ، تأتى عن طريق دراسة أدبه ، وفنونه ، وتراثه ، وثقافته ، وفكره .

ولعل هذا ما دفعنى لتقديم هذه الصفحات التى أحاول من خلالها تعريف القارئ العربى بكتّاب ومثقفى أفريقيا . ومن خلال شخصياتهم وحياتهم وإبداعهم ، يتعرف على ثقافة وفكر وتراث دول القارة التى ننتمى إليها .

على صفحات هذا الكتاب نلتقى بعشرة من أبرز وأشهر كتّاب أفريقيا المعاصرين . كل واحد منهم مناضل من أجل بلده ، ومن أجل أفريقيا أيضًا . خمسة من هؤلاء العشرة فازوا بجوائز « لوتس » للأدب الأفريقى الآسيوى خلال الأعوام من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٣ وفاز سادسهم بجائزة عام ١٩٧٥ تقديرًا لجهدهم الابداعي الخلاق . .

السمة الواضحة لهؤلاء الكتّاب ، أن أيًّا منهم لم يولد وفى فمه ملعقة من ذهب . كل منهم اضطرته ظروف الحياة أحيانًا ، إلى نحت الصخر بأظافره ، ليشق طريقه فى الحياة . وبرغم المعاناة ، وبرغم كل الظروف الصعبة التى يعيشها قومه ، ويعيشها بلده ، استطاع بالموهبة الأصيلة أن يصبح نجمًا فى عالم الأدب والثقافة على المستوى العالمى .

فى بداية هذا القرن ، كانت أفريقيا تعيش فى محنة ، دفعت شاعر الهند الكبير رابندرانات طاغور ليطلق صيحة احتجاج تقول :

بمصائد البشر . .
تسللوا إليك وانقضوا
أولئك الصيادون
الذين فاقت قسوتهم ظلمة غاباتك
فصار أثر جسدك المسحوب فى الغابة
موحلا بالدمع . . والدم . .

وإذا كانت محنة أفريقيا قد هزت طاغور فى الهند ، فإنها أثرت فى حاسة الإبداع الأدبى والفنى فى أفريقيا . وكان على الإبداع الأفريقى ، أن يعرب – بكل الصدق – عن الظروف السياسية والتاريخية التى تعيشها أفريقيا .

وعندما نتأمل الأدب الأفريقى ، فإننا نلمح فيه بوضوح ، آثار الاستعمار والآلام المتصاعدة لمخاض قيم وأفكار جديدة . والندوب العميقة الموجعة للتفرقة العنصرية ، ومشكلة اللون ومشكلة البحث عن ذاتية مميزة . كل هذه الموضوعات ، طرقها أدب يثير الدهشة بحيويته وخصوبته .

وأبرز ما يميز الإبداع الأفريقى فى ثرائه وخصوبته ، هو الاعتزاز بالانتماء

لأفريقيا . وربما نحس بهذا ، فى همسة رقيقة لشاعرة موزامبيق « نويميادى صوصه » حين تقول :

ياأفريقيا ، ياقارتى ، غامضة ، وبدائية
أياعذرانى المغتصبة !
ياأمى ! . .
كيف ظللت طيلة ذلك الوقت منفيّة
بعيدًا عنك ؟ . .
مغتربة ، نائية ، مستوعبة فى ذاتى ،
تائهة فى شوارع المدينة الحبلى بالغرباء
يا أمى ، غفرانك . .
أنا لا أستطيع . .
لا أستطيع أن أتنكر .
للدم الأسود . .
الذى ملأت به عروقى . .

إن كتاب أفريقيا — بإبداعهم — استطاعوا أن يلفتوا أنظار العالم إلى أدب جديد بدأ يثير اهتمام الأساتذة والطلبة فى كل جامعات العالم . بل لقد وصل الأمر إلى أنه يندر الآن خلو أى جامعة من قسم خاص للدراسات الأفريقية .

فى أقل من عشرين سنة ، استطاع أدب أفريقيا . المتفجر بالحيوية ، أن يكشف للقراء عن سيطرة متمكنة على الشكل الأدبى وأن يكشف عن كتاب أحرار متحررين . تتميز أعمالهم بنضارة وتنوع ، وتتسم بشخصية متميزة تثير الإعجاب .

ولم يكن غريبًا أن تضطلع دار نشر واحدة فى لندن . بإصدار سلسلة تحت اسم «كتّاب أفريقيا» ظهر منها – حتى الآن – أكثر من مائة وثلاثين كتابًا .

ولكن الغريب حقًّا .. أن المكتبة العربية تكاد تخلو من مثل هذه الكتب باستثناء كتب معدودة ومحدودة لروايات أفريقية مترجمة .

لقد آن الوقت لجهد بناء ، فى الانفتاح على أدب أفريقيا الذى شد انتباه العالم . ولقد آن الوقت لأن تعرف أفريقيا من خلال الفكر ، والثقافة ، والتراث .

بجهد متواضع ، أحاول فى هذا الكتاب . أن أساهم فى معرفة أفريقيا .. إيمانًا منى بأننا .. كلنا أفريقيون .

عبد العزيز صادق

الدجاجة تريد أن تبيض !

أخذنا نعتاد الحياة فى منطقة الشارع الثانى . أخى وأختى وأنا . كانت الشوارع والطرقات شيئًا جديدًا بالنسبة لنا . كان ذهنى يتساءل : لماذا يبنى الناس بيوتًا كلها تقع فى خط مستقيم ؟ ولماذا يذهب الناس إلى جدول فى مبنى صغير ليقضوا حاجاتهم .؟ ولماذا يحب الناس أن ينعزلوا عن الآخرين فيقيموا بينهم سياجًا .؟ لم يكن الحال هكذا فى قرية موبانتق . فلم يكن للبيوت أى نظام . وكنا نتزاور . ونستطيع أن نجلس كلنا حول النار التى يستعملها الجميع . ونقص الحكايات حتى يصيح الديك . وليس الحال كذلك فى الشارع الثانى .

« من رواية فى الشارع الثانى »



● ازكيل مفاهليلى ●

الملونون والبيض .. الأفريقيون والهنود .. الأفريكان والانجليز .. كلهم حشدوا معا فى بلد واحد اسمه جنوب أفريقيا .

* * *

ويل للملون . ويل للأفريقى ، ويل للهندى .. ويل للافريكانى .. ويل لهم جميعا من البيض والانجليز . ويل لهم جميعا من صرامة وصلابة وقسوة قوانين التفرقة العنصرية التى سنها الرجل الأبيض بكل التعالى والغطرسة حتى لا يتساوى الأسود والأبيض .

لقد أقدم النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا على انتزاع أصحاب البلد من أراضيهم وأهليهم ، ليحيوا بعيدا فى المناجم ، والمزارع ، يعرقون .. وينحلون .. ويجفون .. كيما يتخم الرجل الأبيض .. ويزداد ثراء .

والكاتب .. فى روايته « فى الشارع الثانى » .. يعود بذكرياته إلى فترة طفولته وصباه .. يصف الحياة فى المكان الجديد الذى نقلوا إليه قسرا ..

الكاتب هو « أزكيل مفاهليلى » الذى عاش عمره منذ الطفولة متنقلا .. هائما .. لايستقر فى مكان .. وهو فى انتقاله مضطر لذلك اضطرارا ..

ولد عام ١٩١٩ فى أحقر أحياء « بريتوريا » .. وقضى طفولته وصباه يحمل غسيل السادة البيض من بيوتهم إلى أمه لتقوم بغسله .. ومرة أخرى يحمله إليهم .. ليحصل على قليل من النقود يسلمها لأمه ، التى كانت مسئولة عن تدبير طعام أولادها الثلاثة .. ومسئولة عن إعالة زوج سكير شرس .. عنيف .. يضربها حتى الموت ..

وذات يوم . مرضت الأم .. ونقلت إلى المستشفى . واقتيد الأب الشرس السكير إلى السجن . واضطر الصبى وأخوه وأخته للانتقال ليعيشوا مع جدتهم وعمتهم .. وكانت كل منهما تعمل غسالة كأمه التى ماتت فى المستشفى .

وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره.. أتيحت له فرصة الالتحاق بمدرسة القديس بطرس فى « جوهانسبرج » ليتعلم القراءة والكتابة. وبعد أن أنهى هذه المرحلة الدراسية، التحق بكلية «آدم» حيث حصل على دبلوم يؤهله للعمل كمدرس للغة الإنجليزية والافريكانية.

بين عامى ١٩٣٩ – ١٩٤٠ تلقى تدريبا على التدريس والتعليم فى معهد تديره هيئة الإرساليات الأمريكية. وبين عامى ١٩٤١ – ١٩٤٥ اشتغل كاتب حسابات. وكاتب اختزال وآلة كاتبة، بالإضافة إلى قيامه بتعليم العميان فى معهد قرب جوهانسبرج. ومع كل هذه الأعمال فى وقت واحد – ليحصل على لقمة العيش – استمر فى دراسته. فهو بين عامى ١٩٤١ – ١٩٤٢ كان يحضر لشهادة المعادلة بجامعة جنوب أفريقيا. بعد دراسة بالمراسلة. وبين عامى ١٩٤٥ – ١٩٥٢ كان يقوم بتعليم اللغتين الإنجليزية والأفريكانية فى المدرسة الثانوية فى « أورلاندو » بجوهانسبرج. وفى نفس الوقت استمر يدرس بالمراسلة فى جامعة جنوب أفريقيا حتى حصل على درجة البكالوريوس بالإنجليزية عام ١٩٤٩ فى علم النفس والشئون الأفريقية.

فى عام ١٩٥٢ صدر قرار من حكومة جنوب أفريقيا بحرمانه من التدريس ففصل من المدرسة.

السبب :

قيادته لحملة معارضة لسياسة مصلحة تعليم « البانتو ». وطالب – فى حملته – بمساواة التلميذ الأسود بزميله الأبيض. وكانت سياسة البانتو تعمد إلى تخفيض المستوى التعليمى للتلاميذ الأفريقيين.

فى عام ١٩٥٥ حصل على درجة البكالوريوس فى الأدب الإنجليزى. حصل عليها – كالعادة – بالمراسلة.!!

وبعد أن داخ مفاهليلى فى عدة أعمال غريبة ومتنافرة ، التحق بالعمل فى مجلة « الطبول » كمحرر أدبى . وكمساعد رئيس التحرير . وكمحرر سياسى أيضًا .! استمر فى هذا العمل حتى عام ١٩٥٧ .

وفى نفس الوقت – كالعادة – كان يحضر لرسالة الماجستير فى جامعة جنوب أفريقيا . وحصل عليها عام ١٩٥٦ وموضوعها « الشخصية غير الأوربية فى الرواية الإنجليزية » .

فى عام ١٩٥٧ نفى مفاهليلى نفسه – مضطرا – إلى نيجيريا . وهناك قام بتعليم اللغة الإنجليزية فى مدرسة للنحو تابعة لجمعية إرسالية الكنائس . وإلى جانب هذا ، كان يدرس الأدب الإنجليزى بجامعة ايبدان بقسم الدراسات الحرة ، وقسم الدراسات بالمراسلة . ثم أصبح محررًا فى مجلة « أورفيوس الأسود » . وساهم فى إنشاء « نادى مبارى للكتاب والفنانين » . وتقديرًا لجهوده ، أصبح أول رئيس لهذا النادى الثقافى الذى اشتهر خلال فترة قصيرة .

فى عام ١٩٦١ أصبح مديرًا للبرنامج الأفريقى لحرية الثقافة بباريس ، والذى أصبح الآن يطلق عليه اسم : « الجمعية الدولية لحرية الثقافة » . هذا المنصب أتاح له فرصة السفر والتنقل بين الدول الأفريقية ، وإقامة مراكز ثقافية ، ومراكز للأدباء فى كل من نيجيريا وكينيا .

فى عام ١٩٦٥ التحق مفاهليلى بهيئة التدريس بجامعة « نيروبى » فى كينيا ، كمحاضر للأدب الإنجليزى . وفى العام التالى سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية على حساب منحة من جامعة « دنيفر » بولاية « كلورادو » كزميل مدرس بالقسم الإنجليزى ، وفى نفس الوقت للتحضير لدراسة الدكتوراه فى « الكتابة الإبداعية » .

فى عام ١٩٦٨ حصل على درجة الدكتوراه عن روايته « الهائمون » . الغريب .. أنه اضطر لتقديم الرواية للحصول على الدرجة ، بدلا من كتابة رسالة مطولة . وكانت مغامرة غير مأمونة . ولكنه فوجئ بنجاح لم يكن يخطر له ببال .

بين عامى ١٩٦٨ – ١٩٧٠تولى التدريس بالقسم الإنجليزى فى جامعة زامبيا بمدينة « لوزاكا » العاصمة . وهناك أيضًا تولى الإشراف على الحلقات الدراسية للأدب الأفريقى .

فى عام ١٩٧٠ عاد مرة أخرى إلى جامعة « دنيفر » كأستاذ مساعد فى القسم الإنجليزى . بالإضافة إلى عمله كنائب رئيس تحرير مجلة « أفريقيا المعاصرة » التى تصدرها الجامعة .

مشوار طويل .. طويل .. استغرق معظم سنوات العمر !

كاتب طوح به السفر كل مكان . شقت عليه الحياة فى بلاده ، وقذفته خارجها ..

وقد صور معاناته بكل الصدق فى روايته « الهائمون » التى يقول عنها :

« أردت فيها أن أعبر عن حياة الكاتب فى المنفى . وهو يبحث عن بلد يتبناه .. ويستقر فيه ، ليكتب فى هدوء .. أردت أن أصف للقارئ كيف يفقد الإنسان إحساسه بالزمان والمكان .. وكيف يفقد الإحساس بهويته . إن الإنسان يجد نفسه أشبه بالدجاجة حينما تبحث عن مكان تبيض فيه .. لترقد على بيضها حتى يفقس وتخرج الكتاكيت الصغيرة إلى نور الحياة !! » .

* * *

أزكيل مفاهليلى .. الذى بدأ تعليمه فى سن متأخرة ، كان يقرأ كثيرًا ليثقف نفسه وليتعلم . تعلم من روايات تشارلز ديكنز ، وريتشارد رايت .

وتعلم من القصص القصيرة التي يكتبها الأمريكيون السود . وتعلم من الروايات والقصص القصيرة لكتاب روسيا . لقد انفتح عقله على الغرب والشرق .

وعندما تسأله .. متى بدأت تكتب ؟ .

فإنه يجيبك في ابتسامة حلوة :

« بدأت الكتابة عام ١٩٤٠ وأنا في العشرين من عمري . في تلك السن ، كانت الأمور في ذهني مشوشة .! كنت أعيش في ضاحية تبعد اثني عشر ميلا عن جوهانسبرج . كنت أحيا في عزلة عن الناس في « الجيتو » . وكانت الكتابة بالنسبة لي نوعًا من المغامرة في دنيا الأدب . وعندما كتبت لم تكن في ذهني أي نية للنشر . ولكن ذات يوم جمعت ما كتبت . وأرسلت الأوراق إلى دار نشر صغيرة بدافع من فضول . أردت أن أعرف رأى الآخرين فيما أكتب . وأعتقد أن الناشرين لهم من الخبرة ما يكفل لهم الحكم الصحيح والعادل » .

ثم يضيف أزكيل مفاهليلي قائلا :

كانت مفاجأة كبرى . ان يخطرني الناشر باعتزامه نشر هذه القصص القصيرة في كتاب . وهكذا صدر أول كتاب لي بعنوان « الإنسان .. يجب أن يحيا » يضم مجموعة قصص قصيرة وكان ذلك في عام ١٩٤٧ .

ورأيه الآن في هذه القصص – التي لا تمس قضية العنصرية – أنها كتبت في مرحلة كان اهتمامه فيها موجهًا للناس . موجهًا إلى « الجيتو » الذى فرض عليهم أن يعيشوا فيه . موجهًا إلى أحلام الناس البسطاء وآمالهم وآلامهم أيضًا . كان اهتمامه بالناس كبشر ..

ولكن الفترة التي قضاها في التدريس . جعلت صلاته بالناس أوثق وأعمق . وبدأ يحس بحقيقة الضغوط السياسية التي تحيط به وبالناس .

وبدأت يقظته التى ظلت مستمرة حتى اليوم . بدأت حساسيته الشديدة لحقيقة الأوضاع السياسية فى جنوب أفريقيا .. وحقيقة ضحايا هذه السياسة من الملونين والأفريقيين والهنود والأفريكان .

فى عام ١٩٥٩ صدرت أول رواياته الطويلة « فى الشارع الثانى » وهى سيرة ذاتية له . كتب جانبًا منها فى جنوب أفريقيا عام ١٩٥٦ . وأكمل نصفها الأول عام ١٩٥٧ ثم أكملها فى نيجيريا التى هاجر إليها مضطرًا .

فى عام ١٩٦١ صدرت له مجموعة قصص قصيرة بعنوان « الأحياء والموتى » . وفى عام ١٩٦٢ صدر له كتاب فى النقد الأدبى بعنوان « الصورة الأفريقية » . وكتاب آخر بعنوان « دليل الإبداع الأدبى » وقد صدر عام ١٩٦٦ .

فى عام ١٩٦٧ صدرت له مجموعة قصص قصيرة بعنوان « موقف حرج » . وأخيرًا صدرت روايته الطويلة « الهائمون » التى يعبر فيها عن تجاربه فى المنفى ، ومشاعره تجاه الناس الذين عايشهم فى البلاد التى هاجر إليها هائمًا لا يستقر له قرار .

أزكيل مفاهليلى الذى وصفه أحد النقاد بعبارة « إنه سيد كتاب المقالة الأفريقية » ، يوجه اهتمامه فى كتاباته إلى موضوعين :

الأول : أزمة المثقف الأفريقى .

والثانى : شعب جنوب أفريقيا .

إنه يكتب بروح الاحتجاج والرفض ، لتطويق شعبه بالحواجز العنصرية ، وأفظعها حاجز اللون ! وهو يتخذ هذا الموقف لأنه – بحكم مولده ونشأته – ينتمى إلى الأغلبية المضطهدة ولأنه واحد من الناس الذين فرض عليهم ذل قوانين التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا ، أرض التعصب

العنصرى الشائن .

وفى رأيه أن سرعة سير الحياة فى جنوب أفريقيا ، تؤدى إلى أن تسود القصة القصيرة لا الرواية الطويلة . إن القصة القصيرة – فى رأيه – أنسب أداة للاحتجاج فى مجال الأدب .

وفى رأيه أيضا .. أن القصيدة أداة مناسبة للاحتجاج والرفض .. ولكنه لا يملك موهبة الشاعر .. فيستبدل القصيدة بالمقالة عندما تضطره الظروف .

* * *

فى جنوب أفريقيا ، بلغ إحساس الحكم العنصرى بخطورة الإبداع الخلاق للجماهير – خاصة فى مجال الشعر – أن أقدمت السلطة على شنق العامل « فيوزيللى ميني » الذى كان يؤلف أناشيد للحرية . شنقوه للدور الذى قامت به أناشيده وأغنياته فى نضال الجماهير ! .

ويتساءل مفاهليلى :

« ولكن .. هل استطاع الشنق أن يخرس صوت فيوزيللى مينى ؟! أبدا .. إن إسهامه فى النضال مازال باقيا حيا .. ناطقا على ألسنة الجماهير الثائرة لا تكف عن ترديدها . تماما كما ينشد المقاتلون الذين يحملون السلاح فى معركتهم من أجل الحرية والعدالة والمساواة » .

إنه يقول ذلك مدللا على أصالة الخلق الفنى الجيد . ثم يضيف :

عندما ألتقى بكاتب يقول لى : إن الشعب غير قادر على أن يفهم فنى .؟ أرد عليه قائلا : إن فنك – ياعزيزى – قائم على أساس خاطئ . إنه غير قائم على نضال الشعب ومثله العليا . إنك أنت الذى لا تفهم الشعب !! .

هذا جانب من اهتماماته بأزمة المثقف الأفريقى . يضاف إليها محاولاته المتعددة فى نشر ما يكتبه الموهوبون فى أفريقيا . فقد أشرف على نشر كتاب

« قصص أفريقية معاصرة » عام ١٩٦٤ وكتاب « الكتابات الأفريقية اليوم » .. الذى صدر عام ١٩٦٧ والذى يضم مختارات لما يقرب من أربعين كاتبا أفريقيا ، لوجدنا فى فهرس المعلومات عددًا كبيرًا من هؤلاء الكتاب - من بينهم مفاهليلى - عبارة : « لا يمكن نشره أو اقتباسه فى جنوب افريقيا » .

إن مفاهليلى يناضل لخلق ثقافة للكادحين . ثقافة تمزج بذكاء بين القديم والحديث . إنه يرى أن الثقافة التقليدية فى بلده قد هوت قواعدها تحت أقدام الغزاة . وتحت مطارق الصناعات الحديثة . هوت تحت أقدام المهاجرين الذين جاءوا ليخربوا حياة الأسرة ، وليخربوا المجتمع الأفريقى فى بلده . إن القوانين العنصرية قضت على الثقافة والعادات والتقاليد . ومن رأيه أن تتجه كل الجهود إلى هدم البناء السياسى للحكم الفاشى القائم الآن فى جنوب أفريقيا ، ولتتحقق المساواة بين كل الألوان .

إن الصورة الآن فوق أرض التعصب العنصرى البغيض تترجمها هذه الكلمات :

« فى الموت وحده .. تتحقق المساواة الشاملة .. بين الأبيض والأسود » .

* * *

والآن ..

بعد أن استقر الكاتب الهائم فى مكان يكتب فيه بهدوء ..

وبعد أن وجدت الدجاجة مكانًا تبيض فيه ، وترقد على البيض حتى يفقس وتخرج الكتاكيت الصغيرة إلى نور الحياة .

وبعد أن استقر مقامه فى أمريكا يشغل منصبًا غاية فى الاحترام . وبعد أن كف عن الانشغال بأكثر من عمل فى وقت واحد ليحصل على مطالب الحياة ..

بعد هذا كله .. هل توقف عن النضال من أجل قومه ، ومن أجل وطنه ، ومن أجل افريقيا .؟

أبدًا ..

فالنضال مستمر ..

ولكن ما يشغل نضاله الآن . هو محاربة المحاولات المدمرة ، التى تحاول – باستماتة – أن تعزل الأدب الأفريقى ، عن المواطن الأفريقى نفسه . وعندما يقول الأدب الأفريقى ، فإنه يعنى : الذين يكتبون بالأفريكانية فى بلده جنوب أفريقيا . والذين ينظمون الشعر بالبرتغالية فى أنجولا وموزامبيق . والذين يكتبون أفكارهم بالعربية فى السودان وشمال أفريقيا .

يقول :

« بصرف النظر عن درجة اللون . واللغة والعقيدة الدينية والفكر السياسى . وبصرف النظر عن الانتماء لوطن ما . كلنا أشقاء ، كلنا أبناء قارة واحدة . كلنا أفريقيون » .



وشهرته : كالونجانو

وهذى حالنا نحن
نعانى قسوة الحرمان
مقيدين ....
ممزقين ...
مكممين ...
فى الأرض التى هى أرضنا

« من قصيدة : الأرض تميد ! »

قبل أن نتعرف عليه كشاعر ، يجدر بنا ان نتعرف عليه كثائر ، فهو واحد من أبرز قادة جبهة تحرير « موزامبيق » ، وهى جبهة تؤمن – عن يقين – أن تحرير الأرض لا يمكن أن يتحقق إلا بقوة السلاح ، وبالنضال المسلح .

ومنذ عرفه الناس كشاعر.. وكثائر ، أطلقوا عليه اسم «كالونجانو» ،



● مارسلينودوس سانتوس ●

وربما كان هذا هو اسمه الحركى فى مرحلة الكفاح تحت الأرض ، وعندما برز وأصبح واحدًا من قادة جبهات التحرير ، تمسك الناس باسم «كالونجانو» ، وأصبح هو أيضًا معتزًا بهذا الاسم .

إذا استعرضنا حياته بإيجاز ، فإن مولده كان يوم ٢٠ مايو ١٩٢٩ فى « لومبو » قرب « لورنزو ماركيز » فى موزامبيق ، البلد الذى يناضل من أجل تحرير نفسه من الاستعمار البرتغالى . مارسلينو ، ابن واحد من عمال السكة الحديد . فى صباه دخل مدرسة الليسيه فى موزامبيق . وتدرج حتى أنهى تعليمه الثانوى . ثم التحق بجامعة « لشبونة » ، فى البرتغال . فى أثناء حياته الجامعية ، كان يكتب المقالات ، ويشترك فى مظاهرات الطلبة . وكان حماسه واندفاعه أمرًا لفت انتباه البوليس السياسى الذى يأتمر بتعليمات الطاغية « سالازار » .

فى سنة ١٩٥١ انتقل إلى باريس ليلتحق بجامعة السوربون . وليدرس علم السياسة والاجتماع . لقد كان يحس فى أعماقه بالمهمة الوطنية التى نذر لها نفسه منذ شبابه . ودفعه هذا الإحساس لدراسة العلوم السياسية .

الأمر بالنسبة لكل المثقفين فى موزامبيق بصفة عامة ، وبالنسبة للشعراء بصفة خاصة ، أن السيطرة الاستعمارية قد تغلغلت هناك من خلال فكرة القضاء على « طرق الحياة والتفكير » لدى الشعب . وفى الوقت نفسه إقحام « البديل » ليحل مكان التراث المتوارث عبر سنوات التاريخ . و « البديل » عند المستعمرين -- عند كل المستعمرين -- هو بث أفكار أجنبية ، وقيم مستوردة . الأفكار والقيم شىء مشوه ، لا يخدم إلا أهداف المستعمرين ، ولا يحقق إلا غايات المستغلين .

من هنا نستطيع أن ندرك مغزى اهتمام « مارسلينو » أو «كالونجانو»

بدراسة العلوم السياسية فى مطلع شبابه ، لأنه بلا شك كان يعد نفسه للنضال من أجل وطنه وشعبه .

يؤكد هذا .. فهمه لطبيعة شعب بلده ، ومدى افتتان الناس بالقصيدة المنظومة ، ومدى تأثر الجماهير بالشعر .

لهذا .. فإنه فى الوقت الذى حرص فيه على التهام كل ألوان المعرفة الإنسانية .. حرص على أن يكون شاعرا .. بعد أن لمس فى وجدانه موهبة الشاعر . وحرص على أن تكون القصيدة فى يده وعلى لسانه .. فى قوة الرصاص . إنه يوجه قصيدته كما يوجه البندقية . إنه يوجهها بكل الدقة إلى قلب العدو المستعمر .

ولعله لهذا السبب .. استطاع أن يجعل العالم يحس بالصدق الثورى فى قصائده . ولهذا السبب أيضًا نجد أن معظم قصائده قد ترجمت إلى أكثر من لغة من لغات العالم .

أتيحت الفرصة لكالونجانو ، لزيارة بلاد كثيرة فى مختلف أرجاء العالم . ففى عام ١٩٥٥ شارك – كشاعر – فى احتفالات الشباب التى أقيمت فى « وارسو » عاصمة بولندة . وفى تلك الاحتفالات وجهت إليه دعوة من شباب الصين لزيارة الصين الشعبية . وفى عام ١٩٥٧ شارك فى احتفالات الشباب فى موسكو . وفى عام ١٩٥٨ شارك – كأديب – فى المؤتمر الأول للكتّاب الأفريقيين الآسيويين الذى عقد فى مدينة « طشقند » عاصمة جمهورية أوزبكستان السوفيتية .

قبل أن نستكمل استعراض حياته العامة ، أود أن ألفت الانتباه إلى قرار حكومة فرنسا الذى صدر عام ١٩٥٦ بطرد دوس سانتوس من فرنسا قبل أن يستكمل الحصول على شهادته من جامعة السوربون .

وفى عام ١٩٦١ انتخب سكرتيرًا عامًا لجبهة تحرير موزامبيق المعروفة باسم « فريليمو » ، وفى العام التالى حضر إلى القاهرة للمشاركة فى المؤتمر الثانى للكتاب الأفريقيين الآسيويين . وبعدها شارك فى كثير من المؤتمرات والاجتماعات بحكم منصبه القيادى البارز فى جبهة التحرير التى تقود النضال المسلح من مركز قيادتها فى جمهورية « تنزانيا » الأفريقية .

ربما يكون من الضرورى والمفيد ، أن نعطى للقارئ فكرة عن موزامبيق ، التى تناضل لكىْ تتحرر من الاستعمار البرتغالى ، والتى يقوم دوس سانتوس بدور قيادى فى هذا النضال المسلح من أجل تحريرها .

تقع موزامبيق على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، فى الجنوب ، تجاه جزيرة مالاجاشي « مدغشقر سابقًا » . لموزامبيق حدود مشتركة مع كل من جنوب أفريقيا العنصرية ، ورديسيا العنصرية ، ومالاوى الخاضعة لنفوذ الدولتين العنصريتين . ولها حدود مشتركة مع تنزانيا حيث توجد قيادة النضال المسلح .

ويمارس الاستعمار البرتغالى هناك ، أبشع صور الاستغلال والاضطهاد والقهر ، إلى حد يصفه الشاعر الأديب السوفيتى الكبير « أناتولى سوفرونوف » بقوله :

« مستعمرة ينهب منها البرتغاليون كل شيء بلا ثمن ، ابتداءً من جوز الهند ، إلى الحياة البشرية !! »

إن الوصف غاية فى صدق التصور . وعلى أساس هذا التصور حدد المستعمرون علاقتهم بالشعب المقهور ، واتخذوا من الوسائل ما يكفل لهم بقاء الأوضاع على ما هى عليه . وقد تحقق لهم ما أرادوا من استغلال ثروة البلاد الدفينة . وتسخير الأهالى فى استخراجها من باطن الأرض .

مارسلينو يصور لنا الحقيقة فى قصيدته « الأرض تميد » التى قدمت فى البداية بعض أبياتها . يقول :

ماكان أقساها الحياة
على الأرض التى فيها ولدت !
القطن أنت زرعته
وزرعت جوز الهند والزيزال
وصنعت بجهدك ثروة « الشركة »
وشيدت المدينة
ومهدت الطريق
وبنيت الميناء
لقد حاولت أن تنحت فوق الأرض وجه إنسان
ولكن كل جهودك لم تكد تمنحك سوى جواز مرور
ونحن جميعًا مثلك تمامًا
محرومون
مقيدون
ممزقون
مكممون
فى الأرض التى هى أرضنا .

إنه يكشف لنا حقيقة الطابع الاستغلالى للطاقات البشرية بأتفه ثمن . بمجرد بطاقة تسمح لصاحبها بعبور الحدود الخاصة لقريته ! ! وذلك لأن قوانين المستعمرات تقضى بعدم السماح لموزامبيقى بأن يغادر قريته ما لم يكن

يحمل إذنًا بالمرور ! وفى المدن ، لا يسمح للأفريقى بالخروج ليلا إلا بتصريح خاص يسمح له بالخروج . ! !

الموزامبيق ، يساق ككل أبناء المستعمرات إلى المناجم ، حيث يلقى المئات منهم بعد المئات حتفهم . ولكن ماذا يهم المستعمر إذا ما انهار منجم على العاملين فى جوفه ؟

الشاعر المناضل دوس سانتوس – فى نفس القصيدة الأرض تميد – يصور من خلال نسيجها الفنى . بحساسية وذكاء شديدين ، حكاية العمال من قومه وكيف يتعرضون للموت . وكيف حاولوا الهرب من المصير الدامى . ولكن الأوامر كانت صريحة وحاسمة . بنفس قوة وحسم « الشركة » البرتغالية الاستعمارية المستغلة ، الأوامر كانت أن يعود العمال ، ولا يهم أن يموتوا . يقول « كالونجانو » فى قصيدته :

الأرض جميعًا قد مادت :
وقع انفجار كان أول ماوقع
وأحس العمال جميعًا ..
بالعالم ينغلق عليهم .
وجرى الرجال وهرولوا
ولكن .. ما الذى وجدوا
بحثًا عن الشمس ؟
وجدوا .. الشركة !
كغراب ضخم قد ألقى ظلاله
وتوارت خلف جناحيه الشمس !

وصاح بصوت أزعجهم
استمروا ..
عليكم ان تستمروا !
عودوا ..
عودوا إلى جوف المنجم !
ثم ..
دوى الانفجار الثانى
وجرى الرجال وهرولوا
اذا مادت الأرض بهم
وتساقطوا ..
وسط دهاليز المنجم
وتلوت الأجساد ..
فى الغازات وكتل الفحم
وتهاوت آمال الرجال
آمال الزنوج العاملين
فى الحياة !

« مارسلينودوس سانتوس » ، لا يكتب مثل هذه القصيدة بروح شاعر يحلق فى آفاق الخيالات الوردية ، وإنما هو يجند قلمه ، وكلمته ، وقصيدته ، كما يجند المقاتل للمعركة .

إن الكلمة والرصاصة – فى نظره – يتساويان تمامًا . عندما يكون الهدف واضحًا ، والإرادة حاسمة . والصدق ينبع من إدراك الشاعر – بكل العمق

والوعى – بأبعاد المأساة التى تهدد فريقًا من بنى وطنه ، بالفناء على أيدى الطغاة المستعمرين .

* * *

إن الأدب فى موزامبيق – حكمها حكم أى بلد لم يتحرر بعد – قد مر بثلاث مراحل متعاقبة ، ومتداخلة فى نفس الوقت :

المرحلة الأولى : هى مرحلة الإيقاظ الجماهيرى . وتبصير الشعب بحقيقة الواقع الأليم الذى يعيشه . وتفهم أبعاد هذا الواقع سياسيًّا ، واجتماعيًّا ، واقتصاديًّا . وإدراك العوامل التى شكلته على ما هو عليه .

والمرحلة الثانية : هى مرحلة الرفض . والاحتجاج الصارخ . ثم . . التمرد !

أما المرحلة الثالثة : فهى المرحلة التى تصحب الثورة ، وغالبًا ما تكون الثورة مسلحة . فى هذه المرحلة يعبر الأدب عن أهدافها التحررية . وعن مضامينها السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية . وفى هذه المرحلة يمهد الأدب للمرحلة الرابعة . مرحلة « ما بعد الاستقلال » . ويقدم الأدب للجماهير رؤى المستقبل .

وموزامبيق ، بعد ٤ فبراير ١٩٦١ ، دخلت المرحلة الثالثة ، عندما اتخذت تلك المبادرة التاريخية التى تشكل اللحظة الراهنة من مستقبلها ، عن طريق الكفاح المسلح . ومع هذه المرحلة ، بدأ الشعر ينير أمامها آفاقاً جديدة . وبدأ « الرصاص يتفتق عن الأزهار » . وبدأ دوس سانتوس يطالب – بالأسلوب الذى طالب به إيلوار – بكتابة الاسم الذى يترجم عن استرداد الكرامة ، فيقول :

نعم يا أمى

يجب . .
يجب أن نزرع
على طرق الحرية
تلك الشجرة الجديدة
شجرة الاستقلال الدامى

ويبدأ الشاعر فى تصور المستقبل بعد الثورة . . وتنقلب رؤاه إلى أحلام :

الأم السوداء . .
تضع طفلها فى المهد
وتنسى . .
أن حبات الذرة تموت فى الأرض
وأن كرار الحزين قد فرغ بالأمس
وتحلم
تحلم بعوالم جميلة
يذهب فيها ابنها إلى المدرسة
المدرسة التى يتعلم فيها الرجال
يخرج فيها ابنها ويلعب فى الشوارع
الشوارع التى يمشى فيها الرجال
عوالم جديدة . .
يستطيع ابنها أن يعيش فيها

ولكن الشاعر واثق من أن الحلم سيصبح حقيقة ، لأن المستقبل له الآن وجود فعلى . فهو محتوى فى الحاضر ماثل فيه . بل إن الشاعر على يقين من أنه

عن قريب سيسمع صيحة الابن ينادى أمه السوداء فى نشوة :

ابنك بات من الآن حرًّا يا أماه ! »

* * *

كالونجانو كمثقف ثورى ، يدرك أن التراث الأفريقى فى الفن والثقافة ، لم يفقد أثره فى وعى الناس ، بسبب تدهوره على أيدى البرتغاليين . لقد تعرض تراث بلده لحملة منظمة من التحقير على أيديهم . فإذا أضفنا إلى ذلك الظروف الاقتصادية التى صنعها المستعمرون فى موزامبيق ، لأمكننا أن نتبين مدى نجاح الحملة المنظمة لمحو هذا التراث تماماً .

برغم كل هذا ، أدرك مارسلينو بحسه كفنان موهوب شديد الوعى ، وأدرك معه زملاؤه الثوار المناضلون ، أدركوا أن تراث بلدهم لم يقض عليه تماماً ، لأن هذا التراث هو الذى شكل لأجيال طويلة ، خلفية الحياة الأفريقية فى صميم تكوينها .

ولكن المسألة لدى « سانتوس » لم تكن بهذه البساطة . وكان عليه أن يواجه الأمر الواقع بشجاعة .

كان الأمر الواقع يطرح أمامه حقيقة مؤلمة ومؤسفة . وهى أن حملات « التشويه » ، ومحاولات القضاء على « طرق الحياة والتفكير » ، ومحاولات إقحام « البديل » ، كل هذه الحملات والمحاولات ، أدت بالفعل إلى اغتراب كثير من الأفريقيين عن خلفيتهم الثقافية ، بل إن بعضهم وصل به الأمر إلى حد رفضها بصورة علنية !

وعندما تصل ضربات الاستعمار إلى هذا الحد ، فإنها تكون على وشك تدمير الإنسان . ومن ثم عمل الشاعر الثائر ، ورفاقه فى الكفاح ، على

مواجهة الحملات الموجهة للتراث الأفريقى والتصدى لها فى عمل شاق مرير . وكان التصادم حادًّا مؤلمًا .

إن الفن الموزامبيق ظل صامتًا طوال الأعوام الأخيرة من القرن الماضى ، وخـــلال فترة طـويلة من أعوام القرن العشرين . اللهم إلا بعض انطلاقات شعرية محدودة ومتفرقة . ولكنها لم تجد من يعنى بتسجيلها ونشرها ، لأنها كانت قاصرة على مجال واحد متواضع ، هو مجال الحياة اليومية للشعب .

ولكن الشعب لم يكف عن الخلق والتغنى بأغانيه وحكاياته وأشعاره الفولكلورية . وكلها تتم شفاهة تتناقل سماعًا ، وبرغم كونها جزءًا من تراث الشعب الذى يبدعه على مر العصور ، فهى معرضة للاندثار والضياع ما لم تلق الاهتمام من المثقفين . وكان لابد من إنقاذ هذا التراث ليدخل التاريخ من خلال الثورة .

وهذا ما حاوله الشاعر « دوس سانتوس » ورفاقه ، وكان عليهم فوق كل هذا ، أن يخلصوا الشعر من نغمة اليأس ، وعدم التماسك ، والافتقار إلى الثبات والصمود ، مثل تلك الكلمات التى قالها أحد الشعراء فى قصيدة تقول :

ياللحزن الذى يملؤنى
عندما أرى هؤلاء الناس
« بأجولتهم الزرية فوق أكتافهم »
« وهم .. يموتون تعبًا ! .. »

بدلا من هذه المعانى التى تبدو واقعية فى وصفها لحالة التمزق وفقدان

الأمل فى موزامبيق ، تطور الشعر على يدى الثائر مارسلينو ورفاقه ، وتحول إلى الإدانة ، وإلى تعميق وعى الشعب بمدى الاضطهاد الذى يتعرض له . وإلى كشف واقع خداع الحضارة البيضاء التى غررت بكثير من المثقفين.

وأدرك مارسلينو أنه فى هذا التطور ، لا يجب أن تتحول القصيدة إلى منشور ثورى خطابى ، بل يجب أن تصاغ المعانى فى قصائد لها كل خصائص الشعر فنيًّا وفكريًّا ، وتحافظ على الشكل الشعرى ، وعلى الصورة المنسوجة بفنية وبراعة .

لهذا تميز شعره بالقصيدة الهامسة الفن ، الصارخة العنف .. مثلا فى قصيدته « إلى ابن بلدى » :

« أيها الابن الحافى القدمين »
ياابن بلدى ..
الدنيا فجة مرة
فى أطمارها البالية
والزنجى عاكف على الرمل منحنى الظهر
صبى أسود مثلك .
مات مقتولا
فى ذلك المستنقع الضيق
من حمأة المستنقع العنصرى

هذا الصبى الأسود الذى مات ، يقول لنا الشاعر إن اسمه « همت تيل » . وإن قاتله هو نفس الذى ارتكب الجرائم الأولى ضد الأجداد :

ياابن بلدى ..

كان هناك جد بعيد
فى أرض شاسعة فسيحة
من وراء بحار عظيمة محيطة
حمل إليها أبناء أفريقيا
مخطوفين ..
فى مراكب تجار العبيد النخاسين
وهناك فلحوها وأخصبوها
هناك جد بعيد
على الأرض الأمريكية
التى بنتها الأذرع القوية
للعبيد السود
من أفريقيا ..

ويحذر الشاعر « دوس سانتوس » ابن بلده الجديد من نفس المصير فيقول :

همت تيل .. مات مقتولا
ولكن ما أحسه .. باق
مبعثرا فى مصيرك
همت تيل .. مات مشنوقًا على شجرة
ولكن دمه السائل فريد فى القوة
إياك أن تنسى إلى آخر الزمان
أيها الصبى الحافى القدمين

* * *

فى رأى دوس سانتوس ، أن الشعر يهيئ صلة جديدة بين الفرد والمجتمع . وهو يعنى بذلك ظاهرة آخذة فى النمو مع النضال التحريرى لموزامبيق . ينمو بنفس الطريقة التى اتضحت بها فى النضال الثورى لشعوب أخرى . فأفراد الشعب فى موزامبيق أخذوا الآن فى تأكيد أنفسهم ، لا كأفراد منعزلين ، بل كأفراد يكونون مجتمعًا جديدًا . وهذا المجتمع سيختلف تمامًا عن المجتمع القديم . سيكون مجتمعًا متحررًا من كافة ضروب القهر . وسيكون الأفراد الذين يشكلون هذا المجتمع الجديد ، رجالا جددًا :

إخوة صغار
لبلد قديم . .

فى لقاء مع مارسلينو دوس سانتوس فى مدينة بودابست عاصمة المجر ، منذ أعوام ، وصف لى الرجال الجدد ، والمجتمع الجديد ، بقوله :

« إن خلق الرجال الجدد والمجتمع الجديد ، لا يمكن أن يتم أحدهما بمعزل عن الآخر . وفى رأيى أن الشعر هو أفضل لسان يعبر عن الحقيقة . فالشعر هنا أداة تعبير عن الإرادة . إرادة تأكيد القدرة الخلاقة للإنسان . ولكن فى الوقت ذاته ، توصيل لما تبدعه تلك القدرة إلى الآخرين ، ورؤية لاستجاباتهم . فنحن عندما نقف على وجود نفس الإرادة لدى الآخرين ، فإننا – بلا شك – نزداد صلابة وتصميمًا . وندرك فى الوقت ذاته ، أن تحويل الإرادة إلى فعل ، لا يتم إلا عن طريق المشاركة مع الآخرين ، بحيث يكون الفعل ، هو فعل الجماعة كلها » .

ويضيف دوس سانتوس قائلا :

« وأنتم فى مصر تدركون أكثر من غيركم هذه الحقيقة . إن مشروع الثورة

مشروع جماعى ، يتواجد الفرد فى إطاره ، ويعمل من أجل المجتمع . ويصبح المجتمع حيًّا . لأنه مجتمع يقوم على وجود أفراده ، ويحترم ذلك الوجود . والشعر – فى رأيى وربما يجيء هذا الرأى من طبيعة الناس فى بلدى – هو أفضل مرآة للشعور الجماعى ، ولروح التعاون التى تشيع فى النضال ، إن الشعر صوت للفرد والجماعة .

ومن خلال المقاتل فى سبيل الحرية ، يتكلم صوت الشعب . الفرد ينظم الشعر . ولكنه ينظمه بلسان شعب بأكمله . لا اختلاف هناك ، سواء كانت القصيدة مكتوبة بضمير الشاعر ، أو بلسان الجماعة » .

بهذه الكلمات ، كان كالونجانو يفسر لى ما جاء فى مقال سابق له كنت قد قرأته . وعندما تطرق حديثنا إليه ، سألته تفسيرًا وإيضاحًا .

ولعل أفضل تفسير وإيضاح لكلماته ، قصيدة له تتضمن كل ما جاء فى حديثه . القصيدة بعنوان « أنا أحيا » .. يقول فيها :

كلا ..
لا تبحثوا عنى
فأنا لست ضائعًا
أنا أحيا ..
قويًّا .. ملء صدرى لهيب
أتبع الدرب التى اختطتها الحرية
خلال أنياب الاضطهاد ومخالبه ..
أنا أعيش ..
فى شعبى

أطلق مدافعي وقاذفاتي
على الدرب المفضي للسلام

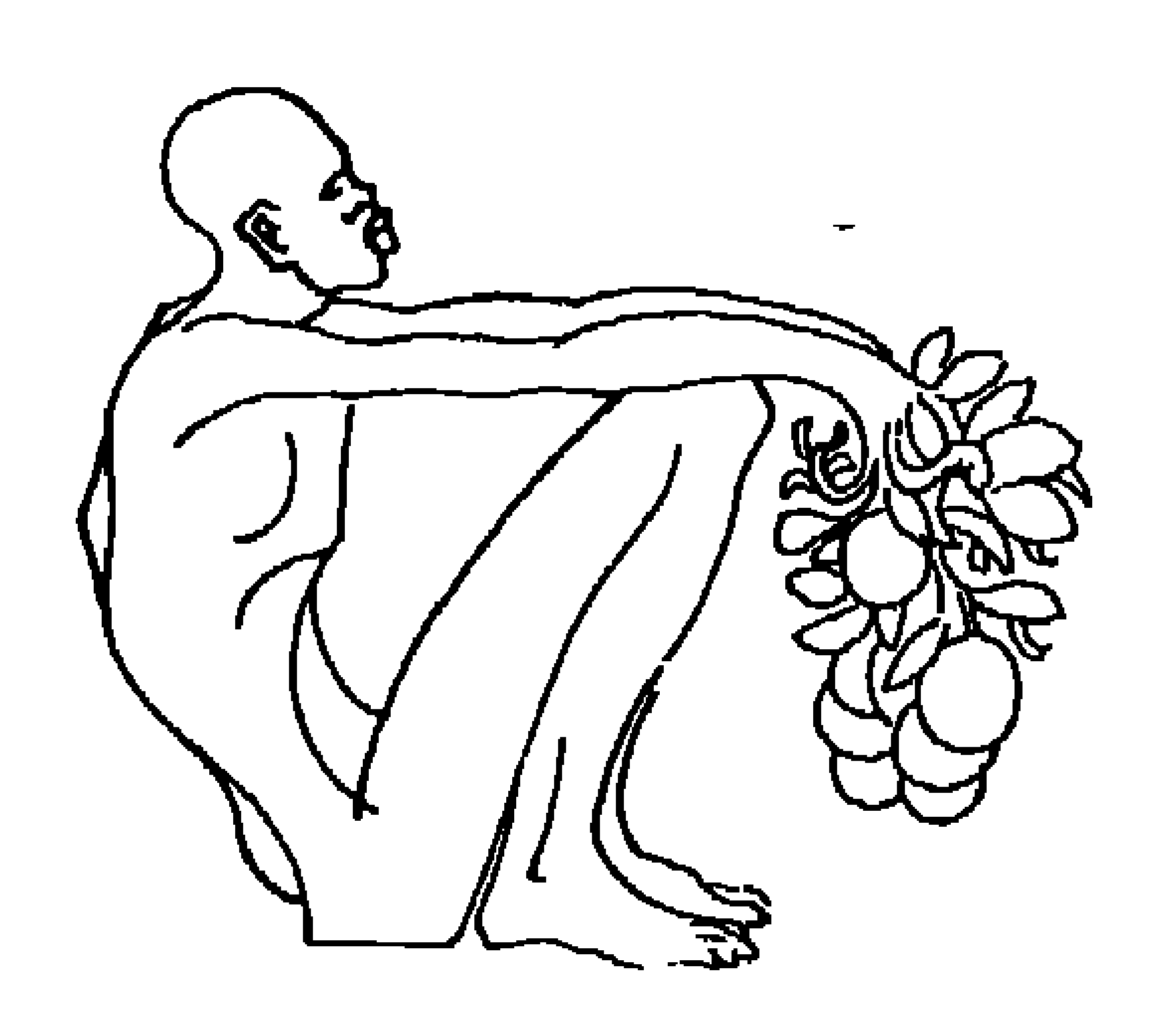
* * *

وهكذا تمكن مارسلينو .. كشاعر وكثائر ، من أن يشارك رفاقه الشعراء الثوار ، ورفاقه الثوار المقاتلين .. فى تسجيل المأساة الدامية التى يصنعها الاستعمار البرتغالى فوق أرض بلده . وما يعنيه ذلك من اضطهاد لشعبه .

إن مارسلينو دوس سانتوس ، لا يكتفى بالمشاركة فى النضال المسلح لشعبه ضد الاستعمار ، بل يحرض – بالشعر – أبناء بلده على العنف فى الكفاح . ليهبوا بمزيد من الضراوة لإجلاء البرتغاليين الغاصبين عن تراب موزامبيق ، ليصفوا وجه الحياة للبسطاء هناك ، وعندئذ يمكن أن يعيدوا بناء الحياة ، وإلى أن يحدث هذا سيظل « مارسلينو » الشهير بـ« كالونجانو » مناضلا بالرصاصة والقصيدة .

تقديرًا لهذه الصورة المشرقة ، منح مارسلينو دوس سانتوس جائزة « لوتس » للأدب الأفريقى الآسيوى عن عام ١٩٧٣ .

□ انتهى الكفاح المسلح بتحرير موزامبيق فى صيف عام ١٩٧٥ واصبح الشاعر مارسلينو دوس سانتوس نائبا لرئيس الدولة . وهو الآن وزير التخطيط فى حكومة موزامبيق .



سبع صنايع وبخت غير ضائع !

فات الوقت للفرح ..
كف الصياد يده ..
انفتح مجرى الحق من مواقد حمراء
وكف « أوجون » يده .. !
وبعد الرعب ، والموت والظلام
ربما .. يشرق فجر جديد

« من قصيدة : إيدانر »

الكاتب الذى نلتقى به على الصفحات التالية .. إنسان من طراز نادر فريد .
فنى الثالثة والعشرين من عمره ، كان قد انتهى من دراسته بجامعة « ليدز » البريطانية ، وحصل على درجة الشرف فى اللغة الإنجليزية ، وفى أثناء الدراسة



● وول سوينكا ●

نشرت له الصحف والمجلات البريطانية ، قصتين قصيرتين بالإنجليزية . واحدة باسم « مدام اتيين » والثانية باسم « قصة مدينتين » .

بعد تخرجه ، التحق بوظيفة فى مسرح القصر الملكى البريطانى . كانت مهمته ، قراءة النصوص المسرحية . وخلال استغراقه فى هذا العمل على امتداد عامين ، كتب عدة مسرحيات .

وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، قدم له المسرح الملكى البريطانى مسرحيته القصيرة « تصميم » .

وفى نفس الليلة قدم نفس المسرح ، مقتطفات من مسرحيتى « بيت يانجيجى » و « رقصة الغابات » وفى نفس العام ، قدم له أحد مسارح لندن . مسرحيته « أهل المستنقعات » نفس المسرحية قدمت فى نفس العام فى «ايبدان» بوطنه نيجيريا ، بالإضافة إلى مسرحية أخرى له باسم « الأسد والجوهرة » .

واليوم ، وقد بلغ التاسعة والثلاثين (فى عام ١٩٧٣) ، يجمع النقاد الإنجليز ، على أنه أعظم كتاب المسرح المعاصرين فى أفريقيا . بل إنه – فى رأيهم – من أفضل من يكتبون بالإنجليزية اليوم .. فى أى مكان من العالم !

ومنذ بضعة أعوام صدر كتاب عن أعماله العديدة والمتنوعة ، بمقدمة تقول « إنه كاتب عملاق على مستوى عالمى . حققت أعماله نجاحًا فى كل مكان ، ونالت أكثر من جائزة » .

هذا هو « وول سوينكا » كاتب غرب أفريقيا الكبير . الذى يملك موهبة كاتب الدراما ، والشاعر ، والروائى ، وكاتب المقالة ، والقصة القصيرة . بالإضافة إلى موهبته كممثل ممتاز ، وموسيقى بارع ، ومخرج مسرحى عميق الوعى . تجاوز بكتاباته آفاق الإقليمية النيجيرية ، والآفاق الأفريقية أيضًا . فتخطى حدود القارة

إلى آفاق عالمية واسعة . واستطاع أن يغزو بإنتاجه مسارح الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

ولد « سوينكا » فى ١٣ يوليو ١٩٣٤ فى « أبيوكوتا » بالإقليم الغربى لنيجيريا ، لأبوين من قبائل « اليوروبا » . الأب ينتسب إلى « الإيجيبو » . والأم تنحدر من « الايجا » . تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة « سان بيتر » بين عامى ١٩٣٨ — ١٩٤٣ . ثم التحق بمدرسة النحو . وفى عام ١٩٤٦ تلقى تعليمه الثانوى بالمعهد الحكومى فى « ايبدان » . وخلال سنوات الدراسة كتب عددًا من القصص القصيرة قدمتها مؤسسة إذاعة نيجيريا فى الراديو . وفى عام ١٩٥٢ التحق بكلية جامعة ايبدان ، حيث استمر حتى عام ١٩٥٤ . وبعدها سافر إلى بريطانيا ليلتحق بجامعة « ليدز » التى تخرج فيها .

بعد التخرج — فى محاولة للبحث عن عمل — اضطر سوينكا لأن يعمل جرسونًا فى حانة . ثم كمدرس بعقد مؤقت محدود المدة ، وفى عام ١٩٥٨ تعين قارئ نصوص فى المسرح الملكى بلندن . وخلال هذه الفترة كتب مسرحية « أهل المستنقعات » ، والنص المبدئى لمسرحية « الأسد والجوهرة » . المسرحيتان قدمتا فى عرض واحد فى ايبدان عام ١٩٥٩ .

فى العام التالى ١٩٦٠ حصل سوينكا على منحة معهد « روكفلر » للأبحاث لمدة عامين ، وعاد إلى بلده بعد أن حققت أعماله المسرحية نجاحًا مرموقًا فى لندن ، وكانت نيجيريا قد أعلنت الاستقلال . عاد ليدرّس الفنون الدرامية فى أفريقيا . وأصبح محاضرًا فى كلية الآداب بجامعة ايبدان .

واحد من النقاد وصف عودة سوينكا إلى وطنه بكلمات تقول :

عودة سوينكا أشاعت الدفء فى الحياة المسرحية فى نيجيريا

وهذا صحيح .

فعقب عودته مباشرة ، أنشأ فى مدينة لاجوس فرقة مسرحية باسم « أقنعة ١٩٦٠ » ، قدمت الفرقة مسرحية « رقصة الغابات » التى فازت بجائزة مسابقة « الأوبزرفر » وقدمت أيضًا مسرحية « الجمهورى » .

خلال عمله بمعهد روكفلر للأبحاث بجامعة ايبدان ، نشرت مجموعة من قصائده فى لندن . ونشرت بعض أعماله فى مجلة « أورفيوس الأسود » التى عمل – فيما بعد – محررا بها . وقدمت له جماعة مسرح ١٩٦٠ مسرحية « الجمهورى الجديد » . وهى غير مسرحية « الجمهورى » .

فى أكتوبر ١٩٦٢ انضم سوينكا إلى هيئة التدريس بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة « ايف » فى ايبدان .

وفى أكتوبر ١٩٦٣ عين رئيسًا للقسم الإنجليزى فى جامعة « لاجوس » ، وفى نفس الوقت نشر له فى لندن كتاب يضم مسرحيتى « الأسد والجوهرة » و « رقصة الغابات » .

وفى عام ١٩٦٤ استقال من الجامعة ليكون جماعة للمسرح تحت اسم « شركة أوريزان المسرحية » . وخلال هذه الفترة أعد فيلما مدته ٢٥ دقيقة صوره التلفزيون الأمريكى عن مسرحيته « السلالة القوية » .

فى نفس العام قدم مسرح « جرينتش ميوز » نفس المسرحية ، كذا مسرحية أخرى بعنوان « محنة الأخ جيرو » وفى نفس العام أيضًا نشرت له خمس من مسرحياته فى كتاب .

وفى عام ١٩٦٥ مثلت مسرحيته « قبل الإظلام » تتضمن عرضًا غنائيًا ، هجائيًا ساخرًا !! وبعدها ببضعة شهور قدمت له مسرحية « الطريق » على المسرح الملكى بلندن .

وفى أكتوبر من نفس العام ، اعتقل سوينكا .

السبب ..

اتهامه بإخفاء شريطى تسجيل من مكتب إذاعة نيجيريا فى ايبدان . كان مسجلا على الشريطين ، خطاب لرئيس الوزراء المحلى « الرئيس أكينتولا » . أحد الشريطين استبدل بشريط مسجل عليه خطاب يطالب الرئيس أكينتولا بتقديم استقالته فورًا ! !

شهادة الشهود أكدت أن سوينكا لم يكن هو الفاعل . ولكن المحاكمة تأجلت إلى ٢٠ ديسمبر . وفى ذلك التاريخ أصدر القاضى حكمه ببراءة سوينكا وأفرج عنه ليجد مسرحيته « الطريق » قد طبعت فى كتاب صدر عن لندن ، وليجد أيضًا روايته « المفسرون » مطبوعة فى كتاب ، وليجد أن مسرحيته « حصاد كونجى » قد مثلت فى قاعة فندق « فيديرال بالاس » فى لاجوس ، وأن مسرحيته القصيرة « أخشاب وأوراق » قدمتها إذاعة لندن .

فى مطلع العام التالى ١٩٦٦ تعين سوينكا كبيرًا للمحاضرين فى جامعة لاجوس ، ورئيسًا لقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب .

فى نفس العام حصل سوينكا على جائزة « جون هوايتنج للدراما » مشاركة بالنصف مع كاتب آخر ، وفى نفس العام أيضًا مثلت مسرحيته « محنة الأخ جيرو » على مسرح « هامستيد » بلندن . ومثلت مسرحيته « حصاد كونجى » فى داكار فى أثناء انعقاد مهرجان الفنون الأفريقية ، ومثلت مسرحية « الأسد والجوهرة » على المسرح الملكى بلندن .

فى عام ١٩٦٧ صدر له ديوان شعر باسم « إيدانر .. وقصائد أخرى » . وتعين سوينكا مديرًا لمعهد الدراما بجامعة ايبدان . ولكن قبل أن يتسلم منصبه فى شهر أغسطس ، اعتقلته سلطات الحكومة الفيدرالية بتهمة نشاطه فى مساندة حركة

انفصال بيافرا فى أثناء الحرب الأهلية .

فى ٢٢ ديسمبر من نفس العام نقل سوينكا من سجنه بمدينة لاجوس ، إلى سجن « كارون » . وفى ١٨ ديسمبر من العام التالى ١٩٦٨ – وهو فى السجن – فاز بجائزة « جوك كامبل » للآداب فى الكومنولث ، التى تنظمها جريدة « نيوستيتسمان » عن روايته « المفسرون » وعن ديوانه « أيدانر .. وقصائد أخرى » .

وخلال وجوده بالسجن أيضًا ، صدر كتاب لروايته « غابة الألف شيطان » التى ترجمها للإنجليزية عن لغة « اليوربا » . وصدر كتاب آخر يضم ثلاثا من مسرحياته القصيرة . وصدر له كتيب صغير من بضع صفحات بعنوان « قصائد من السجن » ، يضم قصيدتين كتبهما فى المعتقل وأمكن تهريبهما إلى الناشر .

فى ٢٦ أكتوبر ١٩٦٩ صدر الأمر بالإفراج عن سوينكا بمناسبة عيد استقلال نيجيريا . وتسلم عمله كمدير لمعهد الدراما بجامعة أيبدان . وبعدها ببضعة شهور ، قدم له مسرح « أيوجين أونيل » فى « وانفورد » مسرحيته « المجانين والخبراء » التى حققت نجاحًا كبيرًا لدى المتفرجين الأمريكيين . وصدر ديوانه الثانى « غدو ورواح فى المقبرة » .

وفى أبريل ١٩٧٢ قدم استقالته . وترك العمل بالجامعة .

* * *

إذا استعرضنا الإنتاج الغزير لـ« وول سوينكا » لوجدنا أنه يضم إحدى عشرة « مسرحية » وديوانى شعر ورواية واحدة هى « المفسرون » التى نال عليها جائزة .

« المفسرون » وصفها الناقد الأفريقى « لويس نكوزى » بعبارة تقول :

« قدم لنا سوينكا فى روايته الأولى المفسرون ، أقرب صورة للرواية الكبيرة التى أتيح لنا أن نشهدها فى أفريقيا . فالمشاهد العريضة التى نراها فى هذا الكتاب ، بما تزخر به من شخصيات متعددة ، وبحيويتها الدافقة ، وتقدمها الواثق ، لا نجد لها

نظيرًا فى إنتاج أى كاتب روائى أفريقى آخر يكتب بالإنجليزية باستثناء شنوا أتشيبى » .

ثم يضيف الناقد – المعروف بقسوته الشديدة فى النقد – قائلا :

« رواية كتبها رجل على استعداد لمد طموحه ومواهبه وأسلوبه اللغوى – وهى أدواته التى يعمل بها – إلى أبعد نطاق يمكنه من الوفاء بغرضه » .

المفسرون هم جماعة صغيرة من شباب نيجيريا المثقفين المشتغلين بالترجمة . كل منهم يفسر أعمال الآخر . وكلهم يحاول أن يفسر المجتمع الذى يعيشون فيه . لقد نشئوا كأصدقاء خلصاء تجمعهم أوقات اللهو والشراب . وحتى بعد تخرجهم من الجامعة وتفرقهم هنا وهناك ، فإنهم يلتقون بين الحين والحين كمثقفين من طراز واحد ، فيشربون ويمرحون معًا ، ويتأملون الحياة فى نيجيريا القديمة والحديثة على السواء .

رؤية سوينكا فى الرواية ، تكوين معقد للقيم التقليدية الموروثة ، والاتجاهات المعاصرة للحياة اجتماعيًا وسياسيًا . وللصراع بين أديان ومعتقدات « اليوروبا » وبين طبيعة مجتمع الغرب . العمل ممتد على رقعة واسعة . والرواية صيغت فى شكل عدد من المشاهد التى يغذيها الحوار . وهذا تطبيق للأساليب الدرامية التى يتقنها سوينكا . ولكنه تدعيمًا للشكل الفنى ، يستعين ببعض فقرات الوصف بالأسلوب المبنى على فكرة تيار الوعى ، ليجعل شخصياته تفسر نيجيريا الحديثة ، وتفسر تراث اليوروبا أيضًا .

ويمكن أن نقول إن « المفسرون » هجائية ذات أشواك حادة ، موجهة ضد سقم مجتمع المدينة النيجيرية أو المدينة الأفريقية . ويحتفظ سوينكا – كعادته – بسخريته اللاذعة للنيل من مظاهر التصنع فى السلوك التى تتكلفها طبقة البرجوازية الجديدة فى نيجيريا .

الرواية تتميز بقوة ودقة فريدة . كما تتميز أيضا بحيوية وسلاسة لغوية منقطعة النظير ، تعكس ذكاء سوينكا المتوقد ، وتعكس تمكنه الشديد من اللغة الإنجليزية . وهو يقدم لنا أنماطًا مألوفة . إنهم أنماط ، ولكنهم أفراد متميزون أيضًا . الأرستقراطى . الصحفى ، رجل القانون . المهندس . الفنان . ويقدم لنا أيضًا الملاهى الليلية ، وحفلات الكوكتيل أو .. الزنوج والشهوانية ! ويقدم لنا أيضًا الفساد السياسى . كل ذلك يحظى بعناية وفحص معملى دقيق .

ووسط كل هذا الحشد ، لا يكف سوينكا عن التفكير فى « أوجن » إله القتال والخلق فى تراث اليوروبا .

إن هذا الإله حير سوينكا ، ماذا يكمن وراء طبيعة أوجن من مغزى ؟ إنه إله يجمع بين شهوة التدمير من ناحية ، وبين الدافع إلى الخلق من ناحية أخرى . فبينما يتخذ سوينكا من هذا الإله رمزًا للإلهام المبدع بالنسبة للفنان المعاصر. نجد أن مسعاه يتضح أيضًا فى إقامة صلة بين الطبيعة المزدوجة للإله أوجن وطبيعة الفنان فكلاهما هادم وخالق فى ذات الوقت .

وإذا كان سوينكا لم يكف عن التفكير فى الإله أوجون وهو يكتب « المفسرون » ، فإنه لم يكف عن التفكير فيه وهو يكتب أشعار ديوانه « أيدانر ، وقصائد أخرى » . فأبرز موضوعات هذا الكتاب ، عنف أوجن إله اليوروبا الذى يرمز للحديد والنار والحرب .

* * *

إن سوينكا لا يشغله فى روايته وقصائده الإله « أوجن » فقط . ولكننا نلمح فى خلفية مسرحياته اعتقاد قبائل اليوروبا فى الأسلاف والأجداد . وهو يعالج بطريقة مثيرة ، أفكارًا متواترة . مثل إرجاع الآلهة القديمة إلى مكانتها ، والصراع بين قيم المجتمع القديم والجديد . وعلاقة الرغبة فى الموت والتضحية .

ففى مسرحية « السلالة القوية » يعرض التشابه والفروق ، بين التضحيات المسيحية والأفريقية .

وفى مسرحية « رقصة الغابات » – مثلت لأول مرة بمناسبة احتفالات استقلال نيجيريا – تدور الأحداث بين الآلهة ، والأرواح ، والناس المشتغلين بالسياسة . وتدور حول التاريخ ، والفن ، والواقعية ، والعقائد..

فى هذه المسرحية ، نرى خلفية « ديموكى » النقاش ، وهى ترسم صورة دقيقة – ذات دلالة – لعملية النقش ، ودور نقاش الخشب فى عقيدة قبائل اليوروبا .

ونجد أن مسرحيته « الأسد والجوهرة » تعالج مشكلة الاختيار بين المدينة ، وبين القرية بجمالها التقليدى . والذى يواجه مشكلة الاختيار ، أحد المدرسين يرمز به سوينكا للمدنية والتقدم . المدرس حائر بين أفكاره ، وبين الجيل القديم المتحكم فى المجتمع الذى يرمز به سوينكا للتقاليد . وينتهى الأمر إلى التأكيد على أنه من الأفضل أن يستمر التقدم مع الاحتفاظ بالأصالة والقيم .

وبالرغم من أن سوينكا يستخدم اليوروبا ، بأقنعتها ، وآلهتها ، وطبولها ، وشعائرها ، فى مسرحياته ، فإنه يقاوم مبدأ « الزنوجة » الذى روج له ترويجًا شديدًا كل من : « أيميه سيزير » شاعر جزر الهند الغربية ، و « ليوبولد سنجور » شاعر السنغال ورئيس جمهوريتها(عام-١٩٧٣) . فى رأى سوينكا أن الوعى الزنجى ، والتراث الزنجى ، والقيم المشتركة فى العالم الزنجى ، كلها بلا جدال أمور هامة . ولكنها ليست سوى جزء من الوعى الإنسانى ، والقيم المشتركة للإنسانية المستنيرة .

إن سوينكا لا يريد من الزنوجة التى جاءت كرد من ردود الفعل على مظاهر تعالى البيض وغطرستهم ، أن تتحول لتعكس صورة مريضة لأفريقيا . أو أن تتجه

لمجرد إثارة عاطفة حول احترام الذات أو البعث الأفريقى . لأن الزنوجة – فى رأيه – لا تستطيع أن تصبح شيئًا مطلقًا أكبر من الفن أو الحياة . ولا تستطيع أن تكون أكبر من الإنسانية ذاتها .

وسوينكا محق فى رأيه .

ونستطيع أن نلمس مدى الحق فى رأيه ، إذا تأملنا كيف استطاع هو كفنان ، وليس كزنجى ، أن يفرض نفسه على العالم .

ففى جامعة «كانساس» الأمريكية ، كان موضوع إحدى الرسائل للحصول على درجة الماجستير «وول سوينكا المسرحى النيجيرى» .

وعن سوينكا وأدبه وشعره وفنه المسرحى صدر أكثر من كتاب :

* «كتابات وول سوينكا» صدر فى لندن ١٩٧١
* «وول سوينكا» صدر فى لندن ١٩٧١
* المسرح والقومية .. وول سوينكا والملك جونس» صدر فى باريس ١٩٧٢ .

وإذا كان سوينكا يقاوم عقيدة الزنوجة . فإنه شديد الاعتزاز بأنه أفريقى . وحريص على أفريقيته وشديد الاعتزاز ببلده . وحريص فى كل ما يكتب أن يوجه كتاباته لوطنه نيجيريا ، ولوطنه الأكبر أفريقيا .

وفى نداء موجه للكاتب فى أفريقيا ، يقول سوينكا :

«إن الكاتب الافريقى مطالب بتركيز اهتمامه على العلل التى تظهر أعراضها بوضوح فى بلده الأفريقى ، وبين شعبه وقومه . لقد كانت وظيفة الفنان فى المجتمع الأفريقى – دائمًا – متمثلة فى كونه سجل خبرات مجتمعه ، ومعاييره ، وعاداته ، وقوانينه الأخلاقية ، وفى كونه أيضًا الصوت الذى تنطلق به الرؤية فى عصره . ولقد آن الأوان لكى يستجيب ذلك الفنان لجوهر ذاته هذا» .

ثم يضيف :

« أقسم لكم ، أنه إذ أمعن كل منكم النظر فى نفسه ، فوضع يده تمامًا على ما يحس به ، وأفصح عنه بصدق ، أى اتخذ موقف الولاء تجاه ذاته ، أقسم لكم أن ذلك سيكون أفضل سبيل له كى يقف موقف الولاء من شعبه . متى وعى ذاته . ووقف على حقيقة ما يحس ، ترجم بصدق ، عما يحسه شعبه وقومه » .

* * *

حياة حافلة .. برغم سنواتها المعدودة ..

وإنتاج غزير .. متنوع .. ولكن يتميز بشىء ..

إن سوينكا .. يصور فى معظم أعماله ، ماذا يمكن أن يتعرض له الإنسان الذى يعادى السلطة ، عندما يختلف معها فى الرأى . وهو نفسه يقول :

« إن الإنسان معرض لأن يكون ضحية لمجتمعه من أجل مبادئ يؤمن بها ، بل إنه معرض لدخول السجن فى سبيل مبادئه » .

وقد دخل سوينكا السجن .. مرتين ..

المرة الأولى لبضعة شهور ، والثانية لبضع سنوات ، كتب خلالها قصيدتين ، « أشعار من السجن » و « زهور لبلدى » .

كان هو سجينًا فى مساحة محدودة يصفها ساخرًا قائلا : إنه شىء أشبه بكفن وضعت فيه حيًا ، مساحته ١٦ شبرًا عرضًا و ٢٣ شبرًا طولا . عشت تحت رقابة حراس يبدو أنهم من أصحاب مذهب السادية ! !

فى هذا « الكفن » محدود المساحة ، يفكر سوينكا ، بعقل يتجاوز حدود السجن ، ويتجاوز حدود بلده التى تحيا فى حرب أهلية مدمرة .. لينادى « أيتام العالم » لينقذوا الإنسان من غبائه . إنه فى ظل مرارة السجن ، لا يهمه إلا الصدق والحقيقة . لا يهمه إلا نضال الإنسان ليبقى أبدًا مخلصًا للصدق وللحقيقة . ولا يهمه

إلا تضحيات الإنسان لنبض الحقيقة ، وليبقى الصدق مشعلا يضيء الطريق لكل الأجيال القادمة .

إنه يترجم كل هذه المشاعر فى قصيدته « زهور لبلدى » . التى يبدؤها بدعوة ضد العنف وضد الحرب ، إنه يبدو كما لو كان يحيا فى بلد بعيد عن نيجيريا . ويسأله أهل ذلك البلد الغريب : أين ذهبت زهوركم ؟ ويحس أن أسئلة الغرباء ، يتردد صداها فى وطنه نيجيريا ، حيث ينبت الموت مكان الزهور التى اختفت . يقول :

ابحث عن ..
أصوات مطر تحت ضوء الشمس
وطائرات زرقاء من الورق
وراءها سحابة عاجية ..
وأبراج .. ورائحة أيدى ..
تتحسس برفق ، الزهور الجبلية ..

صورة للحياة .. للجمال ، ولكن سرعان ما تتحول الصورة إلى النقيض .. فيقول :

رأيت .. أربع طائرات من صلب ..
هل تظن .. أن أذرعتها المفتوحة ..
مفتوحة .. تنثر الزهور الجبلية ؟!

سوينكا .. يرى طائرات الورق التى كان يلعب بها الأطفال الصغار .. قد تحولت إلى طائرات من صلب ..

طائرات عنيفة قاسية .. تجتاح السماء ومعها غيوم قاتمة . وتحولت الزهور الجبلية الجميلة .. إلى قنابل تقتل وتدمر .

الشىء الذى يجب ملاحظته . أن سوينكا فى كتاباته حتى وقت دخول السجن عام ١٩٦٧ كان خفيف الظل ، ساخرًا ، تنطوى كلماته على هجاء ساخر مرير من أجل غد أفضل لقومه وبلده حتى كان يطلق عليه – أحيانًا – اسم « مارك توين » الأفريقى . تشبيهًا له بكاتب أمريكا الساخر المعروف . ولكنه بعد سجنه فقد قدرته الساخرة ، وفقد خفة ظله التى لازمته عشرة أعوام من عمره الفنى .

مثلا .. فى أيام سخريته .. فى قصته القصيرة « محادثة تليفونية » تسأل صاحبة البيت الإنجليزى طالب سكن أفريقى :

– ما مدى سوادك؟ هل أنت أسمر.؟ أم أسود؟

– أنا .. من غرب أفريقيا . من حيث الوجه ، فأنا أسمر . ! ولكن ياسيدتى .. يجب أن ترى بقيتى . ! ألا يحسن بك ياسيدتى .. أن تعاينى بنفسك ؟!

شىء آخر .. يميز سوينكا .

إنه لا يعتبر نفسه كاتبًا ملتزمًا بأى أيديولوجية محددة . إذا كان هناك ما يلتزم به حقًا .. فهو الإنسان . لهذا فإن أعماله تمجد الحياة . وتمجد الإنسان .

تجربة السجن .. تركت بصماتها عليه بوضوح .. لقد فقدت قصائده الرشاقة ، والمرح ، وروح الفكاهة الرقيقة فى عذوبة .. وتحول إلى نبرة حزينة قاتمة .. بالرغم من المنصب الذى عين فيه عقب الإفراج عنه ، وبالرغم من قرار الحكومة تخصيص ربع مليون جنيه إسترلينى لتحويل مسرحيته « حصاد كونجى » إلى فيلم سينمائى طويل .

* * *

هذا هو « وول سوينكا » الذى تخطى بإبداعه الفنى آفاق نيجيريا ، وتجاوز حدود أفريقيا ، إلى آفاق عالمية واسعة عريضة ، ليصفه نقاد بريطانيا ، بأنه من أفضل من يكتبون بالإنجليزية اليوم فى أى مكان من العالم .

موقف من الحياة..

أصابع قادرة على صياغة التماثيل
على نحت قامات الأجساد من الرخام
على ترجمة الأفكار..
أصابع تؤثر فينا..
وتهزنا..
أصابع الفنانين.

« من قصيدة الأصابع »

لا شك أن الأدب والفن.. موقف.
موقف من الحياة.. أو مع الحياة.
والأديب والفنان « عثمان سميني » الذى نتعرف عليه فى هذه السطور، متعدد



● عمان سمبیی ●

المواهب والملكات ، ولكن يكرسها كلها من أجل أفريقيا ، ومن أجل الإنسان الأفريقي وحريته وكرامته ، ومن أجل الإنسان فى كل مكان .

سمبيني شاعر مرهف ، وروائى لامع . ومخرج سينمائى يتردد اسمه فى أنحاء العالم وتفوز أفلامه بجوائز المهرجانات العالمية .

وهو فى قصائده ، أو فى رواياته ، أو أفلامه ، يبقى دائمًا بالقرب من الناس ، وبالقرب من الواقع أيضًا . ولكنه يخص الطبقة العاملة باهتمام خاص . بل إنه يعتبر نفسه مسجلا لحياة العمال ونضالهم ، سواء بالكلمة فى القصيدة ، أو بالجملة فى الرواية ، أو بالصورة فى أعماله السينمائية .

هذا هو موقفه مع الحياة ..

وهذا الموقف من سمبيني طبيعى جدًّا ..

* * *

ولد سمبيني يوم ٨ يناير ١٩٢٣ فى « زيجينكور » بإقليم «كازمانس » بجمهورية السنغال الأفريقية . لم تتح له الفرصة لدخول مدرسة ثانوية . أومدرسة عالية أو جامعة من الجامعات . فاضطر لأن يعلم نفسه بنفسه . إن كل ما أتيح له من فرص ، بضع سنوات فى مدرسة ابتدائية . وبعدها اشتغل بصيد السمك (مهنة أبيه) . عندما بلغ الثانية عشرة من العمر . دربوه وعلموه لكى يصبح عامل بناء . ولكن الفكرة لم تعجبه على الإطلاق . وفضل أن يصبح « ميكانيكى » !

نشبت الحرب العالمية الثانية . وجندوه فى صفوف الجيش الفرنسى كجندى من الدرجة الثانية بالطبع . واشترك فى القتال الذى دار ضد النازى والقوات الإيطالية فى إيطاليا وألمانيا . ثم سرح من الخدمة العسكرية فى « بادن بادن » بألمانيا وعاد إلى السنغال عام ١٩٤٧ ليجد هناك اضطرابًا عامًّا قام به عمال السكة الحديد .

بعد هذه التجربة فى دنيا العسكرية فى أوروبا ، أحس سمبيني بحاجته إلى مزيد

من المعرفة فى عالم الأدب . وأحس بطموح شديد لأن يصبح أديبًا . ودفعه الإحساس والطموح للسفر إلى فرنسا ، حيث قضى عشرة أعوام من عمره ، اشتغل خلالها عاملا فى ميناء مرسيليا ليواجه مطالب الحياة والتعليم . وخلال تلك الفترة ، بدأ سمبينى يمارس تجربة الكتابة .

وفى عام ١٩٥٧ عاد إلى « داكار » عاصمة السنغال ليستقر بها فترة ، مالبث بعدها ، أن بدأ سلسلة طويلة من الرحلات والسفريات فى أفريقيا ، يرى كل شيء بعينى كاتب يبحث عن الأعماق :

عندما بدأ سمبينى الكتابة ، وجد فى القصيدة أداته للتعبير . وما لبث أن هجرها . ووجد ضالته الرواية الطويلة المكتوبة . واستطاعت تجربته فى الخدمة العسكرية والحرب ، وتجربة العمل فى ميناء مرسيليا أن تضفى على أعماله حيوية وخبرة وصدقًا . وهو فى أعماله يهتم بالطبقة العاملة الأفريقية بوجه خاص . ويعتبر نفسه مسجلا لحياتها ونضالها .

وإذا استعرضنا عناوين رواياته ، فإننا نلمح على الفور اهتماماته .. مثلا .. « عامل الميناء الزنجى » « يابلدى .. ياشعبى العظيم » ، و « فولتايك » و « قطع الخشب يملكها الله » .. إلخ .

الرواية الأخيرة صدرت عام ١٩٦٠ وتدور حول الإضراب التاريخى لعمال السكة الحديدية الذى وقع عامى ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ، ويرسم فيها سمبينى صورة نابضة بالحياة للأحوال التى سادت السنغال عقب هذا الإضراب .. يقول فى روايته :

« مضت الأيام والليالى . لم تكن هناك أخبار سوى تلك التى كانت تجلبها كل ساعة إلى كل بيت . وكان الحال لا يتغير . انتهى المخزون . ونضبت المدخرات . ولم يعد فى البيت نقود ، الناس يخرجون سعيًا وراء من يقرضهم شيئًا . الإجابة التى

يسمعونها من التجار لا تتغير : إنك أصبحت مدينًا لى بالكثير ! كيف تسدد ؟ » .

ويتساءل سمبينى على لسان شخصية من شخصيات روايته :

« وماذا عنى ؟ لن أستطيع – قطعًا – أن أسدد ما اقترضت . بل لن أستطيع أن أسدد الفاتورة القادمة ! لماذا .. لماذا لا نستأنف العمل ؟! »

إنه يكشف النفس البشرية .. برؤية وإدراك لم يتوصل إليها الكثيرون فى الكتابات الاجتماعية الأفريقية .

ومع ذلك .. فهو فى مقدمة أروع أعماله الأدبية « لارماتان » يقول بكل تواضع :

أنا لا أكتب نظرية عن الرواية الأفريقية .. ولكن فكرة عملى هى البقاء بالقرب من الشعب والواقع بقدر ما يمكن »

وهذه الرواية « لارماتان » تتألف من جزءين . الجزء الأول من تسعة عشر فصلا بعنوان « استفتاء » . وكان سمبينى فى ذلك الوقت يكتب روايته « دومبى » التى تروى حياة عائلة سنغالية خلال مائة عام . ولكن « دومبى » تأثرت بالأمر الواقع ، فقد غلب الحاضر الماضى .

يقول سمبينى حول هذا :

« منذ نشأت فكرة لارماتان .. فرضت الشخصيات على نفسى طباعها ، على عكس ما فعلت مؤلفاتى الأخرى . بل إن الشخصيات تمردت على سيطرتى ، وطالبت بفضاء واسع يتفق وتوحيد بعض الدول الأفريقية » .

ويرى سمبينى .. أنه جاب طرقات أفريقيا على امتداد شهور ستة .. حتى يفهم ويرى ما ينبغى أن يتحدث عنه .

لهذا كان طبيعيًّا أن تفوز الرواية بالجائزة الأولى فى مهرجان أفريقيا السوداء الذى أقيم فى « داكار » عام ١٩٦٩ ، إن أحداث الرواية لا تدور فى دولة من الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية كما يظن الكثيرون . وهو يبرر ذلك بكلمات تقول :

« أنا آخذ من كل دولة واقعة أو حدثًا من أحداث المدينة . وفكرتى هى أن يكشف عنها كل واحد . ويرى فيها قدرًا من نفسه ، حسب الحياة التى يحياها » .

إن الأحداث تدور ، لا فى بلد معين ، بل فى مكان لا يمكن تحديده جغرافيًّا . مدينة ترمز إلى أفريقيا فى مجموعها . فى هذا البلد تتألف جبهة تطالب بالاستقلال ، فى نهاية الرواية تتحرر « غينيا » لأنها تقول « لا » للاستعمار ، ولكنها بإرادتها تفتح الطريق أمام أفريقيا الجديدة .

عثمان سمبينى على لسان إحدى الشخصيات فى روايته ، يقول :

« إن مواطنينا الذاهبين إلى غينيا سيعرفون كيف يتحدثون عن كفاحنا . إن غينيا ، وساحل العاج ، والسنغال وأولنجى والكونغو أجزاء من وطننا . لقد تسبب قانون أثيم ، شرعه آثمون ، فى التفرقة بيننا . لكنها تفرقة سطحية جدًّا .. »

إنها رواية سياسية ثورية تصور أفريقيا فى مفترق الطرق . عليها أن تختار فى الاستفتاء ، ومستقبلها يتوقف على هذا الاختيار . ومن خلال سطور الرواية تبدو موهبة سمبينى السينمائية . فهو بارع فى تحريك عدد من الشخصيات على طريقة « زولا » . والمشاهد تتسلسل أمام القارئ على اختلاف أهميتها . تحتل فيها هذه الشخصية أو تلك ، ويحتل فيها هذا الموقف أو ذاك مكان الصدارة على التوالى . كما أن الزمان فيها قادر على الرجوع إلى الوراء تمامًا مثل « الفلاش باك » فى السينما . وهى تبتعد عن التكنيك التقليدى للرواية . فهى ليست سردًا أو وصفا أو تحليلا . بل هى سلسلة من اللوحات تتصاعد تدريجيًّا نحو الخاتمة الأليمة . نحو انتصار « نعم »

فى الاستفتاء ، أى انتصار الاستعمار فى تمزيق وحدة أفريقيا !

إن الموهبة السينمائية لدى سمبينى .. لا تطغى على موهبة الشاعر الأديب .. فالرواية تسبح فى تلك الشاعرية الأفريقية التى تتغنى بالزنجى والزنوجة والتى نلمحها فى أعمال « سنجور » و « سيزير » وغيرهما . إنها شاعرية نابعة من الصورة والإيقاع . نابعة من لغة العشيرة والأهل : « سلام فحسب ! سلام على العالم أجمع ! فليحل السلام فى هذا البيت . وكل البيوت الأخرى » .

الجزء الأول من « لارماتان » بعنوان « استفتاء » نشأت فكرتها من القضية التى طرحت للاستفتاء فى ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ . والاستفتاء – كما يبدو ظاهريًّا – أن تختار أفريقيا ، بين أن تولى ظهرها للماضى وتتطلع للمستقبل . أو ترتبط بالماضى وترفض المستقبل . ولكن الاستفتاء يبدو فى عين سمبينى ، اختيار بين الاستعمار والاستقلال . فى الرواية يتلامس عالمان : عالم السود . وعالم البيض . ويواجه جيلان بعضهما بعضًا : جيل الآباء أنصار التقاليد . وجيل الأبناء الثوريين .

أفريقيا فى هذا الاستفتاء – تقف عند مفترق الطرق ، وعليها أن تختار ، ومستقبلها يتوقف على هذا الاختيار ، وكلمة الاستقلال تعنى : الحرية والكرامة الإنسانية . واختيار هذا الطريق معناه مواجهة أعباء ثقيلة بعد اتخاذ تلك الخطوة . ولكن الأعباء الثقيلة لا تعنى اختيار الطريق الأسهل الخالى من الأعباء . إن الطريق الأسهل هو الطريق الآخر . طريق الاستعمار ، أى طريق الاستعباد .

ولكن ..

الأغلبية – فى الاستفتاء – تختار الطريق السهل ، طريق بلا متاعب ولا أعباء ! !

ولكن الاختيار ، لا ينبع من الإرادة الحرة للجماهير . فقد استخدم البيض كل الوسائل والأساليب ليشتروا من الزنوج من هو قابل للفساد . لقد عبثوا من يديرون

البلد – وأغلبهم عملاء للبيض – من رجال الشرطة والدين ، ومنحوهم وعودًا معسولة .

مثلا ..

الشعب .. سيعفى من الضرائب !

المحصول .. سيباع بثمن أعلى !

ليس هذا فقط ..

بل لقد أجزلوا لهم العطاء ، بالنبيذ ، والويسكى . وجوالات الأرز !

بهذا الأسلوب .. نجح المستعمرون فى توجيه الجماهير فى الاستفتاء لاختيار الطريق السهل . ولكن الجماهير لا يمكن أن تتنكر لمبادئها وأصالتها . إن المخلصين الأوفياء ، أناس بسطاء متواضعون : للفقراء من المثقفين . العمال . أفراد من الشعب . ولكنهم جميعًا فى جبهة واحدة . إنهم – أولا وقبل أى شىء – ثوار يدافعون عن الاستقلال ، وعن وحدة أفريقيا الحرة . صحيح أنهم هزموا فى الاستفتاء ، ولكن نصرهم ليس ببعيد .

إن سمبينى – بموهبته الشاعرية والروائية – يؤكد إيمانه العميق بكرامة الإنسان . وبأيام قادمة مشرقة .

وقد نتساءل عن « لارماتان » أصل الرواية .

« لارماتان » اسم لوحة رسمها الفنان « لى » ، لوحة تمثل تاريخ أفريقيا كله . يجلس تاجر عظام آدمية وخلفه كوم منها . ومن حوله السوق . رجال ونساء وأطفال . فى اللوحة أيضًا « نوم » وهى النموذج المفضل لدى الفنان راسم اللوحة . نرى نوم وقد التفت بقماش أبيض وتحمل طفلا يرفع يده .

سمبينى يسأل صديقه « لى » شرحًا للوحة فيقول له :

« اللوحة تمثل الماضى والمستقبل . الرجل الذى تراه ومن حوله العظام ، يعرض

حقيقة . يعرض الموت البطىء المؤكد . يعرض ثمرة حتمية للنظام الذى يحكمنا ، من حول التاجر نرى الشعب . شعب حكم عليه بالفناء » .

ثم يضيف الفنان السنغالى « لى » قائلا :

« أمانوم ، فهى تجسيد للأرض الأفريقية ، الأرض الحارة الخصبة التى تجزل العطاء بلا انتظار ، والطفل يرفع يده مشيرًا إلى التاجر ويسأل : ماذا عن غدى ؟ إنه يرفع عينيه إلى والديه . وجه الأب ينم عن الخوف . أما وجه الأم فلا ينم عن شىء . لا عن غضب . ولا عن رغبة فى الثأر » .

ويصمت « لى » قليلا .. ثم يقول لسمبينى :

«إن اللوحة فى مجموعها ، تعنى أن أفريقيا مقبرة للأفريقيين. وفوق رءوس كل هؤلاء ، لارماتان . كأنها سحابة بنفسجية . لارماتان ليست ريح حارة جافة كما نعرفها . إنها هنا فى اللوحة ، النحيب ! نحيب أربعة قرون صادر عن ملايين الأصوات ، أصوات الأفريقيين المدفونة . إنها صرخة مصممة على الوصول إلى آذان جيلنا . صرخة قادمة من ليال قديمة غابرة ، من أجل أيام قادمة مشرقة »

إن الأدب والفن – فى رأى سمبينى – موقف . موقف من الحياة . أو مع الحياة . والأدب والفن يلتقيان على نفس الطريق ، فى اتجاه نفس الهدف . وتاكيدًا لذلك ، أعطى لروايته اسم « لارماتان » نفس اسم لوحة صديقه الفنان « لى » ، الذى عبر فى لوحته بالألوان والفرشاة ، عن نفس المعانى التى عبر عنها سمبينى فى روايته بالكلمة المكتوبة .

وقبل أن نترك عالم الكلمة عند سمبينى ، لننتقل إلى عالمه الجديد ، عالم الكلمة المصورة ، لابد أن نتوقف لحظة لكى نشير إلى « عامل الميناء الزنجى » أول أعماله الروائية . وهى تدور حول سيدة بيضاء تسرق نص رواية كتبها عامل أسود فى الميناء . السيدة البيضاء تنسب النص لنفسها . وتحاول طبعه ونشره حاملا اسمها .

ولكن زيفها ينكشف وتفشل محاولتها . وقد نشأت فكرة الرواية من تجربة شخصية لسمبينى فى أثناء وجوده فى مرسيليا .

كما نشير أيضًا إلى رواية « يابلدى .. ياشعبى العظيم » وهى حول رجل أسود تعلم فى أوروبا . وذات يوم يعود إلى وطنه متأبطًا زوجة شقراء . ويقابله قومه باستنكار شديد . ويبذل البطل محاولات كثيرة ليقنع أهله . وليعلمهم المدنية والتقدم . ولكن أفكاره تواجه برفض ومقاومة شديدتين . الغريب . أن الرافضين هم أهله المتزمتون المتشبثون بالتقاليد . وهم أيضًا المستعمرون البيض ! هذه الرواية لم تلق نجاحًا جماهيريًّا فى السنغال . ومع ذلك فقد ترجمت إلى أكثر من لغة أجنبية .

* * *

احترف سمبينى الكتابة والأدب ، وحقق نجاحًا ملحوظًا . وفجأة جاءته فرصة للذهاب إلى الاتحاد السوفيتى للدراسة بمعهد السينما . ولم يتردد لحظة وترك بلده وسافر للدراسة . وبعدها استطاع سمبينى أن يجعل من هذه الفرصة نقطة تحول حاسمة فى حياته . واستطاع أن يحقق فى عالم السينما نجاحًا أكسبه لقب أشهر مخرجى السينما فى أفريقيا السوداء . وأكسبه شهرة عالمية .

انتقل سمبينى إلى السينما كأداة تعبير جديدة . وخرج من عالم الكلمات ليدخل عالم الصور المرئية ، كانت أول أعماله فيلمًا قصيرًا بعنوان « بوردم ساريت » الذى فاز بجائزة العمل الأولى فى مهرجان « تور » بفرنسا عام ١٩٦٣ . وفاز بالجائزة الدولية للسياحة فى باريس فى نفس العام .

ثم أخرج فيلمه القصير « نييه » الذى حصل على جائزة تقدير هيئة تحكيم « لوسرن » بسويسرا عام ١٩٦٤ وفى نفس العام فاز بالجائزة الدولية للأفلام التسجيلية بفرنسا ثم أخرج فيلم « سوداء من .. » وهو أول فيلم طويل يتم تصويره فى

أفريقيا . وفاز بجائزة « جان فيجو » باريس والجائزة الأولى لمهرجان فنون أفريقيا السوداء بداكار (السنغال) فى عام ١٩٦٦ .

ثم أخرج فيلم « مندابى » . وهو أول فيلم طويل بلغة « الولوف » الأفريقية . وقد فاز بجائزة خاصة فى بينالى البندقية عام ١٩٦٨ . وفى نفس العام فاز الفيلم بالجائزة الأفريقية الآسيوية فى مهرجان طشقند السينمائى . أما آخر أفلامه فهو « ايميتى » . فيلم طويل فاز بجائزتين فى مهرجان موسكو السينمائى عام ١٩٧١ .

فى عام ١٩٧١ أخرج سمبينى فيلم « إله الرعد » الذى تدور أحداثه فى إقليم « كازمانس » – مسقط رأسه – خلال الحرب العالمية الثانية ، فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تستخدم أسلوب العصابات فى السنغال للضغط على المواطنين ، من أجل تجنيد شباب من أصحاب القوة الجسدية فى صفوف القوات الفرنسية المحاربة . وكانت السلطات تشحن الشباب المجند إلى أوربا ليعملوا فى تموين المدافع بالقذائف والقنابل .

موضوع الفيلم ينبع أولا من التجربة الشخصية لسمبينى فى الحرب العالمية الثانية . ومن مجموعة قصص قصيرة كان قد كتبها ونشرها فى وقت سابق .

وسمبينى الذى يرأس الآن اتحاد السينمائيين فى السنغال ، يبدو فى كل أعماله السينمائية ، شاعرًا وكاتبًا . إنه يستخدم الصورة كما يستخدم الكلمة فى التعبير عن أفكاره السياسية النابعة من مفهوم وإحساس ثورى . وفكرة الاستقلال عنده ترتبط بالحرية والكرامة والتقدم . وهو فى الفيلم والرواية والقصيدة يعبر عن إيمان واثق عميق بانتصار الإنسان فى كل مكان يناضل فيه ضد الاستعمار من أجل غد أفضل .

قابلت سمبينى فى المؤتمر الخامس للكتاب الأفريقيين الآسيويين ، الذى انعقد فى سبتمبر ١٩٧٣ فى مدينة « الما آتا » عاصمة جمهورية « قازاقستان » السوفيتية . كان

مدعوًا لحضور المؤتمر ، ولاستلام جائزة لوتس للأدب الأفريقى الأسيوى التى فاز بها عن عام ١٩٧١ .

فى لقائنا قال : « عندما كنت صبيًّا ، لم يكن يدور بخلدى أن فقر أسرتى سيقف حائلا أمام تعليمى ودخولى الجامعة . ولكن الأيام أثبتت لى خطأ ما اعتقدت . ووجدت فى الكتابة والأدب وسيلة تحقق لى واحدة من أمنياتى وهى الاتصال بالجماهير الأفريقية التى نشأت بينها . وأعرف ما تعانيه . أعرفه تمامًا . كما أعرف ما يتطلع إليه الناس الأفريقيون فى الغد والمستقبل » .

عندما تحدثنا عن السينما فى أفريقيا .. قال :

« هناك أسس للسينما فى أفريقيا . ولكن لا يوجد هناك حتى الآن ما يمكن أن نطلق عليه اسم السينما الأفريقية . معظم دور العرض فى أفريقيا ملك لغير الأفريقيين . وهناك مخرجون فى أفريقيا ولكنهم لا يعملون . وإذا وجدوا ما يعملونه ، فإنهم لا يجدون من يوزع أفلامهم . وهذا يتطلب إقامة مؤتمرات ومهرجانات للسينما فى أفريقيا ، لدراسة المشاكل والتعاون لإيجاد حلول لها . وأعتقد أن بلدكم مصر ، قادرة على عمل الكثير فى هذا المجال » .

* * *

سمبينى الذى بدأ حياته الأدبية شاعرًا ، يؤكد مرة أخرى التقاء الفن والأدب على نفس الطريق فى اتجاه نفس الهدف . نلمح ذلك فى قصيدته « أصابع » .. إن الفنان – قبل أى شىء – مقاتل من أجل الحرية ، ومن أجل الانتصار على قوى الاضطهاد والشر . يقول :

أصابع قادرة على صياغة التماثيل
على نحت قامات الأجساد من الرخام
على ترجمة الأفكار

أصابع تؤثر فينا
وتهزنا
أصابع الفنانين

* * *

أصابع خشنة غليظة جافة
تحفر التربة وتحرثها
وتنفتح للبذار
أصابع الفلاحين

* * *

اصبع مسند إلى الزناد
عين على خط التسديد
رجال على حافة الحياة
حياتهم معلقة على هذا الاصبع
اصبع يقضى على الحياة
اصبع الجندى

* * *

عبر الأنهار واللغات
من أوروبا إلى آسيا
من الصين إلى افريقيا
من الهند وعبر المحيطات
فلنوجد أصابعنا حتى تنزع
عن هذا الاصبع كل قوة

هذا الإصبع الذى يلبس الإنسانية
ملابس الحداد .

* * *

إن الأديب الفنان سمبينى صاحب المواهب المتعددة .. والمبادئ الإنسانية .. هذه المواهب والمبادئ أضفت على أعماله أصالة وقيمة . وجعلت منه فنانًا يعرفه العالم ويقدره .. فيمنحه جائزة لوتس للأدب الأفريقى الآسيوى عن عام ١٩٧١ .



عالم.. من حجر!!

من الذى ألهمنى لأخط آلاف الكلمات فى تلك الكتب التى نشرت واسمى على غلافها ؟ إنها حياة الناس ، حبهم ، كراهيتهم . وآلامهم وسعادتهم ، آمالهم وتطلعاتهم . إن هذا هو ما يقف وراء كل أعمال الفن والثقافة ذات القيمة والأهمية ، فمن غير وجود الناس فى الخلفية ، فإن الأدب والفن يصبح كلامًا لا معنى له ولا قيمة .

عندما حضر للقاهرة فى يناير عام ١٩٧٣ ، أهدانى أحدث كتبه ، الذى كان صدر قبلها ببضعة أسابيع . عنوان الكتاب : « فى ضباب نهاية الموسم » . عنوان غريب ! . استعاره الكاتب من قصيدة « الشهداء » للشاعر الغينى « كونتى سيدون تيديانى » يقول فيها :



● الكس لاجوما ●

« قارب من أحشاء الزنوج السوداء
دروع من ورق البرشمان ..
هش وسريع الهرب عندما يواجه الحجر المحترق
سوف يهشم كخيوط العنكبوت
فى ضباب نهاية الموسم

وهو يهدى الرواية – التى يضمها الكتاب – إلى المناضل الشهيد « بازيل فبروارى » ورفاقه الذين استشهدوا فى المعركة من أجل تحرير « زيمبابوى » عام ١٩٦٧ .

الكتاب الجديد ، واحد من الكتب العديدة والمتنوعة التى نشرت تحمل على غلافها اسم « الكس لاجوما » الكاتب الواعى بالناس إلى حد قوله :

« إن الذى ألهمنى لأخط آلاف الكلمات فى تلك الكتب التى نشرت تحمل اسمى على غلافها ، هم الناس ، حياتهم ، حبهم وكراهيتهم . آلامهم وسعادتهم . آمالهم وتطلعاتهم » .

استمعت إليه وهو يقول هذه الكلمات فى نيودلهى خريف عام ١٩٧٠ عقب استلامه جائزة « لوتس » للأدب الأفريقى الآسيوى لعام ١٩٦٩ من يد السيدة أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند ، مشيرًا بذلك إلى أن الذى يستحق الجائزة حقًا هو شعب جنوب أفريقيا الذى ينتمى إليه .. لأنه لولا هذا الشعب لما أصبح هو كاتبًا . وقد اعتبر « الكس لاجوما » هذه الجائزة شرفًا لا يعود عليه وحده ، بل اعتبرها جائزة لكل الكتاب الذين مازالت كتاباتهم غير منشورة وممنوعة فى جنوب أفريقيا . واعتبرها جائزة لشعب جنوب أفريقيا المضطهد .. الشعب الذى ألهمه كتابة كل مؤلفاته .

* * *

ولد « لاجوما » فى فبراير عام ١٩٢٥ بمدينة كيب تاون لأب وأم من العمال يقيمان فى « الحى السادس » حى الملونين الكادحين فى عاصمة الاضطهاد العنصرى . والده « جيمى » كان رئيسًا لـ« مؤتمر المواطنين الملونين » بجنوب أفريقيا .

« الكس » ، أكمل تعليمه العادى فى مدرسة ترافلجار العليا ، وفى الكلية الفنية . كلا المدرستين فى مدينة «كيب تاون » .

بدأ حياته بيقظة مبكرة فى الطفولة على قبح الواقع وقسوته . وتكشفت موهبته الأدبية منذ الصبا . فذاع له صيت بين أقرانه فى الأحياء الفقيرة حتى كانوا يتلقفونه فى الأمسيات على نواصى الحارات ، ينصتون بشغف وإعجاب وانبهار لأقاصيصه التى كان ينسجها لهم من خياله . والتى كانت تدور كلها حول المغامرات والشجاعة والجسارة .

ومع تلك الموهبة ، ظهر لديه اهتمام مبكر بالسياسة ، فبدأ يتردد على الاجتماعات ، ويشترك فى المظاهرات وهو صبى صغير لم يتجاوز العاشرة . وقد وزع وقته بين ذلك الاهتمام السياسى وبين القراءة التى أقبل عليها بشغف ، كان يلتهم مصروفه الهزيل ثمنًا للكتب المستعملة . وفى مرحلة الدراسة الثانوية اندلعت نيران الحرب الأهلية فى أسبانيا وأصبحت الحرب مؤشرًا لكثير من صراعات العالم التالية فشدت اهتمامه أكثر مما كانت تشده تعليقات يوليوس قيصر وفتوحاته ، التى كانت تدرس له فى المدرسة . وعندما اجتاحت النازية أوروبا بعد ذلك بسنوات قليلة ، سارع لاجوما يسعى إلى التطوع لمحاربة الفاشيين ، ولكنه لم يحقق أمنيته بسبب صغر سنه وضعف بنيته .

بعد انتهاء الدراسة الثانوية التحق عاملا فى مصنع لإنتاج العبوات المعدنية . وكانت هذه الفترة تجربة عميقة الأثر فى فكره ووجدانه ، وفى توجيه اهتماماته الأدبية . وعن تلك التجربة المبكرة . كتب يقول : « لأول مرة فى حياتى .. رأيت

بعيني ما الذى تعنيه كلمة الاستغلال » .

فى عام ١٩٤٦ التحق لاجوما بمنظمة يسارية للشباب . ثم التحق بالحزب الشيوعى حتى أوقفت السلطات نشاطه عام ١٩٥٠ . وفى عام ١٩٥٥ لعب دورًا قياديا فى الإعداد للمؤتمر الشعبى الذى التقت فيه كيب تاون بجوها نسبرج لكى يعد إعلان حقوق شعب جنوب أفريقيا الذى عرف باسم « ميثاق الحرية » .

اندمج لاجوما فى النضال السياسى لقومه . لكنه فى غمرة نشاطه هذا ، لم تفارقه نوازعه الخلاقة الأولى . وأخذ يبحث لنفسه عن وسيلة تعبير تستوعب ما يدور فى وجدانه وتوصله للناس . درس التصوير ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنه . وتذكر موهبته الأولى التى اشتهر بها فى صباه ، موهبة رواية القصص التى كانت تبهر رفاقه على نواصى الحارات . فبدأ يجرب قلمه فى كتابة القصة ويشترك فى المسابقات القصصية . وبجانب ذلك اتجه إلى الصحافة . فعمل فى « الجارديان الأسبوعية » التى كانت تصدر فى كيب تاون .

فى عام ١٩٥٤ تزوج « بلانش » زميلته فى الدراسة ، وفى العام التالى التحق بالعمل فى مجلة « العصر الجديد » التى ظهرت لتحل مكان الجارديان التى أوقفتها الحكومة . وفى عام ١٩٥٦ قبض عليه بتهمة الخيانة العظمى . وظل فى السجن أربعة أعوام إلى أن صدر الحكم ببراءته . وخلال تلك الفترة كتب عددًا من القصص القصيرة منها « كأس النبيذ » و « وشم وأظافر » و « خارج الظلمة » .. وغيرها .

وفى عام ١٩٦٠ وقعت مذبحة « شاريفيل » المشهورة التى اغتيل فيها المتظاهرون . ومن تلك المذبحة ظل لاجوما فى محنة متصلة من الاعتقال والسجن ، والحبس الانفرادى ، وتحديد الإقامة . استمرت المعاناة حتى سبتمبر ١٩٦٦ عندما غادر جنوب أفريقيا مع زوجته وولديه ليعيش فى لندن .. منفيًا حتى

كلف بالعمل فى هافانا ممثلاً لحزب المؤتمر الوطنى لجنوب أفريقيا .

حتى زوجته بلانش .. لم تنج من المحنة ، فقد قبض عليها ذات مرة وسجنت فى الحبس الانفرادى . وبرغم هذا ، لم يتوقف لاجوما عن الكتابة والعمل فى مجلة « العصر الجديد » إلى أن منعتها الحكومة العنصرية عام ١٩٦٢ .

فى ذلك العام صدرت أولى رواياته الطويلة « نزهة فى الليل » التى تدور أحداثها فى أحياء الفقراء بمدينة كيب تاون وقد استقبلت الرواية بنجاح فورى . والجدير بالذكر أن الرواية لم تنشر فى جنوب أفريقيا بطبيعة الحال .. بل فى نيجيريا .

الكاتب المسرحى النيجرى المعروف « وول سوينكا » قال عن الرواية : « إن لاجوما قد توصل فى صفحاته التسعين ، إلى ما ظل الكتاب الأفريقيون يحاولون تحقيقه طيلة سنوات بأكملها » .

وكتب أحد النقاد قائلا : « هذا كاتب يضع إصبعه على نبض الشعب .. ويحس بكل خلجة فيه » .

وبعدها .. حرمت حكومة جنوب أفريقيا بيع الرواية وحرمت تداولها ، ولكن الرواية طبعت بعد ذلك بقليل فى لندن .

وبسبب هذه الرواية ، حرمت السلطات العنصرية على لاجوما أن يحضر أو يشترك فى أى اجتماع فى جنوب أفريقيا ، أو فى جنوب غرب أفريقيا .. وذلك فى الفترات القليلة التى يكون خلالها مطلق السراح . ومع ذلك ضاقت به السلطات ، فحددت إقامته فى بيته لا يبرحه إلا إذا كان ذاهبًا إلى السجن .

لاجوما وقد حرم من استقبال أى زائر بخلاف طبيبه وأبويه وأبوى زوجته ، عكف على كتابة عدد من القصص القصيرة . ثم كتب روايته الثانية « حبل مثلث الألياف » . وهو يصور فيها كيف تستحيل الحياة الطبيعية فى مدينة فرض على أهلها

أن يعيشوا فى أكواخ صغيرة حقيرة . الرواية صدرت عام ١٩٦٣ .

وعندما سجن بعد ذلك ، وعاد من السجن إلى زنزانة البيت ، كتب روايته الثالثة « عالم حجرى » عن حياة السجن . وقد نشرت هذه الرواية عام ١٩٦٤ . الرواية تصور عالم السجن فى جنوب أفريقيا . عالم حافل بالشخصيات وبقايا الشخصيات . قتلة . لصوص . مجرمون . وأبرياء أيضًا ! وناس كانت جريمتهم غريبة وشاذة . جريمتهم أنهم عندما التق بهم رجل الشرطة لم يكن مع كل واحد منهم « بطاقة المرور » !

من عالم السجن الذى عاش فيه لاجوما فترة ليست بالقصيرة ، يكتب لنا عن « جريمة » واحدة يشترك فيها كل من يمرون بالعالم الحجرى الموحش . تلك الجريمة ، أنهم أفريقيون ! أنهم ملونون ! أنهم ليسوا من البيض ! أنهم ليسوا من جنس المستعمر ! ! عالم موحش ، قفر . عالم من حجر وصلب وأبواب مغلقة . عالم بلا شجر يمنح ظلا لسكان الحجر الموحش الكئيب .

لاجوما يبدأ روايته بأبيات للشاعر الأفريقى « يوجين ديبس » يقول فيها :

طالما هناك طبقة سفلى فإننى فيها
طالما هناك عنصر إجرامى فإننى منه
وطالما هناك روح واحدة فى السجن
فإننى .. لست حرًا ..

الرواية تدور حول المعارك الشرسة والقاسية التى تقع داخل السجن من أجل الحياة ، ومن أجل البقاء . وتدور حول الصراع على السلطان داخل السجن ، فى ظلام العنابر المغلقة . صراع شرس يدور حتى النهاية . حتى الموت . وتتشبث كل عناصر الرواية بالرغم عنها حينا،وبإرادتها أحيانًا أخرى . وتظل خفايا هذا الصراع

سرًّا مطويًّا ، عن سلطات السجن . وعن معظم أبطال الرواية .

وفى خلال الإيقاع العنيف داخل السجن ، تتردد أصداء أخرى قادمة من عالم المقاومة والنضال . من الذين يعملون يومًا بعد يوم ، فى هدوء ، وفى شجاعة ، بعيدًا عن الضجيج والصخب . من أجل إيقاظ الوعى فى جموع جماهير الشعب الأفريقى المقهور وتوثيق صفوفه . عمل يومى ينطوى على المغامرة . وسلاح المغامرين – ببساطة شديدة – اقتحام الخطر . وتوقى الخطر . وإذا ما تجاوزوا حدًّا معينًا ، انقلبت المغامرة إلى شلل تام . وانتهى بأصحابه إلى عالم الحجر الموحش الكئيب .

وفى آخر كتبه « فى ضباب نهاية الموسم » يعرض لنا لاجوما ، صورة حديثة من عالم المقاومة ، والمغامرة ، واقتحام الخطر . يعرض خفايا الأسلوب الإرهابى للبوليس فى جنوب أفريقيا ، على ساحة غاية فى الاتساع . من جبهة مراكز البوليس ، إلى أبراج العربات المدرعة . فى الأرض المكشوفة . وفى الحوارى المتربة ، حيث يهاجم البوليس الموتى والمحتضرين ! . من خلف مانشيتات صحف جنوب أفريقيا ، ومن وراء الإعلانات الملونة المضيئة الباهرة تدعو السياح لزيارة جنوب أفريقيا . تجىء قصة هؤلاء الذين يقامرون بحياتهم كل يوم فى الحركة السرية ضد التفرقة العنصرية ، وضد الإذلال العنصرى .

إن هذه الصورة تحدث هناك كل يوم . ولاجوما يروى لنا الأحداث يومًا بعد يوم . لعمل وحياة هؤلاء المناضلين الذين وضعوا حياتهم على أكفهم . من أجل تخليص مواطنيهم من إذلال العنصريين البيض .

إنها قصة « بيوكس » المطارد ، المصمم على النضال تحت قيادة منظمة سرية ، يقع فى أيدى البوليس الذى يعذبه حتى الموت فى الزنزانة . وإذا كان لاجوما فى روايته « العالم الحجرى » كان يرى أن نهاية الذين يقتحمون الخطر غالبًا

ما تنتهى إلى عالم الحجر الموحش الكئيب ، فإنه فى روايته الأخيرة يرى أن المناضلين لتحرير جنوب أفريقيا أصبحوا لا يقامرون بحريتهم فحسب ، بل أصبحوا الآن يقامرون بحياتهم من أجل التحرير ، ويستشهدون . لهذا يهدى روايته إلى « بازيل فبراورى » ورفاقه الذين استشهدوا فى النضال .

لاجوما يعرض لنا هذا ، بأسلوبه المتميز ذى المذاق الخاص . وبراعته الدقيقة فى الوصف . وبحرصه الشديد على نبش أعماق النفس البشرية . وبحواره الممتع الذى ينبض بالحياة . وبضمير كاتب عاش مأساة شعبه كاملة منذ اللحظة الأولى فى حياته . وبيقين ثائر يقول :

« لمدة قرون عاش المستبدون البيض فى بلادنا بحد السيف . ومن الآن ، سيموتون فى بلادنا بحد السيف . لمدة سنوات طويلة حافظ البيض على تفوقهم بالمدفع . ومن الآن ، سنصل إلى الحرية والمساواة عن طريق المدافع . إن طريقنا واضح . ولا يمكن أن نتراجع عنه » .

صرخة احتجاج ضد التمييز العنصرى ، يطلقها الكس لاجوما باسم ستة عشر مليونًا ونصف مليون أفريقى لم يعودوا يطيقون صبرًا على الكدح وبذل العرق فى سبيل ثلاثة ونصف مليون ابيض يتمتعون بكل شىء . بالثراء ، بالامتيازات . أو كما يقول لاجوما فى مقدمة كتابه « التمييز العنصرى » :

« مامن مكان آخر فى عالم اليوم ، تمارس فيه العنصرية بمثل هذه الدرجة الصارخة التى لا تعرف الحياء أو تفرض فيه وتنفذ بمثل هذه الوحشية » .

* * *

فى كتابه « عن الأدب والحياة » يقول لاجوما :

إن المرء لا يستطيع ان يفصل بين الأدب والحياة وبينه وبين المعاناة وانا عندما اكتب فى عمل من أعمالى أن الفقراء فى جنوب أفريقيا

يضطرون إلى شراء الماء ذاته من مستغليهم ، فإنى أفعل ذلك بأمل أن يتأثر قارئ كتابى إلى الحد الذى يجعله يفعل شيئًا حيال أولئك اللصوص الذين حولوا بلادى إلى فقر مادى وثقافى بالنسبة للسواد الأعظم من السكان .. ».

إن لاجوما يؤمن بأن قلم الكاتب قادر على استنفار الآخرين لكى يعملوا من أجل تغيير الواقع الذى يرفضه . أن تمكن الكراهية العنصرية التى يمارسها البيض فى بلده جنوب افريقيا ، قد أعمى قلوبهم وأبصارهم إلى حد أنهم اصبحوا لا يرون إلا جانبًا واحدًا فقط .. هو أنفسهم .

وهو لا يكتفى بتسجيل هذا فحسب ..

بل إنه يكشف عن الآثار الاجتماعية التى ترسب فى مجتمعه نتيجة لاضطهاد البيض للملونين . فى قصة قصيرة له بعنوان « فنجان قهوة للطريق » ، يوضح لنا مدى الشراسة التى يلجأ إليهم العنصريون البيض فى إقرار قيم التفرقة العنصرية ، وتحويلها إلى حقائق لا تقبل معارضة أو احتجاجًا ..

لاجوما يحكى لنا فى هذه القصة عن زوجة ملونة أصابت حظًا من التمدن . تقود سيارتها ومعها طفلاها لكى تلحق بزوجها فى مدينة الكاب على بعد مئات الأميال . وقد ظلت هذه الأم تقود سيارتها طول الليل دون توقف . لماذا ؟ لم يكن هناك مكان يقضون فيه الليل ، فالفنادق مخصصة للبيض وحدهم . فى الواقع كان البيض وحدهم هم الذين يسكنون فى هذه المدن . ومن عداهم — باستثناء الخدم — كانوا يعيشون فى منازل متداعية من الطين ، فى الأماكن المخصصة لهم وراء ذلك .

وأحس الطفل بحاجته إلى قليل من القهوة . فتناول الترموس ولكنه وجده فارغًا . وتعلقت رغبة الطفلة المشاغبة بشرب بعض القهوة . كان على الأم أن تحصل لها بأية وسيلة على ما يروى ظمأها . وأخيرًا صادفوا عند نهاية منطقة

خالية ، مقهى قد زينت واجهته بإعلانات قديمة للكوكا كولا . وفى الحائط الذى يتجه إلى المكان الخالى كانت هناك فتحة مساحتها قدم مربع ، أعدت لخدمة غير البيض . على التراب . وقف عدد من الملونين والأفريقيين فى أسمال ، يحاولون أن يطلوا من تلك الفتحة ، وقد تقاربت رءوسهم ، ينتظرون فى صبر فرض عليهم .

على هذا النحو الهادئ يكشف لنا لاجوما عن بعض المفارقات التى فرضتها التفرقة العنصرية .

□ من حق البيض وحدهم ، أن يدخلوا المقاهى من أبوابها ، وأن ينعموا بالجلوس فيها .

□ الملونون .. لا يحصلون على ما يريدون إلا عن طريق فتحة مساحتها قدم مربع بطريقة مزرية حقيرة .

ترى ..

ماذا يحدث لو تجرأ أحد الملونين .. فكسر تقليدا من هذه التقاليد ؟

لنقرأ ماذا حدث ..

لقد اقتحمت الأم المقهى . واتجهت إلى حيث كانت امرأة بيضاء ثقيلة الوزن تجلس فى مكان دفع النقود .

قدمت الأم الترموس إليها قائلة :

– هل يمكن أن تملئى لى هذا الترموس بالقهوة من فضلك ؟

وجحظت عينا المرأة لحظة ، ثم صدرت عنها صيحة خشنة تقول :

– قهوة ؟!.. يالهى ! فتاة من الخدم حقيرة مثلك تأتى هنا ؟! الخدم والأفريقيون من الخارج . ألا تعرفين ذلك جيدًا وأنت تتحدثين الإنجليزية أيضًا !؟

وثارت ثائرة الأم . وارتفعت ذراعها بالترموس تقذف به المرأة البيضاء وهى تصيح بامتعاض :

– أيتها البيضاء التافهة . أنت .. أنت الخادمة الحقيرة .

وأسرعت الأم إلى عربتها ومضت تقودها فى صمت . ولكن لم يمض عليها وقت طويل حتى أوقفتها الشرطة عند نقطة مراقبة . فقد كانت مكالمة تليفونية قد سبقتها إلى هناك .

هكذا يصور لنا الكس لاجوما كيف تحاول التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا أن تجعل مفهومها لهذه التفرقة أمرًا واقعًا لاخلاص للملونين والسود منه .

والسلطة تستخدم كل وسائل القمع للبطش بكل من يجرؤ على رفع صوته بالتمرد أو الاحتجاج .

والكاتب الحر – مثل لاجوما – حين يرفع صوت تمرد، أو يقول كلمة احتجاج ، فإنه يستهدف – بالكلمة – أن يستنهض بذلك المغلوبين على أمرهم .

وهو بذلك يؤدى رسالته كما ينبغى . وإن انتهى به ذلك فى كثير من الأحيان إلى السجن .. واخيرًا إلى النفى والتشريد .

* * *

إن الاستعماريين العنصريين يدركون خطورة الكلمة الواعية التى تصدر عن الكاتب الحر . ومن خلال هذا الإدراك يلجئون إلى كل وسيلة يدفعون بها خطر هذه الكلمة . وتتنوع وسائلهم بين القمع والإغراء . فهم يملكون وسائل النشر. وهم قادرون على التحكم فى أى عمل أدبى لكاتب لا ترضيهم كتابته فيمنعوه من الظهور . وقد أشار لاجوما إلى هذه الحقيقة فى الكلمة التى ألقاها فى نيودلهى عقب استلامه جائزة لوتس بقوله إن النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا يضطهد الكتاب إلى حد أن الصادقين منهم – الذين أرادوا رؤية أعمالهم منشورة – اضطروا لترك البلاد والكتابة فى المنفى .

لقد عجزت الحكومة العنصرية فى جنوب أفريقيا عن كبت صوت لاجوما ..

فقد نشرت أعماله فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية . وألمانيا . وترجمت أعماله إلى أكثر من لغة ونشرت فى الاتحاد السوفيتى ، والسويد ، والمجر ، وبولندا ، والبرازيل ، ومصر. وأصبحت أعماله مادة تدرس فى الجامعات الأوروبية والأمريكية والأفريقية .

فى رأيه أن الكاتب الحقيق لا يستطيع أن يفصل نفسه عن حياة الناس . وعن النضال لتحقيق السعادة والحرية والعدالة للناس . وتاريخ الشعوب يتضمن أفعال الناس .. ما يقومون به من مجهود . وما يقيمون من إنجازات . وكثيرًا ما يكتب ذلك بالدم . وكثيرًا ما يكتب بالمدفع والمفرقعات والصواريخ كما يحدث فى جنوب أفريقيا ، وفى فيتنام ، وفى العالم العربى .

وهو يؤمن بكلمات قالها مكسيم جوركى ذات مرة ، كلمات تقول : « إن الكاتب هو عيون وآذان العصر » .

ولكن لاجوما من رأيه أنه لكى يستطيع أن يعرض عصرًا بأكمله ، فيجب أن تكون عدسات عينى الكاتب حادة . ووجهة نظره سليمة . أى أن يتخذ الموقف الذى يتوافق – بقدر الإمكان – مع العالم ومثله العليا .

فى عام ١٩٦٧ حضر الكس لاجوما مؤتمرًا فى استكهولم ضم كتابًا من أفريقيا ودول اسكندنافيا .. ودار فى هذا المؤتمر نقاش حاد حول الكتاب .. هل ينبغى للكتّاب أن يتفرغوا للكتابة والإبداع الفنى فقط .. أم يشاركوا أيضًا فى الكفاح المسلح ؟

قال لاجوما رأيه بطريقته الهادئة التى اشتهر بها :

« يكفى للاجابة عن هذا السؤال أن نقول .. إن الكتّاب والشعراء الفيتناميين يقومون بكلا العملين معًا ! » .

القارىء الأفريقى.. أولا

ومرة أخرى قال الصوت فى اتهام : أماه أعطنى شيئًا آكله . بالطبع لم يكن يعرف ، لم يكن يستطيع أن يعرف أن المرأة لا تملك شيئًا ، فقد استنفدت آخر ما لديها من الدقيق . كانت قد قررت ألا تزعج الجيران مرة أخرى لأن مواردهم قد نضبت كذلك . ومع هذا واصل الغلام النظر إليها فى تأنيب كما لو كان يتهمها بأنها بلا رحمة ...

« من قصة : ذهب مع العطش »

مؤلف هذه القصة « جيمس نجوجى » من كينيا ، يكرر على لسان بطل القصة ، سؤالا يقول :

لماذا يولد بعض الناس لمكابدة العناء ؟ ولمواجهة كل هذا الشقاء ؟!



● واثيونجو نجوجي ●

(جيمس نجوجي سابقا)

ولكن المؤلف – برغم كل شيء – يرى أن التخلص من الألم – أيًا كان مصدره أو سببه – هو ذلك الشعور المحبب إلى نفس الإنسان فى صراعه مع الحياة . إن هذا الشعور – فى كل صوره – ليس سوى الإحساس بالحرية .

والطريق إلى هذا ليس ممهدًا . فالرحلة غالبًا ما تكون طويلة . والطريق ملىء بالأوحال . ولكن هذا لا يهم . المهم أن يصل الإنسان دائمًا إلى هدفه فى النهاية .

لابد من الإصرار . والتصميم والصلابة .

ربما استطاعت هذه الأفكار من « ذهب مع العطش » أن تعطينا بعض ملامح شخصية « جيمس نجوجى » الذى نتعرف عليه .

* * *

ولد يوم ٥ يناير ١٩٣٨ فى « ليمورو » بالإقليم الأوسط قرب « نيروبى » عاصمة كينيا . نشأ وسط أسرة تضم العديد من الإخوة والاخوات لأب يهوى تعدد الزوجات . فى السادسة من عمره أرسلته أمه إلى إحدى مدارس التبشير . وفى العام التالى أرسلته إلى مدرسة «كيكويو» فى «كارينجا» حيث انتظم فى الدراسة والتعليم حتى عام ١٩٥٥ باستثناء فترة بين عامى ١٩٤٨ – ١٩٥٠ حيث توقفت الدراسة فى أنحاء كينيا عند نشوب ثورة « الماو ماو» ضد المستعمر البريطانى .

فى عام ١٩٥٥ التحق بمدرسة « اليانس » العليا ثم فى عام ١٩٥٩ التحق بجامعة «ماكيرير» فى «كمبالا» عاصمة أوغندة وبعد تخرجه فى الجامعة عام ١٩٦٤ عمل فى جريدة يومية تصدر فى نيروبى . واستمر فيها لبضعة شهور ، وبعدها سافر إلى بريطانيا ليستكمل دراسته العليا بجامعة « ليدز » .

وفى عام ١٩٦٧ عاد إلى وطنه ليعمل محاضرًا متخصصًا فى اللغة الإنجليزية بجامعة نيروبى . وفى يناير ١٩٦٩ أضرب طلبة الجامعة بسبب بعض المطالب . وقدم نجوجى استقالته من الجامعة احتجاجًا على الإجراءات التى اتخذتها السلطات لقمع

الطلبة المتظاهرين بأسلوب غاية فى القسوة والشراسة . وفى عام ١٩٧٠ قبل وظيفة أستاذ زائر بجامعة « نورث ويسترن » فى « ايفانستون » بولاية إلينوى الأمريكية .

وفى أثناء مرحلة الدراسة بجامعة « ماكيرير » كان نجوجى يعمل محررًا فى مجلة « بن بوينت » وفى مجلة « زوكا » وهما مجلتان أدبيتان تصدران فى نيروبى .

وبين عامى ١٩٦٧ - ١٩٦٩ صدرت ثلاث من روايات نجوجى فى كتب مطبوعة وهى : « لا تبك ياطفلى » و « النهر الفاصل » و « حبة من القمح ». بالإضافة إلى مسرحية « الراهب الأسود » .

* * *

« لا تبك ياطفلى » كتبها نجوجى فى أثناء دراسته بجامعة ماكيرير فى كمبالا ، وهى أول رواية تصدر باللغة الإنجليزية لأى من كتاب شرق أفريقيا . وقد فازت بجائزتين . جائزة فى مهرجان داكار للفنون الزنجية عام ١٩٦٦ . وجائزة ثانية من المكتب الأدبى لشرق أفريقيا . أما رواية « حبة من القمح » فقد كتبها نجوجى أثناء دراسته بجامعة ليدز ببريطانيا .

روايته « لا تبك ياطفلى » التى كتبها « نجوجى » فى مرحلة الدراسة بكمبالا ، تدور فى جو ثورة « الماوماو » فى كينيا . وهو يتعرض فيها لمشاكل تختلف عن تلك التى يعالجها كتاب غرب أفريقيا وجنوب أفريقيا . إنه يتعرض للمشاكل التى - ظهرت مع فترة الانتقال القومية التى تحتم على المجتمع القبلى فى كينيا أن يتعرض لها ولما يصاحبها من تغييرات . وهو يعرض الأحداث من خلال غلام تتفكك أسرته بتأثير التغييرات . ونلمح من خلال الأحداث التأثير الفاسد للمدينة . وتأثير التمييز العنصرى . الرواية ظهرت عام ١٩٦٤ واستقبلت بترحيب شديد .

والواقع أن نجوجى منذ أن بدأ يكتب . حرص على معالجة قضايا شعبه الملحة .

وموقفه من تراث الماضى ومعركة الاستعمار . وحرص على أن يرسم دائمًا صورة واقعية لهذا الصراع .

وهو هنا يختلف عن العديد من زملائه كتاب افريقيا . فالكاتب الأفريقى بدأ أساسًا يكتب لقراء غير افريقيين . أو بمعنى أدق ، بدأ يكتب لناشرين يبحثون عن أشياء غريبة مثيرة للقراء الغربيين! ولكن نجوجى منذ البداية يكتب لقراء أفريقيين ، مؤمنًا بأن مستقبل الكتابة الأفريقية يكمن فى موضوعات ما بعد الاستقلال . وكان هو واحد من القلة التى برزت بأعمالها فى هذا المجال . فاتجه بكل الإخلاص إلى الكتابة الاجتماعية يصور مختلف الصراعات . الصراع بين المدينة والقرية . والصراع بين الأغنياء والفقراء . وصراع الأقليات المضطهدة ضد الظلم الاجتماعى . وصراع الجماهير ضد خيانة افريقيا . والصراع الذى يدور داخل المجتمع القبلى بسبب القيم المتغيرة فى بيئة تشهد تغييرات سريعة . والصراع حول الدين .. والخرافة .. إلخ .

يبدو هذا الاتجاه واضحًا فى عمله التالى « حبة قمح » التى كتبها خلال مرحلة الدراسة فى بريطانيا . إنه يدور بأحداث هذه الرواية حول يوم استقلال كينيا (١٢ ديسمبر ١٩٦٣) ، وفيها يعترف « موجو » أحد أبطال الثورة – فى لحظة الذروة فى الرواية – بأنه كان قد وشى بالبطل الحقيقى للثورة « كيهيكا » . وشى به لدى السلطات البريطانية . وعلى امتداد الرواية تنسف سمعة شخصيات أخرى . ويتضح أن البعض – ممن يفترض فيهم أنهم أبطال – قد أذنبوا وأخطئوا حين تصرفوا على ضوء حسابات باردة ! أو حين خانتهم أعصابهم ! أو حين خانوا ! أو حين وشوا بآخرين !

* * *

نجوجى ، بعد فترة وجيزة من استقلال بلده استطاع أن يصف الثورة دون محاولة من جانبه لأن يضفى عليها صبغة رومانسية . إنه يصف بكل الروعة والتألق

والصراحة وإن كانت مؤلمة . إنها أكثر من مجرد رواية سياسية . بل رواية تمس جوانب عديدة من الحياة الأفريقية المعاصرة فى كينيا وفى دول أفريقية أخرى أيضًا .

وبعدها تبدأ القضايا العامة تشغل باله . الصراعات والمشاكل القبلية . ظهور وعى قبلى على غرار الوعى الطائفى فى الهند ، مما يؤثر على التفاصيل الدقيقة للسلوك اليومى للإنسان الأفريقى . الصدام بين الأفريقى والأوربى . بين الوثنى والمسيحى . بين البدائية والعصرية .

ويضع كل هذا فى روايته « النهر الفاصل »

إنه يتناول موضوعًا بسيطًا يدور حول فكرة روميو وجوليت ، ولكنه يضيف للقصة أبعادًا جديدة تمثل ثقافته وحضارته الخاصة . فما يفصل بين البطل والبطل فى « النهر الفاصل » ليس فقط مسألة العشائر المتنازعة بل سطوة التقاليد أيضًا . إن الهوة التى تفصل بين أسلوبين فى الحياة متغايرين : إنما تتمثل فى النهر الذى يفصل بين الجماعتين المتخاصمتين .

الصراع هنا صراع قبلى أكثر من كونه صراعًا عنصريًا . فالبطل « واياكى » يشرع فى إجراء حركة تجديد تتفادى القبلية والإقليمية والعنصرية . وهى حركة لا ترتبط بالمسيحية . ولكن الظروف وتطورها يفوقان طاقة البطل فى حركة التجديد . فالقرية القبلية ، والقرية المسيحية اللتان يفصل بينهما نهر تظلان منفصلتين بشكل يدعو إلى اليأس أكثر من ذى قبل . لقد أدى التغيير فى بعض الأحيان إلى أشياء أفضل . ولكنه فى أحيان أخرى لم يؤد إلا إلى إضعاف الأفريقيين وامتصاص حيويتهم . بل إنه أدى أحيانًا إلى جعلهم موضع سخرية ! .

إن واياكى ، ولد ونشأ فى إطارات تراث أفريقى شديد الاعتزاز بنفسه . فهو ابن موجو واكيبيرو . وهو عراف من كيكويو تنبأ بكارثة مقدم « الفراش » أى الرجال البيض . وقد حذر موجو بأن المرء « لا يستطيع أن يقطع الفراش بسكين »

وعلى الإنسان أن يتعلم أساليب البيض الجديدة حتى يتمكن من محاربتهم . وهو نفس المعنى الذى تعبر عنه العسكرية الحديثة بعبارة : « اعرف عدوك حتى تستطيع أن تنتصر عليه » .

نجوجى بنى روايته « النهر الفاصل » على هيكل متشابك الخطوط من الرموز الأفريقية والمسيحية ، لها ما يقابلها فى حياة شخصياته . وقد ترك موجو ذريته بعد أن حملها بهذه النبوءة .

« أقول إنه من نفس هذه الشجرة يولد ولد ، ويكون من واجبه أن يقود الشعب وينقذه » .

ولكن والد واياكى يضيف إلى هذه الوصية قولاً آخر . فينصح ولده بالذهاب إلى البعثة التبشيرية ليتلقى العلم على أيدى البيض ولكنه يهيب به – فى نفس الوقت – أن يخلص للطقوس القديمة .

إن واياكى يصارع الالتزامات القبلية التى تبدو كأنها تستغرق النفس . وبطريقة ما تبدو الأفكار مبتذلة ، ولكنها تساير تلمس الإنسان لطريق يفهم منه دوره الحقيقى فى المجتمع الجديد .

إن المشكلة القبلية فى أفريقيا بصفة عامة ، وفى كينيا بصفة خاصة ، واحدة من أهم المشاكل التى واجهت كل الذين تعرضوا للحياة الاجتماعية . ونجوجى واحد من الكتاب الذين تصدوا لها بشجاعة فى مسرحية « الراهب الأسود » . وهى مسرحية تقليدية من ثلاثة فصول أعطى اسمًا لكل منها . فالفصل الأول اسمه « البلد » . والثانى « المدينة » والثالث « عودة الراهب » .

الجديد فى المسرحية أنها مكتوبة شعرًا ونثرًا فى وقت واحد . فحيثما يدور الصراع حول المشكلة السياسية فإن الحوار يدور نثرًا . أما النغمة السائدة فى المسرحية كلها فهى الشعر .

مثلا .. فى الفصل الأول من المسرحية ..

الأم « ينوبى » تتعذب على ابنها « ريمى » الهارب من القرية إلى المدينة . « وتونى » زوجته تتعذب أيضًا ، الأم تريد أن تستعيد الابن لأنها – أولا – أم ! ولأنها ثانيًا تخشى على تونى زوجة ابنها .!! والزوجة تعبر عن مشاعرها قائلة :

نعم ..
إننى لا أستطيع أن أعيش دون رجل
دون رجل يدفئ سريرى
رجل يسألنى عن طعام العشاء
رجل يسألنى أن أغسل ملابسه
وطفل من جسدى
طفل ينادى .. يا أمى

أمه تريده أن يعود . زوجته تريده أن يعود . والقبيلة أيضًا تريده أن يعود . الكل يريده أن يعود ليتحمل مسئولياته .. كابن ، كزوج ، كقائد .

وريمى – بطل المسرحية – واحد من الذين نالوا حظًّا وافرًا من التعليم حتى الجامعة . واحد من الشخصيات المسرحية يصفه بعبارة تقول :

« **لقد فاق علمه علم البيض والسود مجتمعين .!** »

لم يكن إذن مجرد واحد من افراد القبيلة ، ولم يكن مجرد ابن لـ« ينوبى » ، ولم يكن مجرد زوج لـ« تونى » ، ولكنه – على حد تعبير واحد من القبيلة – كان بمثابة زوج للقبيلة كلها . وبمعنى آخر .. أنه رمز للقبيلة كلها . ولكن هذا الرمز هرب من القرية وذهب ليعيش فى المدينة .

ونجوجى يعالج فيها صراع الإنسان بين تقاليد القبيلة ، وبين متطلبات المجتمع

الحديث . أيكون ولاء الإنسان للقبيلة نفسها أم للدولة ؟ وهذا الصراع لا ينشأ – بالطبع – فى وجدان الأميين ، أو الذين حصلوا على قدر ضئيل من العلم والثقافة ، ولكنه يصبح صراعًا حادًّا للافريقيين الذين تعلموا وتثقفوا وأصبح الواحد منهم يجد نفسه موزعًا بين الولاء للفكر الجديد ، والدولة الجديدة ، والنظام الجديد ، وبين القبيلة التى تتصور أنها تشد هؤلاء المتعلمين المثقفين إليها .

والحل الذى يصل إليه نجوجى لإنهاء هذا الصراع .. هذه العبارة التى تجيء على لسان « ريمى » بطل المسرحية فى الفصل الثالث حين يقول :

« يجب أن نعود إلى أرضنا . ونساعد أنفسنا . نبنى مدارسنا . نطرح قلوبنا وعقولنا لنخلق أمة . وعندئذ سوف تختفى روابط القبيلة والعنصرية » .

* * *

عندما قابلت نجوجى فى صيف ١٩٧٣ بموسكو . سألته :

– من هو الكاتب فى رأيك ؟

قال :

– إن الكاتب ضمير شعبه . إنه الهادئ لجماهير أمته فى نضالها من أجل الفرد ، ومن أجل سعيها نحو غد أفضل .

وأطرق نجوجى برأسه قليلا .. ثم أضاف :

– إن هذا يفرض على الكاتب مسئولية كبيرة . إنه المسئول عن تسليط الأضواء على مشاكل قومه ومجتمعه ، ومسئول أيضًا على خلق الأفكار التى تؤدى إلى حل هذه المشاكل .

قلت :

– هل يمكن أن نطبق هذا الرأى على الكاتب فى أى بلد أفريقى ؟

قال :

– إن الشعوب الأفريقية تمر بمراحل متفاوتة فى التطور . بعض الشعوب مازال يرزح تحت الحكم الاستعمارى البغيض . والبعض يناضل من أجل استكمال التحرير الوطنى . والبعض الثالث حصل على الاستقلال وبدأ يناضل من أجل اعادة البناء السياسى ، والاقتصادى والاجتماعى . وهكذا فإن دور الكاتب يختلف من بلد إلى بلد . وفق المرحلة التى يجتازها بلده . ولكن الكاتب فى كل الأحوال . مطالب بأن يكرس إبداعه – كيفما كانت وسيلته التعبيرية – ليكون انعكاسًا لضرورات المرحلة وهو مطالب – فى نفس الوقت – بأن يعطى قومه صورة واضحة المعالم عن المستقبل كما يتصوره . إن مهمة الكاتب أن يتنبأ بهذا المستقبل . لأنه – فى نبوءته – يحدد الطريق السليم لمسيرة الجماهير . وهذا ما يؤكد ما قلته لك ، من أن الكاتب هو ضمير شعبه . وهادى أمته .

* * *

نجوجى يتخذ موقفًا واضحًا من الغزو الثقافى الأجنبى . لهذا فهو يطالب بنظرية جديدة للأدب . قادرة على أن تخلق بين الكاتب والقارئ وعيًا بدور كل منهما فى مواجهة هذا الغزو الدخيل . ومحاربته . وكشفه . والغزو الثقافى – فى رأى نجوجى – من صنع الإمبريالية . والاستعمار . والاستعمار الجديد . والصهيونية . وهذا الغزو موجه – بالدرجة الأولى – إلى دول العالم الثالث ، من خلال المؤسسات الصحفية ، والإذاعية ، والسينمائية ، ودور النشر ، والجمعيات والمؤسسات الثقافية التابعة للمخططين لهذا الغزو .

ولهذا :

فان نجوجى ، بحكم رئاسته للجنة الثقافية بالمؤتمر الخامس للكتاب الأفريقيين والآسيويين ، يطالب العالم الثالث بأن يقوم على الفور بإنشاء دار نشر أفريقية آسيوية تتولى ترجمة ونشر أعمال الكتاب المعاصرين فى العالم الثالث . وترجمة نشر

أعمال مختارة من التراث الأفريقي والآسيوى . وفى الوقت نفسه تقوم دار النشر هذه بإتاحة الآداب التقدمية من كل انحاء العالم للقراء فى بلدان أفريقيا وآسيا .

إننا أمام كاتب تشغله قضايا قومه . يشغله الإنسان فى أفريقيا الذى يتطلع إلى غد أفضل . لهذا كثيرًا ما نلمح فى مختلف أعماله تساؤلات تلح على ذهن الإنسان فى أى مكان . تساؤلات تبقى دائمًا بلا إجابة . **« هل الحياة كلها تطلع وشوق ولا شىء يتحقق ؟ هل قدر للانسان دائمًا أن يعيش فى فراغ غريب يطارده كأنه وحش كاسر لا يتركه يعرف طعم الراحة . حياة يعطى فيها الإنسان ولا يأخذ فقط ؟ »** .

إن الإنسان عند جيمس نجوجى لا يملك إلا أن يواصل حياته وهو يرى فى النهاية دائمًا جمال الحياة بالرغم من المتاعب والمصاعب .

لأن نجوجى حرص منذ بداية عهده بالكتابة ، على أن يكتب للقارئ الأفريقى . ولم يكن يهمه الكتابة لناشر يبحث عن أشياء غريبة ومثيرة للقارئ الغربى . ولأن هذا الكاتب الأصيل الذى شغلته قضايا قومه ، وشغله الإنسان فى أفريقيا ، وشغلته صراعات مجتمعه فتمسك بها وكرس لها قلمه وفكره ، فقد منح جائزة لوتس للأدب الأفريقى الآسيوى عن عام ١٩٧٣ تكريمًا لشخصه وتقديرًا لإبداعه الأدبى .

* * *

عندما كتبت إلى نجوجى أخطره بقرار المكتب الدائم للكتّاب الأفريقيين الآسيويين بمنحه الجائزة كتب يقول :

« لم أكن أتصور أبدًا أن كتابتى المتواضعة ، سوف تلفت النظر وتشد الانتباه ، إلى حد يجعلنى أهلا للحصول على هذه الجائزة العظيمة .

إن نجوجي الذى يعمل الآن استاذًا بكلية الآداب بجامعة نيروبى بكينيا ، والذى كان يعرف باسم « جيمس نجونجي » قد تخلى نهائيًا عن اسمه المسيحى . ليتمسك باسمه الأفريقى « واثيونجو نجوجي » ، وهو يرجو من كل الناس أن يكتبوا إليه ويحدثونه باسمه الأفريقى .

كاتب أفريقى . يحمل اسمًا افريقيًا . يحرص — كل الحرص — على أن يكتب أولا للقارئ الأفريقى .



الطبيب يقاتل !!

أيها الأسود المغلوب على أمره فى هارلم ..
أيها الراقص فى شيكاغو
أيها الخادم الأسود القادم من الجنوب
أيها السود القادمون من أفريقيا
أيها السود من كل أنحاء العالم
إننى أضم صوتى الواهى
وإيقاعى البسيط ..
إلى أصواتكم وإيقاعاتكم
إننى أصحبكم ..
حيث تلتقى أفريقيا
على الطريق ..

« من قصيدة : صوت الدم »



● أوجستينونتو ●

الشاعر .. يتجه بهذا النداء إلى كل السود فى العالم ،الذين يكافحون من أجل حريتهم وكرامتهم ، لأنه يدرك عن يقين أن كل الملونين فى العالم – أصلا – من أفريقيا .بل إن السود فى هارلم وشيكاغو وفى كل أنحاء أمريكا – فى الأصل – من وطنه « انجولا » . وقد شحنهم إلى هناك – منذ مئات السنين – تجار العبيد وسماسرة الرقيق من المستعمرين البرتغاليين البيض .

من خلال هذا اليقين يضيف الشاعر – فى نفس القصيدة – بنبرة تكشف عن مشاعره كطبيب ، فيقول :

أيها السود فى كل أرجاء الدنيا
إننى أحس بكم جميعًا
وأحيا آلامكم ..
يا .. إخوتى

إن الشاعر والطبيب الأنجولى « الدكتور أوجستينو نتو » قائد الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ، يؤمن بأن روح التضامن ، من شأنها أن تضاعف قوة الشعوب التى تناضل من أجل حقوقها المشروعة ، ويؤمن أيضًا بحقيقة : « أن ما أخذ بالقوة ، لا يسترد إلا بالقوة » .

* * *

قبل أن نتحدث عن حياة الشاعر الطبيب قائد الثورة المسلحة ، لنتعرف على أنجولا ذاتها .

مساحة أنجولا تعادل مساحة مصر مرة وثلثا . وتقع على الساحل الغربى لأفريقيا فى نصفها الجنوبى .

منذ خمسة قرون تقريبًا كانت أنجولا مناطق شاسعة . وأرضًا مجهولة للدنيا .

وبعد اكتشاف القارة الأمريكية ، بدأ تجار الرقيق البرتغاليون يفدون إليها . وأصبحت عملية تصدير وشحن العبيد من أنجولا للقارة الجديدة عبر المحيط ، موردًا ممتازا للأموال والذهب لهؤلاء المستعمرين .

وبمرور الأعوام ، تحولت العبودية من هذا الشكل التقليدى القديم ، إلى أنماط حديثة للعبودية . وتحول الأفريقيون بمقتضاها إلى احتياطى من عمال السخرة الذين يجلبون لخدمة البيض . وفى أنجولا – بالذات – قام المستعمر باستخدام المواطنين للقيام بالأعمال الشاقة التى تدر على البيض أرباحًا خيالية .

فى نفس الوقت حاول الاستعمار بكل الوسائل والسبل . محو ثقافة الشعب الأنجولى ، والقضاء على اللغة المحلية لتحل مكانها اللغة البرتغالية . وحاول أن يفرض على البلاد – إلى جانب الاستعمار السياسى والاقتصادى – استعمارًا فكريًّا لا نظير له .

ومنذ ثلاثين عامًا أصدر الكاتب البريطانى « بازيل دافيدسون » مؤلفًا بعنوان « العبودية الحديثة » موضوعه أنجولا وشعبها وما يعانيه من آلام وعذاب . وهنا أود أن أعرف القارئ بشخصية « دافيدسون » . فهو ليس مجرد كاتب أو أكاديمى جعل من أفريقيا بمشاكلها وآلامها موضوعًا لكتاباته . بل هو إنسان شريف يؤمن بأن كرامة الملايين من رفاقه البشر هى جزء من القضية التقدمية التى كافح من أجلها ، حين حمل السلاح ليقاتل بجانب قوات الأنصار بقيادة « المارشال تيتو » فى حرب الجبال بيوغوسلافيا . ثم كرس قلمه بعد ذلك ليبحث ويكتب باسم الملايين من المظلومين ، والأميين ، والذين حرموا حرية التعبير عن آمالهم وآلامهم فى أفريقيا .

بازيل دافيدسون يختم كتابه « العبودية الحديثة » بعبارة مؤثرة عن شعب أنجولا تقول :

« حتى ولو لم يستمع الله إلى صرخاتهم . فلسوف تجد هذه الصرخات طريقها

إلى قلوب كل من ينادى بالعدالة والرحمة » .

وفى مطلع عام ١٩٧٤ .. صدر لنفس المؤلف كتاب جديد بعنوان « فى وجه العاصفة » الفصل الأخير من الكتاب بعنوان « ثورة الفقراء » وموضوعه الكفاح المسلح الذى يخوضه شعب أنجولا بقيادة الشاعر الطبيب الدكتور نتو . يقول المؤلف :

استطاع شعب انجولا بثورته المسلحة خلال عشرة أعوام فقط ، أن يطور حركته الثورية التى أصبح لها كيانها وتأثيرها » .

ثم يضيف دافيدسون قائلا :

« منذ عشرين عامًا ، كتبت عن تعاسة وشقاء العمال فى أنجولا ، على أمل أن تصل صرخاتهم إلى قلوب عادلة رحيمة . واليوم أكتب عن أبناء هؤلاء العمال الذين شبوا عن الطوق . ولجئوا إلى تلال أنجولا وسهولها ، ليقاتلوا من أجل حريتهم التى سلبها منهم الاستعمار . لقد حولهم الاستعمار البرتغالى على مدى قرون طويلة إلى مجرد أدوات . إن الصورة اليوم تختلف تمامًا . صحيح أن الطريق أمامهم شاق وطويل وصعب . ولكنهم قطعًا وضعوا أيديهم على أول الطريق » .

* * *

هذه هى الصورة الآن كما يصفها كاتب محايد منصف ، لقوم وصفهم بأنهم التعساء الذين كانوا أكثر الناس حرمانًا ، وأقلهم شأنا . اليوم استطاعوا باستخدام العقل والشجاعة ، ان يشكلوا ظروف النضال من أجل تحرر لا ينتهى عند حد . ومن أجل التغيير الجذرى لأوضاع فرضت عليهم منذ خمسمائة عام .

الدكتور نتو قائد حركة التحرير الوطنية يصف الصورة الجديدة بقوله :

« توجد روح جديدة . إن ماكان يمكن حله فى الماضى بالمناقشة الهادئة

السلمية ، لابد وأن تحله الجماهير المضطهدة عن طريق الصراع المسلح » .

والآن ..

بعد أن تعرفنا على الوطن الأفريقى أنجولا .. لنتعرف على شاعرنا الطبيب القائد المقاتل .

ولد فى ٢١ سبتمبر ١٩٢٢ فى « ايكولو ايبنجو » قرب « لواندا » فى أنجولا . تلقى تعليمه حتى نهاية المرحلة الثانوية فى لواندا . بين عامى ١٩٤٤ - ١٩٤٧ اشتغل فى الخدمات الصحية بأنجولا . فى اثناء هذه الفترة لعب دورًا هامًّا فى إقامة جمعية ثقافية فى لواندا . كانت التنظيمات والجمعيات السياسية محظورة من جانب سلطات الاحتلال ولكن الجمعية الثقافية كانت ستارًا لتلافى الوقوع فى المحظور ! . وسرعان ما أصبح « نبرة وطنية واضحة » .

فى عام ١٩٤٧ سافر لدراسة الطب فى « كويمبرا » بالبرتغال . فى أثناء سنى الدراسة ، نشر عددًا من قصائده .. القصائد كانت صوت قومه المعذبين المقهورين .

فى عام ١٩٥٢ اعتقلته السلطات البرتغالية لاشتراكه فى المظاهرات . وما لبث أن أفرج عنه . ثم اعتقل مرة أخرى خلال المدة من فبراير ١٩٥٥ إلى يونيو ١٩٥٧ . وفى العام التالى حصل على درجته العلمية وأصبح من حقه ممارسة مهنة الطب . وبدلا من العودة فورًا . ساهم مع آخرين فى تأسيس حركة مناهضة الاستعمار فى قلب لشبونة العاصمة ! .

فى عام ١٩٥٩ عاد إلى أنجولا . وعمل طبيبًا فى القرية التى ولد فيها ، ممارسًا مهنته الإنسانية .

بعد هذه العودة ، فى قصيدة بعنوان « رفع العلم » يقول :

لما عدت إلى بلدى

كان يوم العودة مختارًا

وكانت الساعة أزفت

حتى شاطئ الأطفال اختفى

كذلك أنت

وأصحابى الخلصاء . وإخوتى

بونجو ، جاسبار ، اليديو ، سانويل

ومن أيضًا غير هؤلاء ؟..

مئات بل آلاف من الأصدقاء

بعضهم .. اختفى إلى الأبد !

ولكنهم .. منتصرون أيضًا إلى الأبد

فى هذا الموت ..

فى سبيل الحياة

سواعد الرجال

شجاعة الجنود

رقة الشعراء

والكل ، الكل يبذلون كل الجهد

ليشيدوا بذكرى الأبطال

أنجولا كنلواجى

رنيو جنجا

والكل ، الكل يبذلون كل الجهد

ليرفعوا عاليًا علم الاستقلال

فى سنة ١٩٦٠ انضم نتو إلى « الحركة الشعبية لتحرير أنجولا » وفى الثامن من يونيو من نفس العام قبض عليه فى قريته . وفى نفس اليوم أقدمت سلطات الاحتلال على مذبحة وحشية بين المواطنين . ويسقط منهم أكثر من ثلاثين شهيدًا . واكثر من مائتى جريح .

ليس هذا فقط .

بل قامت السلطات بحرق القرية كلها !.

ويصبح هذا الحدث الدموى بداية العنف والقمع والإرهاب الذى كان ذروته اعتقال « نتو » وترحيله إلى لشبونة ليسجن هناك .

ووجهت حركة التحرير نداءً إلى الشعب الأنجولى ببدء المقاومة عن طريق الكفاح المسلح . وفى فجر يوم ٤ فبراير ١٩٦١ كان بعض المناضلين من أعضاء الحركة يتجهون إلى سجن « لواندا » حيث اعتقل عدد من زعمائهم وزملائهم ، فى محاولة لإطلاق سراحهم بالقوة . وكان هذا العمل ، الشرارة التى أشعلت نيران الكفاح المسلح للشعب الأنجولى تحت قيادة حركة التحرير ، ليقرر مصيره بنفسه ويحطم قيوده وأغلاله .

بعد فترة فى سجون لشبونة ، نقل نتو إلى جزيرة « سانتو انتاو » إحدى جزر « الرأس الأخضر » وما لبث أن أعيد من جديد إلى لشبونة . وفى أغسطس ١٩٦٢ تمكن نتو من الهرب . وسافر إلى كينشاسا بالكونغو ، ليصلح ما بين « هولدن روبرتو » قائد إحدى حركات التحرير ، وبين « ماريو دى اندرادى » قائد حركة أخرى للتحرير ، وسرعان ما أصبح نتو قائدًا للحركة الشعبية لتحرير أنجولا . وبعدها بدأ ينظم ويقود حرب عصابات واسعة فى شرق أنجولا .

وتحس الجماهير بالشاعر الذى تخلى عن مهنة الطب لشفاء أمراض الجسد ، ليتحول إلى ثائر يعالج أمراض شعب ووطن استمرت أكثر من خمسمائة عام .

ويحس الناس أنه لم تعد هناك رواسب مجازية بين نار الشعر ، ونار القنابل اليدوية ومدافع المورتر الواجب استخدامها ضد العدو البرتغالى .

وبعد عدة أعوام .. استطاع النضال المسلح بالقيادة المستنيرة للشاعر الطبيب المثقف المناضل أوجستينو نتو أن يحرر أكثر من ثلث أنجولا من أيدى الطغاة . واستطاع أن يدير القتال فى عشر مقاطعات من الخمس عشرة مقاطعة التى يتكون منها الوطن الأنجولى .

إن الطغاة لم يتمكنوا من إطفاء البريق فى عيون الناس فى أنجولا . ولم يستطيعوا أن يحجبوا النور عنهم . ولم ينجحوا فى اقتلاع جذورهم . فقد بذل المناضلون والشهداء دماءهم من أجل الحرية ، ومن أجل الكرامة الإنسانية .

وهذا ما يعبر عنه الشاعر فى قصيدة « صوت الدم » بكلمات مضيئة ، تتجاوب فى صدورنا ، فتمنحنا العزيمة والقوة ، وتسدد خطانا . لنتذكر هذه الكلمات ونحن نخوض معركتنا النضالية بالبندقية والكلمة من أجل الحياة .

يقول نتو :

أيتها الرغبة فى نفسى
لتتحول إلى قوة عارمة . .
تدعم ضميرى القانط

* * *

قبل أن نتعرف على « أوجستينونتو » كشاعر بعد أن عرفناه كمناضل ومقاتل — يجدر بنا أن نعود قليلا إلى خمسة قرون مضت لنفهم الأوضاع الثقافية فى أنجولا وفى المستعمرات البرتغالية بصفة عامة .

كان من أول أهداف الاستعمار البرتغالى ، القضاء على المجتمعات الوطنية

الأصيلة فى المستعمرات قضاء تامًّا . وقد تم لها ذلك بالفعل فى أنجولا . بل وتمّ لها أيضًا أن تجردها من ثقافتها تجريدًا منهجيًّا .

ونادى الاستعمار البرتغالى بنظرية جديدة . نظرية « الاندماج بين الأجناس » وهى نظرية تفترض – بالضرورة – غرس السياسة الأجنبية فى البلاد وتثبيتها وإن بدت للعين أن مبدأها يعود إلى فكرة « الاتصال بين الثقافات » . وإن بدا للناس أيضًا أن قوى الاستعمار حريصة على احترام عادات وتقاليد أهل البلاد الأصليين . ولكن الحقيقة أن نظرية الاندماج ليست إلا إتمام محو الثقافة الوطنية ، والاندماج فى ثقافة الجانب الأقوى الذى يسيطر ويستعمر ، الاندماج فى ثقافة البرتغال .

ولم يعد أمام الذين يعتبرون الثقافة الوطنية شرفًا لوجودهم ، إلا سبيل واحد . هو المقاومة . . وإذكاء الروح الوطنية ضد المستعمر .

فى الخمسينات من هذا القرن ، أخذت طائفة محدودة من الطلبة والمثقفين الذين يدرسون فى البرتغال ، تحس وعيًا حادًا بضرورة الرد على الصورة التى ترسمها البرتغال للرجل الأسود . وضرورة تخطيط الطرق أمام تأكيد الذات القومية .

وفى قلب لشبونة العاصمة الفاشستية تشكل « مركز الدراسات الأفريقية » . وهى جماعة وضعت لنفسها منذ البداية هدفًا واضحًا . هو تعقيل مشاعر الانتماء إلى عالم القمع والقهر . وإذكاء جذوة الوعى القومى . عن طريق تحليل الأسس الثقافية لأفريقيا .

كان دعاة هذه الحركة وأصحابها : « الشهيد أميلكار كابرال » قائد النضال المسلح لتحرير غينيا بساو التى استقلت أخيرا وانضمت إلى الأمم المتحدة وإلى منظمة الوحدة الأفريقية . «و « أجوستينو نتو » . وجوزيه نيتزيرو » . و « ماريودى اندرادى » .

كان لهذه المبادرة صدى عند الشباب الأفريقى .

صحيح أن الحركة لم تتمكن من تحقيق مشروعات النشر التى رسمتها لنفسها . ولكنها تمكنت فقط من نشر كراسة للشعر الزنجى باللغة البرتغالية . هذه الصفحات القليلة المختارة من شعراء ساوتومى ، وأنجولا ، وموزامبيق ، استطاعت أن تكشف للمرة الأولى عن تنوع الإبداع الأدبى فى هذه البلاد ، وأن تنبه عن وعى جديد للمثقفين . وبدأت شعوب هذه البلاد – وهى جزء من أفريقيا – التى تنتفض للمطالبة بحقها ، أن تتعرف على نفسها فى شعرائها .

وفى عام ١٩٤٨ شارك نتو فى صيحة جماعة من المثقفين تنادى : « هيا بنا إلى اكتشاف أنجولا من جديد » .

وبعد عودته من البرتغال – عقب تخرجه طبيبًا – بدأ نشاطه فى استئناف الحركة من جديد . وكان يرى فى هذه المرة . أن على الحركة أن تتفتح أبوابها على الشوارع ، وأن توحد بين نفسها وبين نوازع الشعب وأمنياته فى لحظته الراهنة ، وفى مواقع كفاحه .

وظهرت جماعات أدبية مثل « حركة الشعراء الجدد فى أنجولا » . وتأسست مجلات مثل « الرسالة » ووضعت خطط لمحو الأمية بين الجماهير .

ولكن . .

ولكن محاكم التفتيش ، والإرهاب السافر ، دفع بالكتاب والشعراء إلى خنادقهم ، ليعملوا فى السر ، تحت الأرض ، فى صراع مرير غير متكافئ .

فليكن . .

لقد ولد الأدب الأنجولى الحديث ! .

أدب يقول :

« إن القصيدة التى تذيع وتنتشر فى الشوارع ، فى أنجولا ، وفى موزامبيق ، هى القصيدة التى تقترن بإيقاعات شعبية ، وتتسم بالخصائص القومية .

لقد مضى الشعب للحرب .

ولكن نتو من زنزانة سجنه البعيد يبعث برسالة الأمل المحب :

سوف نذهب ، نعم ، يا حبي . .
سوف نذهب ،
عند عودتى
وقد تحطمت الأصفاد
سوف نطلق الحياة
لاراد لها
من إسارها ،
فى وحدة وثيقة ،
فى أغاريد الطيور المبهورة
إن خطا الرجال العائدين
فى ترانيم الأمطار
على الأراضى المولودة من جديد
خطًا واثقة . .
يخطوها رجال قد انعقد منهم العزم
يا حبى . .

وهكذا تتحول القصيدة ، من الصيحة إلى الأغنية . ومن الأغنية إلى النداء . والشاعر يصقل عدته الشعرية ، ويرهف سنان سلاحه بالقصيدة ، يعترض ويرفض ، ويحتج ، ويقاوم ، ويضم إلى تراث بلده الثقافى عناصر تأكيد لذات القومية .

يقول نتو إن الشعر اجتاز ثلاث مراحل :

مرحلة « الزنوجة » بوصفها رفضا للاندماج .

ثم مرحلة نداء « التآخى فى المعركة »

ثم مرحلة التستر القبلى الذى كان يدفن فى الماضى الإبداع الجماعى للشعوب الأفريقية .

كان نتو ورفاقه يؤمنون بأن الشاعر والأديب ، لا يمكن أن يفصل نفسه عن حياة الناس . وعن نضالهم . وعن آمالهم فى تحقيق الحرية والعدالة الإنسانية .

وكانت مهمة الأديب والشاعر – فى نظر نتو – أن يحيل الرغبة إلى قوة فعالة . وذلك عن طريق الكشف والتوعية . وأن يحيل الساكن إلى متحرك ، والمهزوم إلى مناضل . والعبد إلى سيد . والمحروم إلى مطالب بحقه ولو بالقوة .

فى قصيدته « الأم » ، يقول :

أماه . علمتنى ،
ككل أم سوداء يرحل ابنها ،
كيف أنتظر ، وآمل . .
كما تعلمت أنت فى أيامك المريرة
لكل الحياة . .
قتلت ذلك الأمل الصوف فى صدرى
فلست أنا الذى يَنْتَظِرْ . .
بل أنا . . الذى يُنْتَظَرْ . .
ونحن الأمل . .
نحن أطفالك . .

نسير نحو عقيدة تستطيع أن تغذى
الحياة عند أبنائك الباحثين عن الحياة .

الشاعر يجعلنا نحس بما يشتعل فى أعماقه من مشاعر التحرر والأمل . إنه ينظر إلى آفاق المستقبل لشعبه ووطنه بعين الواثق .

ولكنه لا يكتفى بمجرد الأمل فى المستقبل فحسب ، بل إنه يعبر عن صرخة المتمردين التى توشك أن تتحول إلى ثورة ، ففى قصيدة بعنوان « نار وإيقاع » يقول الدكتور نتو :

إيقاع فى النور
إيقاع فى اللون
إيقاع فى الموسيقى
إيقاع فى الحركة
إيقاع على تشقق الأقدام الدامية
إيقاع الأظافر المقتلعة
لكن إيقاع . .
إيقاع . .
يا أصوات أفريقيا الأثمة

الشاعر هنا يتنبأ . . يسبق الحلم الذى لن يتحقق إلا بالثورة . بالثورة المسلحة . إنه هنا بنبوءته يرى فى شقاء اليوم خميرة الغد . وهو دائمًا لا ينسى أنه أفريقى يتحدث بلسان الأفريقى .

* * *

آخر مرة التقيت به، كان فى القاهرة مع مطلع يناير ١٩٧١ ، وكان كعادته

وديعًا ، رقيقًا ، تحس إنسانية الطبيب على وجهه الهادئ الذى لا يبدو عليه سمة الثائر الملتهب أو القائد الذى يخطط لحرب عصابات تهز الأرض تحت أقدام جيش البرتغال الاستعمارى .

إن تاريخ الشعوب يتضمن أفعال الناس . ومايبذلونه من جهود . وكثيرًا ما يكتب ذلك بالكلمة . والمدفع ، وبالمفرقعات . وبالصواريخ . كما يحدث فى أنجولا تحت قيادة الشاعر الرقيق ، الطبيب الوديع ، المقاتل الثائر ، أو جستينو نتو ، الذى قدره الكتّاب الأفريقيون الآسيويون شاعرًا ومقاتلا ، فكرموه ومنحوه جائزة « لوتس » للأدب عام ١٩٧٠ .

لنتذكر نتو ..

ولنتذكر أن ما أخذ بالقوة .. لا يسترد إلا بالقوة .

☐ فى الحادى والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٧٥ أعلن تحرير واستقلال أنجولا بعد سنوات مضنية من الكفاح المسلح . واختار شعب انجولا قائد حركة تحريره وكفاحه الدكتور اوجستينو نتو ليكون أول رئيس لجمهورية انجولا المستقلة . وفى صيف عام ١٩٧٩ استضاف نتو المؤتمر السادس للكتاب الأفريقيين الأسيويين – الذين أهدوه جائزة « لوتس » – لينعقد فى العاصمة « لواندا » . بعدها أصيب بمرض . وعقب عملية جراحية بموسكو مات يوم ١١ سبتمبر ١٩٨٠ ليبقى إسم نتو رمزًا دائمًا لاشتعال جذوة المقاومة والنضال فى قلب الشعب حتى تحرر الوطن .



عابد الأسلاف..

إن مشكلة أمتنا الجديدة – كما رأيتها مستلقية على ذلك الفراش – كانت تكمن فى أننا جميعًا . لم نمكث فى داخل بيوتنا مدة تكفى لجعلنا نضرب بعرض الحائط كل شىء . لقد كنا حتى الأمس ، نقف تحت المطر فى العراء ! وبعد ذلك .. تدافع حفنة منا – أمهرنا وأكثرنا حظًا ولكنهم أبعد من أن يكونوا أفضلنا – تدافعوا إلى المأوى الوحيد . الذى تركه لنا حكامنا السابقون ...

« من رواية : رجل من الشعب »

بالرغم من أنه فى الثالثة والأربعين (عام ١٩٧٣) . وبالرغم من الشهرة العريضة التى اكتسبها على نطاق عالمى ، فإنه لم يكتب سوى أربع روايات فقط



● شنوا اتشبی ●

هى : « الأشياء تتداعى » وصدرت عام ١٩٥٨ ، و « لم يعد ثمة راحة » صدرت عام ١٩٦٠ ، و « سهم الرب » وصدرت عام ١٩٦٤ . وأخيرًا « رجل من الشعب » وصدرت عام ١٩٦٦ . ومع اقتصاره على الروايات الأربع ، فإنه يعتبر صاحب مدرسة تنسب إلى اسمه فى فن الرواية والقصة فى أفريقيا . بل إن إحدى رواياته الأربع التى كتبها خلال ستة أعوام ، أصبحت الآن نصًا مقررًا فى مناهج الأدب الإنجليزى بالمعاهد الدراسية فى غرب افريقيا .

هذا هو « شنوأتشيبى » الكاتب الذى ينظر إليه الناس كمسجل للتاريخ الأفريقى ، وبالإضافة إلى كونه رائدًا للرواية فى أفريقيا.

اتشيبى ، اهتم – فى كتاباته – بتسجيل تاريخ جديد لمواجهة افريقيا مع أوروبا. واهتم بإعادة تفسير التاريخ الأفريقى ناظرًا إليه بعينين أفريقيتين .

وفى مطلع عام ١٩٧٣ . وفى حديث صحفى . ألقى « أتشيبى » الأضواء على اهتماماته بقوله :

«كان هناك من يعتقد أننا فى أفريقيا ، قوم بلا ماض وبلا تاريخ . وما فعلته فى الأعوام الأخيرة ، وما افعله الآن ، هو أن أقول لهؤلاء بطريقة مؤدبة مهذبة نحن الأفريقيين لنا الماضى والتاريخ . فإليكم ماضينا وتاريخنا وأعتقد أن كل كاتب فى أفريقيا ملتزم بنفس هذا الموقف » .

ولد فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ فى « أوجيدى » قرب « أوينتشا » شرق الإقليم الأوسط فى نيجيريا وينحدر اتشيبى من قبائل « الايبو » وهو ابن مدرس كان يعمل فى مدرسة قروية ، تابعة لجمعية إرسالية الكنيسة. بدأ اتشيبى تعليمه فى هذه المدرسة . ثم انتقل للمدرسة الثانوية الحكومية فى « أوموهيا » ، فى عام ١٩٥٣ كان من أوائل دفعة الحاصلين على درجة البكالوريوس من جامعة ايبدان. فى سنة

١٩٥٤ بدأ عمله الإذاعي كمخرج لبرامج الأحاديث فى مؤسسة إذاعة نيجيريا . فى سنة ١٩٥٦ التحق بمعهد تدريب الإذاعيين بإذاعة لندن . فى سنة ١٩٦١ تعين مديرًا للإذاعة الخارجية فى نيجيريا المعروف باسم « صوت نيجيريا » . بين عامى ١٩٦٠ – ١٩٦٢ زار شرقى أفريقيا على حساب منحة من مؤسسة روكفلر . فى عام ١٩٦٣ حصل من اليونسكو على منحة زمالة للفنانين الخلاقين وبموجبها سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وإلى البرازيل . وإلى بريطانيا .

فى عام ١٩٦٦ ، بعد احتفالات « الإيبو » فى شمالى نيجيريا ، استقال اتشيبى من عمله الإذاعى ، وانتقل إلى شرق نيجيريا . وفى عام ١٩٦٧ ، بالاشتراك مع صديقه الشاعر « كريستوفر أوكيجبو » أنشأ دارًا للنشر فى « إينوجو » . هدف الدار ، طبع ونشر كتب أدبية لتلاميذ المدارس ، تتضمن أدبًا يقوم على أساس الفكر المحلى فى نيجيريا . ونشبت الحرب الأهلية فى نيجيريا ، والتحق « أوكيجبو » بجيش « بيافرا » وعندما حلت نهاية العام كان قد استشهد فى المعارك . وضاق اتشيبى بالاستمرار فى العمل بعد مصرع صديقه وشريكه ، فألقى بنفسه وسط رفاقه الإيبو فى بيافرا يشاركهم . وخلال الحرب دمر بيته تمامًا .

وفى نهاية عام ١٩٦٩ قام اتشيبى بجولة فى أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية ، برفقة زميليه الكاتبين « جبرييل أوكارا » و « سيبريان اكوينزى » . كان الثلاثة – فى أثناء جولتهم – يحاضرون فى الكليات والجامعات الأمريكية . وبعد انتهاء الحرب بفترة قصيرة ، تعين اتشيبى باحثًا فى معهد الدراسات الأفريقية بجامعة نيجيريا فى مدينة « نسوكا » بشرق الإقليم الأوسط فى نيجيريا ، والآن ، يقوم اتشيبى – بالإضافة لعمله الجامعى – بعمل رئيس تحرير المجلة التى تصدرها الجامعة باسم « نسوكاسكوب » . وبعمل رئيس تحرير المجلة الثقافية « أوكيكى » التى تصدر عن دار النشر « نواميف » . كما يعمل مستشارا أدبيًّا لسلسلة « الكتّاب الأفريقيون » التى

تصدرها مؤسسة دار « هاينمان » للنشر.

وفى أغسطس ١٩٧٢ منح اتشيبى درجة الدكتوراه الفخرية فى الأدب من جامعة « دارموث » الأمريكية تقديرًا لدوره الفريد فى الأدب العالمى .

فى عام ١٩٥٨ صدرت أول أعمال شنو اتشيبى . رواية « الأشياء تتداعى » . هذه الرواية ترجمت إلى ثلاثة عشرة لغة من لغات العالم . وقد عالج فى هذه الرواية النتائج الإنسانية لاصطدام الثقافات الأفريقية والأوروبية . وهذا الاصطدام ، خط شغل كتاب نيجيريا ، كما شغل كتاب أفريقيا ، لسنوات طويلة .

فى هذه الرواية ، يبدو اتشيبى كاتبًا يشده الحنين والارتباط بالأمكنة . ويقدم للقارئ الروح الشخصية عند قبائل « الايبو » . وهو يتفوق بامتياز حين يصور لنا الشخصيات ، وحين يصور لنا مجتمع الإيبو القديم . وحين يضفى صورة درامية ممتعة على الشعائر العقائدية . وعلى حياة مجتمع الإيبو من الداخل . وكيف يناضل الزعيم فى هذا المجتمع التقليدى القديم ضد الأفكار الجديدة ، والأفكار الجديدة تدمغ وتدين الاستعمار والرجل الأبيض .

إنه يكتب هذا ، فى تمكن واثق من اللغة الإنجليزية وبمهارة عجيبة فى اختيار الكلمات التى تترجم أفكاره وبحس مرهف يكشف لك ما فى أعماق كل شخصية من شخصيات روايته .

الصدام بين الثقافات الأفريقية والأوروبية ، الذى شغل كل كتّاب افريقيا ، والذى عالجه اتشيبى ببراعة فائقة فى « الأشياء تتداعى » . هذا الصدام يشغل تفكير أتشيبى منذ زمن بعيد ، ولأتشيبى موقفه تجاهه .

إنه يقول :

بالنسبة لى شخصيًّا . كان هدفى فى كل ما أكتب أن أقول للقارئ – اينما وجد – إن أفريقيا قبل مجيء الرجل الأوروبى . لم تكن فى فراغ. وإن ما يقال عن

انعدام الثقافة فى أفريقيا تزييف وتزوير للحقيقة . إن الثقافة الأفريقية موجودة من قبل مجىء الرجل الأبيض . الذى حاول تضليل الأفريقيين . وحاول أن يزعم أنه قد جاء لهم بثقافة .

ثم يضيف اتشيبى قائلا :

من الغريب حقًّا ، ان يتبجح الرجل الأبيض . ويقول هذا بلد بلا ماض وبلا تاريخ .! بل إن بعض البيض الذين جاءوا إلى أفريقيا وصل بهم التبجح إلى حد القول : أيها الأفريقيون . أنتم بلا تاريخ . أنتم بلا ثقافة . أنتم بلا حضارة . أنتم بلا ديانة . ومن حسن حظكم أننا هنا الآن . لنعطيكم كل شىء ! .

هذا هو المنطق الذى تفتحت عليه عينا اتشيبى . وهو – بالطبع – منطق غير معقول وغير مقبول .

إن الأفريقيين – كما يقول اتشيبى – لم يهبطوا من السماء فجأة . إنهم فى أفريقيا منذ آلاف السنين . ولهم – بالقطع – تاريخهم ، وتقاليدهم ، وحضارتهم ، وثقافتهم . ولا يمكن لثقافة ما أن تقول لثقافة أخرى . أنا الطريق ، أنا الحقيقة ، أنا الحياة . ولا شىء فى الوجود سواى ! .

ومع ذلك

فإن الأوروبيين قالوا لأهل أفريقيا هذه العبارات . وما قالوه كان شيئًا غاية فى الغباء . وضيق الأفق والتعصب . وكانت مهمة اتشيبى أن يكشف للدنيا هذا الغباء ، وهذا التزييف ، لهذا كتب رواياته الأربع .

واتشيبى فى رواياته ، يمثل نوعًا من الحساسية مختلفًا كل الاختلاف عن غيره من كتاب أفريقيا ، فكتاباته تعكس قوة هادئة ، وتواضعًا اصيلا ، وهو يحرك فى رواياته سواكن ماضٍ يتحتم على الجيل الأفريقى المعاصر أن يتعرف عليه أفضل ما يكون التعرف . إنه يصف نفسه دائمًا بعبارة « عابد الاسلاف » . وهو محق فى

هذا الوصف . لأن له فى واقع الأمر صلة خاصة بالماضى . ويرى أن مهمته – ككاتب – أن يبعث تاريخ أفريقيا أمام الأفريقيين المعاصرين . وأمام البيض الذين زيفوا الحقيقة .

وكل رواية من روايات اتشيبى الأربعة نقف باعتبارها عملا قائمًا بذاته من الأعمال الأدبية . ومع ذلك فإننا إذا تناولناها معًا . وجدناها تشكل رباعية متسقة تدعم أجزاؤها المستقلة . وتضىء بعضها بعضًا . إنها موحدة . ومع ذلك ، فهى متنوعة . متوافقة جماعيًا ولكنها منفردة فرديًا .

وكان تأثير كل رواية من روايات اتشيبى على الكتّاب الشبان فى أفريقيا بصفة عامة ، وفى نيجيريا بصفة خاصة ، قويًا وعميقًا . بل إن القراء الشبان من « الإيبو » من الذين نشئوا فى قرى ومدن شبيهة بتلك التى وصفها اتشيبى فى رواياته ، قد وجدوا عالمهم الخاص وقد انعكس بكل الصدق فى روايات اتشيبى .

بل إن بعضًا من الروائيين النيجيريين الأكبر سنًا والأرسخ مكانة فى عالم الأدب والكتابة ، كشفوا بصراحة عما استفادوه من قراءة أعمال أتشيبى . لقد تعلم الكتّاب الكبار والشبان من أتشيبى كيف يكتبون قصصًا أفريقية .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى ملاحظة هامة . فقبل اندلاع الحرب الأهلية فى نيجيريا ، وبعد صدور روايته الثالثة « سهم الرب » أخذ اتجاهه فى الكتابة يتغير . لقد قرر أن يتحول عن الماضى . وأن يعنى بالقضايا المعاصرة لبلده . فكتب « رجل من الشعب » .

وهو يفسر هذا التحول بقوله :

من الواضح لدى ، أن الكاتب الأفريقى الخلاق ، الذى يحاول تجنب القضايا الاجتماعية والسياسية الكبيرة فى أفريقيا المعاصرة ، سينتهى به الأمر إلى أن تكون كتاباته أشبه بدخان فى الهواء .

فى رأيه أن مهمة الكاتب ليست مجرد تسجيل وتصوير للأحداث . إن مهمة الكاتب الحقيقية هى رؤية المستقبل والتمهيد لهذا المستقبل .

يقول :

« لقد انتهى الوقت الذى نقول فيه إن بلدنا كان كذا . وإن شعبنا كان كذا . إن مهمتى الآن أن أرسم الغد لبلدى . وأن اتصور مجتمع الغد فى بلدى . وماذا علينا أن نفعل غدًا . وماذا نأخذ من قيم الأمس لينفعنا غدًا » .

* * *

إن أتشيبى – بإيجاز شديد – يرى أن الكاتب هو ضمير شعبه . والمعبر عن أحزانه وآلامه . والمعبر عن أفراحه وآماله ، إن الكاتب لا يمكن أن ينفصل عن شعبه .

لهذا ..

فإنه عندما تحركت الأحداث السياسية والاجتماعية فى نيجيريا ، تحول بكتاباته إليها .

لقد تحررت نيجيريا وزال الاستعمار من فوق الأرض النيجيرية . وتغير لون الحكام من الأبيض إلى الأسود .

ولكن ..

طبيعة الحكم لم تتغير ! .

بل إن الحكم – كثيرًا – ما كان يصاب بحالة تدهور ! ..

وهو يصف الأحوال بقوله :

« إن المسئولية . والسلطة . وضغط الأحداث . وجو سوق السياسة ، يبدو أن كل هذا يفسد الرجال ، يفسدهم تحت شعار « الغاية تبرر الوسيلة » .. ولكنهم فى النهاية يكتشفون أن الغاية قد قضت عليهم إلى الأبد » .

إن أتشيبى فى آخر رواياته « رجل من الشعب » قد تنبأ بالانقلاب العسكرى الذى وقع فى نيجيريا بعد صدور الرواية . لقد رسم فيها صورة لا تنسى للزعيم « مانجا » عضو البرلمان . صورة للسياسى الفاسد الذى تراه فى كل مكان من أفريقيا التى استقلت أخيرًا .

الناقد الهندى الكبير الدكتور « راينجار » يصف هذه الرواية بكلمات تقول :

« إن رواية اتشيبى تعتبر مرجعًا صادقًا للسياسة الأفريقية لعصر ما بعد الاستقلال . صور فيها الدناءة ، والخداع ، واللصوصية ، والانتهازية ، وكل الاستسلام الردىء لدواعي الفساد . إن كل هذه الصور تحيط بالرواية فى شبكة فنيتها الرائعة بصورة غير مرئية » .

* * *

إن ما حدث فى أفريقيا على ايدى الأوروبيين البيض كشفه أتشيبى فى رواياته الثلاث الأولى ، التى صور فيها النظام القبلى القديم لدى « الأيبو » وهو يدخل الصراع ضد المسيحية . وضد الحكومة الأجنبية التى أقامها الإنجليز ، وصور الصراع بين الأفريقى والأوربى . وبين الوثنى والمسيحى . والصراع بين البدائية والعصرية . وأعلن رأيه بصراحة فقال إن المسيحية التى دخلت جنبًا إلى جنب إلى أفريقيا مع الاستعمار ، لم تكن إلا محاولة لإضفاء صيغة إنسانية تخفى حقيقة أهداف الاستعمار البريطانى . وكثيرًا ما استطاعت الديانة الجديدة أن تمزق الوحدة القبلية .

بل إن الاستعمار نفسه ، وقد مزق وجه أفريقيا كلها . وفرض حكومات أجنبية تحكم على أسنة الرماح . هذه الحكومات قد قمعت بالقوة كل محاولات الأفريقيين فى تحقيق قوميتهم وكرامتهم الوطنية . وسخرت كل البشر السود لخدمة السادة البيض .

ثم ..

جاء التحرير..

ولكن .. هل تغير الموقف كثيرًا ؟.

إن مخلفات الاستعمار بقيت . صحيح أن الاستعمار التقليدى قد رحل من الباب . ولكن ليعود استعمار جديد من النافذة . الاستعمار الجديد أشد خبثًا ودهاءً . صنع حكاما كالدمى يحركهم من وراء ستار . الحكام الجدد نموذج للفساد . ورثوا من المستعمرين أبشع صور البيروقراطية .

لهذا لم يكن غريبًا ... أن تنشب فى نيجيريا حرب أهلية أزهقت خلالها آلاف الأرواح فى صورة دموية بشعة ، وهذا ما تنبأ به أتشيبى فى آخر رواياته .

* * *

من الصعب جدًّا ، تلخيص أى من روايات اتشيبى ، ولكن إذا تأملنا « الأشياء تتداعى » ، وحاولنا تقديم ملخص موجز لها ، فإننا نلتقى ببطل القصة « أوكونكو » . محارب مشهور . ومزارع خبير . ارتفع من أصل متواضع لكى يصبح قائدًا ثريًّا ومحترمًا فى عيون عشيرته . كانت حياته كلها نضالا وصراعًا من أجل بلوغ المكانة . بل إن النضال والصراع وصل إلى حد ارتكاب جريمة قتل فى الوقت الذى كان على وشك تحقيق أمله فى الوصول إلى مركز هام . ازاء هذه الجريمة كان يتعين عليه أن يترك عشيرته ويعيش منفيًّا لسبع سنوات. وفى نهاية السنة السابعة ، يعود أوكونكو ، يعود ليجد أن الأشياء قد تغيرت فى قريته وموطنه . لقد أنشأ المبشرون البيض كنيسة . وحولوا عددًا من قومه إلى دين الكنيسة . وأقام الرجال البيض محكمة يفصل فيها حاكم المنطقة فى القضايا حسب قانون أجنبى لا يعرفه الناس . ويحاول أوكونكو أن يحث عشيرته على القيام بعمل ما ضد هؤلاء الأجانب ومؤسساتهم . وفى لحظة غضب يقتل واحدًا من رسل حاكم المنطقة . وعندما لايجد صدى لهذا عند عشيرته ، ينتحر .

أتشيبى يرسم شخصية أوكونكو بطريقة ممتازة . فمن اللحظة الأولى ، يسيطر البطل على الرواية ، ويؤثر على القارئ بقوته ورهبته .

«كان طويل القامة ضخمًا. اكسبه حاجباه الكثيفان وانفه العريض مظهرًا شديد الصرامة . كان يتنفس بصعوبة . ومما يقال . إنه عندما ينام تستطيع زوجاته واطفاله سماع تنفسه فى بيوتهم الخارجية . وعندما يمشى لا يكاد كعباه يلمسان الأرض . فيبدو كأنه يسير على زنبرك . أوكأنه يوشك أن ينقض على إنسان ما . وكثيرًا ماكان ينقض بالفعل على الناس . كان يعانى من تأتأة خفيفة . وكلما غضب واستعصى عليه النطق بالكلمات بسرعة كافية ، استخدم قبضة يده ! »

لماذا اختار اتشيبى هذا البطل لروايته ؟

هو يجيب عن السؤال بقوله :

«كنت أريد شخصية يمكن أن تسمى ممثلة لهذه الجماعة المعنية من الناس . وهم يعجبون بالرجل ذى القوة . رجل الشعب . يعجبون بالرجل القوى صاحب الثروة . الرجل الذى يملك رقعة كبيرة من الأرض . ويملك عدة مزارع . ويملك عدة زوجات ايضًا . ونقطة الضعف فى هذا المجتمع ، هى افتقاره إلى التكيف . وعدم قدرته على الانحناء . وأظن أنه فى عصر أوكونكو ، كان الرجال الاقوياء هم أولئك الذين يرفضون الانحناء . واظن أن هذه كانت غلطة فى ثقافتهم ذاتها .

يقصد أتشيبى ، أن اخطاء أوكونكو ، هى أخطاء مجتمعه . إن الأشياء تتداعى فى أرض الأيبو ، لأن مجتمع الأيبو – وأوكونكو رمز له – يفتقر إلى المرونة .

واتشيبى يؤكد ذلك بقوله :

« لم يكن تعاطفى ينصب كلية على أوكونكو .. لأن الحياة يجب أن تستمر . وإذا أنت رفضت التغيرات ، فإنك – مهما كان ذلك اليمًا – يجب أن تنحى جانبًا »

على لسان أحد شيوخ القبيلة من أصحاب البصيرة النافذة . يوضح أتشبى أن المجتمع هو الذى اخطأ من البداية .. هذا الشيخ الحكيم يقول :

« إن الرجل الأبيض غاية فى المهارة . جاء فى هدوء وسلام بدينه الجديد. ضحكنا لحماقته . وسمحنا له بالبقاء . فاستمال إخوتنا إليه الآن . ولم تعد العشيرة قادرة على العمل كرجل واحد كما كان يحدث فيما مضى . لقد وضع الرجل الأبيض سكينًا على الأشياء التى تربطنا معًا .. فتداعينا ! »

* * *

لقد توقف أتشيى الآن عن كتابة الرواية التى كان أستاذا لفنها . إنه الآن يكتب مقالات . ويكتب قصائد وهو يفسر هذا الاتجاه بقوله :

« إن الظروف الحاضرة تفرض علىّ أن أقول ما أريد بإيجاز شديد . فى مقال . أو قصيدة . أو قصة قصيرة . ليس هذا هو وقت الرواية » .

صدرت مجموعتين من القصص القصيرة لأتشيى فى عام ١٩٧٢ . مجموعة بعنوان « بيضة القربان » ، والثانية بعنوان « البنات فى الحرب » . المجموعتان تضمان القصص القصيرة التى كتبها أتشيى ونشرت فى الصحف والمجلات .

كما صدرتُ له مجموعة شعرية بعنوان « حذار ياشقيق الروحى .. وقصائد أخرى » نشرت عام ١٩٧١ فى طبعة أفريقية . ثم أعيد نشرها عام ١٩٧٢ فى طبعة عن لندن .

وأشهر المقالات التى كتبها : « دور الكاتب فى أمة جديدة » . و « الكاتب الأفريقى والقصة الإنجليزية » . و « الروائى كمعلم » . و « عبء الكاتب الأسود » . و « الكاتب الأفريقى وقضية بيافرا »

وعن أتشيى وكتاباته صدر مؤلفان ، أحدهما بعنوان « روايات شنوا أتشيى » صدر فى لندن عام ١٩٦٩ والثانى « شنوا أتشيى » وصدر فى لندن عام ١٩٦٩

أيضًا . كلاهما دراسات وصفية أكثر منها نقدية لأعمال أتشيبى تهدف إلى شرح وتفسير يفيد الدارسين بالجامعات .

* * *

هذا هو شنوا أتشيبى . بعد أن انتهى من إعادة تفسير التاريخ الأفريقى بعينين أفريقيتين كرس قلمه للتخلص من آثار الاستعمار فى بلده . وللتمهيد لميلاد قيم سياسية واجتماعية جديدة ، لا فى نيجيريا وحدها ، بل فى أفريقيا كلها .

□ تقديرا لما قدمه شينوا أتشبى من أعمال إبداعية تؤكد أنه –ككاتب– يعتبر نفسه ضميرا للشعوب الافريقية بصفة عامة .. ومعبرًا عن آلام وآمال الشعب النيجيرى بصفة خاصة .. فقد قرر المكتب الدائم للكتاب الأفريقيين الأسيويين إهداءه جائزة لوتس للأدب الأفريقى الأسيوى لعام ١٩٧٥ .



أين يموت الثعبان ؟!

□ أرض شعب ضاحك .. شعب كريم .. ، هذا ..
ما تذكره إعلانات السياحة .. ولكن ..
ولكن الإعلانات نسيت أن تضيف :

« إن الجنس رخيص هنا .. ! »
« وأن الخمر لا يأبه به أحد .. ! »

□ وان الشعب يقاسى من الاف الأمراض ... و ..
والشحاذون فى كل مكان ... حتى على ممرات هبوط الطائرات !.

□ إن الحكومة – أية حكومة – يضعف رجالها تمامًا ..
أمام الضغوط المالية ! !

« من رواية هذه الأرض يا أخى »



● كوفي أوونر ●

في عام ١٩٧٢ ، صدرت روايته الأولى « هذه الأرض ياأخي » وبالرغم من أن الكاتب أفريقي من غانا . فقد طبعت روايته في أمريكا .. وأثار صدورها ضجة كبيرة . وسلسلة لا تنتهي من المناقشات والجدل ، حول الرواية وحول المؤلف الذي كتبها بفكاهة مرة وسخرية لاذعة . والفكاهة والسخرية - في الأساس - حكايات حزينة ، مليئة بالدموع والآلام .

ولكن ..

لماذا أثارت هذه الرواية ضجة ، وجدلا ! ولماذا ثارت هذه المناقشات حول مؤلفها «كوفي أوونر» الذي كان يسمى فيما مضى « جورج أوونر وليامز» ! !

السبب ..

أن الرواية شيء جديد ..

كتبت بتكنيك جديد .. جديد ..

الرواية مكتوبة على مستويين .. مستوى واقعي ومستوى خيالي حافل بالرمز ..

إن كل فصل في الرواية له ملحق به يحمل نفس الرقم .

مثلا الفصل ١ ويليه ١ (أ) ثم فصل ٢ ويليه ٢ (أ) .. وهكذا .

الفصول الأصلية تعالج حياة كل يوم . حياة أفريقيا بما ورثته من مساوئ الاستعمار وفساده . ثم الفصول الملحقة بأسلوب شاعر .. يرجع بنا إلى الماضي . ليناقش الحب والدين والذكريات والطفولة .

الغريب .. أن « أوونر» استغرق ثمانية أعوام من عمره ، ليكتب أول أعماله الروائية .. التي أثارت هذه الضجة .

تعالوا نتعرف عليه أولا .

* * *

ولد أوونر في ١٣ مارس عام ١٩٣٦ في « وهيتا » بحي « أونولو الجنوبي » بإقليم

« فولتا » قرب « كيتا » بجمهورية غانا الأفريقية . أبوه من « توجو » ، وأمه من « سيراليون » .

بدأ تعليمه فى « كيتا » التى يصفها بقوله :

« مدينة الفيضان ، ببحرها الذى تدوى أمواجه فى أذنى » .

تلقى تعليمه فى مدرسة للمبشرين . ثم انتقل إلى كلية « اتشيمونا » فى العاصمة « أكرا » . ثم فى جامعة غانا . ثم فى جامعة لندن ، حيث حصل على درجة الماجستير فى الأدب الإنجليزى الحديث . وسافر إلى أمريكا ليحصل على درجة الدكتوراه فى الأدب المقارن من كلية « ستونى بروك » بجامعة نيويورك .

شغل وظائف محاضر فى القسم الإنجليزى بجامعة غانا خلال الفترة ١٩٦٠ — ١٩٦٣ . ثم عمل معيدًا ومحاضرًا متخصصًا فى الشعر بمعهد الدراسات الأفريقية بجامعة غانا ١٩٦٣ — ١٩٦٥ ، ثم شغل منصب المدير العام لمؤسسة صناعة السينما فى غانا ١٩٦٥ — ١٩٦٧ . ثم حصل على منحة « لونجمان » للدراسة العليا بجامعة لندن . ومن هناك حصل على درجة الماجستير عام ١٩٦٨ . فى نفس العام أصبح مساعدًا بالقسم الإنجليزى بجامعة نيويورك ، كلية « ستونى بروك » وأعد الدرجة الدكتوراه التى حصل عليها عام ١٩٧٠ . ثم عين رئيسًا لبرنامج الأدب المقارن بنفس الكلية ١٩٧٠ — ١٩٧٢ . وبعدها عين أستاذًا مساعدًا زائرًا لمدة عام بالقسم الإنجليزى بجامعة « أوستن » بولاية تكساس الأمريكية .

فى شهر أكتوبر ١٩٦٨ اتخذ لنفسه الاسم الرسمى الأفريقى « كوفى أوونر » بدلا من اسمه المسيحى « جورج أوونر وليامز » .

وعن هذا التغيير قال :

« إن أبغض الأشياء إلى المرء . المتكلفون والمنافقون . وكنت أحس فى اسمى السابق التكلف والنفاق للمستعمرين !! » .

استطاع كوفى أوونر أن يحقق لنفسه سمعة طيبة فى دنيا الأدب ، بصدور أول ديوان شعر يحمل اسمه . وتبدو فى قصائد هذا الديوان – بكل وضوح – تأثره الشديد بمسرح الطبيعة التى أحاطت بطفولته . ومواسم الفيضان فى مدينة البحيرات . صيادو السمك وطيور النورس . كل هذه الصور ، تمتزج وتختلط بآلهة أسلافه وأجداده . فيقوده هذا إلى « إعادة الاكتشاف » . ومن هذا يتخذ عنوانًا لكتابه الأول الذى نشره فى نادى « مبارى » الأدبى فى « ايبدان » بنيجيريا عام ١٩٦٤ .

فى قصيدة « إعادة اكتشاف » التى جعل منها عنوانًا لديوانه يقول :

عندما تجف دموعنا على الشاطئ ..
ويحمل الصيادون شباكهم عائدين إلى البيت .
وتعود النوارس إلى جزيرة الطيور
وتخفت ضحكات الأطفال بالليل وتسكت
سوف يبقى ذلك التشارك الذى صنعناه سويا
وحفل التوحد الذى شاركنا فى شعائره
ويساق خارجًا من يتأخر من المعزين
ولسوف يبقى حارس الباب الأبدى
لا يمكن أن الموسيقى التى سمعناها فى تلك الليلة
هى التى مازالت تتردد فى الذاكرة
إنها الجوقة الجديدة لرفاقنا المنسيين
وترانيم البهجة التى تنشدها ذواتنا الثانية

لحظات يختارها الشاعر – فى قصيدته – من قالب أعاد اكتشافه . ويسجل

لحظات قمة التبلور – سواء كانت عالية أو هابطة – لأنها اللحظات التى يكتشف فيها القوة الكامنة فى أعماق ذاته .

بقية قصائد هذا الديوان تدور حول تقاليد وعادات قومه وعشيرته ، ووسط الطبيعة الخاصة التى تميز مسقط رأسه ، الشاطئ والبحر ، والفيضان ، وشباك الصيادين ، وطيور النورس .

عن هذا الديوان يقول أوونر اليوم :

«كلما ألقيت نظرة على هذا الديوان .. أحس بخجل شديد ..! أحس أن قصائدى ناقصة . لم تكتمل .. لماذا ؟ لست أدرى .. شكرًا لله أن هذا الكتاب اختفى تمامًا من المكتبات . ربما أحرقوه . ربما القوا به فى المهملات ! لا أعتقد أن أحدًا غيرى يملك نسخة منه ، أما النسخة الوحيدة التى أملكها ، فإننى أرفض أن أعيرها لصديق يطلبها . ساحتفظ بها حتى يجىء اليوم الذى أكتب فيه سيرة حياتى . يومها سوف اتحدث عن الشعر السخيف الذى كتبته فى مرحلة من عمرى » .

فى حوار له مع جمع من الأساتذة والطلاب فى جامعة أوستن بامريكا فى مطلع هذا العام .. سأله أحد الطلبة عن حقيقة شعوره تجاه هذا الكتاب « إعادة اكتشاف » ..

فأجاب قائلا :

« برغم كل شىء .. شعورى هو شعور الأب والأم تجاه واحد من الأولاد . لا يستطيع الأب أن يكون ضد أحد أولاده ، ولكن .. من الممكن أن يكون لك من بين أولادك طفل ردىء أو سيئ الطباع ، ومع ذلك فهو إلى الأبد ولدك . من لحمك ودمك . ولا يمكنك – بالطبع – أن تقتله ذات ليلة فى الخفاء ، لمجرد أنه ردىء ، أو سيئ الطباع ! » .

برغم ما يقوله عن رأيه الشخصى ، فى ديوانه الأول ، فإنه حقق نجاحًا كبيرًا .

وبعد سبع سنوات دعم هذا النجاح بديوانه الثانى « ليلة دمى » يضم قصائد نشرت له فى مجموعات « قصائد معاصرة من أفريقيا » ، و « كتابات أفريقية معاصرة » ، و « شعراء الكومنولث المعاصرون » و « شعراء شبان من « الكومنولث » ، وقصائد نشرت فى مجلات « ترانزشن » ، و « الكارينجا » ، و « فنون أفريقية » ، و « أوكيامى » ، و « أورفيوس الأسود » ، و « جرينافيلد ريفيو » .

الديوان طبع فى نيويورك وصدر عام ١٩٧١ .

أحد النقاد يصف شعره بأنه محاولة من الشاعر ، لتأكيد عهد قطعه على نفسه جيل من الشباب الذى تعلم بعيدًا عن جو الحياة التى يعيشها آباؤهم . ولكن المحاولة تنم عن إدراك واع لضرورة الفصل بين شعر العامية الشفاهى ، وبين التخيلات والخرافات لإعطاء إضافة مؤثرة لإحساس الشباب بالضياع بين الماضى والحاضر.

فى عام ١٩٧٣ صدرت من نيويورك رواية « هذه الأرض يا أخى » .

أول رواية يكتبها أوونر.

هو شاعر ..

شاعر أولا .. واخيرًا ..

حتى بعد أن كتب أولى رواياته .. يرى أنه كتبها كشاعر. وكل ما فى الأمر أنه أراد رقعة أوسع من أبيات القصيدة .. ليضع أفكاره الشعرية .

يقول « أوونر » :

« لا أعتقد أننى قد كتبت – بالضرورة – شيئًا من النثر ... ولكننى أردت أن أكتب قصيدة نثرية طويلة . إن نفس الموضوع الذى عالجته فيما مضى بالقصيدة الشعرية ، حاولت معالجته بقصيدة طويلة من النثر.. هذه هى روايتى » .

الرواية تحكى قصة افريقيا المعاصرة . وهى نفس القصة التى كتبها الكاتب النيجيرى « شنوا أتشيبى » . ولكن فى رواية « أوونر » نلمح رؤية جديدة . رؤية تنبع من خيبة أمل المفكرين والمثقفين فى الاستقلال الأفريقى ، وفى القادة الأفريقيين . لقد تقدمت رؤية « أوونر » أكثر من عشرة أعوام على رؤية « أتشيبى » فى روايته « تداعى الأشياء » ، وهى رؤية عالجت المتناقضات بين التقاليد الأفريقية وجديد أوربا . وتحدثت عن الشباب الأفريقى الممزق بين الموروث « الأفريقى » والجديد الأوربى . ولكن رؤية « هذه الأرض ياأخى » أكثر تقدمًا من وجهة النظر السياسية والاجتماعية .

بدأ أوونر كتابة روايته الوحيدة عام ١٩٦٣ .

العجيب أنه قبل أن يشرع فى كتابتها .. كان قد انتهى من كتابة رواية اخرى بعنوان « أوراق الزمن » . ومازال لديه نصها الاصلى للآن . وهو يصف هذه الرواية بأنها تقليدية .. تقوم على السرد المباشر. وقد تأثر فى كتابتها بكل من « فوستر » و « كونراد » و « جريس » .

بعد أن انتهى منها .. قرأها من جديد . ولم يحس بأى سعادة . ووصل إلى قرار .. يقول :

« كوفى أوونر .. أنت شاعر .. ولا تصلح أبدًا لأن تكون روائيًّا » .

واعتبر « أوراق الزمن » رواية مرفوضة !

ومع ذلك .

بدأ يكتب « هذه الأرض ياأخى » . واستخدم فيها بعض اجزاء من الرواية المرفوضة ، وقد عانى كثيرًا فى كتابتها ، فقد كان يسجل احتجاجًا عنيفًا ضد الفساد . وضد السلوك الفاسد الذى طغى على كل البشر . وهو يتحدث عن

شخصيات روايته قائلا :

« صور إنسانية.. ولكنها بالنسبة لى شخصيات تلعب دورها بصورة غاية فى العنف والخشونة . لقد وضعت الشخصيات وسط بلدى غانا بظروفها . أو بمعنى أكثر اتساعًا .. وسط ظروف أفريقيا التى أعرفها جيدًا » .

إنه يقدم حياة افريقيا المستقلة بكل ما ورثته من الاستعمار من فساد . يقدم المحكمة وما يدور فيها . والفساد المتجسم فى حارس المزلقان الذى لا يسمح لأية سيارة بالمرور إلا إذا « دفع » سائقها ما يتيسر . ! ! ويعرض لنا حياة النادى حيث نلتقى بموظفى الدولة يشربون الخمر مع العشيقات . ونرى زوجاتهم يحضرن فجأة ، وتحدث خلافات ومشاجرات وفضائح .

الكاتب الروائى النيجيرى « شنوا اتشيبى » وصف الرواية بقوله :

« إنها قصة مجازية لأفريقيا » .

الرواية تحكى كيف يفقد الطريق المستقيم لبعض الأفريقيين . يقول بأسلوب شاعرى :

« وفوق جميع الآلام ، نجد أن المصيبة سائرة إلى النهاية . نهاية موجودة معنا طول الوقت . منذ البداية . وحتى النهاية . حيث الموت الذى يخبرنا بطل القصة أنه مختبئ دائمًا خلف الأبواب » .

بطل الرواية « أمامو » محام ناجح . درس فى إنجلترا . وسافر إلى أكثر من مكان فى العالم . والمؤلف يتتبع حياة أمامو منذ مولده . عبر حياته المتباينة الحافلة بأشياء كثيرة . إنه يضع أمامنا حياة البطل بطريقة واضحة . نراه طفلا صغيرًا يبدأ يتعلم الحياة ، يميز الأصوات والأفراد . يصفه أوونر : « إنه يلتقط الأصوات » .

ويصف أيام الطفولة والصبا على لسان البطل :

« أيام براقة فى الحقول . يقتطف الزهور . ويمسك بفراشات فى لون قوس

قزح فى الحديقة الموحشة . يطارد الأشباح فى الحقل . و .. أمسكت واحدة ا
كانت جالسة على زهرة عباد الشمس واسعة كالقمر المستدير . كل الألوان . ومن
كل درجات كل لون . وأمسكتها .. وصرخ الجميع : « لقد أمسك فراشة . ! »
كانت أولى صيدى . وولد الصياد فى صيد فراشة فى حقول عباد الشمس » .

ثم يضيف :

« ثم طارت .. لم تبق فى يدى حيث أمسكتها بحنان ورقة . وطارت .. وبحثت
عنها اياما عديدة . بحثت عنها فى الحقل . ولم أرها أياما عديدة . رأيت غيرها فى
شكلها . ولكن لا ، لم تكن فراشتى هناك . لقد ولت . لقد طارت . كانت الألوان
مختلفة . وخطوطها مختلفة . وعيونها مختلفة . لقد ولت ، لقد طارت » .

وفى مقدمة الكتاب – التى كتبها شنوا أتشيبى – يعلق أتشيبى برأى يقول : « إن
هذه الفراشة هى استقلال افريقيا ، الذى لم يستطع أن يحقق ما كان منتظرا منه » .

ويروى لنا أوونر قصصا عن حياة « أمامو » فى لندن . وكيف يسير فى شوارعها
وهو يحلم باليوم الذى تتحرر فيه أفريقيا . وهو يحلم بالجلوس فوق أول دبابة تدخل
« جوهانسبرج » ، بعد أن تنجح ثورة المناضلين فى جنوب أفريقيا وروديسيا . كان
يحلم وهو يسير فى الشارع عالى الرأس . ثم يدخل أحد المطاعم مع صديق وهو
منهمك فى حديث ، وحين يطرقع أصابعه وقد تذكر شيئا هاما نسيه ، يحسب
الجرسون الإنجليزى أنه يناديه . فيقول الجرسون بعنف وغضب : « أنت لا تنادى
كلبا » . ويقول « أمامو » لنفسه : « العفو .. الكلب هو أنا ، أنا الكلب
الأفريقى !! »

تبدو فكاهة .. فكاهة قاسية مريرة ، ولكنها فى الأساس حكاية حزينة دامعة .

ويحكى لنا أوونر عن مناقشات بطله « أمامو » فى لندن مع بعض المثقفين .
واحد منهم يقول :

« ما الذى تقدمه أفريقيا إلى العالم .؟ »

سؤال ضخم . ولكن المثقف يتابع السؤال قائلا :

« إذا لم يكن لديكم تاريخ فاخلقوه . وإذا لم تكن لديكم ثقافة فاخترعوها . إن السؤال يا أخى يدور على كل لسان . ويجب أن تعثر على الجواب بسرعة » .

ويحدث البطل نفسه وهو يفكر فى افريقيا . وماضيها . وحاضرها . ويقول :

« إن حزننا نفسه ، اساسه ذلك الحزن القديم الذى هو تاريخ هذه الأرض . الحزن الذى يتحدى كل عزاء . نحن جميعًا نسير ونحن نيام . بعضنا يسير اسرع قليلا من الآخرين » .

كلمات تقطر مرارة ..

مرارة الوطن الذى فقد الطريق من تحت اقدامه . والذى يدور دورة كاملة ليعود من جديد إلى تقاليده . يعود إلى ذلك الأمل الجديد . أمل حبيبته التى تخرج من البحر .

« ساعانق مرة أخرى ذلك الأمل الأوحد . أملك . وسترقصين مرة أخرى بنفس الخطوات على الأرض ، على أنغام الطبول القديمة . وعن طريقها تكتشفين الأسطورة الخالدة . أسطورة حبك . وسأحبو على ركبتى إليك فى الرمال عند حافة الماء . وأسترجع أول كلمة نطقت بها » .

إن « أمامو » بطل رواية « هذه الأرض يا أخى » له من الملامح والأفكار ما يدفعك للإحساس العميق بأنه « أوونر » أو نسخة منه . إنه يحمل مشاكل افريقيا فى قلبه . ويعبر عنها بالشكل الأدائى الذى يجيده . يعبر بالكلمة . وأنت تلمح أن وراء الكلمة شاعر . يكتب بأسلوب شاعر . حتى ولو كان مايكتبه رواية .

* * *

خلال اعوام المعاناة فى كتابة الرواية ، كان « أوونر » قد انتقل إلى لندن ليستكمل دراسته ويحصل على الماجستير من جامعة لندن عام ١٩٦٨ ، وبعدها سافر إلى الولايات المتحدة ليعمل بالتدريس هناك ، وليحضر للحصول على الدكتوراه . موضوع رسالته يدور حول « العلاقة بين الأدب المكتوب ، والأدب الشفاهى » .

وسط كل هذا ، هو مستغرق منذ عام ١٩٦٠ فى كتابة مؤلف عن الأدب الأفريقى ولم يفرغ منه حتى الآن ، وفى هذه الأيام يضع اللمسات الأخيرة لديوان شعرى جديد . ومع ذلك يقول إن هذه اللمسات الأخيرة قد تستغرق منه بضع سنوات ! .

بدأ اخيرًا فى كتابة رواية جديدة . رواية شعرية ذات آفاق أكثر اتساعًا من رواية « هذه الأرض يا أخى » تدور حول وحدة الأفريقيين فى أمريكا ، والأفريقيين فى أفريقيا ورؤيته لهذه الوحدة ، إنها وحدة بين البشر تجاه كل ما يهدد أحلام الإنسان فى الازدهار والتقدم .

« كوفى أوونر » الشاعر الذى يكتب رواياته بحس شاعر ، يترقب يومًا يعود فيه إلى وطنه غانا ، يعود من منفاه الاختيارى ، وعن ذلك يقول :

« عندما يحس الثعبان باقتراب موته وهو فوق شجرة ، فإنه يتزلق نحو الأرض .. ليموت فوق تراب الأرض ، وليس فوق الشجرة ، وأنا كالثعبان .. أريد أن أعود للأرض ، وسواء عندى أن تكون عودتى بفخر وانتصار ، أو أن تكون مجرد تسلل فى هدوء » .

هذا كاتب من طراز فريد ، يكتب بقوة وخشونة تقرب من العنف ، ووسط هذا العنف يروى الكثير من الفكاهات ، فكاهات قاسية ، هى فى الأساس حكايات حزينة مليئة بالآلام والدموع ، إنه يقدم روايته المثيرة بكلمات من دانتى ذات مغزى بعيد :

« فى وسط رحلة حياتنا ، وجدت نفسى داخل غابة مظلمة فقدت فيها الطريق المستقيم . آه .. كم هو صعب أن أتحدث عن هذه الغابة المتوحشة الخشنة الكثيفة . إن مجرد التفكير فيها يجدد مخاوف . إنه مر لدرجة أن الموت نفسه لا يزيد عنها مرارة » .

« أوونر » مفكر ومثقف أفريقى . يحمل مشاكل بلده غانا ومشاكل قارته أفريقيا فى أعماق قلبه . وهو يعبر عن المشاكل ، ويحاول إيجاد حلول لها ، من خلال الشكل الإبداعى الذى يجيده ، وهو الشعر المنظوم ، والشعر المنثور ، حتى ولو أطلق عليه الناس اسم « رواية » .



رسائل.. إلى مارتا..

قد نركب رءوسنا فى غير الحق .. ونكابر

أما رأس الشاعر..

فهى السندان ..

عليه يطرق مصير الشعب من جديد

ياأرواح الشجعان ..

الذين ماتوا فى سبيل المعرفة والحق والحرية

ياأرواح الأجداد العبيد ..

الذين عرفوا حرارة ثمن الحرية

هبينى القوة والشجاعة

واجعلى حياتى ..

الثمرة الجنية المبذولة فى سبيل الحرية

«من قصيدة لحن الشاعر»



● دنيس بروتس ●

بالكلمة ، بالقصيدة ، يعبر الشاعر بكل الصدق عن عقيدته . ويعبر عن مثله العليا التى عاش يؤمن بها ، سواء فوق أرض التعصب العنصرى البغيض أو فوق أرض الاضطهاد المهين بسبب اللون فى أمريكا ، حيث يعيش الآن فى المنفى

هذا هو الشاعر « دنيس بروتس » الذى يرى فى رأسه ، وفى رأس أى شاعر ، السندان الذى يطرق عليه مصير شعبه من جديد . والذى ينادى أرواح الشجعان ، وارواح أجداده ، لتمنحه القوة والشجاعة ، لكى يقدم حياته ثمنًا للحرية .

وعلى امتداد أعوام العمر الذى بدأ عام ١٩٢٤ نلتقى به إما فى السجن ، أو فى بيته وقد حددت إقامته ، أو فى المنفى . تسعة وأربعون عامًا (الآن ٥٩ عاما) حافلة بألوان الكفاح والنضال الذى أثمر فى تحقيق نجاح فى مجال الرياضة ، فعندما تقرأ عن حرمان جنوب أفريقيا ، واستبعاد روديسيا ، من المباريات الأولمبية الدولية ، تذكر دائمًا أن صاحب الفضل الأكبر فى هذا القرار هو الشاعر دنيس بروتس الذى استطاع – أكثر من أى فرد آخر – أن يحقق هذا النجاح بحكم رئاسته للجنة الأولمبية غير العنصرية بجنوب أفريقيا . وبحكم المعركة الطويلة التى قادها فى جنوب أفريقيا مترعمًا منظمة لمقاومة التعصب العنصرى فى مجال الرياضة . لقد خاض صراعًا مريرًا هدفه حرمان جنوب افريقيا وروديسيا من الاشتراك فى الدورات الأولمبية طالما استمر الحكم العنصرى الأبيض فى ممارسة التمييز العنصرى فى مجال الرياضة .

وإذا كان الشاعر بروتس قد حقق هذا النجاح ، فإنه دفع ثمن هذا النجاح غاليًا ، فقد حرم من كل حقوقه السياسية . وحرم من أى نشاط اجتماعى ، بل لقد حورب فى رزقه وحرم من ممارسة مهنة التعليم . وحرم من استكمال دراسته الجامعية للقانون ، وانتهى به الأمر إلى الاعتقال والسجن وتحديد الإقامة ثم النفى . وبرغم كل هذا ، لم يتوقف بروتس عن نشاطه ، وظل يقود نشاطًا سياسيًا سريًا ضد

الحكم العنصرى فى بلده حتى آخر لحظة قبل مغادرة الوطن إلى المنفى .

وبرغم كل هذا أيضًا ، لم يتوقف الشاعر عن كتابة قصائده ، ولم ينس للحظة واحدة أن رأسه هى السندان الذى يطرق عليه مصير شعبه من جديد .

ولد عام ١٩٢٤ فى « سالزبورى » بجنوب أفريقيا لأبوين أفريقيين . ثم انتقل إلى جوهانسبرج ليدخل كلية « فورت هير » ، ثم ليلتحق بجامعة « ويتوتر ستاند » ، حيث درس بكلية الآداب حتى تخرج . ولمدة ١٤ عامًا « حتى ١٩٦٢ » ، احترف تعليم اللغة الإنجليزية ، واللغة الأفريكانية ، بالمدارس الثانوية فى « بورت اليزابث » .

شارك فى كثير من المعارك التى ثارت ضد التفرقة العنصرية ، خاصة تلك التى تتعلق بالرياضة . سلطات جنوب أفريقيا اكتشفت نشاطه السرى ، وبدأ بروتس يواجه المتاعب . حرمت السلطات حضور بروتس أى اجتماعات سياسية أو اجتماعية . وأصدرت الحكومة قرارًا بتحريم نشر كتاباته فى جنوب أفريقيا .

ولكن بروتس ، مع بداية المتاعب ، بدأ يكتب ويقول :

« فى البداية ، كنت أكتب لأسجل أفكارى وخواطرى . أسجلها فى انطلاق لا يقيده شكل ما ، فتجىء كتابتى احيانًا كنوع من الشعر الحر . وأحيانا كنوع من الخواطر . وفى أكثر الأحيان كانت الكتابة تجىء كشىء عديم اللون والطعم والرائحة .! وأحسست أننى بحاجة إلى نوع من الانضباط . وأنه يجب علىّ أن أضع أفكارى فى قالب محكم . فى قالب من الشعر » .

ولم يمض وقت طويل ، حتى زادت متاعب بروتس . فقد فصلته السلطات من عمله . واضطر لأن يعمل جرسونًا فى نادى جامعة ويتوتر ستاند . وما لبث أن وجد نفسه عاطلا ، ليس هذا فقط ، بل لقد أصدرت السلطات أمرًا بتحديد إقامته .

والغريب أن بروتس وهو عاطل ، منح جائزة « مبارى » للشعر عن عام ١٩٦٢ . وكانت « مطبوعات مبارى » فى ايبدان بنيجيريا ، تطبع أول مجموعة شعرية له بعنوان « صفارات إنذار .. نُخدام .. أحذية » ، وصدرت المجموعة فى كتاب فى عام ١٩٦٣ عندما كان بروتس فى السجن .

* * *

لنعد إلى مرحلة تحديد الإقامة ..

فى هذه المرحلة ، كان الشاعر محدد الإقامة فى بيت بأحد أحياء « جوهانسبرج » . وكان هذا يشعره كأنه يحيا فى الجحيم . وكان كثير التفكير فى البحث عن وسيلة للخروج من هذا الجحيم ولو لفترة قصيرة . كانت زوجته تعيش بعيدًا عنه على مسافة ٧٠٠ ميل بحكم قرار تحديد الإقامة . وأحيانًا كان يتمكن من تهريب رسالة إليها . وبعدها بأيام تصله برقية تقول :

« طفلنا مريض جدًّا . احضر فورًا » .

والنتيجة ..

يعطى بروتس إذنًا بالسفر لمدة ٤٨ ساعة يرى خلالها طفله المريض ، وبعدها يعود إلى الجحيم !

هذه الرحلات الخاطفة ، التى كان يتحايل للوصول إليها ، كانت تمنحه إحساسًا ممتعًا لسببين :

السبب الأول كما يقول بروتس : كنت أشعر أنى قادر على فعل الشىء الذى تمنعنى السلطات من فعله ، كنت أحس أنى أخالف تعليمات السلطة !

أما السبب الثانى – وهو الأهم – فقد كانت هذه الرحلات عونًا كبيرًا له فى استمرار قيادته للنشاط السياسى السرى المناهض للسلطة العنصرية .

ولكن فى رأى نقاد الأدب ، أن هذه الرحلات الخاطفة ، هى التى صقلت

الشاعر دنيس بروتس . فخلال الرحلات المتعددة ، بدأت أفكاره تتبلور بوضوح ، وبدأ الشاعر يحدد لنفسه الشكل النهائى الذى يضع فيه مضمون أفكاره الثورية . فى ذلك الوقت كانت الأقلية البيضاء تسيطر على كل شيء ، وتقمع الأغلبية الساحقة من الملونين . وأمام السيطرة والقمع ، كان الأفريقيون لا يملكون إلا أن يرقبوا الأمور فى أسى وغضب . وبدأ الغضب يتحول إلى تمرد خفى . فى ذلك الوقت كانت قد بدأت حركة المقاومة فى جنوب أفريقيا واتخذت المقاومة لنفسها شعار « الإبهام المنتصب » لهذا نرى قصائده — خلال تلك الفترة — حافلة بالاصطلاحات الكودية والرمز . رموز للإبهام . وللسيارات المدرعة ، ورجال الشرطة ، والأنوار الكاشفة ، وللبنادق ، والمدافع الرشاشة .. إلخ .

عن هذه المرحلة يقول الشاعر :

«كنت أضمن قصائدى كل ما تواجهه حركة المقاومة فى بلدى . كنت أضع هذا فى نسيج القصيدة ذاتها . وكان يقال إن قصائدى معقدة متشابكة . ومع كل قصيدة جديدة كنت أشعر أننى أقترب من السجن . فلم يكن من المعقول أن أستمر دون أن أضبط متلبسًا ذات يوم . وكنت أتوقع أن مصيرى سيكون فى سجن جزيرة روبين بالذات . فهو أسوأ سجون كيب تاون ! »

وفعلا ..

صح ما توقعه الشاعر .

فى يوم من ايام عام ١٩٦٣ اعتقل بروتس .

السبب ..

حضوره أحد الاجتماعات ، مخالفًا الأوامر السابق صدورها من السلطات بتحريم حضوره أى اجتماعات سياسية أو اجتماعية .

بعد فترة .. أفرج عنه بكفالة مائتى جنيه .

وتسلل بروتس إلى « سوازيلاند » . ومن هناك حاول أن يسلك طريقًا للهرب إلى « بادن بادن » فى المانيا ، للقاء اللجنة التنفيذية الأولمبية الدولية . ولكن البوليس السرى البرتغالى قبض عليه عند حدود « موزامبيق » . وأعادوه إلى جنوب أفريقيا وسلموه للبوليس هناك .

فى أثناء الاعتقال ، أدرك بروتس أنه اعتقل فى صمت ، ولا يعلم أحد بالمصير الذى انتهى إليه . وكان لابد له من الخروج من هذا المأزق . فأقدم على محاولة مستميتة للهروب . وفى أثناء المحاولة أصيب فى أحد شوارع جوهانسبرج برصاصة فى ظهره . واعتقل من جديد . ووضع فى المستشفى تحت الحراسة لعلاج إصابته .

بعد الشفاء . قدم للمحاكمة . وصدر عليه حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة سنة ونصف فى السجن اللعين . سجن جزيرة روبين . أسوأ سجون كيب تاون على الإطلاق .

الرحلة من جوهانسبرج إلى سجن جزيرة روبين طولها ألف ميل . تستغرق يومين . عن هذه الرحلة كتب قصيدة بعنوان « فى الطريق » يقول فيها :

ستون محشورون فى عربة نقل
منهم القاعدون والمقرفصون
والجاثمون والمتربعون
وقد سخنت اكتافهم
وأردافهم ومرافقهم وركبهم
معصورين ، مترجرجين فى غبش السحر
فى أوضاع معوجة
اضطرتهم إليها سلاسل الحديد

وهم يلغطون
ويتضاحكون ويتبادلون الذكريات
يتباسطون
ليدخل بعضهم السرور على بعض .
ويروون الحكايات
متواصين بالشجاعة
أو صامتين لانقباض قلوبهم
من التشاؤم وتوقع الشر .
وقد توهجت حافة السماء فجأة
بالضرام والدم
على حين نورت فى غسق السحر
الوجوه
المتعاطفة المتحابة

بعد انتهاء فترة العقوبة أفرج عنه يوم ٨ يوليو ١٩٦٥ وسمحت السلطات له ولزوجته ولأولاده السبعة بمغادرة جنوب أفريقيا بإذن خروج . وهذا الإذن وثيقة تحول دون عودته مرة أخرى . وسافر بروتس مع أسرته إلى لندن ليعيش فى المنفى . وبعد أن قضى هناك عدة سنوات ، سافر إلى الولايات المتحدة ، ليقوم بالتدريس بجامعة « نورث ويسترن » فى « إيفانستون » بولاية الينوا الأمريكية .

* * *

فى عام ١٩٧٣ سعدت بلقاء دنيس بروتس فى مكتبى عند زيارته السريعة للقاهرة وكانت هذه القصيدة – « فى الطريق » – معدة للنشر بمجلة لوتس للأدب الأفريقى الآسيوى ، ناقشته فيها ، فأخذ يروى ذكريات تلك الأيام ...

قال :

« فى البداية يعرونك تمامًا ، يخلعون ملابسك قطعة وراء قطعة حتى تصبح عاريًا فى طابور . ثم يُوزع الحراس على كل سجين (بنطلون شورت) وصديرى صغير ، وبعدها يقيدونك بالسلاسل من يديك وقدميك ، كل الطابور فى سلسلة واحدة . ويدفعون الطابور المسلسل للمسير بأقدام حافية حتى اللورى الذى يحشر فيه كل المساجين وتبدأ الرحلة الحزينة مع الفجر ، يحرس اللورى بوليس سرى . ورجال شرطة فوق موتوسيكلات . وشرطة فى سيارات مدرعة » .

ويضحك بروتس فى مرارة ويقول :

« فى كل مرة أتذكر هذه الصورة .. أتساءل :
هل كنت أستحق حقًا كل هذه الحراسة الهائلة ؟! »

الفترة التى قضاها بروتس فى السجن كانت نقطة تحول فى شعره . فبسبب محاولتيه السابقتين للهروب ، وضع فى الحبس الانفرادى ! وهو يصف الحياة فى الزنزانة بقوله :

« كادت الوحدة تودى بعقلى . كنت على حافة الجنون . يمضى اليوم ، دون أن أرى أحدًا ، أو اتحدث مع أحد . قصعة الثريد – طعامى – تقدم لى من تحت الباب ثلاث مرات كل يوم . ولكى لا أجن ، كان لابد أن أنظم وقتى . مثلا أقضى ساعة أفكر فى الأدب والثقافة . وساعة أخرى أفكر فى السينما .. وهكذا . وذات مرة أخذت أفكر فى قصائدى ! قضيت ساعات طويلة أفكر فى هذا الأمر . وانتهيت إلى إحساس بالفزع ، كانت قصائدى تبدو أمامى كشىء عديم القيمة . لا يصلح إلا لسلة القمامة ، بل لقد مرت على لحظة فكرت فيها فى الانتحار خجلا مما كتبت ظنًا منى أنه شعر !! »

ويضيف الشاعر دنيس بروتس قائلا :

« وذات ليلة ، فى الظلام الحالك ، قلت لنفسي لابد من الوصول إلى قرار حول الشعر الذى أكتبه ، لقد كتبت أشياء رديئة حقًّا . ولكن ، هل لدى شيء أفضل من هذا ؟ ، لماذا لا أجرب البدء من جديد ؟ لم يكن أمامى سوى طريق من اثنين ، إما أن أكف عن كتابة الشعر ، وإما أن أكتب بطريقة جديدة . وكتبت رسالة لزوجتى وقلت لها : أرجوك أن تحرق وتمزق كل قصائدى . وأرجو ألا ينشر شيء منها . إننى سأبدأ من جديد » .

هذا ماكتبه بروتس لزوجته ، وهو لا يدرى أن أول مجموعة من قصائده تحت عنوان « صفارات إنذار .. أقدام .. أحذية » ، قد طبعت ونشرت عقب دخوله السجن .

وفعلا .. بدأ بروتس يكتب قصائده بشكل جديد . لقد ابتعد عن زخرف الكلمة . لم يكن يكتب للشعراء . أو لهواة الشعر . أو لدارسى الأدب بالجامعات ، وإنما كان ينظم الشعر للإنسان العادى البسيط . لسائق الأوتوبيس مثلا . أو لشيال محطة سكة حديد . أو خادمة فى مطعم وهو عن هذا يقول :

« إذا كان هؤلاء يفهمون ما أكتب . فأنا أكتب شعرًا جيدًا . يجب أن أدع الكلمة تفعل فعلها فى عقل القارئ » وهكذا تحولت قصائده من التعقيد والتشابك .. إلى البساطة . إلى غاية البساطة .

فى عام ١٩٦٨ صدرت مجموعته الثانية « قصائد إلى مارتا » وهى قصائد كتبت فى اثناء فترة السجن وفترة تحديد الإقامة وفى المنفى .

مجموعة « قصائد إلى مارتا » لها قصة ..

ففى سجن جزيرة روبين ، كان محظورًا عليه أن يكتب شيئًا يمكن أن ينشر . والقصيدة – بلا شك – من الأشياء التى لا تنشر . وكان لابد أن يجد طريقة

لتهريب قصائده إلى خارج السجن . واستطاع أن يخدع إدارة السجن بكتابة قصائده على شكل خطابات إلى « مارتا » زوجة أخيه . وكان أخوه قد اعتقل ايضًا ، وسجن فى جزيرة روبين . معظم القصائد تدور حول تجربته فى السجن اللعين .

وفى عام ١٩٧٠ صدر له « أفكار خارج الوطن » يضم قصائد يستجوب فيها أفريقيا ، ويستجوب نفسه أيضًا .

ثم صدر له « قصائد فى الجزائر » وهو ديوان صغير يصور فيه انطباعات زيارته للجزائر . من بين القصائد « فى الحى الشعبى وحده » يقول :

فى القصبة ، فى الحى الشعبى وحده
فى دروبه الضيقة المنحدرة ذات الدرج
والمكتظة بالحوانيت والبيوت والممرات المتعرجة
حيث يمر السائر بالفضلات والأولاد الصغار
والعجائز المتشبثات بالحياة ..
فى القصبة ، فى الحى الشعبى وحده
حيث المبانى التى قصفتها الطائرات
لا تزال منبعجة البطون متهدمة الأركان
شاهدًا صامتًا يذكر بفظائع الفرنسيين فى الجزائر

* * *

فى القصبة ، فى الحى الشعبى وحده
تجد القلب الصامد الرابط الجأش ، الصعب المسالك ،
القلب الصلب الذى لا يكسر
قلب المقاومة حق المقاومة

* * *

قصائد بروتس ، نشرت بمعظم مجلات وصحف أفريقيا ، والمجلات المهتمة بأفريقيا التى تصدر فى أوروبا وأمريكا . إن قصائده دعوة متحركة إلى العدل . تكتسب طابعها من الحقيقة الماثلة من أن العدل مازال بعيدًا عن اليوم بعده عنه فى أى وقت مضى . ومع ذلك ، فإن بروتس لا يفقد الأمل أبدًا . إنه مؤمن بأن الفجر سوف يشرق ذات يوم . فى نغمة مشرقة يحتفل الشاعر – فى قصيدة قصيرة جميلة – بالبحر والشمس آلهة الوثنيين الجدد . القصيدة بعنوان « على الشاطىء » يقول فيها :

السماء الزرقاء زرقة البحر
والبحر الأزرق زرقة الصلب
يجيشان فى اضطراب تكعيبى
يتحللان ، يعاودان التشكل فى الضوء السائل
وأوزان النسيم الحاد حدة الرمل
كذلك يكتب « ريفاربين » بإنسانية وعطف فى يديها ..
منطويتين على حياتها الطويلة ، تنفحان
باللمسات
الراحتان متحققتان ، بدأتا
تمحيان
تأخذ المرأة العجوز رأس ولدى
تزن العالم
إزاء صدرها مبتسمة .. وتومئ
بأن الغد سيكون أفضل من اليوم

منذ أعوام تلقيت أحدث كتبه بعنوان « شهوة بسيطة » ، ويضم مجموعة قصائده التى نظمها فى السجن . ومجموعة رسائل إلى مارتا . والعديد من قصائده التى نظمها فى المنفى .

فى قصيدة « شهوة بسيطة » التى جعلها عنوانًا لكتابه ، يقول :

« شهوة بسيطة .. هى كل محنتى
خيط رفيع من عذاب
ينساب خلال عنان مكبوح
بعد أن يكون الجلد قد استهلك
من الإرهاق فى ممارسة الحب »
« ولكن ..
حديثى ، عن محنة الآخرين ..
الذين تجمدوا ، أو تماسكوا ..
أو تعفنوا فى صدأ أكواخ الجيتو الحقيرة
اتحدث عن محنتهم الصامتة
التى لا يجرءون على البوح بها

* * *

هذا دنيس بروتس ، الذى يعمل الآن أستاذًا للغة الإنجليزية بجامعة « إيفانستون » بالولايات المتحدة . وأستاذًا زائرًا بجامعة « دنيفر » الأمريكية . والذى يرأس اللجنة الدولية لمحاربة التفرقة العنصرية فى المجالات الرياضية . وممثل الأمم المتحدة فى اللجنة الدولية للدفاع عن المضطهدين بسبب اللون .

إنه الشاعر الذى يرى فى رأسه، وفى رأس أى شاعر آخر، السندان يطرق عليه مصير شعبه من جديد .



فهرس

	صفحة
كلنا أفريقيون	٥
الدجاجة .. تريد أن تبيض !	١٠
وشهرته : كالوبخانو	٢٢
سبع صنايع وبخت غير ضائع	٤٠
موقف فى الحياة	٥٤
عالم من حجر	٦٨
القارئ الأفريقى .. أولا	٨٢
الطبيب يقاتل ! !	٩٤
عابد الأسلاف	١١٠
أين يموت الثعبان ؟ !	١٢٤
رسائل .. إلى مارتا	١٣٨

رقم الإيداع	١٩٨٣/٤٧٣٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٠٢ – ٠٦١٩ – ٩

١/٨٣/١٣٣

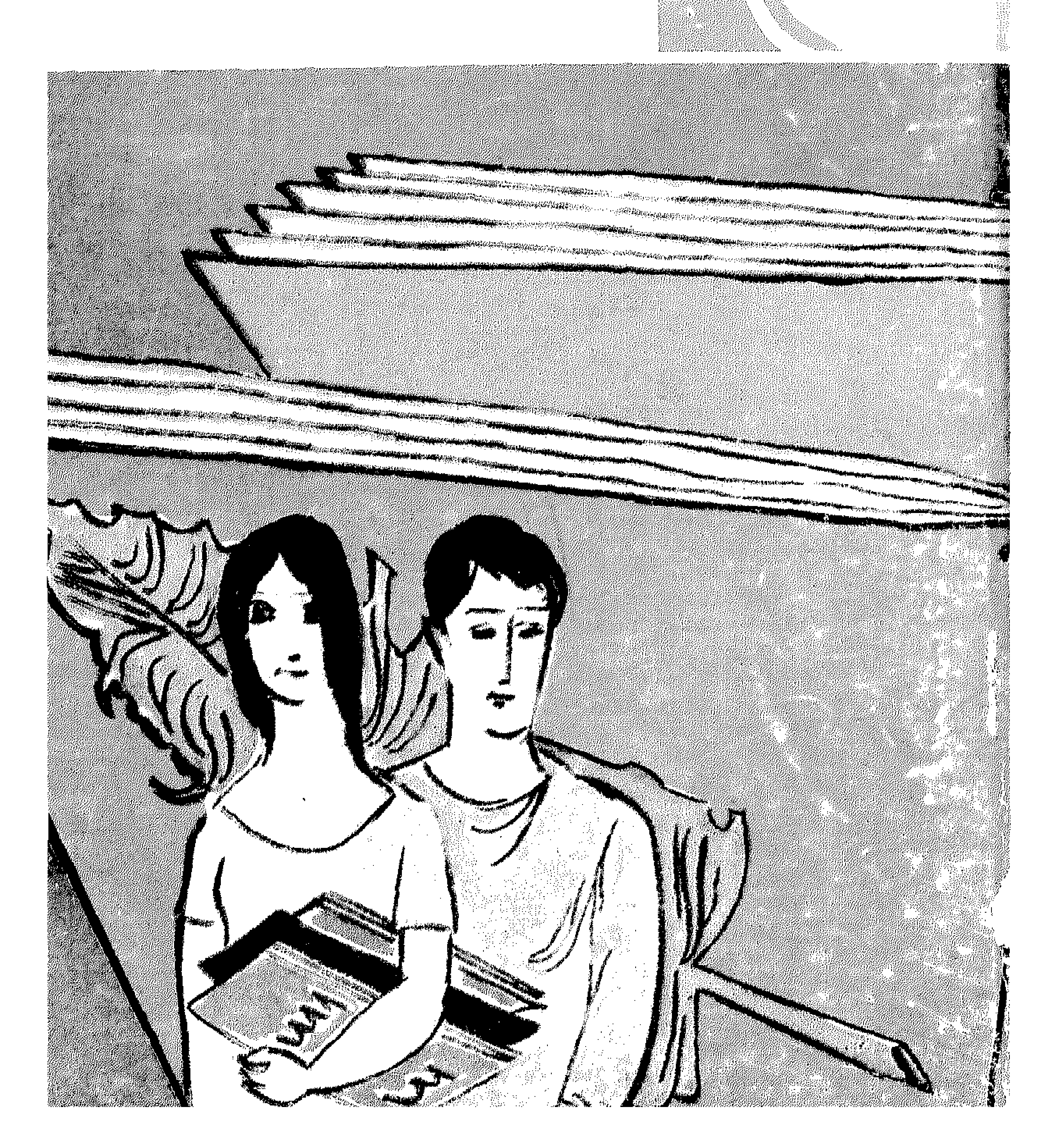
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

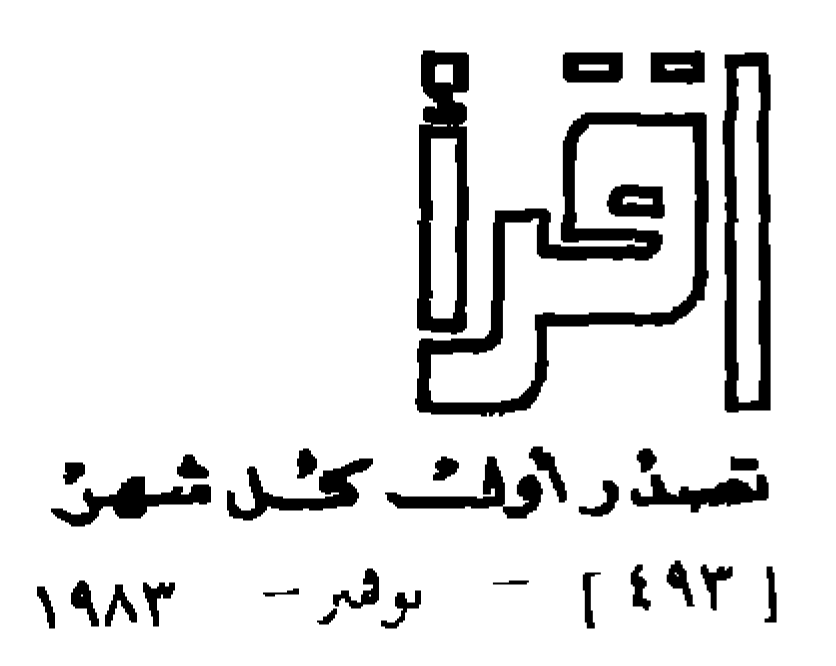


اقرأ

د. إبراهيم عصمت مطاوع

التنمية البشرية بالتعليم





تصدر أول كل شهر

[٤٩٣] - نوفمبر - ١٩٨٣

رئيس التحرير أنيس منصور

د. إبراهيم عصمت مطاوع

التنمية البشرية بالتعليم



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

انتقل التعليم من مجرد خدمة تؤدى إلى عملية استثمار ، له عائد مردود ومحسوب . وأصبحت وزارات التربية والتعليم العالى والبحث العلمى من وزارات الإنتاج ، أكثر منها وزارات خدمات تؤدى .

والاستثمار فى التعليم أولا وأخيرًا ، هو استثمار فى البشر ، أى فى الإنسان ، فالتعليم يزود الفرد بالمعلومات والخبرات والمهارات والمفاهيم والقيم والاتجاهات ، مما يجعله قادرًا على تنمية نفسه كفرد وكشخصية إنسانية متكاملة الجوانب العقلية ، والروحية والجسمية والانفعالية ، والاجتماعية والأخلاقية والجمالية ، وأيضا تنمية المجتمع بخدمته كقوى عاملة منتجة لخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، قريبة أو متوسطة أو بعيدة المدى .

وهذا هو ما نعنيه بالتنمية البشرية التى هى فى النهاية أساس نجاح أو تعويق أى تقدم .

ويعالج هذا الكتاب التنمية البشرية على مستوى التعليم العالى ، من حيث الكم والنوع والأساسيات والضوابط ، ومن حيث الرؤية المستقبلية ، مؤكدًا أن الإنسان هو فى النهاية الوسيلة والغاية لأى نوع من التنمية .

وأرجو أن يكون فى هذا الكتاب نفع .

والخير أردت وعلى الله قصد السبيل .

أ . د . إبراهيم عصمت مطاوع

عميد كلية التربية

جامعة طنطا - بطنطا

التخطيط التعليمى

إن الهدف الرئيسى لتخطيط القوى العاملة ، هو وضع استراتيجية لتنمية المصادر البشرية تتمشى مع الخطوط العريضة لأهداف التنمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ونبدأ بإيضاح مجال تخطيط القوى العاملة . فتخطيط القوى العاملة يشمل – كحد أدنى – تخطيط نظام التعليم ، تخطيط التدريب داخل العمل ، تعليم البالغين ، تحليل الأجور والمرتبات وارتباطها باستخدام القوى العاملة ، كما ينبغى أن يشمل أيضًا تحليل البطالة والعمالة القاصرة ، والإجراءات المناسبة لخفض نسبتها .

وبعبارة أدق فإن هدف استراتيجية تنمية القوى العاملة أو المصادر البشرية هو الوصول إلى توازن مثمر فى مجالات اختيار أهداف السياسة ، وفيما يلى بعض مجالات الاختيار الهامة فى نظام الاقتصاد الموجه جزئيًّا :

١ – فى جميع ميادين التعليم الرسمى . . . الاهتمام النسبى بالكيف مقابل الكم .

٢ – فى التعليم الثانوى والعالى . . . الاهتمام بالعلوم والمواد الفنية مقابل القانون والآداب والعلوم الإنسانية .

٣ – فى مجال تنمية المهارات . . . الاعتماد النسبى على التدريب قبل التوظف Pre-employment مقابل التدريب بعد التوظف In service أو التدريب على الشغلة .

٤ – بالنسبة للحوافز . . . التدبير الواعى لسياسة الأجور والمرتبات مقابل الاعتماد على السوق .

٥ – فى مجال الفلسفة العامة لتنمية المصادر البشرية . . . مراعاة رغبات الأفراد مقابل احتياجات الدولة .

والدول النامية حديثًا لا يمكنها الحصول على كل ما تريده مرة واحدة ، وهى مضطرة لخوض عمليات اختيار صعبة ، وينبغى أن تبنى اختيارها على أساس من الأولويات المحددة بعناية .

وقد يتخذ الاختيار بين الكم والكيف فى مجال التنمية التعليمية أشكالا مختلفة ، ففى بعض الدول يكون من الضرورى الاختيار بين التعليم الابتدائى للجميع ، أو مستوى عال من التعليم الثانوى والجامعى لعدد أقل من التلاميذ الأكفاء . وهناك دائمًا مجال للاختيار بين تعليم

عدد قليل من التلاميذ بواسطة مدرسين أحسن إعدادًا ، وبين تعليم أعدادٍ أكبر بواسطة مدرسين غير مؤهلين ، كما أن هناك أيضًا اختيارًا بين المنهج الجيد الذى يتكلف كثيرًا ، والمنهج الضعيف قليل التكاليف . وعلى وجه العموم فإن الاتجاهات الاجتماعية والسياسية تؤيد الكم ، فى حين تحتم ضرورة تحقيق النمو الاقتصادى السريع التركيز على الكيف ، وذلك بالنسبة للقوى العاملة الماهرة المطلوبة لعملية التنمية .

والاختيار بين العلوم والمواد التكنولوجية ، وبين القانون والآداب والعلوم الإنسانية فى التعليم الثانوى والجامعى ، يعتبر مسألة صعبة بالنسبة لجميع الدول ، ففى كثير من الدول النامية نجد نقصًا خطيرًا فى القوى العاملة الفنية ، كما نجد أيضًا نقصًا شاملا فى المدرسين الأكفاء ، والمديرين ، والإداريين ، وعلماء الاجتماع كما أن هناك حاجة أيضًا للفنانين ، والكتاب ، والموسيقيين ، والمؤرخين . والمسألة إلى حد ما هى اختيار بين نوعين من التعليم ، أحدهما مرتفع التكاليف ، والآخر قليل التكاليف ، كما ذكرنا آنفًا . ولكن هناك عوامل أخرى هامة تتصل بقيم ومثل الدولة ، فالاتجاهات الاجتماعية والسياسية تميل إلى تأكيد أهمية التعليم غير العلمى على حين تتطلب الاعتبارات الاقتصادية تركيزًا أكبر على العلوم والتكنولوجيا .

وفى مجال تنمية المهارات الفنية ، وخاصة على مستوى الحرفة ، قد

ترى الدولة أن تعهد بمسئولية التدريب لجهاز التعليم الرسمى ، أو قد تحاول أن تنقل معظم هذا العبء إلى الهيئات التى تستفيد بهذه المهارات . وفى الواقع فإن التدريب وإعادة التدريب عملية مستمرة طوال الحياة لتنمية المصادر البشرية ، ومن ثم فإن الهيئات المستفيدة لابد أن تتحمل مسئولية بعض التدريب ، أما من الناحية المثالية فإن دور المدارس خاصة المستوى الثانوى ، هو تخريج أفراد ذوى ثقافة عامة صالحين للتدريب . ولكن قد يكون من الواجب القيام ببعض التدريب قبل التوظف وذلك بواسطة المدارس أو مراكز التدريب ، كما يمكن عمل الكثير عن طريق الأنواع المختلفة من البرامج التكميلية ، وبرامج بعض الوقت لمن التحقوا بالعمل فعلا . ومن البديهى أنه يمكن الدفاع بقوة ، عن وجهة نظر التدريب على المهن الرئيسية والمهن الفرعية ، قبل الالتحاق بالعمل وذلك فى مرحلة التعليم العالى ، ولكن يمكن أيضًا الدفاع بنفس القوة عن استمرار التدريب وإعادة التدريب عن طريق الجهود المشتركة بين أصحاب الأعمال والاتحادات العمالية ، والهيئات التعليمية . وفى هذا المجال فإن مجالات الاختيار الواعى تكون أساسًا ذات طبيعة فنية ، ولكنها تتأثر أيضًا تأثيرًا كثيرًا بالاتجاهات الاجتماعية والسياسية ، وعلى سبيل المثال فإن المنظمات العمالية فى بعض الدول لم تنظم برامج لتعليم العمال وتدريب القادة فحسب ، بل تطالب بإلحاح

بالتوسع فى التعليم الرسمى .

لا يمكن لأية دولة حاليًا أن تعتمد تمامًا على السوق فى تقديم الحوافز للأفراد ليلتحقوا بأهم الأنشطة المطلوبة للتنمية ، ففى معظم الأحوال نجد أن مراكز ومكافآت المهندسين والعلماء ، والمتخصصين الزراعيين منخفضة جدًا . وفى جميع البلاد تقريبًا نجد أن مرتبات المدرسين غير كافية ، وأن مكافآت عمال المهن الفرعية والفنيين أقل من أن تكفى لاجتذاب الأعداد المطلوبة . وهناك أسباب مختلفة تؤدى إلى نقص المهارات الهامة من السوق ، وهذه الأسباب هى تفضيل حياة المدن ، والتقاليد والعوامل التاريخية المختلفة ، ومن ثم يجب على جميع الدول أن تتخذ إجراءات – حازمة للتحكم فى توزيع القوى العاملة ، وتتراوح هذه الإجراءات ما بين الإلزام المباشر ، إلى مختلف أنواع الحوافز المالية . وبصفة عامة فإنه كلما زادت سرعة خطة التنمية ، وجب أن يشتد حزم هذه الإجراءات .

وفى النهاية يأتى الاختيار الهام بين رغبات الأفراد واحتياجات الدولة فى جميع مجالات تنمية القوى العاملة . فقد يكون الهدف الرئيسى لاستراتيجية تنمية القوى العاملة هو زيادة حرية الفرد ومكانته وقيمته ، ولكن على الفرد بعض الالتزامات بأن يساعد فى بناء الاقتصاد الذى يستطيع توفير مستويات الحياة اللائقة وحماية الحريات الأساسية . ومن

ثم ، فإنه فى جميع المجتمعات ، يجب أن يكون هناك توفيق ، أو ربما إدماج لرغبات الدولة والأفراد . وستختلف درجة الإدماج تبعًا للمميزات السياسية والأيديولوجية للمجتمع .

وكما سبق أن بينا ، فإن هدف استراتيجية القوى العاملة ، هو الوصول إلى التوازن الصحيح فى مجالات الاختيار الهامة هذه ، وتتوقف طبيعة هذا التوازن على أهداف المجتمع ، ومستوى نموه ، وقيادته . والدولة التى تفشل فى تحقيق توازن صائب سوف تخرج نوعًا من القوى العاملة الماهرة غير مطلوب ، وسوف تستخدم استثماراتها فى النوع الخاطئ من التعليم ، وسوف تسمح باستمرار النوع الخاطئ من الحوافز ، وسوف تهتم أيضًا بالنوع الخاطئ من التدريب . وفى الواقع ليس هناك مجتمع يحقق توازنًا كاملا ، ولكن بعض المجتمعات تحقق توازنًا أفضل من غيرها ، وحيث إن النظم الاقتصادية تتقدم ، فإن القوى التى تعمل للوصول إلى توازن مثمر تتغير باستمرار ، لذلك يجب أن تكون هناك عملية تعديل متتابع ومستمرة .

وسائل تخطيط القوى العاملة : كيف نخطط ؟

من المهم لوضع استراتيجية لتنمية القوى العاملة فى دولة معينة ، أن يجرى حصر منظم لمشاكل المصادر البشرية واحتياجاتها ، ومثل هذا

الحصر يكون أكثر شمولا من مجرد تقدير للقوى العاملة أو دراسة نظام التعليم الرسمى ، إذ ينبغى أن يشمل هذا الحصر على الأقل تحليل العناصر التالية :

١ – إحتياجات القوى العاملة .

٢ – نظام التعليم الرسمى .

٣ – الهيئات التى تقوم بالتدريب داخل العمل ، وتعليم الكبار .

٤ – سياسة الأجور والحوافز واستخدام القوى العاملة الماهرة .

وقد تشمل أيضًا تقويم مشاكل تحسين الصحة والتغذية . وطبيعى أنها يجب أن تبنى على أساس تحليل الاتجاهات السكانية ، وأن تنبع فعلا من الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للدولة .

وحصر الاحتياجات المستقبلة من القوى العاملة هو أكثر الخطوات صعوبة فى تقدير مشاكل تنمية المصادر البشرية . فإذا أمكن تحديد هذه الاحتياجات أصبح من الممكن وضع برامج لبناء معاهد التعليم والتدريب وتقدير التكاليف المطلوبة ، وكذلك إذا تم تقدير صافى الاحتياجات من القوى العاملة ، فإنه من الممكن بعد حساب المعدل السنوى لترك قوة العمل بسبب الوفاة ، أو التقاعد ، أو غير ذلك من الأسباب خلال مدة الخطة ، فإنه يمكن الوصول إلى إجمالى الاحتياجات ، ومن ثم تصبح المشكلة الكبرى هى تقدير الاحتياجات

المستقبلة من القوى العاملة ، وإذا حللنا عملية تقدير احتياجات القوى العاملة إلى عناصرها ، نجد أنها تشمل تحليلا شاملا للموقف الحاضر ، وتقديرًا للاحتياجات المستقبلة للأجل الطويل لمدة تتراوح بين عشر سنوات وعشرين سنة ، وذلك باستخدام تحليل الموقف الحاضر أساسًا للتقدير .

وسنناقش كلا من العنصرين فيما يلى بشىء من التفصيل .

تحليل الموقف الحاضر

إن تقدير احتياجات القوى العاملة الحالية وقصيرة الأجل ، علاوة على كونه قاعدة أساسية للتقديرات طويلة الأجل ، يبرز عدة مشكلات منهجية خطيرة ، والأجل القصير يعتبر هنا فترة زمنية تتراوح بين سنة وثلاث سنوات ، والعناصر الرئيسية هي ما يلى : —

١ – حصر للعمالة والاحتياجات قصيرة الأجل من القوى العاملة .

٢ – تقويم عام للنظام التعليمى

٣ –بيان بالبرامج الحالية للتدريب على الشغلة "on – the - Job".

٤ – تحليل موجز لسياسة الأجور والمرتبات والحوافز واستخدام القوى العاملة الماهرة .

١ – حصر العمالة والاحتياجات قصيرة الأجل .

يبدأ تحليل الموقف الحاضر بدراسة الحقائق المتاحة عن عدد السكان ، وحصر قوة العمل الحالية ، وينبغي الحصول على المعدلات المحتملة أو الفعلية ، لاشتراك الذكور والإناث كلما أمكن ذلك . ثم يجرى حصر للعمالة والاحتياجات قصيرة الأجل لكل قطاع رئيسى من قطاعات الاقتصاد وتشمل – كحد أدنى – قطاعات الزراعة والإنشاءات ، والتعدين ، والصناعة ، والخدمات العامة ، والنقل والمواصلات ، والتجارة ، والتعليم ، والخدمات الحكومية (غير التعليم) ويمكن – إذا كان ذلك مناسبًا – اختيار القطاعات بدرجة أكبر من التفصيل ، بحيث تتبع التقسيم المستخدم فى نظام الحسابات القومية ، أو خطة التنمية الاقتصادية .

وينبغى أن يجرى داخل كل قطاع تقدير لإجمالى العمالة ، وكذلك مدى تفشى البطالة والعمالة القاصرة . وبالإضافة إلى ذلك يتبغى تحليل العمالة إلى فئات العمالة الرئيسية ، لكى يمكن تحديد الدرجات المختلفة للقوى العمالة الماهرة . وفيما يلى الفئات التى وضعها بارنز Parnes لهيئة OECD : –

الفئة ا : وتشمل جميع الوظائف التى تتطلب عادة تعليمًا جامعيًّا ، أو دراسة متقدمة بكلية المعلمين أو ما يعادلها .

الفئة ب : وتشمل الوظائف التى تتطلب دراسة لمدة سنتين أو ثلاث

سنوات بعد المرحلة الثانوية أو ما يعادلها .

الفئة جـ : وتشمل الوظائف التى تتطلب عادة تعليمًا ثانويًّا (فنى أو عام) أو ما يعادله .

وهناك فئة رابعة وهى الفئة « د » وتشمل جميع الوظائف التى لم تشملها – الفئات الثلاث السابقة . وقد جمع بارنز Parnes جميع الوظائف المبينة فى التصنيف القياسى الدولى للوظائف ISCO وعددها ١٣٤٥ وظيفة ، فى هذه الفئات الأربعة .

ومن الطبيعى أن هناك صعوبات واضحة فى استعمال هذا الأسلوب أو غيره لتصنيف الوظائف ، الذى يحاول أن يربط بين الوظائف والمؤهلات العلمية ، فمثلا المؤهلات العلمية للمهندس ، وعالم الطبيعة ، والمهندس الزراعى ، أو الطبيب ، تعتبر واضحة بدرجة معقولة ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لمؤهلات المدرسين ، ففى الدول المتقدمة يقع مدرسو المرحلة الابتدائية فى الفئتين (أ) أو (ب) حتى يكونوا قد تلقوا تعليمًا رسميًّا لمدة ١٤ – ١٦ سنة على الأقل ، ولكن فى كثير من الدول النامية نجد أن غالبية مدرسى المرحلة الأولى ، ربما لم يكونوا من الحاصلين على أكثر من التعليم الابتدائى ، وفى هذه الحالة فإنهم يقعون فى الفئة (د) ولا يظهرون فى فئات القوى العاملة الماهرة ، وبالمثل فإن من الصعب تحديد الاحتياجات من المديرين والفنيين معبرًا

عنها بالمؤهلات التعليمية . وفى الواقع ، إن المستوى التعليمى للأفراد الذين يشغلون مجموعة كبيرة مختلفة من الوظائف العليا ، يتوقف إلى حدٍ ما على العرض المتاح من القوى العاملة المتعلمة . وفى الدول المتقدمة نسبيًّا يستطيع أصحاب الأعمال أن يتمسكوا بمستويات أعلى من التعليم الرسمى ، عن البلاد الأقل تقدمًا : ومن ثم فإنه عند حصر العمالة يستحسن التحقق من المستويات التعليمية الحاصلة عليها الفئات الرئيسية لقوة العمل . وإذا تعذر ذلك فيجب الاعتماد على حكم الخبرة .

وفى نطاق فئات الوظائف العليا الثلاث المذكورة بعاليه يجب تحديد تلك الوظائف التى تتطلب تدريبًا فنيًّا سابقًا لشغل الوظيفة ، وتلك التى تتطلب تعليمًا عامًّا أكثر . ومن الضرورى فى الفئتين أ ، ب أن تقسم الفئات الوظيفية إلى أقسام فرعية لكى يمكن على الأقل تمييز وظائف المديرين والإداريين عن وظائف المتخصصين والعلميين والفنيين . وطبيعى أنه يفضل تقسيم أكثر تفصيلا إذا أمكن الحصول على المعلومات اللازمة .

متطلبات التخطيط التعليمى

لعله من معاد القول أن التربية عملية لا تتم فى فراغ ولا يمكن أن تعيش بمعزل عن مشكلات واحتياجات وتطلعات الأفراد والمجتمعات ، وأنها قوة اجتماعية هائلة قادرة دائمًا على إحداث تغيرات بعيدة المدى فى البناء الحضارى للمجتمع ، هذا فضلا عن كونها قوة اقتصادية كبرى باعتبارها استثمارًا لأعلى ما لدى الأمم من موارد ، ألا وهى ثرواتها البشرية .

ويؤكد ذلك أن جميع مظاهر الحضارة الإنسانية عبر تاريخه القديم والحديث ، إنما هى نتاج للفكر الخلاق ، والعمل الجاد البناء للإنسان ، الذى كانت جهوده محاولة مستمرة لإخضاع وتطويع قوى الطبيعة ، واستثمار واستغلال مواردها لتحقيق رفاهيته الاقتصادية والاجتماعية . ولم

يكن هذا كله ممكنًا إلا بفضل التربية بمختلف صورها وأشكالها التى كانت ستبقى أبدًا القوة الأساسية لحفظ التراث الحضارى ونقله من جيل إلى جيل ، فضلا عن كونها القوة وراء التغيير والإضافة والتجديد والتحسين فى هذا التراث .

وقد بذل الإنسان طوال تاريخه المعروف كل جهد لتطوير عملية التربية ، وما نشأة نظم التعليم الحديث إلا ثمرة لهذا الجهد الذى كان أيضًا محاولة لتطوير التربية لتلائم التغيرات الحضارية الحديثة التى وضع أسسها وحدد معالمها التقدم العلمى والتكنولوجى .

ويمكن القول أن كل جهد منظم ، لتطوير التعليم وتحسينه ، وجعله أكثر استجابة لمتطلبات المجتمعات ، وتطلعات الأفراد ، هو فى حقيقة أمره نوع من التخطيط ، تختلف درجة شموله أو تكامله أو مداه تبعًا لنوع هذه الجهود أو شمولها أو مداها ، إلا أن التخطيط للتعليم كما نتصوره الآن – وينطبق هذا على جميع الدول مهما اختلفت نظمها السياسية ، وتباينت تراكيبها الاجتماعية وقيمها الثقافية – يهدف أولا : إلى ربط خطط أو برامج أو مشروعات التعليم بأهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية ضمن إطار شامل متكامل يستهدف فى النهاية رفع مستوى معيشة الفرد وتحسين نصيبه فى هذه الحياة من ناحية ، وثانيًا : إلى تنمية المجتمع فى علاقاته ونظمه وقيمه من ناحية أخرى .

وغنى عن البيان أن الخصائص التى تتميز بها مجتمعاتنا الحديثة تحت تأثير التقدمات السريعة والمستمرة فى العلوم والتكنولوجيا ، وما فرضته هذه التقدمات من تغيرات سريعة ومستمرة فى تراكيب المجتمع والوظائف ، أو فى العلاقات القائمة بين الأفراد بعضهم وبعض ، أو فى علاقاتهم بالتنظيمات الحكومية والسياسية والاقتصادية القائمة ، أو فى قيمهم السائدة ، وأنماط تفكيرهم الموروثة - كل هذا أدى إلى ضرورة الاهتمام بالتخطيط للتربية كأسلوب وطريقة ، حتى يمكن للتربية تحقيق أهدافها وتطوير المجتمع الذى تعيش فيه إلى الأفضل والأحسن دائمًا .

وإذا كان هذا المفهوم الجديد للتخطيط للتربية ، يؤكد ضرورة ربط خطط التعليم بأهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية ضمن إطار خطة شاملة للوحدة القومية ، فإن هذا يستلزم بالضرورة تواجد عناصر أو متطلبات معينة ، لم تكن تراها أو تعيها برامج أو خطط تنمية التعليم فى الماضى .

ومهما اختلفت أساليب أو مداخل وضع خطة التعليم ، ومهما اختلفت الظروف المحيطة بوضع الخطة ، فإننا نعتقد أن هناك حدًّا أدنى من هذه المتطلبات يمكن تعيينها فى النقاط الخمس التالية :

أولا : تحديد واقعى وموضوعى لخطط أو برامج أو مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، من حيث أهداف الإنتاج وقيمة

الاستثمارات وحجم العمالة المطلوبة .

ثانيًا : دراسة شاملة لهيكل الوظائف فى شتى القطاعات الاقتصادية ، بقصد التعرف على محتواه كمًّا وكيفًا بطريقة تستهدف إحداث التغيرات الملائمة فيه أو التنبؤ بها ، لمقابلة احتياجات التنمية فى هذه القطاعات .

ثالثًا : مسح دقيق للهيكل التعليمى القائم واتجاهات نموه كمًّا وكيفًا ، بقصد التعرف على طبيعة الأوضاع القائمة فيه ، وإلقاء الضوء على التغيرات الواجب إدخالها فيه لربط التعليم بأهداف التنمية .

رابعًا : وضع الأسس والمبادئ التى تُبنى عليها المخططات التربوية السليمة ، وتحديد أولوياتها ضمن برنامج زمنى محدد ، على المدى القصير أو البعيد .

خامسًا : تحديد للمجالات أو الميادين التى يجب أن تتضمنها المخططات التربوية ، ودراسة المشكلات التى تعترض وضع وتنفيذ برامج التنمية التربوية فى هذه المجالات .

وسنتحدث فيما يلى بإيجاز عن كل متطلب من هذه المتطلبات : —

أولا : تحديد أهداف خطط وبرامج ومشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية :

إذا اتفقنا أن العملية التربوية لا يمكن أن تتم فى فراغ ، ولابد لها أن تعمل فى مجتمع تتأثر به وتؤثر فيه .

وإذا سلمنا بأن الإنسان هو القوة الحقيقية القادرة على إحداث التغيير فى شكل وظروف هذا المجتمع .

وإذا آمنا بأن التربية هى إعدادٌ لأجيال مقبلة تشكل صنع مستقبل الأمة ، وإذا افترضنا أن التخطيط للتعليم أسلوب للعمل التربوى ، على المدى القصير والبعيد ، يستهدف إحداث الملاءمة المستمرة بين نظام التعليم بكَمه وكيفه ، واحتياجات المستقبل . فلابد من تصور واضح ، وتقدير سليم لشكل وملامح هذا المستقبل بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، حتى يمكن إحداث تخطيط سليم لتنمية التعليم ، يتفق مع احتياجات هذا المستقبل . ومن الطبيعى أن تحقيق هذا التصور لشكل المستقبل فى مجتمع ما ، يستلزم وضع مجموعة من البرامج والمشروعات الاقتصادية والاجتماعية ، تتسم بالتكامل والشمول والتناسق ضمن إطار خطة شاملة للتنمية ، تستهدف إحداث التغيير للوصول إلى هذه الصورة للمستقبل .

ورسم هذه الصورة للمستقبل ، يتطلب ضرورة وضع مجموعة من

الأهداف العامة تحدد الإطار العام لهذه الصورة مثل :

١ - رفع المستوى المعيشى ، أو زيادة الدخل القومى للفرد .

٢ - رفع المستوى الثقافى والتعليمى لجميع أفراد الشعب .

٣ - رفع المستوى الصحى لجميع المواطنين .

٤ - بناء مجتمع ديمقراطى متحرر .

٥ - تنمية جميع الموارد البشرية والقضاء على جميع مظاهر البطالة المقنعة والصريحة :

وفى ضوء هذه الأهداف العامة توضع مجموعة الأهداف الخاصة التى يجب تحديدها باعتبار أولوياتها وإمكانات تنفيذها ، وتترجم هذه الأهداف الخاصة فى صورة برامج ومشروعات محددة تظهر فى صورة أرقام للإنتاج وتقديرات للاستثمارات ، ومعدلات للإنتاجية ، ونمو فى حجم العمالة ، ومثل هذه الأهداف قد تكون :

١ - مضاعفة الدخل القومى خلال عدد محدود من السنوات .

٢ - زيادة رقعة الأرض المزروعة بمقدار معين .

٣ - التوسع فى الإنتاج الصناعى بمعدل محدد .

٤ - نمو الصادر بمقدار معين .

٥ - التوسع فى سياسة الإسكان المتوسط والشعبى .

٦ - محو الأمية بين الكبار فى مدى عشرين عامًا مثلا .

٧ – تعميم التعليم الإلزامي فى مدة يتفق عليها .

٨ – التوسع فى التعليم الثانوى والجامعي .

ومن الضرورى أن تكون جميع هذه البرامج والمشروعات الخاصة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بين أيدى المسئولين عن تخطيط التعليم باعتبارها إحدى أساسيات متطلبات وضع الخطط التربوية ، استنادًا إلى الرابطة الوثيقة التى تربط التعليم بعملية التنمية ، وإلى أن تحقيق أهداف التنمية المطلوبة يتطلب توفير احتياجاتها من القوى العاملة المدربة والماهرة القادرة على تنفيذ البرامج والمشروعات الواردة فيها .

ولعل أهم قصور فى مخططات التعليم بالعالم العربى ، هو إما عدم وجود متطلبات هذه المخططات من خطط أو برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية إطلاقًا ، أو عدم استطاعة ترجمة هذه الخطط والبرامج إلى احتياجات من القوى العاملة المدربة على المستويات المختلفة لتكون أساسًا صلبًا لوضع مخططات التعليم . وفى كلا الحالين ، فقد أدى هذا إلى نشوء عديد من المشكلات التربوية ، لعل أهمها عدم قدرة أجهزة التربية والتعليم على خدمة اقتصاديات الدول العربية ، وتمثل هذا بصفة أساسية فى عجز واضح فى القوى العاملة الفنية من مستوياتها المختلفة ، وفائض كبير من فئات أخرى لم يعد المجتمع فى حاجة إليها . وقد أدى هذا فيما أدى ، إلى تأخر فى معدلات التنمية وعجز ميزانيات بعض الدول عن تمويل برامج التعليم نفسها .

ثانيًا : دراسة الهيكل الوظيفى القائم فى شتى القطاعات ، واحتمالات تغيره فى المستقبل :

يقصد بالهيكل الوظيفى لقوة العمل فى أى قطاع أو نشاط اقتصادى ، مجموع أفراد قوة العمل فى هذا القطاع أو النشاط ، مقسمين إلى فئات وظيفية تبعًا لنوع المهن أو الوظائف أو الأعمال التى يقومون بها تبعًا لتدرج مسئولياتها ومستوى مهاراتها ودرجة التعليم والتدريب المكافئة لها .

ويختلف هيكل الوظائف فى كل قطاع أو نشاط اقتصادى وفقًا لطبيعة هذا القطاع أو النشاط ، إلا أنه يمكن القول بصفة عامة أن التركيب الحالى يمكن تطبيقه فى جميع القطاعات :

١ – المديرون — Managers

٢ – المتخصصون — Experts and High professionals

٣ – الفنيون — Technicians

٤ – الفئات المساعدة — Co-ordinating staff

٥ – العمال المهرة — Skilled Labourers

٦ – العمال متوسطو المهارة — Semi-skilled Labourers

٧ – العمال غير المهرة . — Unskilled Labourers

ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أنه من الطبيعى حدوث تغيرات

مستمرة فى التركيب الوظيفى ، أو بمعنى أدق فى نسب توزيع القوى العاملة فى أى قطاع أو نشاط تبعًا لفئات هذا الهيكل . وتحدث هذه التغيرات أساسًا نتيجة لعاملين هما :

(ا) تغير فى توزيع القوى العاملة بين قطاعات الاقتصاد ذات التراكيب الوظيفية المختلفة كأن يمتص قطاع الصناعة كثيرًا من القوى العاملة الفائضة فى قطاع الزراعة ، أو أن يتسع قطاع الخدمات على حساب قطاعى الزراعة والصناعة .

(ب) تغير فى التركيب الوظيفى داخل القطاع أو النشاط الاقتصادى الواحد ، مثل إحلال عمال متوسطى المهارة محل عمال غير مهرة ، أو تعزيز قطاع الصناعة بمزيد من العلماء والإخصائيين والمهندسين ، أو الاستعانة بعمال مهرة صناعيين فى قطاع الزراعة .

ومهما يكن من أمر فإن العاملين السابقين إنما يمثلان فى الواقع آثار تنفيذ برامج أو خطط أو مشروعات تنمية اقتصادية أو اجتماعية معينة ، كما يمثلان فى ذات الوقت الاستجابة الحتمية لاستخدام العلم والتكنولوجيا فى الإنتاج الزراعى والصناعى التى ظهرت آثاره فى صورة استنباط مصادر عديدة للطاقة ، أو إدخال تحسينات جديدة فى وسائل الإنتاج ، مثل تحويل الإنتاج الآلى إلى إنتاج أتوماتى ، أو إحداث مقدمات فى أنماط الاستهلاك وغيرها من التغيرات العديدة التى أحدثها

التطور العلمى والتكنولوجى .

وقد أسفرت الدراسات التى أجريت عن التركيب الوظائفى فى بعض الدول العربية عن تخلف الهيكل الوظيفى القائم فى شتى القطاعات الاقتصادية عن الاحتياجات الحقيقية لهذه القطاعات ، من قوى عاملة مدربة من المستويات المختلفة ، مما يؤكد عدم ملاحقة الهيكل التعليمى القائم لمتطلبات التطور الاقتصادى والاجتماعى . فقد أثبتت الدراسات فى جمهورية مصر العربية مثلا ضخامة العجز القائم فى الفنيين والعمال المهرة ومتوسطى المهارة ، ومدى الفائض الموجود فى خريجى بعض الكليات النظرية مثل خريجى كليات الآداب والحقوق والتجارة . والوضع فى بعض الدول العربية لا يختلف عنه فى جمهورية مصر العربية .

ومن ناحية أخرى فقد أثبتت هذه الدراسات الخاصة بالهيكل الوظيفى القائم عن ظاهرة أخرى هامة بالنسبة للمخططات التربوية ، وهى سوء التوزيع الجغرافى وقوة العمال الموجودة ، أو استخدام فئات ذات تخصص معين فى غير تخصصها ، أو فى غير مستوى كفاءتها ، فقد تكون نسبة الأطباء إلى عدد السكان فى بلدٍ ما مناسبة إلا أن تمركزهم فى المدن يؤدى إلى عجز فى هذه الفئة من القوى العاملة فى الريف ، مما يؤثر على مستوى الرعاية الصحية فيه . ومن الواضح أن هذا يقتضى إعادة النظر فى توزيع الأطباء توزيعًا عادلا بين الريف والحضر . كما يحدث أن

يعمل كثير من خريجى الآداب والحقوق فى أعمال كتابية بسيطة . أو تملأ وظائف الفنيين أو المهندسين التنفيذيين بمتخصصين مصممين على أعلى درجات من المهارة والتأهيل ، فى الوقت الذى يتعطل فيه تنفيذ بعض المشروعات الهندسية بسبب الحاجة إلى هؤلاء المتخصصين الذين يعملون فى غير تخصصهم الحقيقى ، أو فى أعمال لا تتناسب مع مستويات كفاءتهم وتأهليهم .

ودرءًا لكل هذا ، يلزم بصفة خاصة كأساس لمقابلة متطلبات المخططات التربوية فى الدول العربية ، إجراء مسح علمى شامل للتركيب الوظيفى فى القطاعات الاقتصادية المختلفة ، وإجراء التنبؤات الخاصة باحتمالات التغير المنتظر أو المطلوب فى هذا التركيب مستقبلا ، حتى يمكن ربط مخططات التعليم ربطًا وثيقًا باحتياجات البلاد من قوى عاملة مدربة ، وحتى يسهم التعليم إيجابيًّا وبفعالية فى دفع عجلة التقدم والتطور بالبلاد .

ثالثًا : مسح الهيكل التعليمى القائم ودراسة اتجاهات نموه كمًّا وكيفًا :

لعل من أهم مستلزمات المخططات التربوية الناجحة ، إجراء عملية مسح شامل وثيق للنظام التعليمى القائم ، واتجاهات نموه فى السنوات الأخيرة بالنسبة لجميع مراحل التعليم . وتستهدف هذه الدراسة أو المسح

إلقاء الضوء على اوجه القوة أو الضعف فى هذا النظام من حيث أهدافه وغاياته وطرقه وأساليبه ، وخططه ومناهجه وإمكاناته ، وغير ذلك من عوامل تؤثر فى نجاح أو فشل العملية التربوية ، حتى تكون قاعدة انطلاق لوضع مخططات للتربية والتعليم تتميز بالواقعية والموضوعية والتوازن .

وتعنى هذه الدراسة أو المسح ، تحليلا كميًّا وكيفيًّا (نوعيًّا) للوضع التعليمى الراهن ، واتجاهات نموه فى السنوات الأخيرة . ويتطلب إجراء مثل هذا التحليل عديدًا من البيانات الإحصائية التى تغطى مختلف أوجه النشاط التعليمى ، والتى يجب أن تنسحب على عدد من السنين ، يمكن معها إكتشاف أنماط النمو السائد فى كل مرحلة تعليمية .

ويمكن بغير صعوبة الإستدلال على طبيعة الهيكل التعليمى واتجاهات النمو فيه بعدد من المؤشرات التى تتسم بموضوعيتها ، وسهولة قياسها ، وإمكانية الاتفاق على معدلات لها على المستوى العربى والعالمى . ويمكن تقسيم هذه المؤشرات إلى مؤشرات خاصة بالكَم ، ومؤشرات للكيف ، مع اعترافنا بخطورة الفصل بين الكَم والكيف فى التعليم .

وتشمل مؤشرات الكَم ما يلى :

١ - نمو أعداد الطلاب والطالبات فى كل مرحلة تعليمية ، وتطور نسبة الموجودين منهم فى كل مرحلة إلى الموجودين فى المراحل الأخرى . فالنمو المطلق فى أعداد الطلاب والطالبات يشير إلى مدى التوسع الذى

حدث فى مرحلة معينة من التعليم ، وتطور نسب الطلاب فى كل مرحلة تعليمية تشير إلى مدى التوازن فى النمو بين مراحل التعليم المختلفة .

٢ – نمو أعداد الطلاب فى كل مرحلة تعليمية ، مقاسًا إلى عدد السكان وفئات السن فى كل مرحلة تعليمية . فالنمو المطلق فى أعداد الطلاب والطالبات قد لا يكون له مغزى واضح ، أو قد يكون مضللا إذا لم يُقس هذا النمو إلى النمو الحادث فى مجموع السكان ، أو مجموع الأفراد فى سن كل مرحلة تعليمية .

٣ – نمو أعداد الطلاب والطالبات فى كل مرحلة تعليمية موزعين تبعًا للجنس ، ومنسوبين أيضًا إلى مجموع السكان ومجموع الأفراد فى سن كل مرحلة تبعًا للجنس أيضًا .

٤ – نمو أعداد الطلاب والطالبات فى كل مرحلة تعليمية موزعين جغرافيًّا حسب المحافظات والألوية ، وتطور نسبتهم للسكان وعدد الأفراد فى سن كل مرحلة فى كل محافظة أو لواء .

٥ – نمو أعداد الطلاب والطالبات فى الأنواع المختلفة للتعليم الفنى أو المهنى ، منسوبين إلى نموهم فى التعليم العام ، وذلك بالنسبة لكل مرحلة تعليمية ، (مثلا نسبة الطلاب والطالبات بالتعليم الثانوى الفنى بالقياس إلى مجموع الطلاب والطالبات فى التعليم الثانوى العام ، أو نسبة الطلاب والطالبات بالكليات والمعاهد العالية العلمية والتكنولوجية ، إلى

مجموع الطلاب والطالبات بالكليات والمعاهد النظرية) .

٦ - نمو أعداد الطلاب والطالبات فى التعليم الأهلى أو الخاص ، مقاساً إلى نموهم فى التعليم الرسمى أو الحكومى .

أما مؤشرات الكيف فتشمل ما يلى :

١ - تطور نسبة ما يخص كل مدرس من طلاب وطالبات (Pupil Teacher Ratio) فى كل مرحلة تعليمية ، وذلك بدراسة العلاقات القائمة بين نمو أعداد الطلاب وأعداد المدرسين الدائمين فى كل مرحلة تعليمية .

٢ - تطور مؤهلات المدرسين والعاملين فى مراحل التعليم المختلفة ، نظرًا للارتباط الوثيق بين مستوى الكفاءة والجودة فى التعليم ، ومستوى مؤهلات وإعداد المدرسين .

٣ - تطور كثافة الشعبة أو سعة الفصل ، ومدى قربها أو بعدها عن المعدلات العالمية المقبولة .

٤ - تطور نتائج الامتحانات العامة وامتحانات النقل ، ونسب النجاح والرسوب ، مع دراسة تقييمية لنظم الامتحانات ومدى استخدام السجلات والبطاقات المدرسية فى تقيم الطلاب فى أثناء حياتهم الدراسية .

٥ – الفاقد فى التعليم متمثلا فى عدم قدرة الطلاب أو الطالبات على إتمام دراستهم حتى نهاية المرحلة التعليمية ، أو تكرر رسوبهم أو كثرة غيابهم فى أثناء الدراسة .

٦ – تطور تكلفة الطالب أو الفصل فى المراحل التعليمية المختلفة .

٧ – مدى كفاية المبانى المدرسية وتجهيزاتها ، وتطور نسبة ما يخص كل طالب أو طالبة من مساحة المبانى المدرسية أو الملاعب .

٨ – تطور المنهج المدرسى فى كل مرحلة تعليمية ، ومدى ملاءمته للتطورات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

٩ – مدى كفاءة الخريج فى كل مرحلة تعليمية فى العمل الذى يمارسه بعد التخرج ومدى استفادته فى أثناء العمل مما حصله فى أثناء الدراسة ، وذلك بمتابعة الخريج فى مقر عمله ووظيفته .

هذا المسح الشامل لواقع التعليم واتجاهات النمو فيه من زاويتى الكَم والكيف ، لاشك سيعطى الأساس المتين الذى يمكن على ضوئه تحديد الأهداف ، ووضع الأسس والمبادئ التى تبنى عليها خطة التعليم . ولعله مما يفيد فى هذا المجال أن نشير إلى أهمية ترجمة البيانات التى حصل عليها فى هذا المسح فى صورة خرائط تربوية لكل محافظة أو لواء فى كل بلد عربى ، يبين عليها مراكز المدارس بأنواعها المختلفة وحالة المبانى فى كل منها ، وكثافة السكان فى كل منطقة ، ونسب الطلاب إلى المدرسين

فيها ، وما إلى ذلك من بيانات بحيث يمكن للمسئولين عن وضع المخططات التربوية سهولة تبين نقاط الضعف أو القوة فى الخدمة التعليمية ، وتحديد الأولويات الخاصة بالتعليم فى كل منطقة أو لواء أو محافظة .

رابعًا : وضع الأسس والمبادئ التى تبنى عليها المخططات التربوية وتحديد أولوياتها :

يدور الجدل فى الآونة الحاضرة حول منطلقين لوضع أسس المخططات التربوية :

المنطلق الأول : ينبع من مبدأ العلم للعلم ، باعتبار أن العلم أو الثقافة هدف فى حد ذاته ، وأن نشر الثقافة والعلم والتعليم كهدف أول سيحقق بطريقة غير مباشرة أهداف التنمية والتقدم .

والمنطلق الثانى : يحمل مبدأ العلم للمجتمع ، وعليه فأى مخطط تربوى يجب أن يهدف أولا إلى خدمة المجتمع عن طريق إمداد القطاعات الاقتصادية بحاجاتها الحقيقية من قوى عاملة مدربة قادرة على إحداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية ويؤكد المنادون بهذا المبدأ ، أن المرحلة الاقتصادية التى تمر بها الدول النامية تحتم الأخذ بهذا المبدأ نظرًا لعدم قدرتها على الصرف على التوسع فى التعليم باعتباره هدفًا فى حد ذاته ،

ونظرٌ لحاجتها الشديدة فى الفئات الفنية والمهنية العاملة ، ونظرٌ للمشكلات التى نشأت عن التوسع غير المخطط للتعليم فى ضوء اعتبارات التنمية .

وقد أدى كل هذا فى رأيهم إلى تأكيد النظرة إلى التعليم باعتباره نوعًا من الاستثمار ، وأداة من أدوات الإنتاج عليها أن تحقق أقصى عائد اجتماعى ممكن بأقل تكلفة ممكنة .

وبالرغم من أن كلا من المنطلقيْن له حججه السليمة التى تؤيد وجهة نظره ، فنحن نرى أن كليهما يجب أن يؤخذ فى الاعتبار عند وضع المخططات التربوية ، فالتعليم حق إنسانى فى الوقت الذى هو أداة لخدمة المجتمع . والتعليم سلعة استهلاكية يشتريها الفرد ، أو تقدمها له الدولة لخدمة أغراضه وتحقيق تكامله وسعادته ، وهو أيضًا سلعة إنتاجية تستهدف زيادة الإنتاج ورفع معدلات الإنتاجية والارتفاع بمستوى المعيشة .

ومهما كانت الأحوال ومهما اختلفت مراكز الانطلاق ، فإننا نجد أن تحديد الأسس والمبادئ والأولويات لوضع المخططات التربوية ، يجب أن ينبع من الدراسة التحليلية الشاملة لواقع التعليم ، والصورة التى نستهدفها لتطور هذا التعليم فى المستقبل ضمن إطار التصور الكامل لشكل المجتمع فى المستقبل . وبالرغم من الفروق فى الظروف الاقتصادية

والاجتماعية والتعليمية بين البلاد العربية ، وبالرغم من أن تصوراتنا لمستقبل المجتمع العربى قد تختلف أيضًا بين بلد وآخر ، فإننا نؤمن بأن هنالك أساسًا ومبادئ عريضة مشتركة يمكن الاهتداء بها فى وضع المخططات التربوية للدول العربية .

ويمكن تحديد هذه الأسس والمبادئ فى النقاط التالية :

١ – إعطاء قدر من التعليم الأساسى لجميع الأطفال لا تقل مدته عن ست سنوات فى أقرب وقت ممكن وفق برنامج زمنى تبعًا لإمكانات وظروف الدولة .

٢ – عدالة فى توزيع الخدمة التعليمية بين الذكور والبنات ، ويتطلب هذا الاهتمام الشديد بتعليم البنت .

٣ – عدالة فى التوزيع الجغرافى للخدمة التعليمية ، بحيث يتساوى حظ كل فتى وفتاة فى فرص التعليم مهما اختلف مكان إقامته .

٤ – التكافؤ فى فرص التعليم الثانوى والعالى ، فلا تقف أى ظروف اقتصادية أو اجتماعية حائلا أمام أى فرد يرغب الوصول إلى مستوى التعليم الذى يتناسب مع إمكاناته وقدراته .

٥ – الاهتمام بالتعليم الفنى والمهنى وخصوصًا التعليم الصناعى ، وإحداث التوازن فى النمو بينه وبين التعليم العام .

٦ – العناية بتدريس العلوم وزيادة نصيبها فى منهج المدرسة

الابتدائية والثانوية ، بحيث يتم أقصى تلاؤم ممكن بين المنهج المدرسى ، والمتطلبات التى تفرضها التطورات الاقتصادية والثقافية والحضارية الجديدة .

٧ – الاهتمام بالكيف فى التعليم وتحسين جودته ، عن طريق العناية بإعداد المعلم وزيادة كفاءته ، بالتدريب والتأهيل وتحسين نسبة ما يخص كل مدرس من تلاميذ ، والعناية بالمبانى المدرسية وتجهيزاتها وإنقاص أسعة الفصول ، . وما إلى ذلك من مؤشرات لجودة التعليم .

٨ – تطوير هيكل التعليم أو إعادة بنائه ، بحيث يتم الترابط والتناسق بينه وبين الهيكل الوظيفى واحتمالات تغيره فى المستقبل ، مما يؤدى بالتعليم لأن يصبح قوة حقيقية وأداة فعالة فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٩ – العناية بالتوجيه المهنى والتربوى وجعله أساسًا لتوجيه وإرشاد الطلاب والطالبات نحو أنواع التعليم المختلفة التى تتناسب مع قدراتهم وإمكاناتهم ، مما يزيد من سعادة الفرد ، فى الوقت الذى يقوم فيه بالإشارة إلى أنواع المهن والوظائف والمهارات التى تشتد حاجة المجتمع إليها .

خامسًا : تحديد المجالات أو الميادين التى يجب أن تتضمنها المخططات التربوية ودراسة المشكلات التى تعترض الوضع وتنفيذ البرامج فيها :

إن أى مخططات تربوية سليمة ، يجب أن تأخذ فى الاعتبار العديد من المجالات أو الميادين التى تتضمنها وضع هذه المخططات ، ودراسة المشكلات التى تعترض برامج تحسين وتنمية العملية التربوية فى هذه المجالات ، وسنتكلم فيما يلى عن بعض الميادين والمجالات التى يجب أن تتطرق إليها المخططات التربوية :

الإحصاء التعليمى

إن من متطلبات المخططات التربوية السليمة ، استنادها على الإحصائيات الشاملة ، ودراسة الاحتياجات القومية والإقليمية والمحلية ، لإعادة توزيع الخدمات التعليمية بما يتفق مع التطور الاقتصادى القومى والإقليمى والمحلى . ويستلزم ذلك تقرير الإحصاءات الدورية اللازمة وشمولها للبيانات الضرورية لاحتياجات المخططات التربوية ، مع توحيد الأسس التى تجرى بها الإحصاءات ، كتوحيد التعاريف وقواعد التصنيف وطريقة النشر ومواعيده .

ويلزم للمخططات التربوية أساس إحصائى سليم عن المواطنين من ذوى الأعمار المدرسية ، ونسبة المقيدين بمختلف أنواع ومراحل التعليم ، ونسبة التردد والانتظام ، والنسبة المئوية للذين ينتهون من دراساتهم ،

والذين ينتهون من كل صف سنويًّا . ومن المهم أيضًا تحديد الأعداد المطلوبة من الطلاب والخريجين فى مختلف مراحل التعليم وأنواعه فى الحاضر والمدى القريب والبعيد ، وما يلزم لمواجهة النمو الحتمى أو التوسع ، أو الحذف والإضافة فى الخدمات التعليمية .

ولهذا يلزم الاتصال بالأجهزة الإحصائية فى الوزارات والهيئات الأخرى ، لتسهيل وتنفيذ ما يطلب من استفاءات أو جمع بيانات أو بحوث إحصائية لازمة للجهاز التخطيطى القائم على وضع المخططات التربوية .

وهناك جانب هام فى الإحصاء ، وهو متعلق بالتمويل ، إذ لابد من أن تتضمن الإحصاءات التعليمية تكاليف التعليم بالنسبة للدخل القومى ، والمصادر العامة للتمويل (مركزية أو محلية ، حكومية أو أهلية) ، ومصروفات التعليم بالنسبة للمصروفات العامة ، وتكاليف التعليم بالنسبة لدخل الفرد ، وتوزيع تكاليف التعليم بين مصروفات تسييره ، والتمويل برأس المال والتكاليف الخاصة بكل مرحلة تعليمية ، وكل نوع من أنواع التعليم ، مع مقارنة كل هذا بالمعدلات العالمية ، والدول المشابهة للدول العربية فى دور نموها .

ولابد من اعتبار الوحدة الإحصائية بالجهاز التخطيطى للتعليم هى الجهاز الفنى الذى يقوم بعمل التقديرات والتنبؤات عن المستقبل ، وهو

الجهاز الذى يؤخذ بتقديراته وتنبوءاته فى التقارير الرسمية للمخططات التعليمية فى المدى القصير والمدى الطويل ، وإن تقديرات المستقبل يدخل فى حسابها تغيرات واحتمالات ليس من السهل لغير الفنيين معالجتها على الوجه السليم .

ومن مهام الجهاز الإحصائى أيضًا عمل البحوث الإحصائية والتقارير الإحصائية التى تحتاجها أجهزة التخطيط ، وتعتمد هذه البحوث على الخامات الإحصائية التى ينتجها الجهاز الإحصائى المحلى . وتكون هذه البحوث على نوعين :

النوع الأول : وهو ما تحتاجه إدارة خاصة أو هيئة معينة بصفة نوعية مثل مشروع حصر الوسائل التعليمية السمعية والبصرية الموجودة فى مرحلة أو نوع من أنواع التعليم ، تمهيدًا لتزويدها بالمعدلات اللازمة ، أو مشروع حصر الكتب التعليمية بإحدى المناطق تمهيدًا لإعادة النظر فى سياسة الكتاب المدرسى فى هذه المنطقة ، أو مشروع لدراسة وعلاج ظاهرة تكرار الرسوب بين الطلاب فى إحدى أو كل مراحل التعليم .

النوع الثانى : وهو ما يحتاجه الجهاز التخطيطى ككل ، مثل مشروع دراسة عدالة توزيع الخدمات التعليمية حسب احتياجات السكان والبيئة والموارد المحلية ، ومشروع لدراسة العرض والطلب من القوى البشرية المتعلمة والمدربة . ولا شك أن الجهاز الإحصائى المشارك فى وضع

المخططات التربوية لا يستطيع مواجهة التطورات الاقتصادية والاجتماعية المقبلة ، والتعرف على ميادين الاستثمار وطبيعتها وحاجاتها من القوى العاملة ، ومستويات الكفاية الفنية لكل منها فى القطاعات المختلفة ، حتى تستطيع التربية تعديل برامجها ومناهجها ، وإعداد وتوجيه وتدريب القوى البشرية اللازمة لمواجهة هذه التطورات فى الزمن والمكان المناسب .

ولابد للمخططات التربوية السليمة من توافر إحصائيات أساسية عن معدل الزيادة فى الدخل القومى ، وعدد السكان والتركيب السكانى ومعدل الإنتاجية ، والزيادة فى العمال ، حتى يتمشى النظام التعليمى مع الأسس المادية والبشرية القائمة .

وباعتبار أن التعليم لم يعد فقط خدمة اجتماعية ، ولكنه أصبح أيضًا أحد ميادين الاستثمار ذات العائد . يرفع من كفاية الفرد ويعاون على زيادة الإنتاج العام ، فإن إحصاءات التمويل من الأهمية بمكان ، سواء كان تمويل الدولة ، أو اشتراكات الأهالى أو الشركات ، أو التطوع الشعبى للعمل فى بناء المدارس مثلا ، أو الأهالى بدفع تبرعات للتعليم ومشروعاته الحديثة ، أو إمكان تحصيل مصروفات مدرسية من أسر الطلاب الموسرين أو إمكان تسهيل منح القروض للسلطات المحلية لمواجهة التوسع التعليمى فى هذه المناطق .

وهناك مشكلة يشترك فى حلها المتخصص التعليمى ، وخبير التمويل التعليمى ، وهى أن دراسة الإحصاءات المتعلقة بتمويل التعلم لا تنحصر فقط فى زيادة الأموال التى تخصص للتعلم فحسب ، بل إنها تتضمن كذلك حسن استخدام هذه الأموال بأفضل درجة من الفاعلية والإنتاجية مع تجنب الإسراف فى بعض الخدمات التعليمية . وتفيد البحوث الإحصائية والتمويلية فى تخفيض الضياع والوصول إلى أقصى حد ممكن من الاقتصاد فى نفقات التعليم .

ومن مستلزمات الإحصاءات التعليمية السليمة ، توحيد مصادر الإحصاءات منعًا لما يحدث فى بلادنا من التضارب والتفاوت والتكرار بين الإحصاءات التى تصدرها مختلف الأجهزة . ولعل فى وجود جهاز إحصائى مركزى يتبعه فروع إقليمية ومحلية فى مختلف الوزارات والهيئات والمحافظات والألوية ، الإجابة على حل مشكلة الإحصاءات وتفاوتها وظهور مفارقات بينها .

المبانى المدرسية

من المعروف أن المبانى التعليمية ترهق ميزانية التعليم ، وأنه يمكن تجنب الإسراف فى عمليات المبانى المدرسية بمعونة الفنيين فى تبسيط المبانى بما يلائم البيئات المختلفة ، والمستوى الاجتماعى بها . وينطبق نفس المبدأ على التجهيزات والأثاث المدرسى .

ومن اللازم تحديد الأموال اللازمة للمبانى المدرسية ، والمصاريف الاستثمارية فى هذه المبانى مع استخدام طريقة المقاييس الثابتة (تكاليف البناء الواحد أو الفصل الواحد . . . إلخ)

ومن أساسيات مقابلة متطلبات المخططات التربوية فى مجال الأبنية التعليمية ، ضرورة دراسة احتياجات الجامعات والمعاهد العالية ، ومراكز التدريب المهنى والتلمذة الصناعية والمدارس بمختلف أنواعها

ومراحلها إلى المبانى التعليمية عن طريق الإحصاء الشامل للأبنية الموجودة فى الموقف الراهن (جديدة – قديمة – مملوكة للدولة – مملوكة لأشخاص – مستأجرة – آيلة للسقوط – ناقصة المرافق . . . إلخ) . بالتعاون مع الجهاز الإحصائى وذلك فى ضوء الإحصاء الشامل لأعداد الطلاب فى الحاضر ، وما ينتظر أن يكونوا عليه فى السنوات المقبلة وما يقابل ذلك من نمو حتمى وتوسعات فى الأبنية القائمة أو إنشاء أقسام وأبنية جديدة .

ويلى ذلك تخطيط شامل للأبنية التعليمية بدراسة الإحصاءات دراسة دقيقة للوصول منها إلى تحديد احتياجات البلاد إلى الأبنية التعليمية لكل فرع ومرحلة من مراحل التعليم ، ثم مدارسة هذه الاحتياجات مع المختصين بالإحصاء والتمويل ، ويمكن بذلك فى النهاية الوصول إلى مشروع تخطيطى شامل للأبنية التعليمية ، ينفذ على مدى عدد معين من السنوات وفق احتياجات البلاد وإمكاناتها الاقتصادية ، كما يراعى فى ذلك تقدير التكاليف المالية الضرورية اللازمة للتنفيذ بالاشتراك مع المختصين بالتمويل ، وتحليل الإمكانات الموجودة من حيث عملية البناء والمواد اللازمة والفنيين بالدراسة ، مع المعنيين والاستعانة بمعاهد وكليات الهندسة المعمارية وأبحاث البناء إن وجدت .

ويلزم دراسة التخفيف بقدر الإمكان على الدولة فى تحمل أعباء

تكاليف الأبنية ، ودراسة وتحديد مصادر تمويل المبانى ، وتوزيع الأعباء المالية بنسب متوازنة على السلطات المحلية والمركزية مع مراعاة تخفيض المصروفات الثانوية والاقتصاد والبساطة فى الأبنية التعليمية بالقدر الذى لا يؤثر على المستوى التعليمى أو الصحى المطلوب .

ومن الضرورى تحقيق المطالب العاجلة لتمويل المبانى التعليمية بمدارسة أى الطرق الصالحة لذلك كلها أو بعضها مثل القروض المحلية للأبنية . وتشجيع الأهالى على بناء المعاهد والمدارس ومراكز التدريب المهنى ، ودراسة أساليب هذا التشجيع ، وتكليف بعض المؤسسات للقيام بعمليات البناء ، مع قيام الدولة بتسديد نفقات البناء بأرباح معقولة بأقساط سنوية ، لا تتجاوز كثيرًا نفقات الاستئجار القائمة حاليًّا . ويمكن النظر بصورة جدية فى مبدأ إنشاء مصانع الأبنية الجاهزة فى الدول العربية ، إسراعًا لبرامج تنفيذ الأبنية التعليمية لما ثبت من توفيرها للوقت والجهد والمال ونشرها بحيث توجد فى كل محافظة أو مديرية أو لواء لاستكفاء كل منطقة لمبانيها التعليمية إقليميًّا .

إن المخططات السليمة للمبانى التعليمية ، لابد من أن تتعرض لدراسة الوسائل الفنية للأبنية التعليمية كوضع توجيهات لتصميم المبانى على أسس تربوية واجتماعية وصحية ، بحيث تتفق والمستوى الاجتماعى ، وبحيث تراعى العوامل الجوية والبيئية والحالة الاقتصادية فى البناء

واستخدام الخامات المحلية ، وبحيث يؤخذ فى الاعتبار طرق التدريس ، وبحيث تكون الأبنية التعليمية قابلة للتوسع فى المستقبل ويمكن تعديلها وفق الاحتياجات المقبلة .

ويلزم وضع أسس تنظيم الهيئات التى يسند إليها تصميم المبانى التعليمية ، بحيث تتوفر فيها الخبرة اللازمة لذلك ، بحيث تتعاون فيها جهود المهندس المصمم والمنفذ والفنان والاقتصادى وخبير الصحة المدرسية .

كما يلزم دراسة إنشاء مؤسسة مستقلة تختص بالإنشاءات التعليمية ، ويمكن تطبيق نفس الدراسة على مبدأ إنشاء مؤسسة مستقلة تقوم على عمل التجهيزات التعليمية والأثاث المدرسى .

وفى النهاية يمكن الوصول إلى نماذج متعددة من التصميمات فى الأبنية التعليمية ، بالاشتراك مع الجهات المعنية يكون أساسها تبسيط المبانى التعليمية وتقنيها ، ووضع التصميمات النموذجية المتنوعة لبيئات مختلفة (زراعية – تجارية – صناعية – صحراوية ساحلية . . . إلخ) ، مع وضع شروط محددة لاختيار مواقع البناء ، بحيث يتوفر فيها انخفاض سعر الأرض ، ومناسبة الموقع ، وسهولة المواصلات ، وملاءمة الموقع لسير الدراسة ، والبعد عن الضوضاء الشديدة ، ومحطات السكك الحديدية ، ومجارى المياه الخطرة ، والروائح الكريهة والمحاجر والغابات . . . ومناسبة المساحة لوجود حديقة وملعب ، وسهولة جفاف

الأرض وسهولة الصرف ، وتوفر موارد المياه .

ويلزم وضع توجيهات للمؤسسات والجمعيات التعاونية ، وأجهزة البناء التى تقوم بإنشاء المدن والأحياء الجديدة ، وأن يراعى عند التخطيط تخصيص مساحات منذ البداية لكل نوع من أنواع التعليم ينشأ فى هذه المواقع .

ولاستكمال مخططات المبانى التعليمية ، لابد من إيجاد وسائل المتابعة والتطوير للمبانى التعليمية والصيانة ، وذلك بالعمل على تقويم الأبنية التعليمية ، ومتابعة مشروعات التنفيذ طبقًا للبرامج الزمنية الموضوعة عن طريق أجهزة التفتيش الفنى والإدارى ، بالوسائل التى يتفق عليها بقصد دوام تطوير المبانى التعليمية عن طريق تكليف هيئات حكومية وأهلية مختصة ، وعمل مسابقات للحصول على أفضل التصميمات فى الأبنية التعليمية ، وتشجيع المعارض لعرض النماذج فى الأبنية التعليمية والتصميمات المختلفة ، وتحسين نشر المطبوعات فى شئون الأبنية التعليمية متناولة أهم الدراسات والتوجيهات على شكل كتيبات وكتالوجات .

ومن المفضل الاتصال بالهيئات الخارجية والدولية المعنية مثل منظمة اليونسكو والاتصال عن طريق المؤتمرات الدولية والإقليمية بقصد تبادل الخبرات والمعلومات والمعونات الدولية الفنية والمالية فيما يختص بالمبانى التعليمية .

المناهج والكتب والوسائل التعليمية

كثيرًا ما تتعرض التقارير التعليمية والبحوث التربوية للأعداد التى تم تخرجها من مختلف مراحل التعليم وأنواعه ، وكذلك الأعداد المطلوبة من الخريجين على مدى سنوات مقبلة ، ولكنها قليلا ما تشير إلى نوعية التعليم أو تبدى اهتمامًا بالكيف ، وهى لا تتعرض بالضرورة للتفاصيل الهامة المتعلقة بتحقيق الكيف فى التعليم عن طريق المناهج أو الكتب المدرسية أو الوسائل التعليمية .

ولهذا نرى أنه لابد من النظر بطريقة تقدمية جريئة إلى المناهج الدراسية على جميع المستويات بحيث تقابل المناهج المتطلبات الآتية :

١ - احتياجات التراث الثقافى والحضارى ليس فقط عن طريق أن المنهج يقوم بحفظ هذا التراث الثقافى ، وإنما يضيف عن طريق الابتكار

والإبداع . وبذلك يكون المنهج وسيلة لحفظ التراث الثقافى والإضافة إليه فى الوقت نفسه .

٢ – مقابلة استعدادات وقدرات واتجاهات وتطلعات الإنسان الفرد ، وتشجيعه على استخدام قدراته واستعداداته إلى أقصى ما يمكن ، وتشجيع العمل الفردى المستقل والبحث الدائب .

٣ – مقابلة احتياجات المواطنة الصالحة ، وتدعيم القيم الوطنية والعربية .

٤ – مقابلة التغير المتلاحق فى العلم والتكنولوجيا وعلوم الذرة والأجهزة الأتوماتية حتى يلاحق التعليم العصر الذى نعيش فيه .

ومن الأهمية بمكان فى وضع المناهج الجديدة أو تعديل المناهج الحالية ، أن يتم ذلك فى ضوء تقارير ميدانية ومتابعة واقعية للتطبيق الفعلى لهذه المناهج فى السنوات الأخيرة ، حتى تكون ملاحظات المفتشين ، وعمداء التفتيش ، والمتابعين والمعنيين بشئون التعليم ، موضع نظر ونقطة بداية فى عمل المناهج الجديدة .

وتنسحب نفس الملاحظة السابقة على المستهلك ، أى المؤسسة أو المنظمة ، أو الهيئة أو المصلحة التى يعمل فيها أى خريج ، إذ لابد من تلقى ملاحظات وتقارير واقتراحات جميع الهيئات التى يعمل فيها الخريجون على مختلف مستوياتهم ، ومدى استخدامهم فى عملهم

للمعلومات والمهارات والخبرات والقيم والاتجاهات التى درسوها فى المرحلة ، أو نوع التعليم الذى مارسوه ، وبذلك يعاد النظر فى المناهج لتكون أكثر ملاءمة ومرونة ، لمقابلة احتياجات المستهلك الذى يعمل لديه الخريج ، ولهذا لابد من إنشاء أقسام لمتابعة الخريجين فى أماكن أعمالهم بعد تخرجهم لمدة كافية ، ويأتى بعد ذلك السؤال : من يقوم بتعديل ووضع المناهج ؟ والإجابة عليه هو أنه لابد من اشتراك المدرس فى الميدان ، بجانب المفتش أو المفتش الأول أو عميد التفتيش المختص ، وذلك بالاشتراك مع المتخصصين فى المناهج ، وخبير المادة الدراسية ، ورجال الأعمال بالسوق ، وذوى الخبرة الطويلة فى التعليم ، حتى تكون المناهج شاملة ومتكاملة وعلى أساس ديمقراطى .

ويحسن أيضًا تجريب المناهج الجديدة على عدد محدود من المدارس لمدة عام على الأقل ، لإثبات صلاحيتها وتعديلها فى ضوء تدريسها قبل تعميمها ، كما يلزم أيضًا عدم تعديل المناهج فى كل مرة إلا بعد استقرارها لعدد من السنوات حتى لا تحدث هزات تعليمية متكررة .

ويلزم متابعة المناهج بعد وضعها ، وإحداث المرونة الكافية بها ، مع اعتبار المناهج خبرات متكاملة ، تؤدى إلى تنمية جوانب شخصية الفرد المتعلم ، من جسمية وروحية وأخلاقية وعقلية واجتماعية ومهنية... إلخ .

والمنهج الصالح لابد من أن يتوافر فيه تحقيق الأغراض الثقافية

والنفعية ، والتدريبية :

(ا) فالغرض الثقافى يقصد به إضافة معلومات وخبرات جديدة للرصيد التعليمى للفرد المتعلم .

(ب) أما الغرض النفعى فيتمثل فى مدى استخدام المتعلم وتطبيقه لما تعلمه من خبرات تعليمية فى أثناء دراستهٔ فى مهنته مستقبلا وحياته الشخصية .

(حـ) الغرض التدريبى ، وهو يظهر فى تعليم الفرد الطريقة العملية فى أثناء دراسته للعلوم أو تعلم الأمانة والموضوعية فى أثناء القيام بالتجارب العملية ، أو تعلم المواظبة على المواعيد فى أثناء إعداده فى كلية المعلمين ، ليكون معلمًا لا يتأخر عن مواعيد حصصه أو محاضراته لطلابه .

والمنهج الصالح المرن ، لا مندوحة من أن يقابل احتياجات البيئة المختلفة ، فمناهج المدارس والمعاهد ومراكز التدريب المهنى فى البيئات الساحلية ، غيرها فى البيئات الصحراوية ، وهذه تختلف عن مناهج البيئة الزراعية أو الصناعية .

أما الكتاب المدرسى ، فالمبدأ الأساسى فيه فى المجتمع العربى الذى يأخذ بأسباب العدالة الاجتماعية ، هو أن الثقافة والعلم متمثلة فى الكتب المدرسية ، لابد وأن تتاح مجانًا للجميع ، بحيث لا يتكلف أى طالب

مصروفات يدفعها ، وتثقل كاهله فى الكتب المدرسية على مختلف مراحل التعليم وأنواعه ومستوياته . ويحسن هنا النظر فى قيام مؤسسة عامة مستقلة متخصصة فى الكتب التعليمية ، تتولى الإعلان عن هذه الكتب ، وفحص نتائج المسابقات بين المؤلفين ، بتشكيل لجان الفحص المحايدة ، وإعطاء المؤلفين مكافأة مجزية ، بحيث فى النهاية لا يكون الكتاب سلعة تجارية ، مع إخراج الكتب فى صورة جذابة مشوقة ، وإصدار أكثر من مرجع فى كل مادة ، حتى يكون الكتاب المدرسى وسيلة لتحرير الفكر الإنسانى ، ولا يكون الطالب أسيرًا للمرجع الواحد .

ولابد أيضًا من تجريب الكتاب المدرسى لمدة عام على الأقل على عدد محدود من المدارس ، وتعديله إذا لزم الأمر فى ضوء تدريسه ، قبل تعميمه بصورة واسعة على جماهير التلاميذ والطلاب .

ويحسن وضع برنامج زمنى مسبق للكتب المدرسية ، تتم فيه جميع الخطوات اللازمة منذ الإعلان عن الكتاب ، حتى يصل إلى أيدى التلاميذ والطلاب مع بداية العام الدراسى بوقت كاف . ومن الضرورى القيام بعملية مسح شاملة فى مدارسنا وجامعاتنا للوسائل التعليمية ، ومعرفة المقننات اللازمة منها بالنسبة لكل فصل ، أو مدرسة ، أو كلية من كل نوع من أنواع الوسائل التعليمية ، من أجهزة للعرض ، وأفلام متحركة ، أو ثابتة ، ومعدات ونماذج وعينات وشرائح ورسوم

بيانية . . . إلخ ، وعمل برنامج زمنى لإنتاج الوسائل التعليمية ، وتوزيعها ، وتدريب العاملين على استخدامها ، وتشغيل أجهزة الوسائل التعليمية ، ونشر حركة الوسائل التعليمية والاهتمام بها فى المدارس والكليات ، على اعتبار أنها تعين المدرس ولا تغنى عنه .

ولعل فى إنشاء مؤسسة ذات كيان مستقل ، تقوم بإنتاج نماذج من الوسائل التعليمية تعطى لمصانع تقوم على إنتاج هذه الوسائل بكميات وفيرة ، مما يوفر على الدول العربية العملات الصعبة ، لعل فى ذلك حلا لمشكلة إمداد مدارسنا ومعاهدنا بما يكفيها من الوسائل التعليمية التى توسع ، وتعمق وترسخ عملية التعليم .

ويحق النظر فى مقابلة الاتجاهات الدولية الجديدة فى التعليم ، فى صورة التعليم المبرمج باستخدام الآلية فى التعليم ، والتسجيلات الصوتية توفيرًا للوقت والجهد فى العملية التعليمية .

إعداد المعلمين وتدريبهم

إن أى تفكير تخطيطى ، وبرنامج تنفيذى سليم لإعداد المعلمين وتدريبهم ، لابد من أن يتناول التحليل الوظيفى لهيئات التدريس الحالية بصفة عامة ، سواء كانت فى الجامعات ، أو المعاهد العالية ، أو المرحلة الثانوية أو الإعدادية أو الابتدائية أو مراكز التدريب المهنى فى القطاع الرسمى أو العام ، وفى القطاع الخاص .

ويلى ذلك مباشرة تحديد الصفات والخصائص والاتجاهات والقدرات التى تقابل هذا التحليل الوظيفى .

وكيفية إختيار المعلم من الأهمية بمكان فى مرحلة الإعداد ، بحيث تكشف وسائل الاختيار عن توفير بعض الصفات فيه ، أو على الأقل وجود استعدادات لها فى مختلف المعاهد والكليات ، التى تعد معلمين

ومعلمات وأعضاء لهيئات التدريس .

ويتناول التخطيط السليم لإعداد المعلمين ، وسائل تنمية هذه الاستعدادات ، بحيث تصبح صفات ثابتة فى شخصية المعلم فى أثناء فترة الإعداد وأثناء الخدمة .

كما يتناول منهج الدراسة والمواد الثقافية والمواد المهنية التى تدرس فيه ، ونسبة كل منها إلى الأخرى ، والحد الأدنى الثقافى اللازم توافره فى كل معلم فى كل مرحلة ، وطرق التدريس السائدة ، والوسائل المعينة من سمعية وبصرية ، وألوان النشاط الاجتماعى والثقافى والرياضى ، وحياة الطلاب الاجتماعية فى أثناء فترة الإعداد ، واتصالاتها بالبيئة ، والامتحانات ، ووسائل التقدم فى أثناء فترة الإعداد .

كما يتناول التخطيط أيضًا معلم المعلم ، والتحليل الوظيفى لهذه الفئة ، وتحديد الصفات والخصائص والاتجاهات التى تقابل التحليل الوظيفى ، وكيفية الإرتفاع بمستوى معلم المعلم .

كما أن التخطيط السليم لإعداد المعلمين والمعلمات ، لابد من أن يتناول فيما يتناوله مدة الإعداد ، ومكانة ومدة التدريب العملى ، والتقدم بالتوصيات والتشريعات اللازمة فيما يخص نظم الإعداد وكيفية توحيد مصادر إعداد المعلم .

ومن الضرورى تتبع عينات من المعلمين المتخرجين فى معاهد وكليات

ودور إعداد المعلمين ، فى ميادين عملهم ، بطريقة الملاحظة الميدانية المباشرة ، واستطلاع رأى رؤسائهم ومدى تعاونهم ، وتتبع نشاطهم الثقافى والعلمى .

ودراسة موضوع إدارة كليات ومعاهد ودور إعداد المعلمين ، ونوع القيادة السائدة فيها من الأهمية بمكان للارتفاع بمستوى الكفاية الإنتاجية فيها . ولسنا فى حاجة إلى التأكيد بأن المناخ الديمقراطى السمح ، من ألزم الأمور فى إعداد المعلم .

وإذا كان من الممكن التحكم فى مستويات المعلمين عن طريق إعدادهم ، فيمكن أيضًا استكمال هذا الإعداد وهم فى الخدمة ، عن طريق برامج التدريب الوظيفى ، وإعداد هذه البرامج التدريبية المختلفة من تزويد وتأهيل واستكمال تأهيل . . . . . إلخ ، مما يشمل الإجابة عن الأسئلة التالية :

(ا) متى وأين يدرب المعلم فى الخدمة ؟

(ب) ما هى وسائل التدريب ونوع البرامج التدريبية .

(حـ) كيفية تخطيط هذه البرامج وتنفيذها من حيث محتواها ومدتها ومستوى كفاية الهيئة المشرفة على تنفيذ هذه البرامج .

(د) ما هى الهيئات التى تقوم بعمليات التدريب ؟

(هـ) تقويم أثر العمليات التدريبية فى هيئات التدريس ، وتحديد

الوسائل التى يمكن أن تستخدم فى فترة التقويم .

والمستهدف فى النهاية ، هو تعزيز مستويات هيئات التدريس بالمؤهلات اللازم توافرها ، مع تصحيح الأوضاع السائدة ، والارتفاع ببعض المستويات القائمة إلى المستوى المطلوب ، واستمرار النمو المهنى للمعلم ، عن طريق البعثات والمنح ، والمؤتمرات الإقليمية والخارجية ، والمجلات والبحوث . . . إلخ .

وعن التخطيط لإعداد المعلمين والمعلمات ، لابد من رسم سياسة القبول بمعاهد وكليات ودور إعداد المعلمين والمعلمات فى ضوء الاحتياجات الفعلية للتعليم ، بدراسة البيانات الإحصائية الخاصة باحتياجات المحافظات والمديريات والألوية المختلفة ، من المعلمين بقصد تحديد أعداد المقبولين ، مع ملاحظة تحقيق مبدأ الاكتفاء الذاتى ، والاستقرار العائلى لأسر المعلمين ، وبدء تعيين المعلم فى مناطق الريف على قدر الإمكان .

ويستلزم الأمر القيام بالدراسات المقارنة فى نظم إعداد المعلمين وتدريبهم ، فى البلاد الأخرى ، واقتباس ما يصلح منها لنظمنا ، وإجراء الدراسات لاكتشاف هل النظام التتابعى فى إعداد المعلم (الدراسة الفنية تتم فى السنوات الأولى ، والدراسات التربوية فى السنوات الأخيرة) ، أو النظام التكاملى فى إعداد المعلم (الدراسات

التربوية تتمشى جنبًا إلى جنب منذ أول عام مع الدراسات الفنية) ، أفضل من الآخر؟

ومن اللازم قياس كفاية المعلم بطريقة موضوعية وبناءً على البحوث القائمة فى هذا الميدان . وقد أمكن وضع تدريج مئوى يشابه « الترمومتر » ، يمكن به قياس سمات المعلم الناجح . وهذا التدرج مكون من مائة درجة تتناول الصفات الشخصية ، والصفات المهنية ، والصفات المتعلقة بالديمقراطية للمعلم الصالح ، على افتراض أن كل صفة تتساوى فى درجتها مع أى صفة أخرى . وهذه محاولة جريئة فى هذا الاتجاه ، فيها يجيب المعلم بنفسه عن كل صفة بنعم أولا ، ويقارن النتيجة العددية بتقويم الرئيس المباشر للمعلم نفسه ، لمعرفة درجة تمشى تقويم المعلم لنفسه ، بتقويم رئيس العمل لنفس هذا المعلم .

والصفات الشخصية : هى : نظيف – ذو مظهر حسن – بشوش – ذو قامة معتدلة – صحيح البدن – ذو صوت جذاب – واثق من نفسك – موضع اعتماد الغير – ذو حيوية ونشاط – متزن الانفعالات – تضبط نفسك – قادر على التكيف – إجتماعى – واقعى – متعاون – منظم – رياضى – رقيق دون لين – حازم دون قسوة – صبور – صريح – تستمر فى أداء العمل حتى تنتهى منه – موضوعى (علمى فى

تفكيرك - لا تؤمن بالتطير - جرىء فى الحق - لا تكسر القانون - محب للفن - محب للطبيعة .

والصفات المتعلقة بالديمقراطية هى : ذو نظرة شاملة - متطور ومتجدد ومتفتح - مؤمن بكرامة الفرد كفرد - تشجيع حرية الرأى والمناقشة - تقبل الآراء المعارضة لرأيك - قادر على الانتقال من الكلام إلى العمل - تقبل حكم الأغلبية - مؤمن بالمساواة - مؤمن بالإخاء - متواضع - لا تحتقر العمل اليدوى - مؤمن ومشجع للّا مركزية - عادل ولا تحابى - مؤمن بوجود الخالق - متسامح دينيًّا - مرن - متمتع بالاستقرار المادى .

والصفات المهنية هى : متمكن من مادة الدراسة - متمكن من توصيل المعلومات والخبرات والمهارات والقيم - فاهم للتاريخ القومى - فاهم للبيئة والمجتمع المحيط - مثقف ثقافة جنسية - على مستوى معتدل من الذكاء - فاهم للأغراض العامة من التدريس - فاهم للأغراض الخاصة لما تدرسه - متفهم لطبيعة المتعلم وميوله واستعداداته - مهتم بالفروق الفردية - مهتم بمشكلات التلاميذ - تثير حوافز التلاميذ وميولهم - تلائم بين المادة ومستوى الطلاب - تلائم بين المادة والزمن المخصص - تشرك التلاميذ فى الدروس - تشجع التلاميذ على العمل فى مجموعات - متمكن من طرق التدريس - متنوع الأساليب - فاهم

لطرق التعلم – مؤمن بأن التربية ليست عملية حفظ معلومات فقط – مؤمن بأن التربية نشاط وخبرة وإنتاج – تقوم بدور القيادة فى مدرستك – تذهب فى رحلات مع تلاميذك – تسهم خلال عملك فى خدمة البيئة – تستغل إمكانات البيئة – لك فلسفة تعليمية – تنفذ السياسة التعليمية الموضوعة – تعد دروسك قبل تدريسها – تعرف أكثر من الدرس – تستخدم الأسئلة فى دروسك .

ويمكن عمل مقياس مُناظر ، يصلح للتعليم الجامعى والعالى .

أساسيات التنمية البشرية

يقصد بالتنمية البشرية في مؤسساتنا التعليمية كالجامعات والمعاهد العليا والكليات ومراكز إعداد الفنيين ، رسم مشروعات لمزيد من العناية بالعملية التربوية والفنية والتعليمية ، واستثمار الجهود فيها إلى أقصى حد ، على أن يكون التخطيط محققًا لأهداف الجمهورية متمشيًا مع التطور المنشود ، مشتملا على خطوات التنفيذ ، مبنيًّا على الواقع وفى حدود الإمكانات مدعمًا بالإحصاء والنماذج والأمثلة ، وعلاج المشكلات بحلول واقعية ملائمة للإمكانات ومسايرة لمقومات المجتمع وأهدافه .

ولا يقصد بالتخطيط للتعليم العالى والتنمية البشرية كتابة مقالات فى بحوث فلسفية بحتة ، أو الاقتصار على عرض أهداف أو نقد للمسائل

القائمة دون تشخيص مقرون بالحلول العملية الواقعية مع التطلع إلى مستقبل أفضل .

ولقد صاحبت النهضة الحديثة فى جمهورية مصر العربية ، حركة نشر التعليم العالى ، التى مالبثت أن غزت البلاد فى صورة جامعات ومعاهد عليا ، وكليات ومراكز لإعداد الفنيين ، وبعثات للخارج وبعثات للإشراف المشترك ، وأصبحت الآمال معلقة على أن التعليم العالى سيكون أداة فعالة فى إصلاح البلاد ، وأنه بما يبثه فى نفوس المتعلمين من العلم والمعرفة والمهارة ، سيؤدى إلى تنويرهم بحيث يجعلهم قادرين على النهوض بشئونهم وشئون مجتمعهم ، على أنه لا يفوتنا أن نؤكد أن الملاحظات مالبثت أن وجهت إلى هذا التعليم ، وأدرك الكثيرون من المسئولين والمصلحين أنه بصورة الحالية لم يتمكن من أن يحقق الأهداف المعقودة عليه فى الثورة الحاضرة ، فهو من جهة لا يفيد سكان البلاد فائدة ملموسة فى شئون معاشهم واحتياجاتهم ومشكلاتهم ، كما أنه من جهة أخرى كان مصطبغًا بالصبغة النظرية المجردة ، ومن جهة ثالثة كان يتصف بالانعزال عن المجتمع ، وكان من البديهى أن اتجهت الأفكار إلى إيجاد نوع التعليم العالى الذى يلائم حياة البلاد ، ويؤدى رسالة النهوض والرقى والإصلاح فيها ، ليوفر الإنتاج والعدالة الاجتماعية والتنوير والتقدم خصوصًا ، لأن قوانين التعليم تتيح

حق كل مواطن فى العلم بقدر ما يتحمل استعداده ومواهبه . إن العلم طريق تعزيز الحرية الإنسانية وتكريمها ، كذلك فإن العلم هو الطاقة القادرة على تجديد شباب العمل الوطنى ، وإضافة أفكار جديدة إليه كل يوم ، وعناصر قائدة جديدة فى ميادينه المختلفة ، بما يؤدى إلى تنمية بشرية حقيقية .

والإجابة الوافية على نوع التعليم الذى نريده ، ليتمشى مع نهضتنا الحاضرة تتمثل فى أن رسالة التعليم العالى ، تتركز فى إعداد مواطن عربى متحرر متكامل الشخصية ، وتوفير طاقات بشرية وفكرية قوية واعية بناءة ، تؤمن بالله والوطن والإنسانية ، وتعمل فى قوة وتماسك على تدعيم بناء مجتمع الكفاية والعدل المتحرر من الاستغلال والإقطاع ، يهدف إلى إسعاد الشعب على أسس العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص إسهامًا فى عالم يسوده السلام والعدالة . .

وإن إعداد الطلبة والطالبات والمبعوثين للحياة العلمية فى مجتمعنا الثائر ، يستلزم استمرار تطوير الجامعات والمعاهد والكليات ، ومراكز إعداد الفنيين ، والبعثات ، وتوجيه نشاطها نحو الإنتاج ، واحترام العمل اليدوى ، وتقوية الروابط بينها وبين البيئة ومشكلات وتطلعات المجتمع الثورى .

وقد أثبتت التجارب فى كثير من دول العالم أن التقدم والتغير

الاجتماعى مهما توافرت له الإمكانيات الاقتصادية والمادية ، فإنه لا يمكن أن يتم بشكل من الأشكال دون تغيير مصاحب فى نفوس المنتفعين بالإصلاح والتطور ، فالإصلاح يتم أولا فى العقول حتى يصبح تلقائيًّا ، وبمعنى آخر إننا إذا زودنا القرى والمدن بالكهرباء ، وبنينا المنازل الصحية لجميع السكان ، وأقمنا الكبارى والسدود ، ونشرنا الجمعيات التعاونية بينهم ، فإن ذلك كله يضيع سدى إذا لم يصاحبه فهم وتعليم ، وتدريب وممارسة لهذه الأشياء الجديدة ، بقصد إكساب الأفراد المهارات الضرورية ، والمفاهيم والاتجاهات السليمة ، فى كيفية حسن استخدام تلك الإمكانات ، فالمسألة فى واقع الأمر تدور حول الهدف من التعليم العالى ، وقوة التعليم والطاقة الكامنة فيه ، حتى تتكون العقيدة أو الإيمان ، ويحدث التغيير فى النفوس ، وتتربى إرادة الإصلاح المنشودة .

وتشير أحدث البحوث فى التعليم العالى فى كثير من دول العالم ، إلى أنه عملية تفاعل مستمر بين الفرد المتعلم وبيئته المادية والاجتماعية ، وأن التعليم العالى الحق ، هو الذى يكون وثيق الصلة بحياة السكان ومشكلاتهم ، وحاجاتهم وآمالهم ، وأن الهدف الأول للتعليم العالى ، هو تطوير المجتمع والنهوض به إلى مستوى تكنولوجى واقتصادى ، وصحى واجتماعى وثقافى أفضل ، وعلى هذا يتحدد أسلوب التعليم العالى فيكون عن طريق التعليم بالعمل والنشاط والإنتاج والبناء ، ومواجهة المشكلات

اليومية والبعيدة المدى مواجهة صريحة ، أى بالخبرة الواقعية المباشرة .

وتؤكد أحدث الأبحاث أنه أيضًا ، لا مكان الآن للتعليم النظرى الشكلى المنعزل عن الحياة ومشكلاتها ، وأن الطاقة الكامنة فى التعليم العالى لو استخدمت إلى أقصى حدودها ، فإنها قادرة على إحداث ثورة وتغيير اجتماعى ملحوظ نحو التقدم والرفاهية ، ويستدعى ذلك أن يُبنَى التعليم العالى على الدراسة المقرونة بالعمل والنشاط والإنتاج ، والتطلع إلى مستقبل أفضل وبذلك تنمو نزعة الإصلاح بين المتعلمين أنفسهم . وبغير التغيير الذى ينبع من الداخل ، لا يكون للتقدم والإصلاح صدى فى النفوس ، وقد قال عمر « إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة » ، وجاء فى القرآن الكريم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وبمعنى آخر ، أصبح للتعليم العالى مفهوم جديد ، يتمشى مع إحتياجات المجتمع الثورى الحديث ، وانتقل الميزان من جعل الفرد مركزًا للعملية التعليمية وهدفًا لها ، إلى جعل الجماعة والتراث الاجتماعى والنهوض به مركزًا وهدفًا لها . فغاية الجماعة هى تحقيق التقدم الاجتماعى ومعنى هذا التقدم فى المجتمع الديمقراطى الاشتراكى التعاونى الذى نعيش فى غماره ، هو زيادة الموارد المادية والفكرية وتحسين النظم الاجتماعية ، بحيث تؤدى جميعها إلى إرضاء حاجات الفرد . ومثل هذا التقدم الاجتماعى لا يكون إلا نتيجة للنشاط الجمعى الذى يقوم به

الأفراد ، ومن ثم فكفاية الفرد فى القيام بهذا النشاط الجمعى ، هى الغاية من التعليم العالى ، فلم تعد العملية التعليمية فى عصرنا الحاضر عملية « إكساب الجسم والروح أقصى ما يستطيعان بلوغه من الكمال ، « أو » تحقيق السعادة عن طريق الفضيلة الخالصة ، « أو » تحقيق العقل السليم فى الجسم السليم ، « أو » تحقيق فردية الإنسان ، كما نادى بذلك مفكرون قدماء ، وإنما أصبح للتعليم معنى جديد ، فهو عملية ترمى إلى تكييف الفرد لبيئته الطبيعية والعقلية والخلقية ، « وهى » جهد مقصود يرمى إلى تحقيق استمرار الخبرات المشتركة والنهوض بها ، « وهى » تنظيم خبرات الفرد وإكسابها قيمه إجتماعية عن طريق زيادة كفايته كفرد ، « وهى » مجموع الجهود التى بواسطتها تغرس جماعةٌ ما أغراضها وقدراتها المكتسبة ، بقصد ضمان استمرار وجودها وتحقيق نموها فى ظل مبادئ الاشتراكية . فالهدف فى التعليم العالى ، هو التغيير والتطوير الاجتماعى ولكى يكون التغيير مؤديًا إلى تقدم ، ينبغى أن تهتم الجامعات والمعاهد العالية والكليات ، ومراكز إعداد الفنيين فى الريف والحضر ، بزيادة استغلال االموارد الطبيعية ، وتحسين العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع ، ولا يتأتى هذا إلا بوضع الخطط والجهد المقصود ، والربط بين الأسباب والنتائج . وعلى هذا فالجامعات والمعاهد العالية والكليات ، ومراكز إعداد الفنيين ، والبعثات الداخلية والخارجية فى ظل مجتمعنا

الجديد ، لا تقتصر وظيفتها على نشر التراث الاجتماعى والثقافى العربى فحسب ، بل تساعد المتعلمين والأهالى على نقده ومعرفة المشكلات التى تعترضه ، ومعرفة أوجه حل تلك المشكلات ، فالنقد رسالة تقتضى أمانة القول ، والبعد عن الغرض الشخصى ، ويقتضى قيام الجامعات والمعاهد العالية والكليات ، ومراكز إعداد الفنيين والبعثات ببناء المجتمع وتوجيهه وإصلاحه ، أن يستند ذلك كله على ثقافة ودراسة وتحضير واعتماد على حقائق ، تستخلص منها مقترحات تصلح أساسًا للتنفيذ.

وبناء على ما تقدم نجد أنه من الضرورى أن تنبثق مناهج المؤسسات والجامعات والمعاهد العالية ، ومراكز التدريب المهنى القائمة بالبلاد ، وبرامجها وخططها ، سواء أكانت مراكز للتدريب المهنى الزراعى والتجارى والصناعى ، أم كليات للتربية ومعاهد لإعداد المعلمين ، أم المراكز الاجتماعية ، أو الوحدات المجمعة ، أو مراكز لتنمية المجتمع ، أو للوحدات الزراعية ، أو المعاهد العليا الزراعية ، أو التجارية ، أو الصناعية أو كليات للزراعة ، أو للهندسة ، أو للطب ، أو الآداب أو الحقوق ، أو مراكز العبادة ، أو مراكز الإرشاد والتثقيب الزراعى والصحى ، أن تنبثق البرامج والخطط والمناهج الخاصة بهذه المدارس والجامعات والمعاهد العالية والكليات ، ومراكز التدريب المهنى والمؤسسات ، من تشخيص علمى شامل لمشكلات المجتمع فى جمهورية

مصر العربية . صحية كانت أو ثقافية أو اجتماعية . . إلخ
وتتمثل تلك المشاكل فيما يلي :

الناحية الاقتصادية :

فمن الناحية الاقتصادية مثلا ليس مما يتمشى مع نهضتنا المتوثبة أن يكون متوسط الدخل السنوى للفرد حوالى ٥٠٠ دولار فى عام ١٩٨٠ ، وقد أجمع الخبراء فى الداخل والخارج ، كما اجتمعت مناقشات وتوصيات المؤتمرات ، على أن الجمهورية العربية فى مسيس الحاجة إلى زيادة الإنتاج والإدخار ، ولا يمكن للتعليم العالى أن يقف بمعزل عن تلك المشكلة فيمكن لكل جامعة أو مؤسسة أو معهد عال ، أو مركز للتدريب المهنى ، أن يلحق بها مزرعة نموذجية ، أو ورشة صناعية يديرها الطلاب والأهالى الكبار بأنفسهم ، أو بوساطة جمعية تعاونية ، وتجرى فيها التجارب على أفضل طرق الزراعة وأساليب التكنولوجيا الحديثة » ، بحيث يقاس نجاحها بمدى انتشار ما تصل إليه من نتائج بين السكان ، ويستدعى ذلك أن يدعى السكان بانتظام ليقارنوا بين طرقهم البدائية أو البسيطة ، وبين الطرق الحديثة ، ويمكن تطبيق نفس هذا المبدأ على شتى مناشط المجتمع ، من بناء منزل ، أو دق طلمبة ، أو إصلاح أرض بور ، أو تحسين الاقتصاديات المنزلية ، أى كل

الاحتياجات الهندسية والتجارية والزراعية والتأمين والميكنة وتحسين الخدمة البريدية . . . إلخ .

الناحية الاجتماعية :

ومن الناحية الاجتماعية يمكن للمؤسسات والجامعات والمعاهد العالية القائمة فى البلاد ، أن تقوم بدور كبير فى حل مشكلة خطيرة ، هى مشكلة تزايد السكان . ففى الوقت الذى زادت فيه مساحة الأراضى فى مصر فى الـ ٧٠ سنة الماضية إلى الخمس ، وزادت كمية المحاصيل الزراعية إلى الثلث ، نجد أن الزيادة فى السكان بلغت ثلاثة أمثالها ، إذ أن الزيادة السنوية السكانية تقارب مليون نسمة . وبرقى المستوى الصحى نتيجة لمشروعات الرعاية الصحية والترفيهية ، ستقل قطعًا نسبة الوفيات ، وبذلك يزداد السكان بنسبة أكثر ولا سيما فى الزيف حيث تكثر نسبة النسل عنها فى المدينة ، فعلى المؤسسات والجامعات والمعاهد ، أن تنشر بين السكان الوعى بهذه المشكلة وضرورة الوصول إلى حلول لها ، مثل مشروعات مضاعفة الدخل القومى فى السنوات العشر المقبلة ، أو الهجرة للوادى الجديد أو لمنطقة السد العالى ، أو رفع سن الزواج أو تنظيم النسل . . . إلخ .

كما يمكن للجامعات والمعاهد والمؤسسات ، أن تقوم بدور حيوى فى

مكافحة الخزعبلات والترهات والعادات الدخيلة على الدين والمجتمع ، التى لها سيطرة على عقول السكان وتعمل على تعويق نمو المجتمع وتقدمه ، كالخوف من العين الشريرة ، ووضع الأحجبة والتمائم ، وممارسة الزار ، والإيمان بالبخت والتطير ، وزيادة الأضرحة والمقابر ، والعلاج لدى الحلاقين والإحجام بين المرضى عن الذهاب إلى المستشفيات إلا عند اشتداد المرض . . إلخ. ومن الطبيعي أن جميع التقاليد فى جمهورية مصر العربية تحتاج إلى دراسات تاريخية لإرجاعها لجذورها الحضارية العميقة ، مع العمل على تثبيت ما يفيد نمو المجتمع ، ومحاربة ما يعوق تقدمه.

ومن الأهمية بمكان إحياء تاريخ مصر وتراثها العربى المجيد ، بحيث يستمد السكان وصانعو الحضارات القديمة قوة من تاريخهم المجيد ، تعينهم على مواجهة المشكلات الحاضرة ، والتطلع إلى مستقبل أفضل ، وليس ذلك ببعيد علينا ، وأمامنا أمثلة لدول نجحت فى ذلك ، مثل الدنمارك ، فانتقالها إلى دولة متفوقة ذات مستوى رفيع من المعيشة ، يرجع أول ما يرجع إلى تعليمها الشعبى والعالى ، والذى يسير على أساس تعاونى ، وقد اعتمدت فى نجاحها على إحياء الشعور الوطنى ، والتراث القومى ، وتنمية عقلية وإرادة الإصلاح بين السكان ، وتثقيفهم وتهذيبهم ، وإثارة الرغبة فى نفوس الفتيان للاهتمام بمشاكل الحياة

الرئيسية ، والتزود بالمعرفة ، وحب العمل المنتج ، وتتوثق فى هذه المؤسسات عرى الصداقة بين الشباب وقادتهم ، فيعيشون معًا ، ويتناقشون فى شتى أمور الحياة .

وقد ضربت جزيرة بورتوريكو ، مثلا فى التقدم عن طريق تعليمها الشعبي والعالى ، فقد شعرت الدولة أن عهد النهضة الذى أرست خطوطه بدقة ، يبقى ناقصًا ما لم يُعد أفراد الشعب إعدادًا كاملا شاملا لتحمل مسئوليات بناء أنفسهم ، ولذا أنشئوا المعاهد الشعبية بغية تثقيف السكان وتبصيرهم بواجباتهم وحقوقهم ، لتنفيذ مشاريع التعمير وتنمية الموارد والإصلاحات الاجتماعية ، وذلك عن طريق إشراك السكان إشراكًا فعليًّا فى حل المشاكل التى تواجههم ، بعد التعرف الصحيح عليها بمساعدة المتخصصين الزراعيين والاجتماعيين والصحيين ، ثم يوزع القادة على عدد من القرى والمدن ، ويتناول مجال عملهم الشئون الثقافية والتعاونية والصحية والاجتماعية . فيعقدون الاجتماعات ويبحثون مع الأهالى بحثًا ديمقراطيًّا فى الحلول المناسبة لما يعترض مجتمعهم من مشكلات واحتياجات .

التعاونيات :

ويمكن للمؤسسات والجامعات والمعاهد ومراكز التدريب المهنى ، أن تشجع التعاون كوسيلة لبناء مجتمع سليم الأركان ، وخصوصًا بعد أن أصبحت السياسة العليا لجمهورية مصر العربية متبلورة فى المجتمع الديمقراطى والتعاونى ، ولا سبيل لتعليم التعاون وممارسة أساليبه كنظام اقتصادى ، يحقق المساواة ، ويمنع الوسطاء ، ويعطى العائد على قدر مشاركة المساهم فى النشاط التعاونى ، إلا بأن ينشئ السكان جمعيات تعاونية ، إنتاجية أو استهلاكية أو تسويقية أو للتسليف أو للإسكان ، وبذلك يتدربون فعلا على مزايا وإمكانات التعاون ، ويحسون بالنواحى الاجتماعية التى يقوم عليها التعاون ، من مساواة ، وأخذ وعطاء ، وديمقراطية ، وإحساس بالانتماء ، ولنتذكر أن تقدم البلاد الإسكندنافية وإنجلترا ، يرجع إلى ما أمكن للتعاون والحركة التعاونية أن تحدثه من زيادة فى الإنتاج ، ويستدعى أخذنا بالتعاون كنظام إقتصادى واجتماعى تقوم عليه نهضة مجتمعنا الحاضر ، أن تنشأ فى كل معهد ومؤسسة ومركز تدريب وكلية وجامعة جمعية تعاونية ، حتى يصبح التعاون فى النهاية أسلوبًا لحياتنا ، ويحسن أن نضع نصب أعيننا دائمًا أن الغرض المشترك من مختلف الجمعيات التعاونية ليس الحصول على

الربح ، ولكن الاستفادة من الخدمات والمزايا التى تترتب على العضوية فى الجمعية التعاونية إذ إنها لا توزع غلى أعضائها الأرباح بنسبة ما قدموا من رأس مال ، بل بنسبة العمل الذى يقومون به فى الجمعيات ، أو بنسبة ما يشترونه من الجمعية ، أو ما يقترضونه منها .

محو الأمية :

ولا يمكن للمؤسسات والمعاهد والجامعات ومراكز إعداد الفنيين ، أن تقف بمعزل عن مشكلة الأمية ، .فليس مما يتمشى مع نهضتنا الحاضرة أن يبقى ما يزيد على ٥٥٪ من السكان أميون لا يعرفون القراءة والكتابة . . . إلخ . ويجب أن نؤكد أنه لابد من حملة منظمة لمحو الأمية ، تستلزم تضافر جهود رجال الصحافة والإذاعة والتليفزيون ، وقادة الفكر ورجال التعليم . كما تستلزم إعداد كتب عديدة لمحو الأمية ، بحيث تستمد مادتها من حياة المواطن اليومية ، ومشكلاته واحتياجاته ، وتراثه وآماله وتطلعه إلى مستقبل أفضل . وتكون تلك الكتب مؤكدة لفكرة احترام العمل اليدوى ومؤدية إلى إدراك المواطن لمشكلاته وتوجيهه إلى أفضل الطرق لعلاجها . وغنى عن الذكر أن محو الأمية لا يقتصر على القراءة والكتابة والحساب ، وإنما قد اتسع مفهوم محو الأمية بحيث اشتمل على ، محو الأمية الاقتصادية ، والصحية ، والاجتماعية ،

والسياسية . . . إلخ . ولابد من إنشاء وظائف لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات والمعاهد يكون تخصصهم محو الأمية .

كما ينبغي فى هذا المشروع الحيوى ، الاستعانة بمن تم تدريبهم بالمركز الدولى للتعليم الوظيفى للعالم العربى فى سرس الليان ، بحيث يكونون نواة لهذا المشروع الضخم ، وللأحزاب الدور الأول فى هذا المشروع إذ بالإمكانات البشرية المدربة ، وبالتسهيلات الموجودة بمختلف أنحاء الجمهورية من مدارس ومعاهد ، ومراكز للتدريب ووحدات ومستشفيات ، ودور للعبادة ، وساحات شعبية . . . إلخ . يمكن القضاء على تلك المشكلة . .

وإن محو الأمية يعتبر مشروعًا قوميًّا خطيرًا ، وإن من مهام الأحزاب والتنظيمات ، تعبئة الطاقات البشرية للمثقفين والشباب ، لكى يدفعوا إلى الذين حرموا فى الماضى من حق العلم ضريبة ثقافتهم ومعرفتهم ، وعلى أن تتعاون الهيئات الأهلية والدولية بكافة إمكاناتها الفنية على تحقيق ذلك ، ومن حسن الحظ ، أنه تم فعلا تشكيل المجلس الأعلى لمحو الأمية المركزى ، ومجلس فرعى بكل محافظة منذ السبعينيات .

الناحية الصحية :

أما فى النواحى الصحية فيمكن للمؤسسات والمدارس والمعاهد

والجامعات ومعسكرات العمل أن تقوم بدور كبير فى رفع المستوى الصحى . إذ يمكن لطلاب المدارس والمعاهد والجامعات بالتعاون مع الكبار ، أن يقوموا بردم البرك والمستنقعات فى قراهم ، أو توصيلها بمجارى مائية ، وتربية البط والأوز بها ، ورش المبيدات الحشرية (الجامكسان ، والـ . د . د ت) بالمنازل فى القرى والمدن ، وعرض الأفلام الصحية لتوعيتهم وتوضيح أعراض وعلاج الأمراض المتوطنة ، والقيام بتنظيف القرى وإنارتها ، وليس ذلك بعسير ، ففى تركيا يقوم طلبة وطالبات المعاهد الريفية Village Institutes برصف الطرق فى القرى ، وإصلاح القديم منها ، ومد أنابيب مياه الشرب النقية ، ومكافحة الأمراض المتوطنة ، وبناء المغاسل والحمامات الشعبية ، وتقديم التمثيليات الصحية والإرشادية على مسارح شعبية متنقلة ، وتفتح تلك المعاهد والساحات الشعبية أبوابها للمواطنين من مختلف الأعمار ، كمراكز إشعاع وإصلاح طوال السنة .

وللمدارس والمؤسسات والجامعات بالاشتراك الوثيق مع التنظيمات السياسية والنقابية ، دور هام فى مشكلة تخطيط وإجراء التحسينات على مسكن المواطن العادى ، فيمكن لطلبة أبحاث البناء ، وطلبة كلية الهندسة (عمارة) ، وكليات الزراعة ، أن يقوموا بأنفسهم ببناء نموذج مصغر لقرية قاموا بزيارتها فى عدة جولات ودرسوا عيوبها ، ثم يقوموا

ببناء نموذج آخر للقرية كما يجب أن تكون عليه . ويتفرع مشروعهم الى اختيار منزل مما رأوه ، تتمثل فيه جميع عيوب المنزل ، الذى يبنى بمجهودهم ، ويتدارسون كل العيوب الممثلة فيه ، ثم يقوموا أيضًا ببناء منزل آخر كما يجب أن يكون عليه المنزل ، وتتوافر فيه فى الوقت نفسه جميع الشروط الصحية ورخص الثمن ، مع استخدام نفس خامات البيئة المحلية ، وبعد ذلك يدعون المواطنين لبناء منزل مثله ، يختلف باختلاف الخامات المتوفرة فى كل بيئة محلية .

مبادئ فى التنمية البشرية (التخطيط)

وهناك عدة مبادئ فى التنمية على مستوى التعليم ، أجمعت الآراء على سلامتها وضرورتها والتزام مبادئها ، للسير فى العملية التعليمية على أساس علمى موضوعى سليم ، وهى تتلخص فيما يلى :

التعليم والخطة :

إن التخطيط للتعليم العالى جزء أساسى ضمن الإطار العام للتخطيط القومى الشامل لأى قطر من الأقطار ولأى قطاع من القطاعات . وبرامج التعليم العالى تخدم الميادين الاقتصادية والاجتماعية ، ويلزم توفير التوافق بين برامج التخطيط فى هذه الميادين الثلاثة ، وعلى ذلك فمن الضرورى تعاون رجال الاقتصاد ، وعلماء الاجتماع ، مع رجال التعليم

العالى ، فى رسم الخطط لمواجهة التطورات الاقتصادية والاجتماعية .
ومن المؤكد أن نظم التعليم الحالية فى بلادنا فى حاجة إلى تخطيط شامل لمواجهة هذه التطورات التى استحدثت بها فى السنوات الأخيرة .

إن المسئولين عن تخطيط التعليم العالى ، لا يستطيعون مواجهة التطورات الاقتصادية والاجتماعية ، ما لم يحاطوا علمًا بضع سنوات مقدمًا بالتنبؤات الاقتصادية والاجتماعية المقبلة والتعرف على ميادين الاستثمار وطبيعتها وحاجتها من القوى العاملة ومستويات الكفاية الفنية لكل منها فى القطاعات المختلفة ، حتى تستطيع الجامعات والمعاهد ومراكز التدريب المهنى تعديل برامجها ومناهجها وإعداد وتوجيه وتدريب القوى البشرية اللازمة لمواجهة هذه التطورات فى الوقت المناسب .

والحاجة ماسة إلى تقدير معدل الزيادة فى الدخل ، وفى عدد السكان والتركيب السكانى وفى الإنتاجية ، وفى العمالة ، حتى يتمشى النظام التعليمى مع الأسس المادية والبشرية القائمة ، ويستلزم ذلك أيضًا دراسة القوى العاملة اللازمة لمختلف القطاعات بالجمهورية فى السنوات العشرين القادمة .

التخطيط للهيكل الوظائفى :

نحن فى مسيس الحاجة إلى دراسة الهيكل الوظائفى للدولة أو ما يسمى بالسلم الوظائفى الذى يشمل الفئات الواردة فى ص ٢٦ . وبحيث تتضمن كل فئة مجموعة من الوظائف تعمل بمختلف قطاعات الإنتاج أو الخدمات وبحيث يشترط فى كل فئة مستوى تعليمى موحد أو متكافئ ، مع المرونة فى مواجهة التغيرات المنتظرة فى النمط الوظائفى ، مما يستلزم بحث السلم التعليمى بمختلف مراحله وأنواعه ، على أساس من تقريب الفوارق والمساواة والديمقراطية والمجانية الشاملة للخدمات التعليمية .

وتخطيط التعليم العالى يجب أن يشمل تثقيف وتدريب الطلاب وهيئات التدريس ، طبقًا للوسائل والاتجاهات الحديثة التى تتفق مع التطورات فى ميادين الاجتماع والاقتصاد .

كما أن سرعة التطورات الاقتصادية أدت إلى زيادة العناية بالتدريب المهنى المجرد ، والاهتمام بتنمية المهارات الفنية البحتة ، وذلك على حساب إغفال الثقافة العامة ونواحى التربية الأخرى فى إعداد المواطنين . . . والأمر يحتاج إلى ضرورة إيجاد توازن بين الناحيتين فى برامج ومناهج التعليم والتدريب فى التعليم العالى .

خطوات التخطيط للتنمية البشرية :

إن تخطيط التعليم العالى فى بلادنا يجب أن يقوم أولا على دراسة وافية للموقف الراهن بها ، وتحليل مصادر الثروة وإمكاناتها .

ويلى ذلك وضع تخطيط يتناسب مع طبيعة ظروف هذه البلاد . دون استيراد النظم التعليمية من الخارج ، وليس معنى ذلك أننا لسنا فى حاجة إلى الاستفادة من تجارب الأمم الأكثر تقدمًا ، وإلى المعونة الفنية والمادية لإمكان تنفيذ برامج التوسع فى التعليم بها .

ويحسن إيفاد بعثات علمية للدراسة والتمرن على عمليات التخطيط التعليمى Educational Programming ووضع البرامج التعليمية Educational Planning القريبة والبعيدة المدى خاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وإلى الاتحاد السوفييتى ، والتوسع فى التدريب بمعهد التخطيط القومى بالقاهرة ، وإنشاء مركز للتخطيط للتعليم العالى للدول العربية يتبع اتحاد الجامعات العربية .

ويستلزم التخطيط لأى مشروع عمليات الاستطلاع والإطلاع والبحث والتنقيب والمدارسة والمناقشة واستبيان رأى المختصين فى مختلف الميادين والرغبات المشروعة لأولياء الأمور . كما يستلزم التخطيط الزيارة

والمقابلة والاستفتاء والتجريب ، على أن تبدأ هذه العمليات من حيث انتهى السابقون فى دراساتهم لكل مشروع معين .

ومن الضرورى ترتيب مشروعات التخطيط طبقًا للأولوية والأهمية ، ومراعاة التوقيت فى التخطيط فهما من أهم الأسس التى يجب أن يعطى لهما الاعتبار الأكبر . . . فمثلا تخطيط هيئات التدريس ، يجب أن تكون له الأسبقية ، ثم يلى ذلك خطط ومناهج الدراسة ، ثم الوسائل التعليمية . . . وهكذا .

توقيت التخطيط التعليمى للتنمية البشرية :

يلزم تحديد هدف بعيد المدى – ٢٠ عامًا مثلا – ولو أن هذه الفترة الطويلة تتعرض لتغيرات فى أسعار المواد الأولية وتغيرات سياسية واجتماعية قد تؤثر فى تحديد هذا الهدف بعيد المدى ، غير أنه من شأن التخطيط طويل المدى أن يركز الاهتمام على الحقائق الاقتصادية والأساسية ، التى تحدث جميع التغيرات الأخرى فى إطارها وتبعًا لها ، هذا بالإضافة إلى أن التخطيط الاقتصادى البعيد المدى يسمح بتوجيه تخطيط التعليم العالى ، وإمكان تعديل برامجه وتركيباته وتكاليفه وإعداد المعلمين اللازمين ، وإعداد القوى العاملة اللازمة لمختلف الميادين فى الوقت المناسب بالتعليم أو التدريب .

كما يلزم تحديد مراحل متوسطة المدى ولتكن ٥ سنوات مثلا تسمح بالوصول إلى الهدف البعيد المدى على دفعات ، وهنا يحسن تخطيط التعليم للمستقبل على مستوى التخطيط العام للدولة ، مع مراعاة البرامج الإقليمية أو المحلية ، وأن يؤخذ فى الاعتبار فى خطة التعليم التطور الإقتصادى العام ، كما هو موضح فى الخطط الاقتصادية المرسومة المدى ، مع تحديد إجمالى الأموال اللازمة لتنفيذ مشروعات التعليم مع تميز المصروفات السنوية (فى المعدات والموظفين) والمصاريف الاستثمارية (فى المبانى التعليمية) ، ومن المفيد هنا استخدام طريقة المقاييس الثابتة (التكاليف للبناء الواحد ، أو للفصل الواحد ، أو للمدرج الواحد ، أو للورشة ، أو للطالب الواحد) وتعطينا هذه الاحتياجات الرقمية أساسًا أوليًا لمقارنة وربط خطة التعليم بالإمكانات الاقتصادية للدولة ، ولابد أن تضمن المراحل السنوية الربط بين الميزانيات السنوية والأموال التى تحددها خطة التعليم ، حتى يمكن تنفيذ الخطة عمليًا .

اقتصاديات التخطيط التعليمى :

إن التعليم العالى لم يعد خدمة اجتماعية ، ولكنه أحد ميادين الاستثمار ، يرفع من كفاية الفرد ، ويعاون على زيادة الإنتاج العام ، ومن أجل هذا يجب أن تزداد اعتماداته المالية بشتى الوسائل .

ويلعب تمويل الدولة للتعليم العالى دورًا أساسيًّا سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، غير أن هناك مصادر تمويلية أخرى يمكن الاعتماد عليها ، ومنها بصفة خاصة اشتراكات الأهالى فى مناطق معينة والشركات ، والتطوع بالعمل (فى بناء المدارس والمعاهد) والتبرعات ، وإمكان تحصيل المصروفات من الطلاب الموسرين ، وإمكان تسهيل منح القروض للسلطات المحلية ، وكذا نظام التوفير للتعليم ، ومشكلة تمويل التعليم العالى لا تنحصر فى زيادة الأموال التى تخصص للتعليم العالى فحسب ، بل إنها تضمن كذلك حسن استخدام هذه الأموال بأفضل درجة من الفاعلية والإنتاجية وتجنب الإسراف فى بعض الخدمات التعليمية ، ويتطلب ذلك إعادة النظر دائمًا فى طرق بناء الجامعات والمعاهد ، ومراكز التدريب المهنى ، والوسائل التعليمية والأثاث والتجهيزات بصفة خاصة . ومن الضرورى كذلك تخفيض الخسائر والفاقد خلال الدراسة إلى أقصى حدٍ ممكن من الاقتصاد .

ومن المطلوب تحديد التكلفة اللازمة لكل وحدة من وحدات الخدمات التعليمية فى التعليم وأنواعه ، على أساس تقديرات عملية .

ومن المعروف أن المبانى والأثاث ترهق ميزانية التعليم العالى ، وأنه يمكن تجنب بعض الإسراف فى هذه الميادين بمعونة الفنيين فى تبسيط المبانى والأثاث والتجهيزات بما يلائم البيئات المختلفة والمستوى الاجتماعى بها .

الديمقراطية :

يحسن الاعتراف بمبدأ هام ، وهو أن تبدأ عمليات التخطيط للتعليم العالى سواء ما كان منها يشمل الخطة الحاضرة ، أو يشمل التخطيط القريب المدى أو البعيد المدى - يحسن أن تبدأ من القاعدة ولا تقتصر فقط على تخطيط يصدر من القمة حتى يكون التخطيط واقعيًّا ميدانيًّا .

فإذا أريد التخطيط للتعليم العالى أن ينجح فى بلادنا ، يجب ألا تفرض الخطط من الجهات العليا ، بل تتخذ الوسائل الكفيلة إشراك القوى الشعبية وهيئات التدريس وأولياء الأمور ، والهيئات والجامعات ، ومجلس الشعب ، والأحزاب السياسية ، والمؤسسات فى رسم خطط التعليم العالى وفى وسائل تنفيذها ، ومن أجل هذا الغرض كان من الأفضل ألا يقتصر على مذكرة الاستمارات فى خطط التعليم ، بل تُهَيَّأ الوسائل للحصول على الاقتراحات والآراء من القطاعات المحلية من الفنيين والخبراء ، وذوى العلاقة وغيرهم فى المناطق النائية ووصولها إلى هيئات التخطيط المركزية ، وأن يتوفر تبادل وجهات النظر من أسفل إلى أعلى وبالعكس .

كما يحسن أن يكون المخطط التعليمى Educational Planner على صلة دائمة بالمنفذ التعليمى Educational Executioner وألا

يغفل المنفذ أنه مقوم ومتابع لها ، يقوم بعمله فى الميدان Follow up and Evaluation وألّا يفقد المخطط صلته بالميدان ، وأن يحذر المنفذ الذى يتابع العملية التعليمية التقارير الوردية عن العمل ، ولهذا ينصح بوجود تخطيط مركزى ، وتقويم مركزى إلى جانب التخطيط المحلى والتنفيذ المحلى والتقويم المحلى .

ويلزم التخطيط للتعليم فى مختلف مراحله وأنواعه : —

(ا) مقابلة مشكلات واحتياجات وتطلعات مجتمعنا ، أى ربط التعليم بعجلة الإنتاج القومى وخطط المستقبل (مشروعات السنوات الخمس . . .)

(ب) مقابلة مشكلات واهتمامات وميول وأنشطة وقدرات الطلاب ، أى الاهتمام بالإنسان الفرد والعمل المستقل .

(حـ) مقابلة مطالب التراث الثقافى والحضارى والقدر المناسب من المواطنة الصالحة المستمدة من تاريخنا وتقاليدنا وفى إطار المجتمع الاشتراكى الديمقراطى .

ومن الضرورى تعبئة مصادر القوى فى مجتمعنا ، وتوعية الشعب بالنسبة للقوى الاجتماعية التى تؤثر بفعالية فى مجتمعنا ، ومنها قوى الاشتراكية . الديمقراطية ، والتعاون ، والوحدة الوطنية ، والقومية العربية ، والقيم الروحية ، والروح الوطنية ، وتاريخ انتصاراتنا قديمًا

وحديثًا ، وقيمة الإنسان الفرد ، وأن قوة المجتمع فى قوة أفراده . . . إلخ . كل هذه القوى كفيلة – إذا أحسن استغلالها – بدفع مجتمعنا إلى آفاق وتطلعات أفضل ، ولا يمكن لقوة غير التعليم العالى أن تعبئ مصادر القوة فى المجتمع .

التفاعل بين التعليم والمجتمع :

هناك اتجاه دولى عام يدعو إلى التنبيه إلى الدور الذى يؤديه المجتمع للتعليم ، والدور الذى يؤديه التعليم العالى للمجتمع ، وهو الدور الذى يتم فى صورة تفاعل بين الجامعات والمعاهد من جهة ، وبين المجتمع من جهة أخرى .

فمن الحقائق المعترف بها أن التعليم يهيئ الظروف التى يتم فيها التحول الاجتماعى إلى حد كبير فلا يستطيع أحد أن ينكر أن امتداد خدمات التعليم إلى سائر الطبقات أدى دوره البارز فى إيقاظ هذه الطبقات ، لكى تسهم إسهامًا فعالا فى إدارة شئون بلادها الخاصة ، وتشترك فى توجيه مصير العالم المعاصر .

وليس هناك من ينكر أن الحملة الواسعة النطاق ضد الأمية ، وزيادة الالتحاق بالمدارس الثانوية والمهنية والفنية والمعاهد العليا ، وتدريب العمال والصناع المهرة الفنيين والعلميين ، تعتبر كلها عوامل

بارزة تساعد على الإسراع بخطوة التقدم فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة .

هذا دور التعليم الذى يؤديه للمجتمع . وهناك إلى جانب ذلك تفاعل المجتمع مع التعليم ، ونعنى به ما للتقدم الاجتماعى من تأثير يسيطر على مجرى الأحداث التربوية ، ولو أننا دققنا فى ميدان التربية والتعليم ، لهالتنا كثرة التغيير والإصلاحات التربوية التى هى فى الواقع ، امتداد لحلول وفقت إليها الإنسانية وهى تعالج مشكلات أعم وأشمل فى مداها من التربية والتعليم .

فالتربية الرياضية ، والكشافة والتربية العسكرية ، والجوالة وما إليها وجدت طريقها إلى المناهج معتمدة على « أن العقل السليم فى الجسم السليم » أول الأمر ، ولكنها ثبتت أقدامها بصورة أقوى ، واكتسبت أهمية بالغة يوم كانت أمم العالم تحاول أن تتغلب على مشكلة التجنيد والتعبئة والاستعداد للدفاع .

وإطالة مدة التعليم الإلزامى تولدت – لدى كثير من الدول – كنتيجة للتطور الاجتماعى والتقدم العلمى ، والخوف من البطالة وآثارها الاجتماعية الوبيلة ، والرغبة فى تنويع الفرص أمام الملزمين إذا خرجوا للحياة الاجتماعية ، أكثر مما تولدت عن الاعتبارات التربوية والنفسية الخالصة . وكذلك الأمر بالنسبة لمراكز التدريب المهنى .

ونمو مؤسسات ما قبل المدرسة ، يرجع إلى اضطرار كثير من الأمهات الى الغيبة عن منازلهن بحكم أعمالهن ، أكثر مما يرجع إلى نظريات علم النفس بشأن قيمه الانطباعات التى يتلقاها الطفل فى طفولته المبكرة . وهذا بالطبع يصدق على الدول الصناعية أكثر مما يصدق على غيرها .

اعتماد الحقائق التعليمية بعضها على بعض :

وهناك مبدأ آخر يسير جنبًا إلى جنب مع مبدأ تفاعل التعليم العالى مع الحياة ، ويلعب دوره فى الحركة التعليمية ونعنى به اعتماد الحقائق التعليمية بعضها على بعض .

ولتوضيح ذلك المبدأ ، نشبه ميدان التعليم العالى برقعة شطرنج ، فإذا تحركت قطعة من قطع الشطرنج ، تغيرت أوضاع القطع الأخرى ، واختلفت علاقاتها ، والشىء نفسه يحدث فى الخطة الحربية : فأى تقدم أو تقهقر لبعض فيالق الجيش ، يتطلب إعادة لتنظيم القطاعات المجاورة بسرعة لمواجهة الموقف الجديد .

والواقع أن الأحداث التعليمية توالت وما زالت تتوالى ، كأنما كان كل إصلاح يحمل فى ثناياه بذور التغيرات الأخرى سواء أكانت تعديلا فى النظم الإدارية ، أم فى هيئة التدريس ، أم فى البرامج والمناهج واللوائح .

فإذا كان هذا المبدأ سليمًا ، كان من المستحيل مثلا أن يتم التشريع في أمور تتعلق بالتعليم العالى ، دون الاهتمام بالتأثير الذى سوف يحدثه هذا التشريع الجديد على التعليم الفنى ، أو التعليم الابتدائى ، أو التعليم الثانوى ، بل وعلى القطاعات الاجتماعية والثقافية المختلفة . فالتعليم العالى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بما قبله من مراحل .

ويتجلى مبدأ اعتماد الحقائق التعليمية بعضها على بعض أكثر ما يتجلى فى الفترات التى يخضع فيها نظام التعليم لتعديلات شاملة ، ففى هذه الفترات يجب أن نولى هذا المبدأ عناية فائقة ، حتى نتلافى بعض الآثار السيئة البالغة الخطورة ، مثل الازدواج ، وانعدام التناسق فى داخل هيكل التعليم والهيكل الاجتماعى فى آن واحد . وهذا أمر يكلف تلافيه بعد ذلك الشىء الكثير من الوقت والمال والجهد .

التخطيط واشتراكية التعليم والثقافة :

اتجهت الجمهورية فى تطورها الحاضر إلى الأخذ بسياسة قوامها التنظيم الاجتماعى للمجتمع على أسس اشتراكية ديمقراطية تعاونية .

فالاشتراكية هى مشاركة جميع طبقات المجتمع فى خيرات ذلك المجتمع ، أى إعادة توزيع الثروة ، وتذويب الفوارق بين الطبقات ، وتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، والتوجيه الاقتصادى

والثقافى العام أو الحكومى ، لتحقيق مصلحة الحياة الآدمية ، والإحساس بالإنسانية والحرية والكرامة والشخصية .

أما الديمقراطية ، فهى حكم الشعب من الشعب وبالشعب وإلى الشعب ، أما التعاونية ، فهى تنسيق الجهود والأموال للاستثمار على أساس تعاونى ، قوامه المساواة بين المساهمين ، ومنع الوسطاء ، والشراء والاستثمار والتسويق بالجملة ، لترخيص الأثمان ، وتوزيع عائد الجمعيات التعاونية على قدر التعامل مع هذه الجمعيات ، وما التعاون إلا نظام اجتماعى واقتصادى وتعليمى فى وقت واحد .

وإذا طبقنا مفهوم الاشتراكية السابق على الثقافة والتعليم ، فمعنى هذا أنه يلزم مشاركة جميع طبقات المجتمع فى التراث الثقافى ، وإتاحة الفرص كاملة وعادلة لجميع طبقات المجتمع ، للالتحاق بالمدارس والمعاهد والكليات ، ومراكز التدريب ومختلف المؤسسات ، طالما توجد لديهم القدرات والمواهب والاستعدادات لمتابعة أنواع الدراسة المختلفة التى تتناول مناشط الحياة الإنسانية .

وإن أول مستلزمات الاشتراكية الثقافية ، هو تمكين جميع الشعب من القراءة والكتابة ، فليس مما يتمشى مع الاشتراكية والعدالة الاجتماعية ، أن يبقى ما يزيد على ٥٢٪ من الشعب أميون لا يعرفون الكتابة أو القراءة أو الحساب ، إذ إنهم بذلك يصبحون فى عزلة عن

التيار الثقافى والحضارى . وإذا جاز ذلك فى الماضى فإنه لا يجوز فى مجتمع ثورى أخذ بأسباب النهضة فى جميع مناشط الحياة . ومن جهة أخرى فإنه مما يخفف أثر مشكلة الأمية وانتشارها ، وجود أجهزة إعلامية على مستوى جماهيرى مثل الراديو والمسرح والتليفزيون والسينما وغيرها ، التى تقوم بجانب مهمتها الترفيهية بالنواحى التربوية والإرشاد القومى ، حتى تكون مهمتها التعليمية محققة للأهداف المرجوة سياسية واقتصادية واجتماعية ومتمشية مع خطط التنمية .

وعلى هذا الأساس يلزم شن حملة واسعة النطاق على المستويات المركزية والإقليمية لمحو الأمية فى مدة محدودة ، ولتكن عشر سنوات ويشترك فى هذه الحملة جميع الهيئات والأفراد المعنيين ، ابتداءً من رياسة الدولة والوزراء ، حتى أساتذة وطلبة الجامعات والكليات والمعاهد العليا ، والمثقفين والمعلمين والكتاب ، والمسرح والسينما والصحافة والإذاعة والتليفزيون والأراجوز ، وحركات الفتوة والتربية العسكرية والكشافة ، والجمعيات التعاونية والخيرية والمجالس فى المدن تستمد مادتها من حياة فئات وقطاعات مجتمعنا ، وبذلك لا يكون مشروع محو الأمية مقصورًا على تعليم القراءة والكتابة والحساب ، إنما يشمل التربية الاجتماعية والصحية والسياسة والقومية والروحية فهو برنامج تعليم وتوعية فى وقت واحد ، ويلزم بالضرورة تقويم كتب محو الأمية

والتربية الأساسية القائمة فعلا قبل عمل كتاب جديد ، والاحتفاظ بما يصلح منها ، كما يلزم متابعة من محيت أميتهم ، حتى لا يحدث ارتداد إلى الأمية ثانية .

أما الاشتراكية فى التعليم فقد خطت البلاد نحوها خطوات واسعة ، فقد كان الهدف فى عهد الاستعمار ، تخريج طبقة من الشعب ، لتكون صلة بين المحتل والشعب والاهتمام باللغات الأجنبية على حساب اللغة القومية ، والحد من التعليم للشعب ، ومع ذلك أخذ الوعى الوطنى فى الازدياد ، حتى صدر قرار عام ١٩٠٨ بأن يكون التعليم باللغة العربية — كما كان يوجد نظامان متناقضان فى السلم التعليمى المصرى ، هما نظام التعليم الإلزامى أو الأولى ، والآخر نظام التعليم الابتدائى . وقد كان التعليم الأولى يعطى لأبناء الطبقات العاملة وخصوصًا فى الريف ، وكان تعليمًا مجانيًا لأصحاب الجلاليب الزرقاء ، وكانت لا تعطى له العناية الكافية من حيث المعدات والتجهيزات ، فكان تعليمًا للأغلبية الساحقة الفقيرة المهضومة الحقوق ، أما نظام التعليم الابتدائى فقد كان بمصروفات ومقصورًا على قلة قادرة اقتصاديًا على سد نفقاته ، وكانت تعطى له العناية الكافية من هيئات التدريس والمعدات والتجهيزات والمهمات ، وبعبارة أخرى كان التعليم الإلزامى مقصورًا على الفقراء ، والتعليم الابتدائى مقصورًا على الأغنياء فكان أبناء أصحاب الجلاليب فى

مدرسة ، وأبناء أصحاب البدل والسترات فى مدرسة أخرى ، مما خلق ازدواجًا ثقافيًّا ، وزاد من الهوة الثقافية ، حتى جاء القرار لسنة ١٩٤٤ بشأن إلغاء المصروفات المدرسية بالمدارس الابتدائية مع تحصيل بعض الرسوم فكان خطوة فى الطريق الصحيح .

ثم صدر قانون سنة ١٩٤٧ بتعديل مناهج التعليم الابتدائى ، بحيث أصبحت متقاربة مع التعليم الأولى .

ثم تم إلغاء جميع أنواع التعليم الأولى ، وإقرار التعليم الابتدائى بصفته التعليم الوحيد فى المرحلة الأولى ، وجعل مدة الدراسة ست سنوات بموجب القانون رقم ٢٤٣ لسنة ١٩٥١ .

ثم جاء القانون رقم ٢١٠ عام ١٩٥٣ والقانون رقم ٢١٣ عام ١٩٥٦ ، فأدمج المرحلتين فى مرحلة واحدة ، وأصبحت المدرسة الابتدائية الجديدة مدرسة الشعب بكل فئاته بحيث يجلس الفقير بجانب الغنى ، كما ألغيت المصروفات من المدرسة الابتدائية ، وأعطى جميع الخريجين شهادة واحدة تجيز لهم القبول بالمدارس الإعدادية العامة بامتحان مسابقة فيه تكافؤ للفرص ، وبحيث تختار فيه أفضل العناصر استعدادًا لمتابعة الدراسة بهذه المرحلة دون النظر إلى جنس أو لون أو دين أو مستوى اقتصادى واجتماعى ، وبذلك تمت خطوة ثورية نحو المساواة بين أفراد الشعب .

وفى عام ١٩٣٩ حدث تطور هام وهو إنشاء ١١ منطقة تعليمية ، وكان المفروض أن يكون ذلك هو أساس الاتجاه نحو اللامركزية ، ولكن ما حدث هو أن قسمت البيروقراطية الواحدة التى كانت موجودة فى وزارة التربية والتعليم إلى ١١ بيروقراطية مع احتفاظ الوزارة بالسلطة فى يدها إلا أنه بقوة الاندفاع الثورى استقلت المناطق التعليمية استقلالا ذاتيًا فى كثير من أمورها بحيث أشرفت إشرافًا كاملا على بعض المراحل التعليمية مع هيئات التدريس والتعيينات والترقيات . . . إلخ . كما اتسع عدد هذه المناطق التعليمية بحيث أصبح عددها الآن ٢٦ منطقة وأصبح مدير المنطقة التعليمية وزيرًا فى منطقته ، كما أصبح بعض مديرى المناطق التعليمية بالمحافظات بدرجة وكلاء وزارة وأعطيت لهم سلطات واسعة عن ذى قبل ، وتعتبر تلك التجربة التى مضى عليها ثلث قرن تجربة فريدة فى نوعها ، من حيث تطبيق اللامركزية فى التعليم التى سبقت غيرها من أنواع الخدمات الأخرى على مستوى المناطق .

وحدث تطور هام آخر نحو العدالة الاجتماعية ، وهو إلغاء المصروفات فى المرحلة الثانوية ، إذ تمت مجانية التعليم الثانوى بقانون صدر عام ١٩٥٠ إذ كان من غير المعقول أن يصبح التعليم الابتدائى مرحلة مجانية ويمنع أبناء الطبقات الفقيرة من مواصلة التعليم الثانوى ، وبالتالى الجامعى ، لوجود مصروفات بها ، وبذلك أمكن لجماهير غفيرة من أبناء

الطبقات العاملة للالتحاق بالتعليم الثانوى دون خوف من عائق مادى .

ثم حدث التطور الطبيعى بعد ذلك وهو إلغاء المصروفات من التعليم الجامعى والعالى ، فصدر قرار جمهورى فى يولية سنة ١٩٦٢ وبذلك أصبح التعليم مجانيًّا من أول السلم التعليمى إلى نهايته ، ومعنى كل هذه الخطوات مجتمعة هو أن الفرصة متاحة لكل فرد – دون نظر إلى إمكاناته الاقتصادية – أن يواصل التعليم فى شتى مراحله إذا كان قادرًا فيمكنه أن يصل إلى نهاية التعليم الجامعى ، وبالتالى يتولى المراكز القيادية فى الدولة ، ومعنى هذا أن أبناء الطبقات الفقيرة الذين كانوا يلتحقون بالنظام الأولى والإلزامى ، يمكنهم أن يصلوا إلى قمة السلم التعليمى ، حسب قدراتهم العقلية ، واستعداداتهم ، ويسهمون إسهامًا فعالا فى قيادة البلاد والنهوض بها ، وتطبيق نفس المبدأ على بعثاتنا التعليمية فى الخارج .

أما الاشتراكية الثقافية فى بلادنا ، فقد ظهر الاتجاه نحوها من تنفيذ خطوات جذرية قامت بها الثورة فى هذا القطاع الهام من حياتنا ، فازدادت الجرائد والمجلات ، وأدخل التليفزيون عام ١٩٦٠ ، وانتشر الراديو حتى أصبح راديو الجيب فى أيدى كثير من أفراد الفئات العاملة ، كما انتشرت بصورة جماهيرية واضحة المؤتمرات والندوات – واجتماعات لجان الاتحاد الاشتراكى ، وتم إنشاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون

والآداب والعلوم الاجتماعية ، وأصبحت البلاد فى نهضة مسرحية وسينمائية هائلة ، تتمثل فى ازدياد دور العرض السينمائى ، وإنشاء فرق مسرحية جديدة ، وفرق للفنون الشعبية ، وظهور مسرح الجيب ومسرح البالون ومسرح الفنون الشعبية . . . إلخ . ويدل كل ذلك على الاهتمام بالشئون الثقافية التى أنشئت لها وزارات خاصة سميت بوزارات الثقافة والإرشاد القومى فى عام ١٩٦٥ ، واتسع الاهتمام بالقطاع الثقافى ، ونجاح القطاع الثقافى يُعْزى إلى أسس من التخطيط والتنسيق للوصول إلى الأهداف المرسومة . والعناية ظاهرة بالمكتبات العامة وإعداد أمناء لها ، والأندية الثقافية ، والساحات الشعبية ، والمتاحف ، والمسارح ودور العرض السينمائى ، وقصور الثقافة ، وقد زاد الاهتمام برعاية الشباب ومعسكرات العمل والترفيه الشتوية والصيفية ، لدرجة أنه قد أنشئ المجلس الأعلى للرياضة الذى يهتم بجانب الرعاية الرياضية بالرعاية الثقافية والاجتماعية .

ومن أهم الاتجاهات التى تدل على اشتراكية الثقافة ، بناء بيوت وقصور الثقافة التى تعتبر من أهم المجالات لشغل أوقات الفراغ ، وتنمية المواهب والاهتمام بالهوايات ، فيما بعد ساعات الدراسة للصغار وساعات العمل للكبار ، وتعتبر قصور الثقافة وبيوتها أفضل المجالات لخلق الوعى الثقافى ، وجذب أفراد الشعب صغارًا وكبارًا إلى هوايات مفيدة مرتبطة

بالحياة ، كما أنها تساعد على تنمية القدرات والمهارات المختلفة من رياضية فنية وعلمية وتربوية . ويشمل قصر الثقافة عادة حدائق وملاعب ومكتبة وصالة للمحاضرات العامة والعرض السينمائى ، والتدريس للرسم والنحت والموسيقَى والرقص الشعبى والباليه ، ومتحف بيولوجى وجيولوجى ، وغرف لهواية تربية الحيوانات والنباتات ، وللتصوير والأوركسترا والأرصاد . ويمكن فى بيوت وقصور الثقافة التى تبنى الآن بكل محافظة القيام بأوجه نشاطات عديدة ، منها عرض الأفلام التسجيلية والروائية المختارة ، والاحتفال بالأعياد الوطنية والقومية ، وتعليم الموسيقَى ، ودعوة عظماء الرجال ، ومقابلة الشعب لهم ، وإقامة المعسكرات التعليمية والترويحية وعمل حلقات لدراسة وتركيب وفك وإصلاح أجهزة الراديو والتليفزيون ، وعقد المحاضرات والأحاديث والندوات وحلقات المناقشة والبحث ، وإنشاء فرق للتمثيل والمسرح والأراجوز والماريونيت « مسرح العرائس » ، وممارسة هواية بناء نماذج صغيرة للسفن والطائرات والقطارات والسيارات والعربات ، وتعمل فرق لتقديم الرقصات الوطنية والشعبية والبالية والرقصات الأجنبية ، وغرفة للرسم بالرصاص والفحم والزيت ، والفرق الرياضية بمختلف أنواعها ، وحلقات دراسة البيئة ، وهواة الجيلوجيا ، وحلقة تعلم التصوير الفوتوغرافى ، وحلقة أعمال النجارة والحدادة ، وحلقة تعلم

قيادة السيارات والجرارات . . . إلخ . وبمعنى آخر فإن قصور الثقافة تعتبر مجتمعات ثقافية تعد الأفراد - المترددين عليها فكريًّا وجسميًّا واجتماعيًّا وخلقيًّا وجماليًّا ، وتكشف القدرات الخاصة لكل فرد وتنميتها ، كما تعتبر مكانًا للتوجيه الفكرى والسياسى والقومى ، والتعرف على المبادئ الاشتراكية الديمراطية والتعاونية والإيمان بها .

تعريف التخطيط التعليمى :

ولنذكر دائمًا أن التخطيط التعليمى الشامل لقطاع التعليم العالى ، عبارة عن عملية منظمة ومستمرة تتضمن تطبيق طرق البحث الاجتماعى وتنسيقها ومبادئ وطرق التربية والإدارة الاقتصادية والمالية مع مشاركة ومساندة من الجمهور فى مجالات النشاطات الخاصة والحكومية ، وغايته أن يحصل الطلاب على تعليم كاف فى مرحلة التعليم العالى ذى أهداف واضحة محددة ، لأنه يمكن كل فرد من الحصول على فرصة ينمى بها قدراته ، وأن يسهم إسهامًا فعالا بكل ما يستطيع فى تقدم البلاد من النواحى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

وبذلك نصل إلى التنمية البشرية بجميع جوانبها للإسهام فى الارتفاع بالمستويات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع .

الفهرس

الصفحه

مقدمة ٥

التخطيط التعليمى ٧

تحليل الموقف الحاضر ١٥

متطلبات التخطيط التعليمى ١٩

الإحصاء التعليمى ٣٩

المبانى المدرسية ٤٤

المناهج والكتب والوسائل التعليمية ٤٩

إعداد المعلمين وتدريبهم ٥٥

أساسيات التنمية البشرية ٦٢

مبادئ فى التنمية البشرية (التخطيط) ٧٨

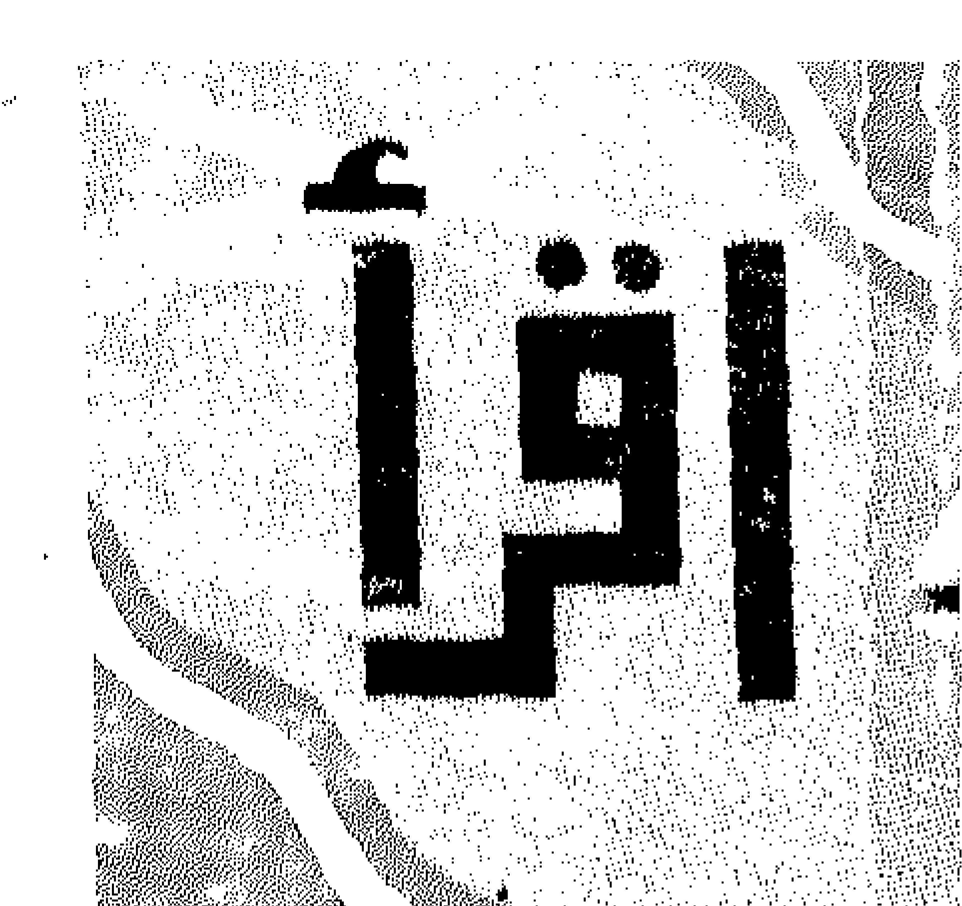
رقم الإيداع	١٩٨٣/٥٠٠٢
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٦٣٨-٥

١/٨٢/٢٨٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

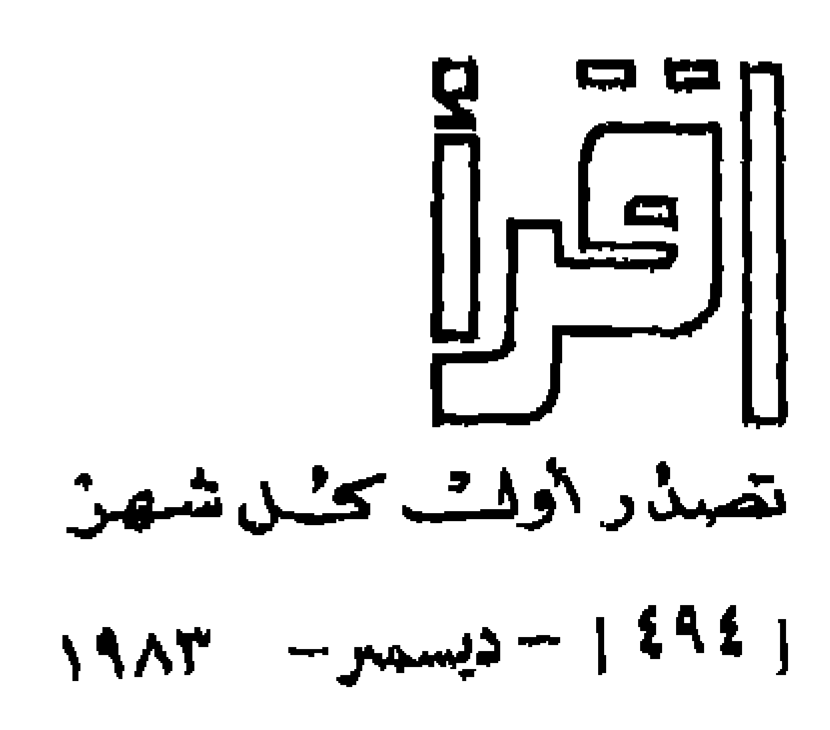
ص
٣٠





دكتور عبد العزيز جادو

قوانا الكامنة وكيف نستغلها



تصدر أول كل شهر

494 – ديسمبر – 1983

رئيس التحرير أنيس منصور

د. عبد العزيز جادو

قوانا الكامنة وكيف نستغلها



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الفصل الأول

كيف أوفق إلى العمل المناسب ؟

« ليس أشقى من رجل تأصلت فيه عادة التردد .. يجعل كل عمل يبدأه موضعًا للتردد ، ويقضى نصف وقته فى اتخاذ القرارات ، والتحسر على مافات » .

« وليم جيمس »

« اجعل قاعدتك دائمًا فى الحياة ألاّ تأسف على شىء أبدًا .. ولا تنظر إلى الوراء .. فالأسف تبديد مروع للطاقة لايصلح للبناء فوقه بل الغوص به .. » .

« .... »

« ليست العظمة فى ألاّ تسقط أبدًا ، بل فى أن تسقط ثم تنهض من جديد »

« كونفو شيوس »

من الأمور التى تبعث على التعجب والاستغراب ، ذلك العدد الكبير من الرسائل التى ترد إلىّ ، يسألنى فيها أصحابها هذا السؤال الذى جعلت منه عنوانا لهذا الفصل من الكتاب .

ومن المشاهد أن بعض العاملين يبدون سخطهم وتبرمهم من الأعمال التى يزاولونها ، ويخيل إلى الفرد منهم – رجلاً كان أو امرأة – أنه بلغ غاية الكمال ، ووصل إلى أعلى درجة من العلم والثقافة ، ومن ثم سيكون سعيدًا إلى أقصى حدود السعادة إذا التحق بعمل آخر غير عمله الحالى الذى يشغله .. أما ماذا يمكن أن يكون هذا العمل الآخر ، فهذه هى المشكلة ! ....

إن أمثال هؤلاء الناس الذين يستنفدون طاقة تفكيرهم فى هذه الأمور ، يستيقظون فى الصباح وهم فى حالة من الوجل من اليوم الذى سيكتى عليهم ، وتتجدد المرارة والوجل مع صبح كل يوم جديد ، فتصبح الحياة بالنسبة لهم رتيبة مملة تسير على وتيرة واحدة وتمضى متأنية على نسقواحد ، فسرعان ماينساقون مع التيار على غير هدى ، ويستسلمون إلى التفكير المذل ، ويغوصون عميقًا فى حمأة مضنية .. « آه لو أمكننى أن أوفق فى التوصل إلى أسلوب العمل الذى يناسبنى .. كم أكون سعيدًا حين ذاك ! ... » .

وما ينفكون يبحثون عن دليل للحِرَف عند كل من يعلل النفس

بالفرج . ولكن الفرج لا يحقق أملاً ولا يشفى غلة . وإن شخصًا متمكنًا من نفسه وعلى قدر كبير من الحذق والفطنة ، قد يستطيع أن يمدهم بفكرة فيما يتعلق بما يليقون له أو بما يناسبهم .. ويسدى إليهم النصح بما يفيدهم فى حياتهم ، ولكن غالبًا مايكون هؤلاء الناس سلبيين إلى أقصى حدود السلبية فى تأثرهم بهذا المرشد أو الدليل . ويمر العام بعد العام ولايزالون فى نفس الورطة .

وثمة نسبة معينة من هؤلاء الناس لهم همة وغيرة ، وفيهم جد واجتهاد . وإنهم ليرغبون رغبة أكيدة فى البحث عن معين فإذا مااستوثقوا من صحة الشىء ، وأيقنوا من أنه قائم فى وضعه الصحيح ، ومن أنه ثابت على أساس سليم ، بذلوا جهدًا كبيرًا لعمل التغييرات اللازمة

وثمة طراز آخر تكونت لديه عادات الكسل والخمول ، وعنده رغبة فاترة لإصلاح حاله وتحسين نفسه ، ولكن هذه العادات المضعفة لاتسمح له بذلك ، فهى دائمًا تجعله يؤجل إلى الغد مايمكن عمله اليوم .

والطراز الكسول ينشد باستمرار وعلى الدوام الطريق السهل الذى يغيره بقدرة قادر من حال إلى حال دون أن يبذل أى مجهود . ويود هؤلاء الناس لو كان فى إمكانهم أن يذهبوا إلى منوم مغنطيسى ليوحى

إليهم ببعض إيحاءات تجعلهم ينصرفون من لدنه وقد تغيروا تمامًا . ولكن هيهات أن تحدث مثل هذه المعجزة .

جاءنى ذات يوم شخص من هذا الطراز الأخير لمساعدته . جاء والرجاء يحدوه والأمل يملؤه . وبعد أن أيقظت فيه روح الهمة ، وملأته حماسة وحمية ، ونبهت رغباته ، وعدنى بأن يخرج من عندى ليقيم الدنيا ويقعدها ، ولكنه للأسف لم يفعل شيئًا ألبتة . وحين لقيته بعد ذلك سألته عما إذا كان قد التحق بعمل أحسن من الذى كان يزاوله ؟ .. فأجابنى بأن شيئًا ما كان يتدخل فى شئون حياته ، وما كان هذا الشيء فى الواقع إلا مجرد عذر يتذرع به ليساعد وجدانه ويسعف ضميره . فلقد كانت عاداته راسخة عميقة الجذور ، لأنه أضاف إلى عادة الكسل والخمول عادة الخجل والحياء . وإنى شخصيًا أشعر بأسف عميق لهذا الشخص ، وسأعمل جهدى لتغيير وجهة نظره .

لقد علمتنى تجاربى الكثيرة أن المتاعب كلها فى مثل هذه الحالات ، إنما تكمن فى ذوات الأشخاص . وهى تنشأ عن الافتقار إلى فهم وإدراك وإيمان ، مما يجلب الشك والارتياب إلى عقولهم . و« الشك » هو الذى يقيم أمامهم سدًا منيعًا لايستطيعون اجتيازه .

وهؤلاء الناس لايستطيعون أبدًا أن يبنوا قوى عقلهم أو فكرهم أو حكمهم أو تخيلهم أو إيمانهم بالقدر الضرورى الذى يمكنهم من القيام

بأعمال أو أشياء لها قيمتها فى الحياة . إنهم يقعون فريسة لأحلام اليقظة وشرود الذهن .. إنهم مجرد مفكرين ، لا عاملين ..

الحياة حركة :

ولا يزال ثمة طراز آخر لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يحصل على النجاح ، يتمثل فى ذلك الشخص الذى يخاف الإفراط فى العمل ، من أن يؤذى نفسه ويضر بصحته . وهذا الخوف ليس له مبرر إطلاقًا ، فهو شىء مخالف للعقل ، وإنى أرى أن الناس إنما يدركهم التعب من عمل صغير جدًا أكثر مما ينتابهم من عمل كبير جدًا .

والعقل الناشط يجب أن يشتغل ويعمل بطريقة فعالة ، وأن يكون فى عمله بناءً إنشائيًا ، وإلا فسيغدو سلبيًا ، من صفاته التخريب والتدمير . والرجل الذى يخاف من الإفراط فى العمل ، إنما تكون عادة السلبية التى من شأنها أن تغدو شيئًا فشيئًا من المنغصات التى تزيد فى مضايقته .

أذكر أن الحياة حركة :

ونحن لا يمكن أن نتوقف عن الحركة أو نظل فى حالة سكون . إن عقولنا وجميع الوظائف المختلفة التى فينا ، إنما تؤدى عملها باستمرار

وبدون انقطاع . وإذا أنت أخفقت فى توجيهها بطريقة إنشائية بناءة ، فلابد من أن يجرفك التيار إلى حال غير طبيعية ستجد فيها الكثير من المتاعب ، ويتحقق هذا على الخصوص عند الشخص الذى تميل طبيعته إلى سرعة التأثر والانفعال والحساسية .

وأرجو أن تذكر أنى لا أحاول هنا أن أثبط همتك ، أو أوهن من عزيمتك فى محاولة البحث عن الجو الذى يلائمك ، وعن طبيعة العمل المناسب لك . ذلك لأننا جميعًا ليست لدينا الميول ونفس المواهب ، فهى تختلف من شخص لآخر ، فالميكانيكى الذى يشتغل بالآلات لاتطوع له نفسه الاشتغال بالفن أو الأدب ، كما أن الفنان ذا الذوق الفنى لايناسبه الاشتغال بالأعمال الميكانيكية . ولكنك حين تصفو سريرتك وتطيب نفسك ، وتسمو روحك ، ستغدو فى مركز يتيح لك أن توجه حياتك كما تشاء .

والذين أحرزوا نجاحًا فى حياتهم ، هم الذين استطاعوا أن يتعاملوا مع ذلك « العملاق الذى يكمن فى أطوائهم » أى عقولهم الباطنة . فعقلك الباطن أقدر من أى شىء آخر على توجيهك . وإذا كان هناك من يستطيع أن يساعدك فى التوصل إلى العقل الباطن ، وأن تكون على علم ودراية به ، فستغدو خير حكم لما هو خير لك .

افهم نفسك :

وثمة لايزال طراز آخر ، هو الشخص الذى ينتابه الوهن والفتور والضعف بسرعة . وهناك أيضًا آلاف ممن يخفقون إخفاقًا ذريعًا فى إحدى الوظائف ، وينجحون نجاحًا باهرًا فى وظيفة أخرى . وقد يضطرك الأمر أن تحاول عدة أشياء قبل أن تقتنع تمامًا بأن نوعًا معينًا من العمل هو الذى تحبه وترتاح إليه ، وأنه هو العمل الوحيد الذى يحتمل أن تنجح فيه

ولكن قد يقول قائل : « إننى لم أحب أبدًا أى عمل حاولت أن أزاوله . ولقد جربت فى ذلك كثيرًا من الحرف والأعمال المختلفة » . والجواب على هذا هو أنك لم تفهم بعد نفسك . وأنك لست على صلة بذلك « الشخص الداخلى » ، ولذلك فقد أخفقت فى أن تجعل العمل يتمشى مع الاتجاه العقلى السليم .

إننى أعرف أناسًا عديدين بعد أن وجدوا أنفسهم ، أحبوا العمل الذى كانوا من قبل يكرهونه ولايميلون إليه .... ومصدر القلق والاضطراب عند معظم الشباب ، أن ليس بوسعهم أن يتخيروا مايشاءون ، ولكنهم مضطرون لقبول أول وظيفة تصادفهم ، فيشغلونها لقاء أجر بسيط يتقاضونه مقابل العمل الجاد الذى يقومون بأدائه .

إن أول شيء يجب أن يضعه الفرد موضع الاعتبار هو اهتمامه بمواهبه الطبيعية التي يمتلكها والتي يدخل في نطاقها : التعليم ، والتمرين ، وحقوق الاختيار ، والقدرة .

ومن المحقق أن الفرد يجيد العمل الذي يحبه . وإذا كان هذا العمل ثابتًا ومدعمًا بما يشعر الفرد بأنه هو التعليم الكافي أو الوافي بالغرض ، والكفاية ، والصلاحية الطبيعية ، فعلى صاحبه أن يباشره بكل طاقته واهتماماته ، ورغبته الممكنة ، التي يستطيع التسلط عليها والتحكم في قيادتها وتوجيهها .

وإذا أراد الفرد أن يحقق نجاحًا يتعين عليه ألاّ يرضى بأنصاف الحلول ، ولا أن يقبل الوقوف في منتصف الطريق ، فالأشخاص الذين ارتفعوا إلى أعلى قمم النفوذ والشهرة وحسن الصيت هم في الغالب أولئك الذين نجحوا في أي مهنة أو حرفة من الحرف الكثيرة ، أو الذين كانت توجههم إلى مجريات معينة من النشاط : مصادفة صغيرة ، أو مميزات خاصة ، أو انطباعات البيئة التي نشئوا فيها .

ولقد سمعنا أن هناك بحيرة يتفرع منها نهران يعرف كل منهما منبعه . أحدهما يصب غربًا وتصل مياهه في النهاية إلى المحيط الهادي ، في حين يتدفق الآخر شرقًا وتأخذ مياهه طريقها في خليج المكسيك إلى المحيط

الأطلسى . وليس عند منبعها إلاّ نتوء فى الأرض صغير هو الذى قرر مصير كل منهما ....

وهناك عند أحد طرف البركة التى تكونت فى فوهة بركان أكوتان بجزر الألوشيان تطفو جبال الجليد ، وعند الطرف الآخر تصل حرارة الماء إلى درجة الغليان . وفيما بين الطرفين يسبح الطير رائحًا غاديًا وهو سعيد بدفء الماء ..

فإذا أبحرت سفينة نحو الشرق ، وأقلعت أخرى تجاه الغرب فى نفس الوقت الذى تهب فيه عليها ريح واحدة ، فإن مجموعة القلاع وكيفية ترتيبها ، ونظامها ، وكيفية المسير وليست الأنواء أو الريح الهوجاء — هى التى تقرر المصير فى الطريق الذى تسيران فيه .

كذلك إذا لم يكن يعرف الإنسان بمنتهى الدقة ماذا يلائمه ويصلح له ، أو ما يكون مناسبًا أو صالحًا له ، فلن تجديه محاولته تجربة الأشياء فتيلا .

فالشخص الذى يتخذ الحرف أو الصناعات تجارب تتلو الواحدة الأخرى فهو بكل تأكيد لا يحب شيئًا . وهذا ناشئ ، كما أعتقد عن الحقيقة التى تؤكد أنه مجرد « مجرب » كالمريض الذى يجرب طبيبًا بعد آخر فينتهى به الأمر إلى اليأس من الشفاء .

كوة لكل إنسان :

والإنسان – سواء أكان شابًّا أم فتاة – حين يسعى فى الحصول على مايتخيره من العمل ، يتحتم عليه أن يصغى جيدًا لصوت حوافز وجوده العميقة ، ومثيرات كيانه . ويعمل بالمثل الذى يقول : « عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة » ، فهو صحيح . ولذلك فالعمل الحالى يجب أن يتم إنجازه ليطابق غرضًا عامًّا شاملاً ويساعده . وإذا تحمس شاب واهتم بالسعى الدائب ليعرف طريقه فإنه حتمًا سيجده . وكم فى العالم من أناس يفقدون وظائفهم لا لأنهم لايعرفونها ، ولكن لأنهم لايسعون لمعرفتها ، ولأنهم لايستمعون إلى حوافز نفوسهم الهادئة ومثيرات ذواتهم اللاشعورية .

فهناك كوة لكل إنسان يملؤها ، وعمل يمكن لكل فرد أن يؤديه على خير ما يكون الأداء . وليس يكفى أن يحتفظ كل واحد بعمله ، أو أن يكون لكل فرد عمل يشغله ، أو وظيفة يقوم بأدائها ، وإنما يجب أن يقوم بالعمل الذى يتناسب مع مقدراته ، ويكون جديرًا بكفاءته ، حتى لايمكن أن يقوم بإنجازه أى شخص آخر سواه على الوجه الأكمل .

فلا تسبح مع التيار على غير هدى .. لاتجعله يجرفك حيث يشاء .. ولاتظل ساكنًا أبدًا .. فالحياة حركة . ومن الأفضل لك أن تتقدم إلى

الأمام مرتكبًا الأخطاء ، من أن تظل ساكنًا جامدًا عديم الحركة .

واعلم أن الذين يحسنون استغلال مميزاتهم ، ويسعون بكل نشاط وهمة إلى تحويل كل قواهم إلى تعبير أعظم وأرحب ، هم الجديرون حقًّا بالمراكز العالية . وهم الذين لهم الصفات التى تؤهلهم لبلوغ المنزلة الرفيعة ، والمكانة اللائقة بهم فى الحياة .

وثمة أناس يحسبون أن ليس من الضرورى أن يهتموا بالناحية التجارية أو المالية فى دنياهم ، فتراهم ينهمكون فى أمر أنفسهم ، وفى شئونهم الخاصة ، وينسون كل شىء ماعدا ذلك . وهذا عين الجهل والغباء . فالطبقة أو الهيئة الاجتماعية التى نعيش فيها ، إنما يقوم نظامها على خطوط متباينة ، والذى يركن إلى الحظ ويعول على سخاء الذين من حوله ممن تربطه بهم صلات شرعية لايلبث أن يزول عنه بكل أسف الوهم الذى كان يتوهمه ، ويتبدد الأمل الكاذب الذى كان يأمله .

طالب بما تعتقد اعتقادا راسخا أنه من حقك . فالناس لايقدرون قيمة الأشياء الرخيصة مهما كان قدرها من الجودة أو الندرة أو الاتقان ، إنك إذا أديت عملاً إلى أحد الناس وتقاضيت عنه نصف ماتستحقه من أجر ، متنازلاً عن النصف الآخر فسيخامره الشك فى أنك بذلت مجهودًا لا يذكر فى هذا العمل وسيظن أنك لم توفه حقه من العناية والاهتمام .

ولاتخش شيئًا من المطالبة بكل ماترى أنك تستحقه لقاء عمل قمت

بأدائه ، فإنى أعرف طبيبى أسنان بدآ ممارسة عملهما فى آن واحد بعد أن تخرجا معًا . وكان كلاهما أهلا لهذه المهنة ، وكانا ماهرين متمكنين من عملهما .

ولقد مرّ عشرون عامًا طوالاً منذ بدأ الاثنان يمارسان المهنة ولايزال أحدهما يحصل على أتعاب بسيطة من عمله المتقن حتى أنه اعترف لى ذات مرة بأن ليست عنده الجرأة لطلب أجر أكبر ، فى حين أن الآخر قد وصل إلى قمة الشهرة فى مهنته ، وغدا محبوبًا من مرضاه وأصبح موسرًا وافر الغنى :

والاختلاف أو التفاوت هنا ليس فى الصنعة أو فى المهارة الفنية أو العملية ، وإنما هو بكل بساطة فى الفرق بين أسلوب عقليتهما . أحدهما تنقصنة الجرأة والثقة بالنفس ، أما الآخر فأمكنه أن يحدد لنفسه أجرًا عاليًا بعض الشىء يتناسب مع الشهرة التى نالها طوال الأعوام السابقة .

وأنت إذا تعهدت أو تكفلت بشىء ، أو أخذت على عاتقك عمل شىء يجب أن تقدر لهذا الشىء قيمته المالية . فلا ترخص قدرك فى عين نفسك أو فى عين الآخرين بخوفك من طلب أمور معينة تعتقد أنك تستأهلها بحق . والدرجة أو المنزلة التى تستحقها إنما تتوقف إلى حد كبير على مقدار الثقة التى تنالها ، والكيفية التى تنجز بها عملك .

فإذا افترضنا أنك وفقت فى الالتحاق بعمل أو وظيفة كوسيلة

للعيش ، ومطلب من مطالب الحياة . فليس أقل من أن تعتبر هذا العمل هو الشيء الوحيد الذى يتعين عليك أن تنتظم فيه مؤقتًا . فتدرس جيدًا تفصيلات هذا العمل المعروض عليك ، وتغوص فى أعماقه . وتسبر غوره ، وتبحث فيه عن « ذاتك الباطنة » . لأن خير المعلومات وأفضلها هى التى يمكن أن تلهمك إياها ذاتك اللاشعورية . وعندما تقتنع تمامًا من كفاءتك وصلاحيتك ضع نفسك فى العمل بكليتك ، وتفرغ له تمامًا ، وصمم على أنك حتمًا ستنجح .

سبب الإخفاق :

إن التردد والتذبذب وتقلب الرأى وعدم الثبات على أمر من الأمور ، والطيش ، وعدم الاستقرار ، من العوامل التى تؤدى حتمًا إلى الإخفاق والخيبة والخسران ، فإذا أنت اعترفت مرة واحدة – حتى ولو بينك وبين نفسك - بأنك ارتكبت خطأً أو وقعت فى زلل ، فإنك بذلك تكون قد بذرت فى نفسك جرثومة الشك والخوف وتثبيط الهمة . فبدلا من أن تنظر إلى الهفوات الصغيرة أو بعض الهنات على أنها مجموعة أخطاء فادحة ، اشعر نفسك بأنها واحدة من أقل الأخطاء التى يرتكبها الناس . وليس فى الناس من هو معصوم من الخطأ .

والهزيمة إنما تأتى فى الغالب من الإغراق فى تصور الأشياء بأكثر مما

تستحق ، والتهويل فى الأمر بكثير من المبالغة . ومع ذلك فالكفاح العنيد ، والنضال المكافح ، مع الإيمان العميق ، سيسمح لك بأن تنمو قويًا متينًا خلال هذه التجارب ....

وسيتيح لك بناء أعمال عظيمة ، وإقامة مشروعات عجيبة على أنقاض هذه الهزيمة المؤقتة .

إن المئات من الناس – رجالاً ونساء – ممن قاموا بأعمال مجيدة قد أخفقوا عشرات المرات قبل أن ينجزوا ذلك العمل الفذ الذى جنوا ثماره ، وذاقوا قطافه . وليس منا من لم ير مثل هذه الحالات بنفسه .

وإنى إذا سئلت عن الصفة الوحيدة التى أعيرها أكثر الأهمية فى اختيار عمل العمر ، وفى سلوك عمل الخير فى الحياة فإنى أجيب بأنها : « الثقة » لا شىء سواها .

فعلينا إذن أن نثق بأنفسنا كل الثقة ، وألا ندع أية عقبة مهما بدت أمام ناظرينا كبيرة ، أن تقف فى سبيلنا فتبعدنا عن القصد ، وتنأى بنا عن الهدف .

الفصل الثانى

ذلك الشعور بالتعب

« عندما أحس بالتعب ، أو بتوتر فى الأعصاب ، نهاية يوم من الأيام ، أعلم يقينا أن مجهود ذلك اليوم كان عقيمًا من ناحية « الكم » وناحية « الكيف » على السواء » .

« دانيل جوسلين »

« إن الجانب الأكبر من التعب الذى نحسّه ناشئ عن أصل ذهنى ، بل الحقيقة أن التعب الناشئ عن أصل جسمانى لهو غاية فى الندرة » .

« دكتور هادفيلد »

ذلك الشعور بالتعب ! .. وخاصة فى مثل هذا الوقت من الزمن .. زمن الإنتاج ! ....

هل تشعر بالتعب حين تصحو من نومك فى الصباح ؟ ...

هل تشعر بالتعب الشديد فى أثناء تأدية عملك اليومى ؟ ...

وحين تلهو مع أطفالك فى المساء ؟ ...

وحين تقدر مباهج الحياة حق قدرها ؟ .

وحين يفتر ثغرك بابتسامة لجميع أصدقائك ومعارفك ؟

هل أنت فى غاية التعب من التعبير عن شخصيتك بشيء من البهجة والانبساط فى بيتك ، وفى مكتبك وفى الطريق ؟ ...

وفى غاية التعب من ترتيب نفسك وإعدادها فى أثناء لحظات فراغك من أجل تحسين مركزك ، حتى يمكنك أن تحصل فى يوم ما على مزيد من الراحة ، وعلى كثير من متع الحياة ومسراتها ؟ ...

كن صريحًا مع نفسك ! .. حلل نفسك .. إذا صح أنك تشعر عادة بالتعب الشديد من تأدية هذه الأعمال اليومية التى تسرّ إليك نفسك الطيبة بضرورة أدائها ، فلا تخف من أن تفشيها أو تذيع سرها .

إن كل إنسان تقريبًا عنده ذلك الشعور « بالتعب الشديد » فى أكثر الأوقات . والشيء الوحيد الذى يخجلك حقًّا أن تبوح أو تجهر به هو

إخفاقك فى إيجاد السبب ، ووضع يدك على موطن العلة ، واستعمال العلاج السريع الفعّال ...

والتعب بمعناه الواسع ، هو حالة عقلية .. إنه حال من الضجر أكثر من أن يكون إجهادًا عقليًا أو بدنيًا . والشخص السوى - سواء أكان رجلاً أم امرأة - يمكنه أن يعمل فى الغالب بغير حدود ، حين يكون هذا العمل مصدر لذة شخصية للقائم به !

الكراهية العقلية :

ذلك الشعور بالتعب فى الصباح ، إن هو إلاّ كراهة أو نفور عقلى للعودة من جديد إلى العمل الروتينى ؛ هل تشعر حين تنهض من نومك لتذهب إلى عملك بنفس الشعور . حين تصحو لقضاء نزهة خلوية فى أطراف المدينة مع جمع من الأحباب ؟ .. إن الفرق فى ذلك لابد كبير ! ....

ذلك الشعور بالتعب فى العمل يزول حتمًا ويمحى أثره . بمجرد سماعك أن رئيسك قد انتابته نوبة كرم ومروءة مفاجئة كان من نتيجتها أن أمر على أثرها بمنحك نصف يوم إجازة .

أو إذا كان العمل الذى أمضيت عدة سنوات تعمل فيه مع رجال كبار فى السن ، تغيرت الأحوال فيه فجأة بتعيين مجموعة من الموظفين

الجدد من الشبان الصغار والفتيات الصغيرات ممن تخرجوا حديثا ، فكم يكون الفرق في مقدار العمل الذى يمكنك القيام بتأديته دون أن تشعر بأى تعب ؟

إن ذلك الشعور بالتعب إذا كان فى المنزل ، سرعان مايتبدد حين يظهر لك فى الأفق مشروع نزهة خلوية ، مع مجموعة من الصحاب يأتون إليك فيطلبون منك أن تريهم مسكنك الجديد . ثم تدخل معهم فى مباراة فى الشطرنج أو النرد أو أى شىء آخر من الأشياء الكثيرة التى تتطلب منك بذل مجهود كبير . فإذا كنت تحب أن تقوم بهذه الأشياء ، فستشعر بلذة شخصية ، وسيغدو الإجهاد وكأنه أحد المقويات التى تناسب مزاجك .

طاقة لاتنضب :

وفى تسعين فى المائة من الحالات سيثير دهشتك مقدار الطاقة البدنية والعقلية التى يمكن أن تستنفدها بعد أن تكون قد وصلت – فى الظاهر – إلى نقطة القطع[1] ، إذا كان هذا الذى شرعت فى عمله فى حينه سيهيئ لك المتعة لتأديته ، أو يشعرك بالارتياح والسرور لإنجازه .

والشخص الذى يناله التعب الشديد من القيام بتأدية بعض أعمال

(١) نقطة القطع : اصطلاح طبى .

بسيطة صغيرة فى بيته بعد الانتهاء من عمل يوم شاق ، يمكنه أن يقضى وقتًا فى السباحة أو فى لعبة الجولف ، أو ممارسة أى نوع من أنواع الرياضة البدنية الأخرى التى تتطلب بذل طاقة أو مجهود أكبر بكثير من الأعمال التى قام بتأديتها من قبل . ومع ذلك فلن يكون لذلك من أثر إلا الابتهاج والسرور لما يظهره من براعة ومقدرة ، ولما يبديه من ذكاء واستعداد .

حتى الكادحون الذين يذهبون إلى بيوتهم وهم فى حال من الإعياء والتعب الشديد ، يمكنهم مع ذلك أن يجدوا لديهم طاقة لِلَّعب بعنف لدرجة « الشقلبة » مع أولادهم ، أكثر من الطاقة التى استنفدوها فى عمل يدوى لمدة سبع ساعات ، ويشعرون بعد ذلك بصفاء وراحة .

والمرأة التى تشعر بتعب شديد فى تأدية عملها المنزلى ، وينالها الإرهاق من واجباتها التى لامفرّ منها ، يمكنها أن تمضى مساء يومها هذا فى الزيارات ، أو الذهاب لمشاهدة رواية سينمائية ، أو مسرحية ، وتشعر بعد ذلك وكأنها خلقت من جديد .

والطالب الذى يناله الإعياء والتعب الشديد من السير إلى محل عمل والده ، يمكنه أن يزاول لعبته المفضلة بمزاج معتدل – ويذهب إلى البيت مصابًا بالتواء فى الرسغ ، ورضّ فى عظم الكعب ، وكدمات فى الأنف – ومع ذلك تجده وقد ردت إليه الروح ، وقام بنشاط عجيب

لمجرد سماع صوت زميلته فى الجامعة وهى تحدثه بالتليفون تطلب منه قضاء بعض الوقت لمراجعة إحدى المحاضرات معًا .

فهل رأيت شخصًا أدركه التعب الشديد من القيام بعمل ترتاح إليه نفسه ، أو يكون له فى نفسه متعة ولذة ؟ .. إن هذا ليس فيه إجهاد للبدن ، وإنما هو مجرد « تعب شديد » .

خذ مثلاً لنفسك من نفسك درسًا للأشياء المنظورة . فأنت لن تتوانى لحظة واحدة عن عمل أى شىء تحب بالحق أن تؤديه ، وتريد بالفعل أن تنجزه ، مهما كنت تعبًا أو مكدودًا ، أو لمجرد أنك تشعر بالتعب والإعياء . إن هذا بكل تأكيد لم يحدث لك قط فى الماضى ، ولن يحدث فى أى وقت فى مستقبل حياتك .. أنعم النظر فى هذا جيدًا ! .. وطبق هذه القاعدة على نفسك . وطبقها كصورة تحليلية مع أصدقائك ومعارفك .

إن عقلك الباطن يقوم فيك بدور مزدوج ؛ فهو يقوم بعمل المعجل[1] وعمل كمّاحة الطارئ[2] فى وقت معًا .

فبينما يكون الجسم مشغولا بتمثيل الفاعلية وإنجاز الأنشطة التى لا يمكن الفرد أن يتوقعها ، أو أن يجد أية متعة فيها لنفسه ، فحينئذ يعمل

---

(١) المعجِّل : دواسة البنزين .

(٢) الكمّاحة : الفرملة .

العقل الباطن كفرملة ، ويجهد الجسم نفسه حتى يخور إعياءً فى الكفاح ليحقق تقدمًا ، ولكن الفرامل « مربوطة » بثبات .

وعندما يتغير نوع الفاعلية أو النشاط إلى حال يجد فيها الفرد شيئًا من المتعة ، أو عندما يتغير الاتجاه العقلى للفرد نحو نوع مضجر أو مزعج من النشاط ، فعندئذ يحل العقل الباطن « الفرامل » أوتوماتيكيا ويدوس على المعجل .. وحين يحدث هذا نرى كأمر من أمور التجربة العادية أنه بقدر مانستغله من الطاقة ، بقدر ما تمدنا الطبيعة فى الظاهر من قوة شديدة لاستعمالها .

ابحث عن السبب العقلى :

فإذا شعرت بتعب شديد من تأدية عمل خاص ، فابحث عن السبب العقلى .. وانظر لماذا لايكون هناك لذة أو متعة تستشعر بها عند إنجاز أو إتمام نوع النشاط الذى تؤديه ؟ ولماذا يضايقك ؟

أجب عن هذه الأسئلة ثم اشرع فورًا فى إيجاد طريق يكون مناسبًا لهذا النوع من النشاط الخاص الذى يمكن أن تجد فيه شيئًا أو بعض شىء من السرور والبهجة .

نبه إهتمامك .. واستفز رغبتك .. وأوجد منبعًا للغبطة والبهجة والسرور فى النشاط .. وارغب رغبة أكيدة فى عمله ، عندئذ ستجد

أنك تملك طاقة كافية لإنجاز كل واجباتك اليومية ، وستظل مليئًا بالحياة والحيوية صباحًا وظهرًا ومساءً فى العمل وفى البيت وفى نشاطك الاجتماعى .

والنشاط هو العملية الحيوية الوحيدة المعروفة لدى الطبيعة بأنها : « الباعث على الحياة » ، لأننا فى الوقت الذى نكون فيه قابعين فى أحد المقاعد ، أو مستلقين على أريكة ، يمكن أن نهيئ تخفيفًا لطيفًا ، وإراحة حلوة لشخص مثقل ضجرًا بنشاطه .

وتكون النتيجة توترًا فى الأعصاب وجسمًا خاليًا من الجهد ، ليس فيه من حول ولا قوة . وكثيرًا ما يسمى الناس هذه الحالة خطأً بـ « الراحة » ، وما هى براحة ولكنهم لايعرفون .

والنوم وظيفة طبيعية وضرورية لجعل الجسم قادرًا على تجديد بناء خلاياه البالية ، وأنسجته التالفة المستهلكة .. أما الهمة والعافية ، وأما القوة والقدرة ، وأما الطاقة ، فهى تأتى جميعًا عن طريق النشاط فحسب .

وهناك وجهة نظر تقول إن كل الراحة التى نحتاج إليها ، إنما هى فى الحقيقة : النوم العميق الهادئ فى الليل .

وثمة وجهة نظر أخرى تقول : إن الراحة التامة التى تلزمنا ، والتى نفتقر إليها إنما هي : التغيير فى النشاط ، أو هى التغيير فى الاتجاه العقلى

نحو النشاط الذى نرتبط به أو الذى نباشره .

يقول الدكتور إدوارد ثورندايك الأستاذ بجامعة كولومبيا : « إن السبب الأصيل فى نقص إنتاج المرء ، هو إحساسه بالسأم من العمل الذى يزاوله » . فحيث تكون اللذة فى العمل ، يكون النشاط ، وتكون القدرة على بذل الجهد .

فالسرّ إذن فى امتلاك طاقة غزيرة وافرة ، وقوة قديرة مقتدرة لاحد لها ، هو : الرغبة فى العمل ، أو الشعور بالرضا واللذة فى تأدية الواجبات ، أو الإقبال بارتياح على جميع الأعمال التى يطلب إلينا القيام بها ، وأداؤها بنفس راضية مرضية ، وروح طيبة ، ومحيا تبدو على قسماته البهجة ، والبشر ، والإشراق .

الفصل الثالث

قيمة التأمل

« ابن آدم اذكرنى بعد الفجر ، وبعد العصر ساعة .. أكفك ما بينهما » .

« حديث قدسي »

« مازلت أشرب ولا أروى ، فلما عرفت الله رويت من غير شرب » .

« أرسطو »

« فى وسعى أن أفهم رجلاً يصوب نظره إلى الأرض ثم يكون ملحدًا .. بيد أننى لا أستطيع أن أتصور كيف يرفع نظره إلى السماء ثم ينكر وجود الله ! » .

« لنكولن »

« خلال لحظة صمت : إما أن تسمع حفيف شجر ، أو زقزقة عصافير ، أو صوت الضمير » .

« ...... »

إننا – حسب الدراسات النفسية اليوم – وارثون شرعيون لكل شيء .. لكل ما يمكن أن يكون ضروريًّا لنا .. ويقتضى الأمر تبعًا لذلك أن نحصل بكل حرية على كل مانحتاج إلى استعماله .. نأخذه على أنه أمر عادى وطبيعى .. ولم يك إلاّ نحن أنفسنا الذين فى حاجة إلى من يدفعنا ويستفزنا إلى ذلك .

وعلى ذلك فمن المعتقد أن أكثر الخير ، إنما يأتى من خلوتنا والانفراد بأنفسنا فى هدوء ساعة أو بعض ساعة من حين إلى آخر . نوجه فيها الذهن لمعرفة بواطن النفس ومكنوناتها . ومعرفة خفايا الأشياء التى تحيط بنا . فهذا التأمل يكسبنا معرفة واضحة من حيث طبيعة هذه الأشياء وعملها وتأثيرها ..

وأعتقد أن هذا لايحتم علينا أن ننغمس فى هذه الحال ونعكف عليها أكثر من مرتين فى اليوم ، مرة فى الصباح وأخرى فى المساء .

وفى هذه اللحظات الهادئة يتعين عليك أن تتصور بفكرك ، أو بوساطة الكلمة المنطوقة ، التغييرات التى ترغب فى إحداثها . أو تتخيل الوصف التصويرى للشخص الذى ترغب فى أن تكونه . ولكى تتم هذه الإيحاءات على خير وجه يستحسن أن ترقد فى وضع مريح هادئ ، وتستمع إلى ذلك « الصوت الداخلى » .. صوت الحكمة . ويأتى هذا فى الغالب مما يسميه البعض « البديهة » أو المشاهدة العقلية . فإذا أتى هذا

التأثير ، أو الانفعال الذى تتلقاه متفقا مع « العقل » ، فمن الخير لك أن تطيعه وتتبعه بكل دقة .

تخيل نفسك كما لو كنت وسيطًا ترسل بوساطته الطاقة العالمية .. وافتح الأبواب على آخرها لهذه الطاقة ، وستجد نفسك عند استيقاظك أكثر قوة وأكثر نشاطًا . وستشعر بزيادة فى عافيتك ، وسترى أن عزمك وقصدك قد ازداد إيمانًا وإيجابية ، وستواجه الحياة باتجاه أكثر مرحًا وأكثر بهجة .

ومن الأفضل أن تخلو إلى نفسك فى أوقات معينة . وأنسب الأوقات التى يمكن أن تتخيرها هى فى الصباح الباكر قبل مغادرتك الفراش ، وفى المساء قبل أن تغمض عينيك لتنام . وحاول أن تشعر بتلك الكلمات التى تتفوه بها . رددها بطريقة مؤثرة على قدر ما تستطيع .

وبما أن اللاشعورية لا تملك أية قوة استدلالية أو تفكيرية ، لذا فادخل فورًا بما يستحق الاعتبار فى تحديد التغييرات الضرورية بالتفصيل وبكل إيضاح .

والعقل اللاشعورى بؤرة العادة ، وفى إمكانه أن يعبر عن نفسه ببعض العادات السيئة .

الضعف ناشئ عن العادة :

إن أكثر مافيك من صفات الضعف والعجز ناشئ عن بعض عاداتك ، ولذا فمن الأهمية بمكان خلق عادة جديدة للتفكير وللعمل مع هذه الذات اللاشعورية .

والعادات إنما تتكون عن طريق التكرار . ومن هنا تأتى الضرورة القصوى لكى تكون أمينًا ومخلصًا فى تأدية إيحاءاتك . واللاشعورية معتادة جدًّا على الألفة والائتلاف ، وعلى الاتزان والانسجام . فإذا أنت خلقت إيقاعًا جديدًا واهتزازات جديدة ، فستحصل على النجاح .

وإذا أنت عقدت أواصر الصلة والمودة مع وعيك الباطن وإدراكك اللاشعورى الذى يطلق عليه علماء النفس « اللاشعورية » فستجنى فائدة عظيمة ما كانت لتخطر على بالك فى جميع الأحوال . فكل شىء سبق أن قرأته ، أو رأيته ، أو سمعته ، أو شعرت به ، مخزون فى هذا الطور من العقل .

ومعنى هذا أنه عن طريق صلة المودة والألفة مع هذا الطور من العقل ، ستجد أمامك موسوعة كبيرة عن حياتك ، يمكنك أن تستمد منها ماتشاء من المعلومات كلما احتجت إلى ذلك . ولذا فمن اليسير على

العقل اللاشعورى أن يجمع لك وثائق معينة ، وشواهد خاصة ، فى صورة تجربة ماضية ، ويمدك بها بطريقة معينة .

وثمة خدمة جليلة يمكن أن يؤديها لك عقلك اللاشعوري ، هي : مادة الممارسة والفهم . وهذه يمكن بدورها أن تكون المستشار الأمين والناصح الهادى الحكيم .

وباتباع هذه الخطة على الوجه الأكمل ستحصل دائمًا على نتائج طيبة ، مثمرة ، عظيمة الأهمية .

وإذا تعلمت كيفية استعمال قواك اللاشعورية بطريقة منتظمة ، ستجد لذة ومتعة فى حصولك على ماترغب بسهولة وبلا عناء .

واحترم « الصمت » لكى يرفعك ويرقيك ويشرفك ويعلى قدرك . فالذين يشكون الفقر والعوز ، ويتحسرون على إخفاقهم الذريع فى الحياة ، ويندبون سوء حالهم وخيبة آمالهم ، هم الذين لم يوفقوا فى توثيق هذه الصلة الروحية – صلة العبد بربه ، والتوجه إليه بقلب سليم . فمن هذه الصلة تنبثق كل معانى الخير والفضل والكمال فى الحياة .

والسبيل إلى القوة والمنعة إنما يكون دائما عن طريق هذه الصلة الروحية التى يعززها هدوء النفس وسكينتها ، وصفاء الروح .

ويتحتم على المرء أيضًا أن يكون على صلة وثيقة بمركز فرديته لتعزيز شخصيته ، كما ينبغى له فى الأوقات التى يرتفع فيها دوي العجلات

وسيور الآلات اللامنظورة ، أن يكون بمثابة « الدينامو » . وأن يغرق فى صخب الحياة الموضوعية وضوضائها إذا أراد أن يعرف طاقات الكون الهائلة التى تخفى على الرجل العادى .

وإذا استطاع هذا الإنسان ذاته أن يرتب نفسه حسب فعل القوى الخفية ، اللامنظورة ، فإنه سيغدو ولا شك « محركًا ديناميكيًا » ذا قوة هائلة جبارة .

والصلاة ، التى هى جزء من العبادة فى جميع الأديان ، إن هى إلا صلة العبد بخالقه ، وهى إحدى الوسائل التى يتوسل بها للتقرب إليه تعالى .

والصلاة معناها الدعاء بحسب أصل استعمالها اللغوى . والدعاء وسيلة من وسائل التقرب إلى الله كذلك . وقد جاء فى الحديث الشريف : « الدعاء هو العبادة ».

فإذا صفت نفوسنا ، وسمت أوراحنا ، كنا أقرب إليه من حبل الوريد . (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان) فهو أكرم مسئول ، وأكرم على عباده من أن يعلق استجابته على شرط إلاّ بمجرد الإيمان به وبرحمته ، وبذلك يقول القرآن الكريم : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) .

ولكن هناك الكثيرون ممن يباشرون هذه الصلة بطريقة مخطئة

فتبعدهم عن القصد ، وتنأى بهم عما يبتغون من فضله ورضوانه .

إن أذل الذل ، وأهم الهم ، وأظلم الظلمة ، ابتعاد العبد عن ربه ، وأعز العز ، وأنور النور ، وأقوى القوة ، قرب العبد من ربه . وفى وسط أعاصير الحياة التى تتلاعب بقمم الجبال وتخلع القلوب بهولها لايكون إلا الله .

وإنها لطريقة واحدة للدعاء المستجاب ، وللصلاة المقبولة التى نعدها منبعًا للقوة والجاه . وعن طريقها يمكنك أن تصل إلى قمة المجد ، وتبلغ ماتصبو إليه نفسك من الرفاهية . هى المداومة على العبادة بغير انقطاع ابتغاء مرضاة الله . فالعبادة كنز سعادة قلب المرء . وفى هذا المعنى يقول العالم النفسانى وليم جيمس : « إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم . فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه – سبحانه وتعالى – تحققت كل أمنياتنا وآمالنا » .

والطريقة المثلى التى ترفع قدر الإنسان هى أن يتجه إلى الله تعالى بقلب صاف سليم ، وفؤاد منيب ، عابدًا إياه كأنه يراه .. وأن يكون صوته بين المخافتة والجهر ..

(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا)

(سورة الإسراء)

وأن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ، ويصدق رجاءه فيه .. « ادعو

وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل » (حديث شريف) وأن يلح فى الدعاء ...

« إنى أحب عبدى اللحوح » (حديث قدسى) وأن يكون فى كل الأحوال متضرعًا ، خاشعًا ، تتملكه الرغبة والرهبة .

(ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين) (سورة الأنبياء) .

(واذكر ربك فى نفسك تضرعًا وخيفةً) (سورة الأعراف) .

وما أروع قول الدكتور « الكسيس كاريل » الحائز على جائزة نوبل فى كتابه : (الإنسان .. ذلك المجهول) :

« لعل الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا . إن الصلاة كمعدن (الراديوم) مصدر للإشعاع ، ومولد ذاتى للنشاط .. وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود ، حين يخاطبون (القوة) التى تهيمن على الكون ، ويسألونها ضارعين أن تمنحهم قبسًا منها يستعينون به على معاناة الحياة . بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن تجد أحدًا ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج » .

الطلب والالتماس :

والطلب الذى يأتى منك إلى أحد الناس على هيئة التماس ، أو يقدم بصيغة رجاء ، إنما هو دليل الضعف والاستكانة . فالقائد لايلتمس ولكنه يأمر . والرجل القوى الذى يحس بقوته ، ويشعر بكيانه يقول : « هذا سيتم عمله » ، وهو إذا قال فعل ، أما الرجل الضعيف الذى يحس بضعفه فيقول : « آمل أن أنجح ، وألا يصيبنى الإخفاق فى عملى » .

والرجل القوى لايزهو بنفسه ، ولايتباهى ، ولا يتشامخ بأنفه ، ولا يمشى فى الأرض مرحًا كما لو كان يقول : « يا أرض اشتدى ماعليكى قدى » .. إنه يرعب وقد يلقى الروع فى قلوب الآخرين ، ولكن بطريقة هادئة مهذبة ، ليس فيها خدش للحياء أو عنف ، أو قسوة ، أو جفاء .

والخلق القوى هو الخلق الهادئ ، الحازم ، الرزين ، الذى يعمل صاحبه بهدوء واتزان ، دون جلبة أو ضوضاء . يتصدى للطوارئ والنوائب بحزم ، وصبر ، وأناة ، ويقابل الصعاب بالتبصر ، والتدبر ، والحيطة والحذر ، والنظر فى العواقب .

طرق ومسالك :

إن الأزقة التى تتفرع من الشارع الطويل عندما يجوس الفرد خلالها ويسير فى دروبها الملتوية ، تكون الخبرات والتجارب ضرورية كلها ، حتى وإن كانت فى بعض الأحيان ضارة ومؤذية ، إلاّ أنها تقوده فى النهاية إلى الطريق الرئيسى . ولقد تجولنا جميعًا فى مثل هذه الأزقة غير آسفين على التجارب التى قادتنا إليها ، فلقد تعلمنا منها الكثير ورأينا أن هناك من لايزال متباطئًا فى سيره متريثًا . وهو بذلك يبدد الكثير من وقته ولكنه مع ذلك متحقق تمامًا من عودته ، ومن نصره الحاسم فى نهاية المطاف أو فى آخر « المشوار » .

وهناك من لا يخرج من وعثاء الطريق إلا بقدر ما يخرج الخابط فى ليل ليتعثر مرة أخرى فى الظلام الدامس .

وهناك من ينظر إلى مثل الأزقة كأنما هى محفوفة بالأخطار ، بعكس ما كنا نراها . وهؤلاء لايستحقون مدحًا أو ثناءً حين يقولون : « الخير كل الخير أن نلازم الطريق الرئيسى إذا أمكننا أن نفعل ذلك ، فيستريح بالنا » . أما الذين سلكوا كثيرًا فى هذه الأزقة بخبراتهم المختلفة ، وتجاربهم المتباينة ، فقد يكونون أحسن استعدادًا لملء مكان كبير فى الحياة .

وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم المثل العامى : « اللى يعيش ياما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكتر » .

كان والدى – حسب العادة التى اعتادها فى تبصيرى حين كنت طفلاً صغيرًا – ينهانى عن اللعب مع أولاد بعينهم يطلق عليهم « أولاد الشارع » . ولكنى مع مرور الزمن أتيحت لى فرصة لاحظت فيها تنشئة هؤلاء الأولاد بالذات ، ومدى تطورهم فوجدت أكثرهم نشأ مستقيمًا ، قويمًا ، ذا شهرة واسعة ، وسمعة طيبة ، ولاقى نجاحًا وتفوقًا عن طريق الثقة التى كونتها فيه تلك التجارب .

وليس من شك فى أن هناك بعض الأزقة التى يجب أن نتحاشى السير فى مجاهلها ، لأنها قد تكون محفوفة بالأخطار ، وقد تقود إلى « مطبات » مروعة ، أو منحدرات وحفر مخيفة وقد تعترض طريقنا أودية ضيقة ووهاد مظلمة . وقد يكون أسوأ ما فيها تلك العلامات القليلة التى تحذر الشخص من الخطر .

وعندما نقترب فى رحلتنا من الوصول إلى الوجهة المقصودة تتعدد الأهداف شأنها كشأن الأنهار العظيمة حين تنقسم فى بعض الأحيان قرب المصب لتكون الدلتات [1] .. وكل من هذه الدلتات يقود – عن طريق قناة أو « قناية » طويلة أو قصيرة – إلى نفس النهاية .

---

(١) الدلتات : جمع دلتا .

والطريق المختصر أو « التخريمة » هو الطريق المفضل عن غيره فى جميع الأحوال . ومع ذلك فليس لنا أن نستخف بالطرق الطويلة أو نستهين بها . حتى ولو جدّ فى طلبها أو فى البحث عنها فى كثير من الأحيان مسافر أشعث أغبر أضناه التعب من كثرة التجوال .

وثمة طرق كثيرة تقود إلى نفس الغرض ، وهى إنما تعتمد على نوع العقل فيما يتعلق بأى الطرق يمكن أن يتخيرها الفرد . والتوصل إلى معرفة هذا يجعل الشخص أكثر تسامحًا وأكثر صبرًا ، وذا أناة واحتمال .

فإذا كان لنا غرض بعينه نريد التوصل إليه ، فلا يتأتى ذلك – كما أعتقد – عن طريق التأمل وإمعان الفكر فحسب ، وإنما بوساطة فعل يعبر عن دوافع مخبوءة فى أعماق طبيعتنا ، وهذه يمكن أن تكون طموحًا للتفوق والبراعة فى الموسيقى أو البحث أو الأدب أو القانون ، ويمكن أن تكون مشاركة فى صفات أعلى ، معلنة عن نفسها لتبدو كرغبة جادة للتعريف بحقيقة كبيرة جاءت لتعزز البشرية ، وتشرف الإنسانية ، وتعلى قدرها .

وإذا نظرنا أمامنا وجدنا كثيرًا من العقبات تعترض طريقنا . فالبيئة المتشائمة التى تشيع الحزن وتبعث على الاكتئاب ، تحيرنا فى أمرنا وتعرقل سعينا ، وتشوش على عقولنا . فإذا اضطررنا مكرهين للاستمرار والمثابرة على « طحن » العمل غير المتجانس ، فإنما لكى نعول أنفسنا وأولئك

الذين يعتمدون علينا ، فكيف يمكننا أن نحقق نجاحًا مع وجود كل هذا فى طريقنا ؟ كيف نحقق نجاحًا إذا كانت سماوات آمالنا تبدو قاتمة كئيبة ، ورؤيتنا المنطقية المعقولة لاترى إلاّ بصيصًا من نور؟ ...

وإذا كان العمل على غرس الرغبة المضطرمة - كما قلنا - هو بمثابة وعد بنيل مكافأة مناسبة ، وتعهد بتقديم ترضية مجزية ، فكيف يكون هذا ؟

معاهدة مع الأنا [1] :

فى مثل هذه الحالة نرى أن العمل الرئيسى الأول الذى يتعين علينا القيام بتنفيذه هو الوصول إلى تفاهم واتفاق ودّى مع الأنا . على أن نلقى بكل ما فى طبيعتنا من طاقة على الجهد ، وعلى أن نضع إيماننا تحت إشرافنا . وبمعنى آخر ندخل فى اتفاق مع أنفسنا لعرض كل جهد نبذله لنحصل به على الجائزة التى نستحقها ، ونحقق « مادة الشىء المرجوّ » .

وإذا كنا لم نستطع أن نرى الطريق ، أو نميز معالمه ، فلأن هنالك أمرًا ينبغى لنا أن نفعله ، هو أن نكف عن الإسهاب فيما نبتغيه من نجاح قبل أن نحققه ، أى نعمل بالحديث الشريف « استعينوا على قضاء حوائجكم

---

(١) الأنا : أو الذات - الفرد من حيث هو شاعر بهويته الثابتة المتصلة ، وبصلته بالبيئة الخارجية . ويستعمل الأنا عندما يقابل بينه وماسواه ، أى الغير .

بالكتمان » . ونؤكد تجديد إيماننا فى كل يوم ، وفى كل وقت كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، بكل ثقة ، وبكل اعتزاز . ولابد سيأتى بعد ذلك الوقت المناسب الذى يتكشف لنا فيه الطريق شيئا فشيئًا ، وتتبين لنا معالمه ، وتتسع أمامنا آفاقه ، وسنجد أنه يقود رأسًا وبلا وساطة – من خلال البيئة الحالية المعادية – إلى غايتنا التى نقصدها .

وليس منّ حقنا أن نرجو أو نؤمل . أن تنزل علينا الملائكة بمائدة من السماء عليها ماتشتهيه أنفسنا من طعام وشراب . وليس لنا أن ننتظر أن تأتينا طير من السماء وفى مناقيرها خبز يفى بحاجاتنا ، ويزودنا باحتياجاتنا التى يمكننا نحن أنفسنا أن نوفيها ، إن كنا مخلصين . فنحن يجب علينا أن نعمل جادين مجدين ، متحمسين ، كلما وجدنا تحت أيدينا مانؤديه .

إن أولئك الذين يتصفون بالإيمان والصدق علاوة على اهتمامهم بتأدية الواجبات الصغيرة التى ائتمنوا عليها وعهد إليهم بها ، فى حينها ، وكأحسن مايكون الأداء ، هم الذين سادوا وسيطروا وملكوا ناصية الأمور .

والفرد من هؤلاء إذا تم له هذا ، تنتابه رعشة أو شعور بشبه رعشة فى إمكانها تلقف اهتزازات نافعة تجعله عضوًا بارزًا ، ذا ذكاء خارق ، ومقدرات مختلفة وقوى عقلية ممتازة ، تتيح له أن يضع يده على كل مايراه مناسبًا له ، وتجعله قادرًا على أن يستعمل لمنفعته كل ما يلائمه .

أما إذا لم يتمكن الفرد من التوصل إلى هذه الدرجة ، فإنه لن يستطيع أن يستمرئ غذاءه اللازم ، أو يستوعب قوته الضرورى من البيئات التى تكتنفه ، أو مما يحيط به من منابت .

إن كل مانحتاج إليه قريب منا ، وتحت متناول أيدينا ، ولكنه لن يكون ذا نفع أو فائدة مادمنا غير موفقين ، أو حتى غير مستعدين لتمييزه ، والتحقق منه ، والاعتراف به ، ثم الانتفاع به ، والاستفادة منه .

فعلى الفرد أن ينتهز الفرص كلما سنحت له . وبقدر ما يكون مخلصًا ، أمينًا فى استعمال مايتاح له من هذه الفرص - حين تواتيه - يكون الزاد عظيمًا ، والإمداد وافرًا غزيرًا وإذا هو استعمل القليل الذى يملكه بحكمة وتعقل ، فسرعان مايزيد ويربو ويؤتى أطيب الثمرات ..

* * *

اذكر هذه القوانين :

١ - التوافق ضرورى لجعلنا أكثر إدراكًا ، وأكثر وعيا . فهو - أى التوافق - تكييف المرء نفسه وفقًا للبيئة بصورة تضمن له تحقيق احتياجاته ومطالبه بشكل مقبول اجتماعيًّا وشخصيًّا .

٢ - علينا أن ننتهز الفرص التى تواتينا كلما سنحت لنا ، ونستغلها إلى أقصى الحدود ، وبقدر مانستطيع .

٣ – يتعين علينا أن نتمسك بالموضوع الذى نأمله ونتمناه ، ونتخيله أمامنا – عن طريق التصور العقلى – كأننا نقتنيه فعلاً وكأنه فى حوزتنا .

تلك هى القوانين ، أما النتائج فمؤكدة محققة .

أما فيما يتعلق بالبيئة ، فيمكن القول بأنه ينبغى لنا أن نكون إيجابيين مع الكل ، ماعدا العقل اللامتناهى . ففى لحظات الصمت يجب أن نكون سلبيين ، مفتحين عقولنا لمؤثرات أسمى وأرفع منزلة ، ولنستقبل بترحاب ومن صميم قلوبنا كل مايأتى إلينا . فهذى هى لحظتنا للتأمل والنمو .

أما الحكمة الدائمة السرمدية المخبوءة فى الوعى الباطن ، فهى التى توجه وترشد بكل سهولة ، النفس النشيطة « المنطلقة » . فلا تبدد الوقت فى انتظار عقيم . فالذين يبطئون دائمًا فى الطلبات ، يظلون فى أماكنهم لايقدرون على تحقيق أى تقدم أو نجاح .

والرجل العبقرى الفذ ، الذى أوتى مضاء العزم ، وشجاعة القلب ، وصحة التقدير والحكم ، والتفوق المذهل لسرعة حركة الذهن ، ذو العين الحادة ، والنظر الثاقب ، الذى يتطلع بيقظة ، وبكثير من التوقى والحذر إلى العلامات والشارات ، هو الدءوب على الاستمرار فى تنقله وتحركه من مكانه قدمًا إلى الأمام .

وهكذا لابد أن يمضى الإنسان فى دروب الحياة .. يتذوق من صابها وأوصابها .. ليساير الركب ويحتذيه .. بل ليصل إلى مدارج الرقى والرفعة .. ويتسنم ذرى المجد والسؤدد .

قد تكون الرحلة التى نقوم بها محفوفة بالمصاعب والمخاطر ، محوطة بالمحن والإحن والشدائد ، ولكنها ستقودنا على أية حال ، بطريقة منزهة عن الخطأ ، من أودية الاكتئاب واليأس والقنوط ، إلى القمم العالية ، والذرا الرفيعة المنيعة .

وفى هذا المعترك من الحياة الناشطة ، علينا أن نحافظ على مراكزنا وسمعتنا ، ونحصن أنفسنا بالإيمان الصحيح ، ونتقدم إلى الأمام بحزم وعزم وثبات . وبهذا نكون قد أقمنا حالات أكثر نفعًا وأكثر موافقة للهداية والرشاد .

إن السفينة التى تنشر أشرعتها ثم تنزلها ، ثم تعيد نشرها وطيها بتردد وعدم اطمئنان ، دون أن يكون لديها الجرأة لمواجهة الريح ، ستخفق حتمًا فى الوصول إلى الميناء الذى تقصده . أما إذا كان هناك اقتناع بأن الرياح ، ولو كانت معاكسة ، هى ذاتها مصدر القوة ، فإن السفينة حين تمخر عباب البحر الواسع ناشرة قلوعها باستمرار ، حتى ولو كان من الضرورى طيها ، يمكنها أن توجه بسرعة وبخفة وبكل ثقة وثبات واطمئنان إلى مرفأ السلامة والأمان :

الفصل الرابع

أنت سيد نفسك

« إذا أردنا أن نصل إلى غاية من الغايات السامية فعلينا أن ندرس الطرق والوسائل التى توصلنا إليها بعناية وإتقان ، ثم نتزود بكل مانحتاج إليه من الوسائل والأسباب والمعدات والآلات ، وسائر الوسائط التى تمهد لنا الطريق للوصول إلى الغاية التى ننشدها » .

« غاندى »

« إن الصخرة العاتية التى تعترض طريق الضعيف فتصده وتقعد به بعيدًا عن غايته ، هى الصخرة التى يلقيها القوى فى حفر الطريق ووهدانه لكى يجعله ممهدًا سويًّا » .

« كارليل »

« ليس الإنسان طيبًا بطبيعته ، ولا هو شرير بسليقته ، إنما يولد بغرائز واستعدادات يفسدها المجتمع أو يرقى بها » .

« بلزاك »

إذا أردنا أن نحقق نجاحًا أكيدًا من رحلتنا العقلية هذه التى نقوم بها ، فمن الضرورى أن نفهم بوضوح أنفسنا ، وأن نكون على بينة مما يكتنف حياتنا ، وأن نحيط علمًا وإدراكًا بالتعبير الطبيعى عن الحياة ، وبما تكون عليه الحياة السوية .

لقد قسم معظم علماء النفس العقل إلى طوريْن أو مظهريْن هما : صورتا العقل الواعي والعقل الباطن أو اللاشعورى . وهاتان الصورتان تعملان معًا جنبًا إلى جنب ، ويدًا فى يد ، ولكنهما مع ذلك مختلفتان تمامًا فى أسلوبهما .

فالعقل الواعى ، هو ذلك المظهر من العقل الذى يمكنك أن تفكر به تفكيرًا واعيًا ، وتوجه به أفعالك بوعى وشعور .. ويمكن تعريفه بأنه : الحالة العقلية للإنسان وقت اليقظة .. وفى هذا المظهر من العقل نجد القوة الاستدلالية . وإنى أرى أن هذا المظهر من العقل لا يتطلب بيانًا مسهبًا ، لأن أكثر الناس على علم تام بعمل عقولهم الواعية .

أما العقل اللاشعورى ، فهو أشبه بما نراه عندما نقف على ضفة بحيرة وننظر إلى سطحها . فنحن لانرى حين ذاك إلاّ جانبًا صغيرًا لا يعتد به . أما الذى يصعب علينا رؤيته ، فهو ما تحت السطح من أعماق سحيقة .

والعقل اللاشعورى مخزن كبير للكثير من الخبرات المكبوتة ولكنه

لايملك أية قوة تعليلية أو استدلالية . وعنه تصدر بعض أنواع السلوك المستهجن واللامعقول . وتعتبر حياة الحلم - أحيانًا - تعبيرًا عن هذه الذات اللاشعورية . وكلنا نعلم مما نراه أحيانًا فى أحلامنا أنها مخالفة للعقل ، بل من المستحيلات .

ألم تعجب فى بعض الأحيان ، من وقوعك فريسة للوهم والخوف والضعف ، مع علمك بما لذلك من ضرر؟ .. والإجابة هى أن مثل ذلك السلوك عبارة عن تعبيرات لاشعورية . واللاشعورية أو الوعى الباطن ، ليس له قوة استدلالية .

وهذه العقلية المنغمرة اللاشعورية اللامعقولة ، كانت معروفة منذ سنين عدة ولكن بغير وضوح . يحوطها كثير من الشك ، ويحوط الاعتراف بها عتمة وضباب كثيف . ولقد غدونا الآن - مع مرور الزمن - شيئًا فشيئًا على دراية واسعة بهذه الأغوار السحيقة اللامنظورة من العقل . ونحن حين ندرس الحقائق المذهلة المتعلقة بها نقف فى بعض الأحيان ، وفى أغلب الأمر ، فى خشية ورهبة ومهابة ..

وفى طوايا هذه الذات اللاشعورية ، وفى غرفاتها تحفظ بترتيب دقيق سجلات منظمة لكل شىء مما نكون قد سمعناه ، أو قرأناه ، أو رأيناه ، أو شعرنا به ، أو خبرناه . إنه أشبه بسرداب كبير أمين على حفظ الودائع فى مداخله الكثيرة ، وأقسامه المختلفة ، وأوعيته العديدة .

الميول الموروثة :

والمصدر الأول لهذه المادة فى العقل اللاشعورى هو : الوراثة .. فلقد أتينا جميعًا إلى الحياة بانطباعات وتأثيرات وذاكرات لاشعورية ، أخذناها عن أسلافنا وأجدادنا . ولكون أننا نتاج تلك الحياة السالفة ، فقد كنا – من قبل – بلا شخصية ، وبخلق لم يكتمل نموه ذاتيًّا . ولذلك ترانا مطبوعين بطابع ما قد ذهب من قبل فى سلسلة نسبنا ، من قريب وبعيد . ولكننا بالتدريج نلامس الحياة ونسايرها ، ونلتقى مع العالم ونتصل به ، بطريقة مرئية وغير مرئية ، مباشرة وغير مباشرة ، بإحساس وبغير إحساس ، ونتعامل معه شعوريًّا ولا شعوريًّا ..

إذن فهو « الأنا » الفردى الذى بدأ فى الظهور ليكشف عن نفسه ، ويأخذ فى تحسين هذه الميول الموروثة والعمل على ترقيتها .

وأحب أن يفهم قارئى العزيز ، أن هذه التأثيرات إن هى إلاّ ميول فحسب ، ونحن الذين نوجه أقدارنا ، ونكيف قسمتنا ونصيبنا ، وبأيدينا أن نسوق مصيرنا أو ندفعه عنا .

ونحن نجد الفرق شاسعًا والتفاوت كبيرًا بين فرد لاينمى شخصيته ، وفرد آخر يخضع قواه الواعية واللاشعورية لقيادة إرادته ومشيئته ، وحرية اختياره ، ويعوّد قواه وقدراته على حب النظام والطاعة للجهد

الكدود ، المثابر ، ذى الحزم والعزم الشديد . إن أحدهما يحرك الدنيا ويهزها ، والآخر تحركه الدنيا وتزعزع كيانه ؛ أحدهما فاتح منتصر مظفر ، والآخر عبد من رقيق الأرض ، أحدهما يركب السيارات الفاخرة ، على حين أن الآخر يسير على قدميه . أحدهما يصل إلى مطامحه ويبلغ مراده ، والآخر يتحسر على قسمته ويندب حظه فى الحياة . أحدهما يدخل فى رحاب النجاح والتفوق من أوسع الأبواب ، أما الآخر فيقف على عتبة باب الأمل ، رجاء قبول الإذن بالدخول ..

وجهان من العقل مختلفان :

والسلوك اللاشعورى ذاته سهل الانقياد للإيحاءات التى تأتيه من العقل الواعى .

والعادات تتكون بالتكرار والإعادة ، وبالتفكير الملح فى فكرة معينة أو عمل بعينه ، وعقلك اللاشعورى إنما هو بمثابة خادم مطيع لك . سيطيع أوامرك بعد أن تكون قد أسست اتجاهًا آمرًا ، باتًا .. حينئذ يكون قد اقتنع بأنك السيد المسيطر على نفسه ، القادر على تأدية الأمانة على خير مايكون الأداء .. والاتجاه الصحيح هو الذى يؤدى إلى الثقة والإيجابية .

ودعنى أكرر لك هنا مرة أخرى – ياقارئى الكريم – أن كل شىء

سبق أن سمعته أو رأيته ، أو قرأته ، أو شعرت به ، أو خبرته ، إنما هو مخزون هناك بعيدًا بعيدًا .. ومعنى هذا أن لديك رصيدًا كبيرًا لا يستهان به من المعلومات والتجارب يمكنك أن تسحب منه ماتشاء وقتما تشاء .. وبوسع هذا العقل الخازن أن يجمع حقائق لاعد لها ولا حصر تتعلق بالمشكلة التي تعانيها .. وأولئك الذين على صلة وثيقة بهذا الطور من العقل يكونون أقدر على « الرؤية » أو « الإلهام » .

ولأضرب لك مثلاً لرجلين اشتريا قطعة من عقار في مكانين مختلفين ، وبعد مدة من الزمن نجد أن أحدهما باع قطعته بربح كبير ، في حين أن الآخر لم يتيسر له بيعها حتى ولو بالخسارة . فكيف وقع الاختلاف وعلى أي وجه ؟ ..

الأول عنده الرؤية ، وأمكنه أن يرى مجريات الحوادث واتجاهاتها ، وأن يتصور ماقد يئول إليه الجوار في سنوات مقبلة .. أما الآخر فقد اشترى بكل بساطة لأنه وجد أن العقار رخيص ، ولأنه وقع تحت تأثير بائع ماهر متمرس ، أعطاه صورة مغرية للإمكانات المستقبلة .

لقد استعمل الأول تخيله ، وسحب من رصيد خبراته الماضية ، أما الآخر فقد استعمل عقله القاصر ، وانقاد إلى نتيجته .

ألم تحاول ذات مرة أن تتذكر اسمًا من الأسماء ، وتحاول ما شاءت لك المحاولة ، جاهدًا دون جدوى . وما يكاد يخطر على ذاكرتك حتى

« يزوغ » منك كما لو كان برقًا واختفى ؟ .. ثم ألم يحدث لك بعد ذلك أن تفكر فى شىء آخر بعيدًا كل البعد عن ذلك الاسم ، فيبرز بغتةً ، ويندفع فجأةً فى عقلك الواعى بطريقة أشبه بطلقة سريعة من بندقية ؟ .. إن هذا إلاّ مثال بسيط عن كيفية استخراج الأشياء المخزونة من العقل اللاشعورى ووضعها أمامك .. فأنت فى بادئ الأمر شرعت فى القيام بفعل لاشعورى عندما حاولت باجتهاد فى التفكير فى الاسم ، وأثرت على العقل اللاشعورى بما فيه الكفاية ، حتى تمّ لك ما أردت .

ويمكنك أن تستعمل عقلك اللاشعورى كحارس أيضًا . فقد يحدث فى كثير من الأحيان أن يتنبه المرء لاشعوريًّا إلى خطأ ارتكبه فى أثناء النهار . وقد يحدث للمرء حين يكون فى فراشه يطالع فى كتاب فيخطر له فجأةً أنه نسى أن يضع فى مظروف معين أحد المستندات .

والرجل المتوسط يتأثر إلى حد بعيد بعقله اللاشعورى أكثر من تأثره بعقله الواعى . ومعظم الأشياء التى نقوم بأدائها فى أثناء تجاربنا اليومية ، إنما تتم عن طريق العادة .

والعادة إذا كانت مستندة إلى العقل الباطن ، تصبح من البواعث التى تجعل الناس يقترفون أحيانًا الآثام ، ويرتكبون الجرائم ، وينزعون إلى الشر ، ويقومون بأعمال ما كانت لتخطر لهم قط على بال . وهكذا نرى أن القوى اللاشعورية لها سطوتها ونفوذها .

والعقل اللاشعورى هذا يؤدى دورًا له أهميته فى صحتك ، وفى سعادتك ، وفى نجاحك ، ففى إمكان هذا العقل اللاشعورى ، أن يشرع فى إجراء تغييرات هامةً وعجيبةً فيك ، إذا جاءته منك قوة دافعة أو محركة تبعثه للعمل .

ولكن ما صلة هذه العقلية اللاشعورية بالصحة والسعادة ؟ .

وراثة الصفات :

إن معظم الباحثين المبرزين فى هذا الجانب اللاشعورى من الحياة ، من أمثال : برنهايم ، وفوريل ، وديبوا ، وبرامويل ، قدموا لنا الدليل المقنع لقوة العقل اللاشعوريّة ، فى إحداث تغييرات هامة فى الوظائف الطبيعية . وإن عمله من هذه الوجهة ربما يكون أكثر عمقًا وأكثر عاليةً مما للعمليات العقلية الواعية .

ثم إن الفكرة والصورة الذهنية والاتجاه ، حينما تكون جميعها باطنيّة ولا شعوريّة ، فإنها تكون قادرة على التأثير فى الجهاز العصبى ، وفى التغييرات الكيميائية ، التى تحدث فى التركيب الطبيعى بأكمله .

والحالة الصحية التى يمتلكها كل شخص يحتمل أن تكون وثيقة الصلة – أكثر مما هو مفهوم – بهذه العملية اللاشعورية المميزة . وهى فى الحقيقة ، ليست محتملةً فحسب ، ولكننى تحققت مرارًا من أن مظهر

الإنسان وملامحه وأسارير وجهه ، وثيقة الصلة بهذه العقلية اللاشعورية – فالإنسان حين يكون سائرًا فى طريق مزدحم بالناس ، فإنه يرى أنواعًا مختلفةً ، وشكولاً متباينةً من التعبير . فهذا وجه يبدو عليه الخوف ، وذاك ينمّ على مكر ودهاء ، وآخر يظهر عليه الكراهية والبغض ، وآخر تعلو وجهه علائم الحلاوة والطلاوة والعذوبة والرقة والظرف . وهناك وجه تنقصه بعض تغييرات طفيفة ليكون أقرب شبهًا إلى الثعلب ، وآخر أقرب شبهًا إلى الذئب .

إنها وراثة الصفات ولا شك .. وإنها انتقال صفات الوالدين إلى أولادهم ، هى التى تدخلت فى هذا . ولكن مع كل ذلك فالتأثير كل التأثير ، والقدرة كل القدرة ، إنما ترجع جميعًا إلى نشاط العقل اللاشعورى .

وأذكر أن وراثة الصفات أيضًا إن هى إلا ميل لا شعورى ، أو صورة ذهنية لا شعورية . فإذا نشأ الفرد منذ طفولته بشوشًا ، مرحًا ، مليئًا بالأمل والثقة فى المستقبل ، أتظن أنه حين ينمو ويكتمل جسمه تتغير ملامحه وتقاطيع وجهه ، فتعبر عن الخوف أو الغضب ، أو الارتياب أو الشك أو البغض ؟ .. إن هذا مناقض للطبيعة ، ولكنه مع ذلك جائز إذا انقلبت حياة المرء فيما بعد وأضحت شكًّا وخوفًا وقلقًا وحزنًا .

هل يمكن تهذيب العقل الباطن ؟ ..

من الواضح إذن أن إحدى مشكلاتنا الكبرى ، هى مطلب هذه المنطقة الداخليّة المخبوءة .. فهل يمكن أن يهذب العقل الباطن ويعلّم من جديد ؟ .. هل يمكن أن تعاد صياغته ، أو يعاد تنظيمه مرة أخرى ؟ ..

إنه لما كان موجودًا الآن فى كل فرد فهناك عاملان مختلفان يتحكمان فيه بدرجة كبيرة :

الأول ، وهو وجود أثر لا يزال باقيًا من حيوانيّة انحدرت إليه من العصور الغابرة ، حين كان الإنسان – وهو أصغر بكثير من أى حيوان – يكافح نحو الإنسانية . ولقد انتقلت كميّة كبيرة من غريزة الحيوان . فى طريقها من تلك الأزمان السحيقة .. إلينا نحن الذين نعيش فى هذه الدنيا .. ومع كل فليس لنا أن نستهين بتلك الطبيعة الإنسانيّة التى نطلق عليها : « الناسوت » ، ونعتبر أنها مجرد قشرة خفيفة تغطى أو تكسو حيوانًا بداخلنا ..

وهذا يفسر جزئيًّا بزوغ كثير من الدوافع المعتمة التى تفاجئ الناس ، والتى تميل إلى الإنزال من قدرهم والهبوط بهم إلى الدرك ، والتى تقودهم فى بعض الأحيان إلى الإجرام ..

رواسب من حالات الماضى :

والعامل الآخر من عوامل العقل اللاشعورى ، هو راسب أو بقية باقيّة من حالات الماضى ، توالدت من عمليّات الذهن الواعى . فلقد كان لدينا فى كل يوم خلال حياتنا الماضية ساعات عديدة نقضيها فى التفكير الواعى . والأفكار من كل نوع مادامت مفهومةً ومعقولةً ، وفى حدود الآداب العامّة ، فلا مانع من أن يسمح لها بالتردد . ولما كانت الصور الذهنيّة بأنواعها العديدة تنطوى أحيانًا على إغراء شديد ، وخروج على حدود الآداب ، أوكانت مما يثير ذكريات أليمة ، فإن العقل يميل إلى إبعادها . فإذا ما أبعدت ، كان من المفروض أن تزول ، وتختفى تمامًا ، وتنتهى إلى غير رجعة . ولكن لا .. ليس الأمر كذلك . وليس هنالك فى الحقيقة أيّة صورة ذهنية أو أيّة صيغة فكريّة قد أمّحت أبدًا ، فهى لا تزال باقية . ولابد أن تترك أثرًا على النسيج الرقيق من الحياة الكامنة ، الباطنة . تمامًا كالصورة على لوحة المصور .

ولكن ليس ثمّة موجب للقلق بشأن هذه الصور الذهنيّة غير المرغوب فيها . فمع أن هذه الانطباعات تظل باقية خلال بناء حياة فكر جديدة ، فإنها تعمل على تكوين خواطر غايةً فى الإبداع واللطف ،

والصفاء ، وتكون دائمًا نبعًا فيّاضًا يساعد - كثيرًا - فى عمليات الخلق والإبداع كما نجد عند الأدباء والمصورين وغيرهم ..

مأساة لم تتم :

أذكر أن سيدة جاءتنى ذات يوم منذ بضع سنوات وقصت علىّ قصتها :

« نصحنى أحد أقاربى بزيارتك ، لأستشيرك فى أمرى ، مؤكدًا لى أنى سأجد لديك حلاً موفقًا لمشكلتى .. إن الذى أعانيه قد آل إلىّ بالوراثة . فلقد نشأت منذ طفولتى وبى طبع ثائر جموح ، سريعة الغضب ، أثور لأتفه الأسباب . وكان أبى وجدى يعانيان نفس هذه الحالة .. وأنا الآن أم لطفلين صغيرين ، ولى زوج مخلص يحبنى ويحنو علىّ ، وإنه لصبور طويل الأناة . ولكنى أرى الآن أن بيتى يوشك أن تتقوّض أركانه بسبب هذا الطبع ، وأن زوجى لابد سينفد صبره يومًا ، وينْهى الخلافات التى بيننا بالانفصال عنّى . ولقد أنذرنى فعلاً بأنى إذا عدت إلى هذا الشجار مرة أخرى ، فإنه سيحزم أمتعته ، ويترك لى المنزل إلى غير عودة . وإنى أعتقد أن الطبع الموروث متأصّل الجذور ، ليس من السهل الإقلاع عنه . فكيف أتمكن من تغيير طبيعتى وهذه حالتى ؟ .. إننى لفى حيرة شديدة ، وفى خوف من أن أهدم بيتى .. » .

فقلت لها إنها لا يمكنها بأى حال أن تغيّر قوى طبيعتها ، ولكن فى استطاعتها أن تحصل على قيادة حكيمة ، وسلطة كبيرة ، تتحكم بها فى هذه القوة الشديدة التى توشك أن تحطّم حياتها . وفى إمكانها أن تتعلّم كيف توجّه هذه القيادة ، وتديرها بطرق وأساليب ليس فيها ضرر ألبتّة لها أو للآخرين .

فقالت لى بلهجة فيها شك وعدم اطمئنان : « سأحاول جهدى أن أعمل بنصيحتك » .

ولقد علمت من هذه السيدة بعد ذلك أنها تغلبت فعلاً على عادة الغضب بدون سبب . وأمكنها أن تصلح ذات البين بينها وبين زوجها .. وإنها لسعيدة كل السعادة ، هانئة فى معيشتها ، راضية كل الرضا .

فنحن لا يمكننا أن نقصى عنا العواطف الباطنة القوية ، التى تعتبر طبيعيّة بالنسبة لنا ، أو التى تطبَّعنا بها .. ولكننا يمكننا أن نسيطر عليها ، ونحكمها ونوجهها ونستعملها لنفعنا . حتى تكون هذه القوى تحت إمرتنا ، تعمل لنا ، ومن أجلنا ، بدلاً من أن تعمل ضدنا .

ولا ننسى هنا واجب الآخرين حيالنا . إنه يجب عليهم أن يساعدونا . إذ لا شك أن زوج السيدة السابقة مطالب بأن يكون حكيمًا وسياسيًّا فى معاملته لها ، بحيث لا يغضب كثيرًا من سلوك يفرض نفسه عليها فرضًا بحكم الطبيعة ، وذلك إلى جانب أن يكون واسع الصدر ،

قوى الحيلة ، بحيث يقلل من مرات الصدام ويلف ويدور حول المحاور المثيرة بلباقة كبيرة ، وذلك رحمةً بعقل الزوجة أن ينهار ، وبحاضر الأطفال ومستقبلهم .

الفصل الخامس

اعمل بانسجام
مع قوانين الطبيعة

« ليس علينا أن نتطلّع إلى هدف يلوح لنا باهتًا على البعد ، وإنما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بيِّن » .

« توماس كارليل »

« الحظ كلمة لا معنى لها – فلابدّ لأى أمر كان من سبب » .

« برنارد شو »

« لا يوجد فى الطبيعة شيء بلا سبب . وإن كلّ جزء فى تكوين الكائن الحى يتناسب مع العمل الذى يؤديه ، ويتكيَّف تبعًا للظروف التى يتعرَّض لها » .

« هوريشو جرينوه »

لقد أجمع المفكرون والكتاب والعلماء المتخصصون فى مجال العلوم النفسية ، على أن العقل اللاشعورى ، يتلقى بعض طباعه وسجاياه ، وخلقه وتربيته ، من العقل الواعى

وهذه الحقيقة المؤكّدة التى لا خلاف فيها ، يتبعها أن اللاشعور يمكن تهذيبه وإصلاحه ، ويمكن تثقيفه وتعليمه لكى يكون وسيلةً فريدةً للوصول إلى الحق والجمال والصحة والسعادة والنجاح . فالعقل الواعى إنما يعمل كحكم ، وكمرشد ، وكقائد ، ورئيس شرعىّ للفردية .

ولن أسهب هنا فى الحديث عن الناحية الروحية من الحياة لاعتقادى أنها مسألة فردية ، ولكننى أؤكد أننا سنكون أقوى وأسعد وأكثر نجاحًا وتفوقًا ، إذا نحن تمسكنا بالجانب الروحىّ فى حيواتنا ، حتى ولو من قبيل الفلسفة فحسب .

فمن الواجب علينا أن نعترف بوجود قوة هائلة علوية لا تسامى . قوة نستشعر سطوتها ، وسلطتها ، فى توجيهنا نحو الخير ، والمشاركة فى الحب . وبدون هذه القوّة والقدرة تظهر تفاهتنا ، ويبدو للعيان جهلنا ، ونشعر بضعفنا وانحطاطنا ودونيتنا ، فننطوى على أنفسنا ، ولا يكون أمامنا من نستمسك بحبله ، أو نلوذ ببابه ، أو نتعلق بأسبابه ، حين يعترينا ضيق

أو مكروه ، ولا يسعنا إزاء ذلك ، إلا أن نتوارى عن الأنظار . مستكينين ، مستسلمين للنوائب والأرزاء .

ومن الضرورى كذلك أن نعترف بالحقيقة التى تؤكد أن كل شىء فى الدنيا إنما هو خاضع لقانون . وأن للحياة نواميس تجرى عليها .. والجهل ببعض هذه النواميس لا يعنى أنها غير قائمة .

ويتحتَّم علينا أن نسلم بجميع العوامل القادرة على التعاون ، من أجل الوصول إلى الغاية التى هى :

الصحة والقوة والسعادة والنجاح :

وعلم الصحة العقليّة ، وقانون الصحة الروحيّة ، لها قيمتهما التى لا تقدر . أما الكوارث والأهوال ، وأما الفقر والفاقة ، وأما الضعف والضّعة ، فهى جميعًا من نصيب أولئك الذين لا يكترثون باحتياجاتهم ، ولا يهتمون بمطالبهم[1] ، ولا يطالبون بحقوقهم .

وطبقًا لقوانين يجب أن نعترف بها ، يمكن للقدرات العقليّة والروحيّة أن تنمو وتكبر ، ويمكن لطاقاتها أن ترقى . أما الذين لا يهتمون بهذه القوانين ، فلن يحققوا أى أمل فى النجاح .

وإنه لمن الجهل أن نسلم – والعقل فى سموه وعظمته – بألا حاجة بنا

(١) وفقاً للنظرية الاشتراكية .

إلى العمل بموجب قوانين أو قواعد نسير بمقتضاها ، مادمنا أحرارًا فى توجيه أسلوبنا فى الحياة حسبما نهوى ، وفى استعمال طاقاتنا فى فعل غير مقيد . وهذا الأسلوب لا تكون مغبَّته ، إلاَّ الضعف والحيرة والارتباك . فهو تبديد تام للطاقة .

وقانون الصحة العقلية لابدّ أن يكون مرتبطًا ومحكومًا بقانون الصحة الطبيعية ، ويتم هذا بدقَّة متناهية عملاً بقوانين الفعل الطبيعي . وهذه القوانين ليست سهلة الفهم كلها ، ولكننا إذا استعملنا ما نعرفه منها بفهم وإدراك ، فسيعود على الإنسانية جمعاء بالنفع والفائدة .

وعلم الصحة الطبيعيّة مرتبط بالضرورة بالصحة العقليّة ، كما أن علم الصحة العقلية ضروريّ هو الآخر للصحة الطبيعيّة ، فكلاهما لا غنى له عن الآخر . وإن دراية شاملة ومعرفة عامة جامعة بالتشريح ، وبعلم وظائف أعضاء الجسم البشرى ، وبالقوانين الموصلة لأنشطتها الصحيّة ، لهى من الأهميّة بمكان .

ومخالفة القوانين فى المجال الطبيعى ، فيه إثم وضرر بليغ ، كمخالفة القانون فى المجال العقلى والأدبى سواء بسواء . والعقل السليم لا يمكن أن يظل موجودًا فى جسم سقيم ، إلا بقدر ما يمكن أن يجد العقل السقيم إقامة طويلة الأمد فى جسم سليم . فالحالة هنا فيها تتناقض ، والمطابقة يجب أن يكون فيها تناسق ومواءمة وانسجام .

والأسمى أو الأعلى أكثر قدرةً وأكثر صولةً من الأدنى . والرئيس أكثر نفوذًا من المرءوس .. وفى مقدور القوى أن يحمل الضعيف على الإذعان والخضوع والامتثال .. وإذا منع عن الجسم الطعام المناسب ، والشراب ، والتمرين ، والوقاية من التأثيرات الضارة ، فلن تفيد أيّة كميّة من الطاقة العقلية فى الاحتفاظ بصحته .

ولكن العقل سينتصر حتمًا ، إذا فكر تفكيرًا صحيحًا فى نشر تأثيرات نافعة مفيدة ، وفى البحث عن الزاد الوفير من المواد الغذائية ، وفى تقديم وتهيئة التمرين المناسب لخلايا الفرد ، ولعضلاته أيضًا . وكل هذه الحالات لا يمكن أن ينكرها أى إنسان .

تأمل الاهتمام البالغ ، والعناية التامة ، والحماية العجيبة ، التى ينالها الجسم وينعم بها ، عن طريق ما نسميه : الطبيعة .. ولاحظ كم هى مليئة بالخير والعطف والحنان ، كالأم الرءوم ، تحنو على أبنائها وترعاهم ، وتكفل لهم الصحة والعافية ، وتضفى عليهم كلّ أسباب الراحة والرفاهيّة ! . ومن هنا فالحياة إنْ هى إلا تغيرات عقلية وطبيعية مستمرة — تغيرات لا يتم حدوثها فى الغالب بوعى .

فإذا كنّا نعتمد على الترتيب والإصلاح فى نظرتنا إلى ذاتنا الواعية ، فكيف يمكن أن يكون الفعل المحصل أو الناشئ قاصرًا ، غير واف بالغرض ؟ ..

إن تغيرات الجو والطقس ، وتغيرات الضغط الجوى ، والغذاء والماء واللباس – ولا نقول شيئًا عن تغيرات العقل بما يلازمه من عادات وخصال – لها كلها أثر واضح ، وتأثير بيِّن ، على التركيب العضوى الطبيعى . وهى فى ذلك محتاجة إلى عناية واهتمام أكثر مما يمكن أن يحصيها ويقدّرها العقل الواعى ليتمسك بها .

ثم إن هناك الضرر الذى قد نتعرض له جميعًا . وقد يشمل بعضه أعضاء ضرورية لتدعيم الحياة . فإذا حدث هذا الضرر – لا قدّر الله – نرى كيف يتقدم الأنا – الخاص بنا ، الساهر علينا ، الحريص على سلامتنا – ليقوم بأداء عمله البناء ، بما لديه من حكمة بكل مهارة ومقدرة . فإذا كان ثمَّة تلف فى الأنسجة ، أوكسور فى العظام ، أو جروح عميقة ، فهو يقوم بعمل الترتيبات والإصلاحات اللازمة ليلئم الجرح ، ويرئب الصدع ، ويجبر الكسر ، ويصلح العوار ، بسرعة وكفاءة ، بمساعدة طفيفة من الخارج .. فالجهاز الوعائى[1] فى هذه الحالة ، سرعان ما تحتشد وتتجمَّع فيه كريَّات الدم البيضاء ، التى تسرع متعجلةً فى طريقها إلى الثلمة[2] ، وتصب متدفقة بكميات كبيرة فى داخل الفتحة وحولها . وبذلك تبدأ فى عملية الترميم والإصلاح ، عن

(١) المختص بالأوعية الدموية .

(٢) الثلمة : الثغرة .

طريق التثبيت والإرساء .

أرأيت إلى الطبيعة كيف تنظم الأشياء وتصلح الأمور عندما يفقد الفرد عضوًا معينًا من الجسم ، أو حاسةً من الحواس الخمس ، فتعمل بسرعة وبمهارة على زيادة القوى فى العضو الباقى ، أو فى الحواس الأخرى لتعوِّض النقص ، حتى لقد قيل فى مثل هذه الحالات إن «كل ذى عاهة جبار ! .. » .

تعاون على العمل مع قواك الخفية :

فلنتعاون على العمل مع هذه القوة العجيبة التى فينا ، فى طويَّتنا . ونتنبه إلى كل كلمة من كلماتها ، التى تنطوى على التحذير ، أو الترهيب ، أو الترغيب .. ونأخذ بتلميحاتها الذكية ، ونتتصح بنصائحها المفيدة ، وآرائها السديدة ، وتوجيهاتها الرشيدة ..

ويمكن الاعتماد على هذه القوة فى أيَّة مهمة من مهام العيش ، والوثوق بها ، والركون إليها فى كل أمر من الأمور . فهى فيض قدسىّ أودعه الله فينا ، وهى قبس لاهوتى ينير لنا أبصارنا ، ويزيح ستار الشك والغىّ عن بصائرنا ، وهى جوهر الطاقة العالمية ، وفحوى الحكمة ، وخلاصة المعرفة ، وهى لب الحب ..

ولقد قرر أحد مشاهير الأطباء الأوربيين أنه لا يستطيع أن يشفى

شخصًا من وخزة دبوس ، إلاّ إذا شاء الله ! ..

ولقد كانت الكلمات المشهورة المأثورة ، التى قالها الدكتور أمبروس بيير ، أكثر وقعًا فى النفس ، وذات دلالة ومغزى كبير ، حتى لقد أمر بنقشها على مدخل حجرة العمليات : « إنى أضمِّد الجراح ، وعلى الله الشفاء » .

وهذه كلها – فى الغالب – قضايا إن دلّت على شىء فإنما تدل على التواضع ، وتنطوى على أدب ، وعلى حيائهم . لا سيَّما إذا قورنت بادّعاء الشفاء المبالغ فيه ، والمزاعم المتطرفة ، التى يكسوها الكثير من التظاهر الكاذب ، مما نعانى منه الكثير فى هذا الزمان . ولا شك أن هذه الكلمات تعبر بصدق عن حقيقة بعيدة المرمى ، وتدل على الصراحة إلى أقصى مدى .

نعم ، إن الطبيعة ذاتها هى مبعث الشفاء ، والطبيعة ذاتها هى التى ترضى وترضخ وتحتمل ، دون أن يكون لها فى هذه الأحوال منافس أو نظير .

وربما يفضل رجال الدين أن يقولوا : إن الله هو الشافى ، وهو البارئ ، ويستشهدون بالآية الكريمة : (وإذا مرضت فهو يشفين) ، وهذا حق لا ريب فيه . ولكن إذا أرجع العلماء كل هذه العوامل إلى الطبيعة ، فلأنها من صنع الله ، باريها ومنشيها ، ولقد جعلها سببًا من

الأسباب ، كما جعل لكل شيء سببًا . وإنها لتسير على سنن ونواميس رتبها تعالى بقدرته ، فهى تعمل من خلال هذه النواميس بأمره لا تحيد عنها .

وإذا نحن بدأنا بالمخلوقات الدنيا ، ثم أخذنا نرتقى درجات الحياة إلى نهايتها ، نجد أن هناك طاقةً هائلةً موجودةً فى كل مكان تعمل للشفاء . وهى لا تزال مجهولةً للعلم والعلماء . ومن ثم للعقل الإنسانى كافة . فإذا تكسر غصن من شجرة ، فإن عمليةً ناجحةً للعلاج تتم فى التو لتجديد العوار وإصلاح التلف . وإذا حدث فى صيف أو فى ربيع شجب فى طبقة الأرض المكسوة بالأعشاب ، نتج عن محراث أو مجرفة ، فإن عملية الالتئام تبدأ فى العمل بهدوء ، وفى سكون ، إلى أن يتمّ تغطية السطح المكشوف فى الوقت المناسب ، بسندس لامع براق من الخضرة الناضرة ، والنبت المورق بألوانه الفضية الزاهية المونقة .

إننا فى الواقع لا نستطيع أن نرى أو نتتبع مراحل العملية الهادئة المجددة ، التى باشرتها الطبيعة لتصلح بها ما فسد ، وتجدد ما انصدع . فهى أشبه شيء بعقرب الساعة أو بظل الشمس ، يتحرك من نقطة إلى نقطة ، ومن موضع إلى موضع ولكنك لا تستطيع أن ترى الحركة .

وإذا أصيب أى جزء من الجسم بجرح ، فإنه يضمد كما يجب ، ويعنى به ، ويترك للطبيعة فرصةً تؤدى فيها دورها إلى أن يتم الشفاء . أما

ما يقوم به الطبيب من عمل ، فهو مجرد مساعدة أو إسعاف مؤقت . فهو يدرس الطرق الطبيعية ، ويكشف عن الكيفية التى تعمل الطبيعة بها ، ويحاول بكل تواضع أن يعمل معها ، ويتبع طرقها وأساليبها . وهنا يتكشف الفرق بين العالم والمتعالم ، بين الطبيب الحقيقى والدجّال .

فالطبيب الحقيقى يدرس وسائل الطبيعة وطرقها ، ويجد فى السعى لوضع نفسه فى مستوى وسائلها وقوانينها ، ويعمل بها .

أما المتعالم فهو يعمل كيفما اتفق ، ويخبط خبط عشواء ، منتهجًا الطريقة التى يقول فيها المثل العامى : « مرة تصيب ومرة تخيب » . ومن هنا يجب أن ندرك تمامًا أن الدجّال يحقق نجاحًا فى بعض المرات . وإنه لقادر - بكيفية ما وفى بعض الأحيان - أن يصيب الغرض ، ويكون لعلاجه أثر . ولكن غالبًا ما تكون الطرق التى يتبعها مصحوبةً بخطر بالغ ، وتكون فى حد ذاتها مغامرةً تعرض صاحبها للخطر ..

قانون العلة والمعلول :

ومن الكشوف العظيمة فى العصر الحديث ، أن ليس هناك شىء اسمه الحظ .. وما من شىء إلا وله سبب .. فكل شىء فى الحياة خاضع لقانون .. والخليقة ذاتها يحكمها قانون . وهو قانون العلة والمعلول .. الفعل ورد الفعل .. أو السبب والنتيجة .

وحينما نتكلم أو نعتقد بالحظ ، نظهر مقدار جهلنا للأحكام التى تدبر الأسباب وتأتى بالنتائج .

وليس ثمّة مكان أو فراغ ، أو حال من الحالات ، أو صفة من الصفات تستثنى من سيطرة هذا القانون عليها .

فقطرات الندى البلّورية ، والنسمات العليلات الندية ، والأمواج الهادئة المتألقة ، والسحاب المركوم ، الذى يشبه الصوف المنفوش فى شكله وتكوينه ، والجمال الرائع لمنظر الشمس عند الغروب ، هى كما هى منذ الأزل ، وستظل كما هى إلى الأبد ، وذلك طبقًا لناموس مقدس .

والسماء ذات البروج فى عليائها ، والنجوم الزاهرة فى أفلاكها ، والشمس فى مدارها ، كلها تسير فى نظام معين خاضع لقانون .

والجمال الباهر البهى البديع ، الذى تزهو به كل وردة ، وكل زهرة ، وكل غصن ، والألوان الزاهية ، التى تكسو كل أيكة وكل شجرة ، كل شىء فيها جميعًا يحدده قانون .

والمطر ، والزوبعة ، والبركان ، والزلزال ، والقحط ، كل ذلك يخضع لقانون ، وإن كنا « لا ندرى لذلك كنهًا ، ولا نفهم منه شيئًا » .

ولم لا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إن كل نموّ خاص بالإنسان – نشوئه ، وترقيته طبيعيًا وعقليًا وروحيًا – يحكمه قانون ؟ .

ومجامع الإنسان ومحافله ، ونقاباته ، وحكوماته ، وحضارته ،

ونظمه الدينية ، محددة بانتسابه وعلاقته وارتباطه بقانون .. ويصدق هذا أيضًا على شعوره وإحساساته ، مسراته ، وأفراحه ، وآلامه ، ونعمه ، وسعادته ، وكل حالة أخرى من حالاته الشعورية ، يقرّرها ويحكمها صلته بقانون .

بل إن كل شيء فى العالم الخارجى ، من الهباءة المتطايرة فى شعاع الشمس ، إلى سير الكواكب فى أفلاكها ، تحكمها عملية القانون .

يقول كاميل فلامريون[1] :

«ما هو العشق ، هذه الأحبولة المحبوبة ؟ .. وما هى الآلام القلبية ؟ .. وما هى العاطفة المتأججة ؟ .. ما معنى تعاون عصفورين لبناء عش واحد ؟ .. وما مغزى تغذية الذكر لأنثاه وهى جاثمة على البيض ؟ .. ألست تسمع فى كل هذا همسة الطبيعة ولهجتها الصادقة ؟ .. هل حللت قط هذه الظاهرات ؟ ألا ترى فى كل هذا نظامًا محكمًا ؟ .. إنك إن لم تر الغاية العليا لنظام الدنيا فإنك لن ترى الشمس فى وضح النهار ! .. » .

---

(١) من أشهر علماء الفلك فى فرنسا خلال القرن التاسع عشر . ومن أهم واضعى أسس النظريات الفلكية الحديثة . وقد كانت له مشاركات فى الكشوف الروحية التى سادت فى أواخر القرن التاسع عشر.

طاقة هائلة :

إننا كثيرًا ما نتحدث عن « مخالفة القانون » أو « تعطيل القانون » . فحين ينتاب الفرد أعراض زكام شديد ، أو آلام صداع حاد ، فإنه يقرر أنه خالف القانون . وهذا مالا يجب . وإذا قيل إن الإنسان بوسعه أن يعطل القانون ، فهذا غير صحيح . فهو لا يمكنه ذلك بأى حال . فالإنسان ذاته هو المعطل ، وهو الذى يعطل نفسه .. أما القانون فلا يزال مستمرًّا فى تأدية عمله ، ومن المستحيل أن يخالف مخلوق محدود زائل قانونًا سرمديًّا أبديًّا .

إن أمراضنا المختلفة ، وأوصابنا ، وضعفنا ، وشذوذنا ، وانحرافنا ، وآلامنا ، هى البيِّنات البيِّنة ، والنتيجة الحتمية لمعارضة الإنسان للقانون وتصادمه معه .

وليس صحيحًا أن القانون عام عالمى فحسب ، وإنه إذا خولف فلابد أن يسبب ضررًا ، بل إنه خيِّر أيضًا .. وهو أريحى ، وشفيق . وهو نافع ومفيد .. وإذا أحسن استعماله كما يجب صار منبعًا ثريًّا للخير لا ينضب ..

والشخص الذى يلتزم القانون ويتمشى معه ، يصل نفسه بطاقة هائلة لاحدَّ لها ، تجدد حياته وتقوِّيها ، وتثبِّت قلبه ، وتعزِّز مكانته فى

جميع النواحى ، وتفسح له الطريق إلى السعادة والصحة والقوة .

وقد نجد أناسًا – رجالاً ونساءً – لم يعتادوا الالتزام بالقانون ، ولم يتفهّموا أصوله ، ولا يلمّون بمبادئه ، ويحاولون اتباع طرق اختاروها لأنفسهم عن قصد وتعمد لمناوأة القانون ، والتصدى له ، والقيام بأمور تتعارض معه ، وهؤلاء – لاشك – خائبون ، مخطئون ، خاسرون .

فعلينا إذن أن نستمر فى رحلتنا ، مدركين تمامًا أننا إذا انسجمنا مع القانون ، وائتلفنا معه ، فمن المحقق أننا سننال كل ما نصبو إليه من نجاح وتقدم وانتصار ، وسننتفع بكل شيء بأكثر ما يمكن ، وسنرتب أمورنا على خير ما ينبغى ، وبالتالى ستكون الرحلة – دون شك – سارةً ، بهيجةً ، لذيذةً ، ذات فائدة عظيمة ونفع كثير .

واذكر دائما أن جميع متاعبك ، إنما تنشأ فى كثير من الأحوال عن دخولك فى صراع عنيف ، أو تعارض شديد ، أو صدام صارم مع القانون . وأن الفرج ، والنجدة ، والغوث ، والشفاء ، والدواء ، موجودة كلها فى دائرة معرفتك : كيف تمردت على القانون وعصيته ؟ وكيف توفق فى العمل معه بمواءمة وانسجام ؟ .

الفصل السادس

انفعالاتك
كيف تستخدمها ؟

« الشعور قوس ، والفكرة سهم ، والنبّال الماهر يجب أن يكون لديه كلاهما . فأى منها لا يجدى نفعًا بدون الآخر .. كما أن الرأس مدفع ، والقلب بارود .. أحدهما يساعد ، والآخر يطلق القذيفة ! .. » .

« هـ . و . بيتشر »

من أصعب الأشياء التى ستتعامل معها فى خلال هذه الرحلة الشائقة التى نجتازها معًا : الانفعال ..

والانفعالات يمكن أن يعبر عنها بطرق وأساليب شتَّى . فنحن قد يكون لدينا حالات مزاجية ، وانفعالات مخرِّبة ، هدَّامة ، وقد يكون لدينا حالات وانفعالات بنَّاءة خلاقة .. كما أن هناك تشابهًا بين الانفعال والطاقة نسميه الكهرباء . ومع أن كليهما غير منظور ، إلا أنهما قوتان قديرتان فعّالتان ، لهما سطوة أى سطوة ، ويمكن أن يستغلّ كلاهما إما بطريقة بنَّاءة ، أو بأخرى هدَّامة ، وذلك حسب الاتجاه الذى يتلقيانه منا ، وحسب الفهم والإدراك الذى عندنا .

ودرجة الانفعالات التى نعبِّر بها ، وأثرها على وجودنا الطبيعى ، إنما تتوقف إلى حد كبير ، على ما إذا كنا ذوى شعور شاذّ ، يؤثر فينا بطريقة مخالفة للمألوف أم العكس . فالشخص الفاتر ، المتراخى ، يعانى من الانفعال ارتكاسًا[1] واعيًا بسيطًا . وهناك أنماط معينة ، من أولئك الذين عندهم بلادة فى الإحساس والتأثُّر ، وخمول فى الشعور ، لدرجة يستطيعون معها مواجهة عمليَّات معيَّنة ، ويجتازونها بدون حاجة إلى تخدير[2] ، وليس فى هذا أيَّة شجاعة ، وإنما يمكننا أن نقرّر أن الاتجاه

---

(١) الارتكاس : رد الفعل .

(٢) التخدير : البنج .

العقلى ، له نصيب من العمل ، ولكن الأعصاب ذاتها ، تكون فى هذه الحالات أقل إحساسًا بدون شك .

وجدير بالذكر أن معظم الإحساس بالألم ، ينشأ عن الأنسجة الخارجية ، حيث توجد أطراف العصب . وأن الجروح التى تحدث فى الأنسجة العميقة ليست مؤلمة للغاية .

والانفعالات السلبية الهدَّامة ، تسبب تغيرًا كيميائيًّا محسوسًا فى الأجسام ، ينتج عنه نقص فى الحيوية وفى صحة البنية – من حيث النشاط وأداء الوظيفة – فيكون الكسل الوظيفى .. وسرعان ما يشتد إحساس النصب ، فيصبح الجسم تربة خصبة للارتكاس من جميع الأشياء ذات الطبيعة الانفعالية ، وأرضًا صالحة ينمو فيها الاضطراب ويتفشَّى فيها الفساد .

والانفعال أقوى طاقة فينا . فهو يدفعنا – كالقوة المندفعة من آلة كبيرة – إلى أعلى ، وإلى أمام ، وإلى خلف ، وإلى أسفل ، وفى مقدوره أن يجعلنا سعداء ، ويرفعنا إلى أسمى درجات السعادة ، أو ينزل بنا إلى أقصى دركات التعاسة . وفى إمكانه أيضًا أن يجعلنا نطير فرحًا ، ونتهلل بشرًا ونزهو طربًا ؛ أو نصرخ من الحزن والحسرة . وفى إمكانه أن يجعلنا نطلق صيحة فرح ، أو صرخة ألم . إنه كالبخار المحبوس فى المرجل ، يجاهد فى إيجاد تعبير .

والانفعال موجود فى الناس منذ الولادة ، حتى يخبو من شمعة الحياة شعاعها . فالغلام الصغير الذى يوصف بالسوء أو بالرداءة ، هو الذى يعبِّر عن هذه الطاقة بطريقة هدَّامة . وقد تكون قوى إدراكه وقيادته والتوجيه الذى يتلقاه عن شخص آخر أكبر منه ، هى التى تمد هذه الطاقة بما تحتاجه .

ومهما يكن من شىء ، فإننا نرى أن من الناس البالغين ، الذين لديهم قوة إدراك مكتمل النمو ، من يستعمل هذه الطاقة بطريقة مخربة ، هدَّامة ، تمامًا كما يستعملها الغلام الصغير .

وكثيرًا ما يكون الانفعاليون عصبيى المزاج ، مالم يقوَّم هذا الانفعال ويوجَّه توجيهًا حسنًا ، وتحكم قيادته بدقة . إنه قوة يجب أن تخضعها لك ، وتسيطر عليها تمامًا ، وإلا فستقهرك وتتغلّب عليك ، ومن ثم تصبح لها عبدًا ذليلاً .

والانفعالات فى مقدورها أن تحرّك أعصابك ، وأن تلعب بها ، وتجعلك كريشة فى مهب الرياح ، أوكمركب تلعب به العواصف والأنواء . والانفعاليون كثيرًا ما يتغلّب عليهم الهم ، وينطبع على ملامحهم طابع الحزن والاكتئاب . وإنك لتجدهم ذات يوم فى الذروة ، وفى اليوم التالى فى أسفل درك يمكن أن يهبط إليه الإنسان .

يقول وليم جيمس : « إذا قسنا أنفسنا إلى ما يجب أن نكون عليه ،

لا تضح لنا أننا أنصاف أحياء ! .. فإننا لا نستخدم إلا جانبًا يسيرًا من (مواردنا) الجسمانية والذهنية . أو بمعنى آخر ، يعيش الفرد منا فى حدود ضيّقة ، يصطنعها داخل حدوده الضيقة . إنه يمتلك قوى كثيرة مختلفة ، ولكنه عادة لا يفطن إليها أو يخفق فى استخدامها » .

ما هو المزاج العصبى ؟ :

ومن المحتمل أن يميِّز الناس السلالة العصبية من خلال الانفعال ، أسرع مما يميِّزون الانفعال ذاته .

وإذا سئلنا : ما هو المزاج العصبى ؟ .

أجبنا : إنه المزاج الذى لا يكون فيه الجهاز العصبى بأسره تحت سيطرة الإدراك والإرادة . وهذا التعريف قد لا تجد مثيلاً له فى أى مكان آخر ، ولكنه الحقيقة فى بضع كلمات قصار . والذين يتخلّقون بمثل هذا الطبع ، غالبًا ما يكونون ذوى إرادة قوية ، ثابتة للغاية ، ولكنها إرادة يضللها ويسىء توجيهها فى أكثر الأحيان تأثير الانفعال . وكثيرًا ما تحمل مثل هذه الإرادة الفرد على الوقوف فى مواجهة ما يعتبره الشخص الهادئ الرصين أمرًا معقولاً ، ولكنه يثابر على هذه الفكرة ، ويظل على هذا الأمر إلى أن يدعو الانفعال المضاد إلى التوقف ، الذى ينتهى إلى الانهيار والهبوط أو التغير المفاجئ فى الحالة بأسرها .

وثمّة شخص عصبى المزاج ، يحتمل أن يكون ماهرًا وذا ذكاء حاد ، وله عقلية قوية ، وهذا فى مقدوره أن يقوم بأداء أى عمل إذا أمكنه أن ينتظم فى خطة العمل الذى يؤديه .

أما أسوأ حالات ضعف الأعصاب ، أو الخور العصبى[1] ، التى نشاهدها ، فهى تعبّر عن عقول قوية ، بارعة ، ماهرة ، فعّالة ، نشيطة ، أقرب ما تكون إلى الاستبطان[2] ولكن استحالة ضبطها ، وكبح جماحها ، جعلاها أشبه بزوج من الخيول الجامحة .. وهكذا تغدو هذه الطاقة الدقيقة التى يملكها ، هدَّامة فى ميولها واتجاهاتها .

وإذا نحن درسنا تاريخ حياة مشاهير الرجال ، نجد أنهم ذوو إحساس ، وعندهم سرعة تأثر وانفعال ، ونزعة إلى العصبية ، ولكن هناك مع ذلك ، إرادة جموح لا تقهر ، هى وحدها التى أمكنها أن توجِّه هذه القوى إلى وسائل بنَّاءة خلاقة . فأصبحوا سادة مسيطرين على هذى الطاقات العجيبة ، بدلاً من أن يكونوا عبيدًا لها مسودين . وهذه الطباع وهذه الأمزجة ، هى التى خلقت القادة والعظماء والزعماء .

---

(١) النورستانيا .

(٢) الاستبطان : حسب التعريف النفسى ، هو العملية التى بها تشاهد الذات ما يجرى فى الذهن من شعوريات ، بقصد وصفها لا تأويلها . وما هى فى الواقع إلاّ عملية تذكر إما للماضى القريب أو البعيد . وبعبارة أوضح هى طريقة من طرق دراسة النفس ، تقوم على ملاحظة المرء نفسه ، وتأمله ما يجرى فى عقله من أفكار ومشاعر .

ولكى نحقِّق النجاح ونؤمنه ، نرى ضرورة إدخال العاطفة فى جميع الأشياء ، فحياة الإنسان تكيِّفها عواطفه بل إن العاطفة هى القوة الدافعة للحياة .. فإذا اشتعل القلب ، شعّ العقل نورًا .. يقول بيرون : « النور الذى يلمع فى عينيك ، تأتى به النار التى تضطرم فى صدرك » .

أما الإحساسات والمشاعر ، فهى الأساس فى إثارة جميع أشكال الدافع . إذ أن جميع ما نراه من الأعمال الدقيقة ، الرفيعة ، الخالدة ، التى قام بإنجازها كل من تيتان ، ورافاييل ، وليوناردو ديفنشى ، كانت نتيجة العواطف الحارة المتحمسة ، التى عن طريقها وتحت ظروف خاصة ، خلقت كل طرفة منها . فالفنان كما يقول الشاعر الألمانى جيته : « إنسان يمتاز عن سائر البشر ، فهو يأكل ويشرب مثلهم ، ولكنه يحس بغير إحساسهم » .

والانفعالية التى أحسن ترتيبها ، وأجيد تنظيمها ، ضرورية للغاية . وإنى موقن تمام اليقين ، بأن من الأخطاء الشائعة فى تربية شبابنا ، أننا نبدأ معهم بتدريب الذهن قبل تدريب الانفعالات . فبدون المقدرة على الشعور بقوة ، لا يمكننا أن ننجح فى تدبير شئون حياتنا الضرورية . وأرى من المناسب فى هذا المقام ، أن أنقل فيما يلى ما قاله أحد الكتاب المعروفين :

« يجب علينا أن نقرِّر ونعترف بأن الحياة الانفعالية هى الأساس

أو القاعدة للشروع فى كل عمل سام رفيع ، وللوصول إلى كل تفكير سليم نبيل . ونحن لا يمكننا أن نصنع الرجال ، إذا تجاهلنا العناصر الجوهرية فى الرجولة . فلكى نعيش عيشةً رغدةً ميسرةً موفقةً يتحتم علينا أن نعرف الأشياء بوضوح وجلاء ، ونشعر بشدة ورغبة ، ونعمل بنبل وشرف . وبقدر ما سيكون هذا العمل سارًّا بهيجًا ، سيكون لدينا – فى الغالب – عمل نبيل شريف .. عمل يوحى به الشعور لا الفكر .. وينبع من الشعور لا من الفكر » .

والعالم لا يحكمه الفكر ، بقدر ما يحكمه الانفعال ..

والبواعث الدافعة ليست أفكارًا فى العادة ، وإنما هى مشاعر وأحاسيس .

أما الأفكار الخاصة التى تتعلق بالمشاعر ، فهى غالبًا ما تكون محدودة أو مقدرة بما يبدو لنا من أنها ليست إلا مجرّد ظروف فحسب ..

والفكر يعتبر ميتًا بدون انفعال . وللانفعال حياته الخاصة به ، وهو مستقل غير مرتبط بالفكر . والأفكار إن هى إلاّ أرواح هائمة ، وأطياف شاردة ، تعتمد فى حيويتها ، على تيارات من المشاعر مغناطيسية .

الإدراك والإرادة :

وحين نعود إلى التأمل فى حياة الأسرة ، يتضح لنا فى الحال أن الاعتماد هنا يجب أن يكون فى الغالب على انفعالات مرتبة على أتم ما يكون الترتيب ، ومنظمة على خير وجه . وإنى إذا قلت « انفعالات مرتبة » فلأن العاطفة لن تكون مأمونة إلاّ إذا كانت تحت رقابة شديدة رشيدة ، وقيادة حكيمة من : الإدراك والإرادة .

وينبغى أن يكون فى كل بيت مزيد من العاطفة الجيَّاشة لتجعل منه فردوسًا ونعيمًا مقيمًا . أما الهم والكدر فلن يكون له مكان مع القصد السعيد ، والغاية الهنيئة . وأما الغيرة الحقيرة ، والحسد البغيض ، والضغائن ، والمضايقات الدنيئة ، فهى تسلب من الحياة رونقها وبهجتها ، وتمحو من الوجود تناسقه وحسن إيقاعه ، وتحيل النعيم جحيمًا ، والراحة عذابًا مقيمًا .

وليس ثمَّة أيَّة أعذار تلتمس لهذا النوع من تلك الصفات ، فالشاب ينبغى له أن يبدأ حياته بالعزم والتصميم على احتضان أحسن الانفعالات ، وتنشئة نفسه على أفضلها وأقواها . وقد يلاحظ أن أسلوب الحياة الزوجية ، يسير فى بعض الأحيان على نهج يبدو فيه طابع التعاسة ، مما جعل بعض الشبان يعرضون عن الزواج ، ويعزفون عن

مجرد التفكير فيه . وكثيرًا ما يواجهنا سؤال عن السبب الذى يجعل المحبين عرضة لأن يصبحوا نفورين من بعضهم بعد الزواج مباشرة ، حتى ولو كانوا قد قضوا فترة طويلة فى مطارحة الغرام ، واستجلاب الرضا فى هناءة وغبطة؟ فنجيب عن ذلك : بأن التجارب الجديدة ، التى كانوا يتطلعون إليها بشىء من السرور والانشراح ، دخلت فى مشاعر أخرى متحركة ، أقرب إلى القسوة والعنف . وكثيرًا ما تنشأ المتاعب — التى تنتهى أحيانًا بالانفصال — من تعقد الأمور بسبب الأنانية البغيضة والرغبة فى التسلط .

فإذا تخلصت الرابطة الزوجية من رغبة التملك وحب السيطرة ، سواء أكان مبنيًا على الرضا أم عدمه ، يمكن أن تظل الرابطة وثيقة العرى ، متماسكة الأركان . وانفعالات الحب يجب أن تتم بصورة مقنعة ، بدون أى اعتبار أو تقدير لمعنى العواطف . ويجب أن يكون كل انفعال متفقًا مع كل حرية تتلاءم مع العاطفة الأصيلة الحرة ..

وينبغى للزوج أن يظل لزوجته مثال الشرف والحنو والرقة . وأن يكون هو ذاته العاشق الولهان المتيم بمحبوبته . يحرص كل الحرص على إرضائها بكل الوسائل ، والتعبير لها عما يعتلج فى فؤاده من وله وحب . ويجب على الزوجة بدورها أن تبادله نفس الشعور ، وأن تردد له نفس ألحان الحب وأنغام الهوى . وأن تبعث فيه الثقة التى عرفها عنها قبل

الزواج . وأن تضع نصب عينها أن الرجل يحب أن تكون زوجته دائمًا هي الفتاة نفسها . التي تزوجها ، تلبس وتتزين من أجله ، ولا تفكر في شيء إلا إسعاده .

بل هناك أكثر من ذلك ، فالزوج يجب عليه أن يربط بين النبل والقوة من الناحية التي يوجهها نحو العالم ، بالناحية التي يوجهها نحو زوجته فيوفق بين الرعاية الطيبة ، واللفتات الرقيقة التي يقدمها حبًّا طاهرًا ، صافيًا ، وبين اللطف والأنس الذي يجب أن يبديه لإحدى المحظيات . كما أن الزوجة يجب أن توفق بين كرامة ربة البيت وعزة نفسها ، وبين التيه والدلال الذي تصطنعه نساء المجتمع أو المرأة اللعوب .

وهناك رجال عزب وفتيات عازبات يفتقرون إلى الفهم . ولهذا السبب يجدون صعوبة شديدة في الالتقاء بأخدانهم ، أو الاجتماع بهم حتى ينعموا بالحياة التي نعتبرها طبيعية بالنسبة للرجل . ويبدو هذا بوضوح في كثير من الحالات الناشئة عن عدم وجود الغريزة الاجتماعية أو الناتجة عن انفعال لم يحكم ضبطه يأتي في شكل تهيب واستحياء . ومن المحقق أن الاستحياء هو الذي يحدد حياة الفرد . فهو — كما أعتقد — أحد النماذج الكئيبة السيئة ، للخوف والانفعال التي ورثها الإنسان .

عناصر العقل :

وإذا سأل سائل : إذا استمرت الغريزة العاطفية أو الانفعالية عند فرد فى الاندفاع على هواها بدون تأمل أو تبصر ، فكيف يتسنى لهذا الفرد أن يوقفها عند حدها ، ويكبح جماحها ؟ ..

وهذا يتم على أحسن وجه إذا وضعنا نصب أعيننا عناصر العقل الثلاثة ، وهى : **الإرادة ، والذهن ، والانفعال** ، إذا صممنا مرارًا وتكرارًا على التمسك بها ، والاستمساك بأهدابها ، والمحافظة عليها ، لتثبيت العلاقات وتوازن الصلات . فالإرادة يجب أن تكون دائمًا العامل السائد الثابت ، وأن تكون بمثابة السلطة التنفيذية ، أو الضابط الإدارى الذى يقوم بتنفيذ الإشارة وتلبية رغبات كل من الذهن والانفعال . وكل ابتكار وإبداع إنما ينبع من الانفعال ، ولكنه لا ينبغى أن ينقلب أو يتحول إلى إرادة ، حتى يقرر رضا الإدراك . وفى أى حال من الحالات ، وفى أى ظرف من ظروف الحياة ، لن يكون فى مأمن ذلك الشخص الذى يقول : « سأقوم بعمل هذا الشىء ولا يهمنى بعد ذلك ما يكون ، سأقوم بعمله ولا يضيرنى إذا كان مخالفًا للعقل أو بعيدًا عن العدل والصواب » .

والانفعالات ذات طرازين شاملين : الأول ، مشرِّف يدعو إلى

السمو والرفعة ؛ والثانى ، مذل ، مثبط للعزيمة ، جالب للغم ، وكلاهما يخدم غرضًا ... فلكى يحيا الفرد حياة حساسة ، محسوسة ، متزنة ، متوازنة ، يتحتم عليه أن يستفيد من جميع الانفعالات ، ويوفق بينها ، مستعملاً إياها فى تراكيب ومزاجات متناسبة ، متناسقة ، كما يفعل الرسام الماهر بألوانه المختلفة . أما عدم الاعتدال أو الإفراط فى أى أمر من الأمور ، فهو يسبب الارتباك ، والفوضى ، والفساد ..

ومن الأشياء الضرورية التى لابد منها حين يكون الانفعال على أشده من السطوة والنفوذ ، وحين يكون سببًا مباشرًا فى التعذيب العقلى أو الآلام البدنية الناشئة عن الغم والاكتئاب ، الشروع فورًا فى إقامة قيادة حكيمة ، ورقابة رشيدة ، و « سيادة » أكيدة .

والكفاح من أجل السيادة على الذات السفلى الضعيفة ، أقرب شبهًا بتسلق جبل عال قليل الانحدار ، كثير المنحنيات . وهذا الصراع المحتدم العنيف ، قد يتعرض له بعضنا فى رحلتنا العقلية هذه .. وأنا – كمرشد لك – سيكون من واجبى أن أمدك بما تحتاجه من تعليمات ومعلومات ، وإرشادات عامة . وهذا لأنك ستجد نفسك فى حالات كثيرة يتحتم عليك أن تمهد لنفسك طريقًا خلال الغابات الكثيفة التى يكتنفها الظلام من كل جانب . حيث العوسج والصخور ، حيث الريح تزمجر وتصك الأسماع ، وأصوات الحيوانات المتوحشة التى تجوس بالقرب منك .

فأنت لا يمكنك أن ترتد أو تنكص على عقبيك ، ولكن يجب عليك إما أن تستمر فى السير وحدك بشجاعة وجرأة وإقدام ، وإما أن تبحث عن مساعدة شخصية من أحد الذين قاموا برحلة من هذا النوع ، وفى هذا الطريق بالذات مرات كثيرة ، ليدلك على معالم الطريق ، وينير لك السبيل إلى « التخريمات » ، ويرشدك إلى أسهل السبل إلى المسالك المأمونة فى الرحلة .

ولا تنتظر منى أن أضفى على صورة رحلتك شيئًا من البريق لتبدو لك سارّة ، مغرية ، لذيذة ، لأنى أريد منك أن تعرف أن هناك عملاً كثيرًا ينبغى لك أن تنجزه ، وأريد منك أيضًا – إذا أردت أن تحقق الكثير من المتعة – أن تشعر نفسك بالسرور والمتعة .

يقول وليم جيمس : « الذى يبدو لنا جميعًا أن الانفعال يتبع الإحساس . ولكن الواقع أن العقل والإحساس يسيران جنبًا إلى جنب .. فإذا سيطرنا على العقل الذى يخضع مباشرة للارادة ، أمكننا بطريق غير مباشر أن نسيطر على الإحساس . ومن ثم فإن الطريق المضمون الذى يفضى إلى الابتهاج ، أن نعمد إذا ما فقدنا ابتهاجنا ، إلى الجلوس فى ابتهاج ، والعمل والتكلم كما لو كنا مبتهجين » .

واذكر فى أثناء طوافك أن هناك ، فى الأفق الواسع فوق رأسك ، بين السحب القاتمة الداجية ، نجومًا زهرًا لا تفتأ تتلألأ بوميضها

المتألق .. وأمامك على البعد طريقًا آمنا ، خاليًا من المصاعب والمتاعب .. واذكر أنها مجرد رحلة لا يهمك فيها إلاّ أن تسلك السبيل السوى السليم ، حتى تتضح لك معالمه ، ويبين لك فى نهايته نور النهار .. وهناك عدة أشياء أخرى ينبغى لك أن تفهمها .. هى أن قواك الضعيفة الواهنة يجب أن تتحسن وترقى عن طريق تدريب أمين ، مخلص ، مدعم بالمثابرة والصبر.

إن الذى تحاربه وتناضل فى سبيل الانتصار عليه هو : « عاداتك القديمة » الراسخة ، التى غدت مع مرور الزمن أقوى من القوة . ولا يخفى علينا أن فينا جميعًا – بفضل العادة وبسببها – ميلاً غريزيًّا شديدًا لسلوك أسهل السبل وأقلها مقاومة . فنحن نميل إلى السير فى الطريق الذى اعتدنا السير فيه .. نميل ؟ .. بل إننا مسوقون سوقًا ، ومدفوعون دفعًا عنيدًا إلى هذا الطريق الذى علينا أن نسلكه ما لم نقبض على زمام الأمور بأيدينا . ونعقد العزم على أننا لم نعد بعد عبيدًا ، بل سادة أعزة نسيطر على أنفسنا ، ونملك ناصية أمورنا .

والمسافر حين يعتزم القيام برحلة يجب أن يعقد النية على ارتقاء ذلك الجبل ، بالرغم مما قد يكون هنالك من وحوش ضارية ، أو حيوانات مفترسة ، ويصمم على أنه سيتغلب عليها بقوة قدراته الغريزية ، حتى يصل إلى غرضه ، ويتوصل إلى النقطة التى يستطيع عندها أن يروض

هذى الوحوش ، ويخضعها لإرادته . يأمرها فتطيع ، وينهاها فتنثنه ، وتكون جميعها رهن إشارته .

ولقد سمحت لنفسى أن أستعير هنا لفظتى « الحيوانات والوحوش » من باب المجاز إلى حدٍما . فليس هناك من الوحوش الضارية ، ما يمكن أن نضفى عليها صفة المخادعة أو المكر أو الخبث أو اللؤم أو الاحتيال أو المخاتلة أو الغدر أو الخيانة ، كما نضفيها على انفعالات الإنسان .. فمشاعرك يمكن أن تخدعك تمامًا ، وأن تفتنك وتعبث بك ، وتسخر منك ؛ وفى إمكانها أن تجعلك ترى الشىء مختلفًا تمام الاختلاف عن حقيقته ، وتجعلك تسير على غير هدى ؛ وفى إمكانها أن تغريك وتغويك بانتهاج الوجهة الخاطئة ، وتجعلك مقتنعًا بالسير فى الطريق المعوج .. حتى إدراكك يغدو غائبًا عن وعيه تمامًا ، وحكمك معطلاً معرقلاً ، وإرادتك مشلولة مرتبكة ، وتصير مدفوعًا إلى فعل مناقض لأحسن اهتماماتك ورغباتك .

سيادة الانفعالات :

إن كل فرد إنما يقع تحت سيطرة انفعالاته بدرجة كبيرة لا يسعه معها إلا أن يتقبلها راضخًا ، ويسلم بها ، أو أن يكون فى الحقيقة ، على علم ودراية بها . وخيرنا من استطاع أن يتوصل إلى قيادة خارجية معينة

لا تعدو فى الحقيقة أن تكون كبتًا [1] أو قمعًا [2] للانفعالات . أما القلق ، والضجر ، والاستثارة ، والتوتر ، والخجل ، وعدم الثقة بالنفس ، والتشاؤم ، والقصور الساذج ، والحسد ، والغيرة ، والغضب ، فهذه كلها انفعالات يجدر بك أن تحاول ما استطعت أن تتغلب عليها ، لا بإخمادها أو خنقها أو دسرها [3] ، وإنما بالتخلص منها وإقصائها عنك . وفى هذه الحالة يقول إميل كويه : « إذا ملكتك عادة تود لو تتخلص منها ، فلا تلق بها من النافذة ، بل اهبط معها السلم درجة درجة » [4] .

وقد يأتى عليك وقت تعانى فيه يأسًا شديدًا ، أو قلقًا قاتلاً ، أو سخطًا وغيظًا ، عندما تدرك أنه كان ينبغى لك أن تبتسم وتعمل بسرور وابتهاج ، كالذين من حولك ممن يبدون فى حالة طيبة مرضية .

(١) الكبت : عملية لاشعورية مقتضاها منع الميول والدوافع الكائنة فى اللاشعور من أن تظهر فى حيز الشعور . وهو صراع نفسى عجز «الأنا» عن مواجهته فتجاهله ، فلاذ بأعماق اللاشعور .

(٢) القمع : عملية شعورية معناها منع دافع أو ميل معين ماثل فى الشعور من أن يتحقق فى السلوك الخارجى . ويتميز عن الكبت بكونه عملية شعورية . على حين أن الكبت عملية لاشعورية .

(٣) الدسر : الدفع بشدة .

(٤) أفردنا فصلاً كاملاً عن « العادة » فى كتابنا « لكى تكون سعيداً » بسلسلة « اقرأ » رقم ٢١٧ – دار المعارف ، لمن شاء الاستزادة فى هذا الموضوع .

وستتملكك الرغبة فى أن تسب وتلعن ، وأن تقذف بالأشياء ، وأن تصرخ وتبكى ، ثم تنفجر صارخًا : «كيف يمكننى أن أطالب بأن أكون سعيدًا فى حين أنى أشعر بالتعاسة والشقاء ؟.. ولماذا تسير الأحوال بعكس ما أريد ؟ » .

نعم ، إنها تسير ضد كل ما هو موجود فيك من ضعف وسلبية . وهذا بالتقريب أكبر جزء فيك . وأما الذى يجدر بك أن تشرع فيه فورًا هو أن تقوم بمجهود كبير . وفى هذا الصدد يقول هنرى ثورو : « لست أعرف حقيقة أكثر تشجيعًا من أن للإنسان مقدرة فائقة على إعلاء حياته عن طريق بذل الجهود . فلو أن إنسانًا سعى إلى أن يحيا الحياة التى يتصورها فى خياله ، فسوف يصادف من النجاح مالا يخطر له ببال » .

ويقول وليم جيمس إن الرجل يقاس بمقدار المجهود الذى يستطيع القيام به ، وإن « الذى لا يمكنه عمل شىء إن هو إلاّ خيال ، وأما الذى يمكنه أن يعمل كثيرًا وينجز كثيرًا فهو بطل » . ثم هو يوجه نظرنا إلى الحقيقة الجوهرية الهامة التى تؤكد أن الجهد الوحيد الذى يحتاج الشخص إلى القيام به هو : الجهد فى التفكير .

إن لدى معظمنا فكرة بأن الإرادة معناها : جعل الفرد يعمل بنفسه شيئًا ما ، أو يعمل بطريقة معينة . ولكنها تعنى فى الحقيقة أننا نجعل

أنفسنا نفكر بطريقة معينة . والأفعال[1] إنما تنمو وتبرز من الأفكار[2] والخواطر . وهذه الأفكار التى تتحكم فى الشعور أو العقل الواعى وتتسلط عليه ، هى ذاتها التى تدفع إلى الفعل وتستحث إليه . والمسألة برمتها الخاصة بالإرادة هى : الانتباه - الانتباه إلى الأفكار التى ترغب فى تحقيقها ، والتى ترى ضرورة إنجازها فى حياتك ، والتمسك بهذه الأفكار بإصرار وحزم وثبات ، وتثبيتها أمام العقل إلى أن تملأها تمامًا ، وحفظ الأفكار وصونها وتخيرها ، وعدم تركها وشأنها حتى لا تفلت وتبرح بعيدًا . إننى أستعمل هنا كلمات « وليم جيمس » بنصها وفصها ، كلمة فكلمة ، وحرفا بحرف . إنه يقول أيضًا : « إن مأساة الحياة بحذافيرها إنما هى مأساة عقلية ، والمشكلة كلها إنما هى مشكلة عقلية » . وعلينا نحن أن نفهم وندرك المعنى الخفى الذى يستتر وراء هذا القول .

ومن الصعوبة التى لا يمكن أن تنكر أن نظل أبدًا محتفظين بالفكرة الصحيحة فى عقلنا . والفرد حين يشعر أو يتأثر بنهج معين ، فالميل إنما يكون إلى التفكير تجاه ذلك الخط فحسب . فإذا جاءت فكرات أخرى تفرض نفسها للفت النظر ، علينا أن ندفعها جانبًا على الفور . وإذا

---

(١) الفعل : جهد من نوع ما - وقد يكون بعض مظاهر النشاط الحيوى . وقد يكون عملاً من الأعمال التى تتم فى داخل الجسم .

(٢) الفكر : من التفكير الذى هو مجرى من المعانى والصور الذهنية .

أردت أن تصغى باستمرار إلى « الصوت الرخيم الهادى » ، صوت الإدراك ، وأن تبقى أمينًا مواليًا للأفكار الصحيحة ، على الرغم مما يعترضها من أفكار أخرى سقيمة ، فإنك بكل تأكيد ستحرز كسبًا ونصرًا وفوزًا عظيمًا .

وإنك لترى – يا قارئى العزيز – أن المقاومة الوحيدة التى يجدر بنا أن نتغلب عليها ونقهرها قهرًا ، هى العادات القديمة الخاصة بالمشاعر التى تعمل كل ما فى استطاعتها لمنعنا من تركيز الانتباه على الأفكار الصحيحة . وما علينا – إذن – إلاّ أن نتجاهل هذه المشاعر بقدر الإمكان ، ونطأها تحت أقدامنا متجنبين إياها ، معرضين عنها ، مبعدين إياها عن العقل الواعى . وبالإضافة إلى هذا ، يجدر بنا ، بطبيعة الحال ، أن نعرض أمام العقل – بكل الطرق الممكنة – الفكرات التى نؤثر إجلاءها ، والكشف عن غوامضها . وعلينا أن نستعمل الإيحاء الذاتى[1] بجميع صوره وأشكاله بمواظبة وإصرار وبصفة منتظمة . والإيحاء الذاتى – بكل بساطة – هو حصر الانتباه لإمعان الفكر فى فكرة واحدة .

فمن أين تأتى هذه المشاعر المزعجة فى بادئ الأمر ؟ وما مصدرها ؟

---

(١) أفردنا فصلاً خاصاً بالإيحاء الذاتى فى كتابنا « نحو حياة مشرقة » بسلسلة « اقرأ » العدد رقم ٢٤١ – دار المعارف .

إنها تتولد من الأفكار والأفعال . فجميع المشاعر إنما تنشأ بهذه الكيفية . وهذه حقيقة هامة يجب ألاّ تفوتنا . فإذا أرغمت نفسك عن قصد وتعمد ، وبتبصر وأناة ، على أن تفكر وأن تعمل بطريقة مختلفة فعّالة فيها تحمس وصلابة وقوة ؛ فإنك ستخلق مجموعة جديدة من المشاعر الطيبة التى تلائمك وتناسبك ..

احكم مشاعرك :

وإذا ظفرت بالحصول على الشعور الصحيح القويم ، وجعلت منه ركيزة لك ترتكز عليها ، فإنه سيدفعك إلى هدفك قدمًا بدون أى عناء أو مشقة . وبدون بذل أى جهد من جانبك سواء أكان عمليًّا أم فعليًّا . وكذلك الحال مع المشاعر الخاطئة المؤذية ، فإنها ستحثك على التدمير ، وتدفعك نحو الخراب والدمار ، ما لم ترد أنت أن تكون هذه الأشياء على العكس من ذلك .

وإذا أنت سعيت بجد واهتمام إلى أن تحكم مشاعرك ، وتسيطر على إحساساتك بـ : قوة إدراكك ، وحكمك وإرادتك ، فلا شك أنك ستخوض غمار معركة كبيرة .

فانشطْ وقوِّ نفسك استعدادًا لهذه المعركة الفاصلة ، ذاكرًا أنها

لا تخرج عن كونها عملاً نافعًا ذا فائدة كبيرة ، فمعناها هنا : النمو ، والترقى ، والتقدم .

واذكر أن فيك ، فى داخل نفسك ، فى طويتك ، قدرة لا نهاية لقوتها . بل إن لك من القوة أكثر مما تدرك . وأشد بأسًا من قوتك المقاومة . وهذه القدرة يمكنها أن ترفعك وتنقلك إلى أى شىء ، وإلى كل شىء ، وتسمو بك إلى القمة إذا بذلت جهدك فيما يعود عليك بالنفع .

وإنك لواصل حتمًا إلى النقطة التى تبدو فيها المشاعر على قسمات وجهك واضحة بينة ناطقة بما تقوله نفسك بينك وبينها :

« لقد خبرتك الآن ، وعرفت أن ليس بوسعك أن تحكمينى ، وأن ليس لديك القوة التى يمكنك أن تسيطرى بها على حياتى .. كفى ما نالنى من أذى وسوء ، فأنا من الآن إلى أن يشاء الله ، السيد المسيطر على نفسى وروحى .. أنا السيد المهيمن على عقلى وأفكارى وعلى جميع أفعالى .. وعلى قسمتى ونصيبى .. وعلى حظى فى الحياة .. أنا الربان الذى يدير دفة ذاته .. أنا حر .. » .

الفصل السابع

قواك المدّخرة

رأيت العقل عقلين　　فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع　　إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس　　وضوء العين ممنوع

« على بن أبي طالب »

« إن قيمة الشيء إنما تقاس بمدى الفائدة التى تعود عليك منه ، وبمدى الخبرة التى يجديك إياها » .

« هنرى ثورو »

إن ما يسميه وليم جيمس « النَفَس الثانى » لا يحدده الجهاز التنفسى بمفرده ، لأننا نرى أنه يعبر عن نفسه بأشكال أخرى من الفعل والاحتمال والجلد . و « النفس الثانى » ، يعنى بكل بساطة أننا صرنا إلى ما نحن عليه من عادة التبصر فى غاية جهدنا فى الظروف العادية .

و « النفس الثانى » ، يقصد به البدء فى اجتذاب قوتك المدخرة . فنحن نرى من حين إلى آخر أننا اجتزنا لا شعوريًّا حدود التفكير « العادى » ، وأننا فى دهشة من أنفسنا . ولقد أمكننا أن نفعل الآن ذلك كلما أردنا ، وبهدم الحدود التى فرضها التفكير ، أمكننا شيئًا فشيئًا أن نضيف إلى قوانا مزيدًا من القوة .

ولا شك أن كثيرًا من القراء سيبادرون بالسؤال : « إننى أرى أن هناك أفرادًا بعينهم ممن يقلون عنى فى كل شىء ، وممن لم يبذلوا جهدًا كبيرًا يستنفد قواهم ، يمكنهم بكل سهولة أن يصلحوا من حالهم باستعمال قدراتهم استعمالاً ذكيًّا عاقلاً . أما قدراتى فضعيفة جدًّا ، كما أنى واهن العزم ، خائر القوى ، ضعيف ، فاقد الأمل ، أشعر شعورًا أكيدًا بأن حالتى تختلف اختلافا بيِّنًا عن حالته » .

وإنى أجيب عن هذا بأن أساس هذه الفكرة هو الافتقار الشديد إلى الفهم . وأنت فى حاجة ماسة إلى إدراك صحيح للقوة التى تمتلكها ، أو أنك لم تحاول قط أن يكون لديك مثل هذا الفهم والإدراك .

هل تعلم أن جسمك وعقلك يمتلكان قوى مدخرة عجيبة لم تستنفد منها شيئًا حتى الآن ؟ .. وأن هذه القوى أقوى بكثير من أية قوة يمكن أن يستهلكها أى فرد إلى حد استنفادها ؟ .

واستمسك الناس منذ أجيال بتحديد الأفكار التى أقامت الحواجز الحقيقية . ولقد قيدتنا التربية ببعض الطرق والأساليب . فالقدماء لم يكونوا يعرفون شيئًا عن السيارات والطيارات ، وغير ذلك من الآلات الصناعية الحديثة التى نراها اليوم . ولكنهم مع ذلك كانوا يعرفون أشياء كثيرة لا نعرفها اليوم . بل إننا نقف إزاءها عاجزين عن إدراك غوامض أسرارها ، ولقد عاشوا حيوات أطول مما نعيشها اليوم ، وكانت أجسامهم أقوى بكثير من أجسامنا ، وأشد احتمالاً منا ، وربما كانوا أسعد حالاً من حالنا .

لا شك أن أسباب الراحة والترف والرفاهية التى ننعم بها ، ضررها أكثر من نفعها ، فإنها تجعل الحياة أسهل منالاً وأكثر هونًا ، ولكن هل السهولة واليسر والراحة تميل تجاه القوة ؟ .. سبق أن قلنا من قبل أنه ليس هناك إلاّ طريق واحد يؤدى إلى الترقى والنضج والنماء ، وهذا الطريق هو كيفية استعمال ملكاتنا .

وبمرور الأجيال ، جيلاً بعد جيل ، وبمرور العصور ، تحول عقل الإنسان إلى الاتجاه الذى جعل حياته أكثر بساطة وأكثر سهولة ، وزاد

عليها من أسباب الراحة والرفاهية الشيء الكثير. وكان عليه أن يستعمل عقله بحيث يمكنه أن يواجه المنافسة الحادة التى تصادفه اليوم وأن يعيش ويواجه الحياة بمحتوياتها وأعبائها ..

يقول إيمرسون : « سوف ينتهى كل امرئ إلى وقت يدرك فيه أن الجسد جهل ، وأن التشبه انتحار ، وأنه ينبغى للمرء أن يأخذ نفسه على علاّتها ، ويرضى بها كما قسمها الله له . ويعلم أن الأرض على امتلائها بالخيرات ، لن تهبه حبة من شعير ما لم يبذل الجهد على تعهد الأرض التى تنبت الشعير. وأن القوة التى أودعها الله فيه فريدة فى نوعها ، فلا أحد غيره يعلم كنهها ، ولا هو نفسه يحيط بمداها مالم يضعها موضع التجربة .

إن الثبات والاحتمال يجعلانك تنمو قويًا ، متينًا .

ولقد وهبك الله قوى وقدرات لكى تستعملها وتستغلها . فإذا أخفقت فى استعمالها بحق وعلى أتم ما يكون الاستعمال ، فالخطأ إنما يرجع إليك وحدك . ولقد سلمنا من قبل بأننا جميعًا نقع تحت سيطرة التحديدات الموروثة التى تقيد حريتنا وتعرقل قوتنا . ولكن هذا لا يعنى إطلاقًا أننا نعترف بالقسمة والنصيب ، ولا يجعلنا نستسلم للبخت والحظ . ولقد قيل إن رجلاً مثل « إديسون » لم يكن يستعمل سوى

٧٥ ٪ من خلايا مخه . ويقول لنا العلماء إننا نمتلك ملايين من خلايا المخ لم نستعملها ولن ندربها قط .

وليس المقصود بطبيعة الحال ، أننا نستعمل طاقتنا كلها فى كل وقت ، فى حين أنه من الضرورى أن يكون لدينا قوة احتياطية مدخرة ، يمكن أن نلجأ إليها حين يتعذر علينا أمر من الأمور . ولابد هناك من لحظات يتحتم علينا فيها أن نستنجد بقوتنا المدخرة .

تنفس بعمق :

ولا ينبغى أن ننسى أو نتناسى أننا أعلى وأسمى صورة فى الحياة . وهذه الفائدة العرضية قد تمدنا بالثقة التى يمكن أن تتيح لنا القدرة على التصدى لأى مشكلة من المشكلات ، ومجابهة أى قضية من القضايا ، بإرادة قوية ، وعزيمة ثابتة ، وقلب رابض رابط ، وحماس دافق .

خذ مثلاً ، الرجل المتوسط أو المرأة المتوسطة ، فهما يتنفسان تنفسًا سطحيًا . ويحتمل أن يكون السبب ناتجًا عن العادات الكسولة التى كونها أوكونتها . مع أن هناك حدودًا معينة خاصة للتنفس فى غاية الأهمية . فنحن فى حالة المرض نكون فى أشد الحاجة إلى احتياطى ، فإذا لم نكن نتنفس بعمق فقد نتسبب فى جعل هذا التنفس صعبًا على الخلايا النامية فى وقت المرض . ولسنا نبالغ إذا قلنا إننا نمرن فقط نصف خلايا

الرئة . ومعنى هذا أن النصف الآخر يبقى فى حالة ضعف ووهن . ومن هنا يأتى المرض أو الداء الذى يجعل التنفس صعبًا ، فيجعلنا نثقل على هذا الجزء النامى من الخلايا بما يجب أن تتحمله كل الخلايا . ونتيجة لذلك نجد أناسًا كثيرين عاجزين عن مواجهة هذه الأزمة .

وإنك لتعرف أن التنفس يلعب دورًا فى غاية الأهمية فى حياتك . فهو تلك الوظيفة التى تطرد كثيرًا من المواد العادمة ، وتنقل إلى الدم إخصابًا يعتبر من أهم ضرورات الحياة .

ولا تخف من أن يفرغ الهواء من عندك بالتنفس العميق كالشاب الذى جاء ذات يوم يسألنى : « لقد مارست التمرين الخاص بالتنفس العميق حسب تعليماتك مرة واحدة ، إنتابنى بعدها دوار شديد وأحسست كأنى فقدت نفسى » . نعم ، قد يحدث فى بعض الأحيان أن يصاب الفرد بشىء من الدوار حين يبدأ فى ممارسة منهاج التنفس العميق ، وذلك لأن الأجزاء لم تتعود بعد على هذه الزيادة الإضافية من الهواء الذى يغمر حتى هذه اللحظة الجهاز التنفسى . وحتى هذه اللحظة أيضًا يزيد فى تنبيه الأعصاب ويبالغ فى إثارتها ، فيشعر الفرد بهذا الدوار . ولكن ليس هناك أى ضرر من هذا وليس ثمة ما يثير مخاوفنا ، وغاية الأمر أنه بذلك يبين أن رئتى الشخص ضعيفتان ، ولذلك فهو فى

حاجة قصوى إلى مثل هذا التمرين . وإذن فليس للفرد أن يخشى شيئًا ألبتة من فقد تنفسه .

والرئتان مزودتان بثلاثة أقسام منفصلة من الهواء الاحتياطى : هناك الاحتياطى الذى نستعمله فى الشهيق والزفير ؛ ثم هناك الاحتياطى الذى نسميه بالهواء المكمل ، الذى نلجأ إليه حين ينفد القسم الأول بمجرد حدوث صدمة مفاجئة ، أو سقوط إثر ضربة شديدة كالتى نسميها فى الملاكمة « الضربة القاضية » ، ثم هناك أيضًا ما يسمى بالهواء المتبقى أو الراكد فى الرئتين بعد الزفير . إذن فأنت ترى أننا مزودون بما يجعلنا قادرين على مواجهة أى طارئ مفاجئ .

وبنفس هذه الطريقة لدينا قوة احتياطية مدَّخرة فى كياننا كله .. ألم تعد ذات مرة إلى بيتك بعد تعب يوم مضنٍ فى عمل شاق إلى أبعد حدود المشقة ، ولسان حالك يقول : « لقد هلكت ، وانقطعت أنفاسى ، ولا يمكننى أن أخطو أية خطوة أخرى لإنقاذ حياتى ، خلاص انتهيت » ؟ .. ثم يطرأ على حين فجأة شىء غير عادى ، كأن يشب حريق فى منزل مجاور لمنزلك ، يجعلك تقفز من مكانك ، وتلبس نعلك بأسرع ما يمكن ، وتجرى بأقصى سرعتك ، لتشهد اللهب وأعمال الإنقاذ وفى نفسك تحفز للمشاركة فيها ؟ .. لاشك أنك ستقف عدة ساعات تتناوبك فيها عدة عوامل ، ثم تعود بعد ذلك إلى بيتك أقل تعبًا

مماكنت . بل ربما تكون قد نسيت تمامًا ماكنت تشعر به من تعب شديد . فالتهيج والاستفزاز والاستثارة قد استنجدت جميعها ببعض قوتك المدخرة ، وتغير التفكير ، هدم التحديدات الثابتة التى كنت تستمسك بها . فأنت عندما عدت من عملك استمسكت بفكرة محدودة هى : «لا يمكننى أن أذهب إلى أبعد من ذلك» ، وأصررت على هذه الفكرة ، ولكنك رأيت أن هذه الفكرة المحدودة قد انتقلت توًا فى تلك اللحظة وارتحلت بعيدًا .

وهاك مثال آخر : لنفرض أن لديك بعض مهام كريهة إلى نفسك ، تنفر من القيام بإنجازها وتضطرك إلى السير على قدميك مسافة تبلغ خمسة أميال لمقابلة أحد الرؤساء . فأنت فى هذه الحالة تسير وتتابع السير ، مستغرقًا فى التفكير فى الواجب الذى يتعين عليك إنجازه – وكلما واصلت السير زاد اكتئابك وزادت عزيمتك فتورًا وتشعر بقدميك تثقلان شيئًا فشيئًا ، فتبطؤ خطواتك ، وتتقطع أنفاسك ، ويخيل إليك أنك لن تستطيع الوصول إلى النهاية ، حتى إذا بلغت نهاية الشوط يكون التعب قد أنهكك وأرهقك ، وتشعر وكأنك ستسقط فى مكانك ، أو أنك « ستقع من طولك » كما يقولون .

ودعنا الآن نسير هذه المسافة من هذا « المشوار » فى ظروف أخرى مختلفة عن سابقتها ، بصحبة فتاة نحبها – مثلاً – أو مع صديق مؤنس

ودود . لا شك أنكما ستمضيان معًا طول المسافة تتسليان بالحديث الممتع الشائق ، وتتسامران كأحسن ما يكون السميران ، لا يهمك من أمر نفسك شيء بقدر ما يهمك من أمر الشخص الآخر .. يالها من سعادة ، ويالها من بهجة تلك التى تستشعرها وأنت تمضى الخمسة أميال دون أن تحس بطول المسافة ، ودون أن تشعر بانتهائها .. من المؤكد أن رفيقين أو صاحبين كهذين ، تحت ظروف أو حالات كهذه يمكنهما أن يقطعا هذه المسافة ذهابا وإيابًا أكثر من مرة .

والتفاوت أو الاختلاف هنا ، بين الحالتين كما ترى ، ناتج كله عن اختلاف الميل أو الاتجاه فى التفكير. ففى الحالة الأولى نجد أفكارًا غامة محزنة ، تسعى سعيها وتؤدى دورها أقوى ما يكون الأداء ، فكنت لذلك مرهقًا تعبًا ، أما فى الحالة الثانية فإن الأفكار المنعشة ، المنبهة ، المشجعة ، هى التى كانت موجودة لديك ، مسيطرة عليك ، وهى التى أثارتك وحفزتك ، بل أضافت إليك مزيدًا من القوة وأمدتك بروافد من القدرة .

طاقة لا تنضب :

وما يزال هناك مثال آخر ، يرينا كيف نحدد أنفسنا جميعًا ، ونحصرها فى خطوط فيزيقية . فالشخص الذى يذهب عقله فجأة ،

ويصاب بنوبة جنون مفاجئة ، يمتلك فى تلك اللحظة قوة تعادل قوة شخصين أو ثلاثة أشخاص عاديين . ولقد رأينا جميعًا حالات تستدعى الاستعانة بأربعة أشخاص للإمساك برجل واحد .

إذن فمن أين جاءت كل هذه القوة الهائلة فى الدقائق القليلة التى مرت بين فترتى صحة العقل والجنون ؟ .. هذا لأنه عندما انتهى إلى حالة الجنون نسى نفسه تمامًا ، وبذلك هدم كل حدود الفكر واستعمل كل كيانه .. أو بمعنى آخر ، استعمل جسمه كله ككتلة .. إنه يمتلك تلك القوة دائمًا كل الوقت وفى كل وقت ، وهى كائنة فيه لا تفارقه . ولكن نظرًا إلى تلك القيود ، وتلك الحدود ، فهو لا يستطيع استعمالها . ولقد كان ذلك كله اختلافًا وتباينًا فى الاتجاه العقلى . فهو حين كان صحيح العقل كان يشعر فى قرارته بأنه لا يمكنه أن يقوم بعمل أشياء بعينها . ولكنه فى حالة الجنون زايلته هذه الفكرة وامّحت تمامًا .

إن اتجاهنا الطبيعى هو أن نعمل أقل ما يمكن عمله . وأن نسلك الطريق السهل ، ونتبع الأساليب التى لا تستدعى جهدًا . وهذا هو التفكير الخاطئ الذى يفرض « كضريبة » فى الوقت المناسب على حدود الفكر لطبيعة العادة – والعادة – كما نعرف ، من الصعب تركها أو الإقلاع عنها .

تخيل الطاقة كما لو كانت شيئًا عامًّا عالميًّا مباحًا للجميع .. شيئًا يمكنك أن تسحب منه بحرية ما تشاء ، وقتما تشاء .. مستمسكًا بالفكرة التى تؤكد أن الزاد وفير ، والإمداد كثير ، وهما من الصراحة والوضوح بحيث يراهما ويلمسهما كل راغب مريد .. ثم تصور مخك وجسمك كما لوكانا واسطة أو وسيلة تعبر عنهما هذه الطاقة العامة . أشعر نفسك بأنه فى مقدورك أن تأخذ من هذه الطاقة ما تشاء ، وأن تستغلها لمنفعتك ، وأن تشغلها وتجعلها تسعى جادة كادحة للحصول على الأشياء التى تعتقد أنك فى حاجة إليها . وهذا أشبه تمامًا بالغذاء الذى نتزود به ، فإنه يتحول عن طريق الأعضاء والأنسجة المختلفة خلال الفعل الذكى المدرك ، لمجموعة الخلايا المختلفة إلى الاستمراء اللازم وإلى فضلات بوساطة التركيب العضوى .

ويشاهد الفعل المماثل فى تحول الطاقة – عن طريق الفن الآلى الحديث – إلى ضوء وحرارة وقوة محركة حسب الإرادة . والطاقة فى كل حالة من هذه الحالات إنما هى فى الأصل ذات الشىء .

وعند التأمل فى قواك أريد منك أن تذكر أن ليس هناك سوى طاقة واحدة عامة ، شائعة فى الكون كله . وهذه الطاقة تتمثل فى حواسنا بصور وأشكال متفاوتة متنوعة ، وتعبيراتها الفردية تعينها أسماء مميزة ،

وسواء أكانت تبدو واضحة فى الجاذبية والاستطارة[1] ، والبناء[2] ؛ أم كانتقاض[3] كالكهرباء والضوء والقوة والبصر ؛ أم كفكر ، فهى دائمًا – بعناصرها – واحدة .. وهى دائمًا نفس الشىء .

والإنسان هو الذى يحدد نفسه فى جميع مراحل حياته – عقليًّا ، وماديًّا ، وجسديًّا ، واجتماعيًّا ، وماليًّا ، والفرد يمكنه أن يحجب عن نفسه تمامًا أشعة الشمس إذا وضع قطعة صغيرة من النقود على كل من عينيه . ويمثل هذه الطريقة الحمقاء يحدد الشخص رؤى قوته الحقيقية ، وإمكاناته المستقبلة .

أما فيما يختص بالأعمال التجارية فالرجل المتوسط يفكر بطرق وأساليب بسيطة ، إذ أن تأثره النظرى وثقته بنفسه تحددهما بدرجة عظيمة مناهج تفكيره الضيق .

كما أن كثيرًا من المرضى ينسون القوة التى يمتلكونها ، ويرفضون فى أغلب الأحيان أن يفتحوا الأبواب لأمهم الرءوم – الطبيعة .. لقد تركوا أنفسهم نَهبًا للهواجس حتى وهن العظم منهم ، وخمدت همتهم ،

---

(١) الاستطارة : أو الطيرورة . إحساس الشخص كأنه يطير .

(٢) البناء : أو الأنابولزم – التجدد الخلوى فى الأجسام الحية .

(٣) الانتقاض : أو الكاتابولزم . هو الدثور الخلوى فى الأجسام الحية . والأيض أى الميتابولزم فى علم الأحياء ، هو مجموع العمليات البنائية والانتقاضية فى التمثيل الغذائى الحيوى فى الجسم .

واستسلموا للضعف والوصب ، وهذا الأمر كاف لأن يقيم أمامهم جدارًا حجريًّا يجدون أنفسهم حياله فى عجز عن اجتيازه .

وبجانب ذلك ، الحالات الفيزيقية أو الجسمانية ، فالشخص الذى وصل إلى منتصف الحياة ، يبدأ يهتم بنفسه ويرعاها ويعمل على وقايتها بشتى السبل ، حتى إنه يعتقد أن ليس فى مقدوره القيام بعمل أشياء فيزيقية معينة قام بعملها مرة قبل ذلك . فهو لذلك يشيخ قبل الأوان . وبعدم استعماله لعضلاته تضعف شيئًا فشيئًا ، وتزداد ضعفًا إلى أن يغدو ، بطبيعة الحال ، فى أشد الحاجة إلى حيويتها ومرونتها ، وصحة بنيتها لأداء وظيفتها . وهو لذلك إذا حاول تجربة شىء فإنه يشعر بالألم والعجز عن تحريكها كما يجب ، فتنطبع فكرة الضعف فى عقله بعمق ويتملكه الأسى والأسف والحسرة .

رأيت منذ زمن قريب أربعة من اللاعبين المتمرسين ، يعرضون حركات بهلوانية كانوا يمارسونها فيما مضى على المسرح ، من رقص وانثناء والتواء ، وغير ذلك من حركات تستدعى خفة الحركة والمرونة . لقد كانوا جميعًا فوق الستين من سنى حياتهم . كان الواحد منهم « عجوزًا » . ولكنه كان نشيطًا ، رشيقًا ، يؤدى بسهولة حركات من العسير إتيانها ، كأن يضع كلتا قدميه خلف رأسه ، ويمشى على يديه . ومعظم الناس الذين يستطيعون القيام بتأدية هذه الحركات بالذات ،

حرصوا كل الحرص على إعداد أنفسهم حسب الأصول الطبيعية لكى يكونوا صالحين لمثل هذا العمل ، خليقين به ، وظلوا يتمرنون السنين الطوال . ولقد أتاحت لهم هذه السنون الطويلة اكتساب خبرات لم تتهيأ للآخرين . والأمر كله لا يعدو شيئين هما : الثقة ، والمران أو الممارسة .

الطريق إلى الرضا :

إذن ، ليس لدينا إلاّ أن يعمل كل منا فى جوه الخاص به ، وفى محيطه ، وفقًا للحكمة التى يمكنه بحذقه ومهارته أن يجتذبها من المخزن العالمى العام . ومن البديهى أن هذا لن يتأتى إلاّ بالاحترام اللائق المتبادل بينه وبين رفاقه ومن يعايشونه بل العالم على الإطلاق .

اصنع عالمك الذى تريد أن تعيش فيه ، وليكن هذا العالم مليئًا بالخير ، وحب الخير للغير ، والحماس ، والاستقامة .

تتبع الميل العام لدوافعك الطبيعية كما يكيفها ويحورها ويوجهها عقلك ، بدون خوف أو وجل ، وبدون اختلاف فى الرأى ، بنفس راضية ، وبروح سمحة ، حرة ، مستقلة ، فيها عزم وحزم وتصميم . وتأكد أن كل ما تحتاج إليه من أجل تأدية العمل المناسب تحت أمرك دائمًا . واعلم أن وجودك فى الحياة لابد أن تكون له ضرورة جوهرية تدعوك لأن تنشد الكمال فى كل الأحوال . أما الأفعال الفردية الخاطئة

فلن يكون لها أى أثر يذكر ، مادام سلوكك وتصرفك – بصفة عامة – يقومان على نية صادقة ، وقصد سليم . وستنال من الآخرين التقدير والثناء ، ومن الله حسن الجزاء .

وهناك درس آخر له أهمية فريدة فذة ، لمن لديهم الرغبة كل الرغبة فى أن يتعلموا ، هى أن القبلة الوحيدة التى يجب علينا أن نتوجه إليها خاشعين متبتلين ، هى قلوبنا ، والكشف عن القيمة التى لا تقدر لقلوبنا الكبيرة المؤمنة ، إنما يكون بالهدوء والصفاء النابع من نفوسنا .

وثمة درس آخر له من الأهمية ما لسابقه لمن أراد المزيد من العلم هو : إن كل ما يحتاج إليه الفرد فى دنياه لكى يحيا حياة حرة كريمة كاملة عظيمة ، إنما هو موجود فيه ، فى طويته .

لا تغلق عقلك عن نقاش الآخرين وجدلهم وتعليلاتهم .. دعه مفتوحًا للاقتناع . ولكن لا تقبل أى بيان أو تقرير ولا تسلم بأى موضوع ما لم يرق لك ، وما لم يتفق مع قوة استدلالك .

ابن فلسفتك الخاصة بك ، بما يمكن أن تجمعه شيئًا فشيئًا مما تراه منطويًا على الحقيقة والصدق ، من هنا ومن هنالك ، ومن كل مكان ، ثم صغها فى حقيقة كبيرة واحدة تلتقى مع كل حاجة من حاجاتك .

إن قواك ستزداد عن طريق الاستعمال فقط .. وستظفر بالاتصال

بعقلك الباطن ، وبمخزن معلوماتك ومعارفك ، وبقوتك وقدرتك ، عن طريق واحدة هى أن تجعل نفسك تألف هذه القوى وتعتادها ، وتدخل معها فى صلات ودية مخلصة . فهناك .. فى داخلك ، إمكانات كبيرة للغاية ، فى انتظار الوقت الذى تكون عندك فيه الرغبة والإرادة لطلبها ، والجد فى السعى للحصول عليها .

وهل تعلم أن نفسك اللاشعورية ، إذا دربتها بصدق وإخلاص فإنها ستحل لك معظم مشكلاتك الصعبة ؟ .

إنى أكرر لك مرة أخرى وأخيرة ما سبق أن قلته من قبل ، وهو أن تذكر جيدًا ، وتضع نصب عينيك دائمًا أن كل ما سبق أن قرأته وسمعته ورأيته وشعرت به مخزون كله هناك .. فى نفسك اللاشعورية .. إنه مكان أشبه شىء « بدار الحفظ » فى الجرائد الكبيرة ، ملىء بمعلومات من جميع الموضوعات .

هل تريد الحصول على قرار حاسم فى أمر معين ؟ .

هل تريد أن تقطع بشىء فى رأى أو عمل ؟ .

إذن يتعين عليك أن يكون لديك كثير من الحقائق تضعها أمامك موضع البحث والفحص حتى يمكنك أن تحكم فيها بحكمة وفطنة وتعقل . وأنت لا يمكنك أن تسترجع كل هذه الحقائق شعوريًّا ، ولذلك فإن الشىء الذى يجب أن تفعله هو أن تقرأ الموضوع أولاً ، إذا

كان جديدًا عليك ، ثم حوّله كله إلى عقلك الباطن حتى يمكنك أن تبت فيه فيما بعد . وبالتمرين والتمرس على هذه الخطوط سيأتى اليوم الذى يمكنك فيه أن تعتمد اعتمادًا كليًّا على العقل الباطن ، كما يعطيك الحكم الصائب حسب الوثيقة المعدة والمؤسسة على التجارب الماضية. فإذا تم لك ذلك ، فإن عقلك الباطن سيمضى إلى السجلات والأضابير الكثيرة العقلية . حيث تختزن الحقائق ، ثم يجمعها ويرتبها وينسقها ، بحيث يجعلها معدة لتتسلمها عن طريق انفعال أو انطباع ذهنى . يفيد أن هذا أو ذاك هو الشىء الذى يليق بك أن تفعله . إنها طاقة مدخرة أخرى لم حاول الشخص المتوسط أن يستغلها أو أن يجد فى طلبها لاستخدامها .

يقول وليم جيمس : « إذا قسنا أنفسنا إلى ما يجب أن نكون عليه ، اتضح لنا أننا أنصاف أحياء . فإننا لا نستخدم إلاّ جانبًا يسيرًا من (مواردنا) الجسمانية والذهنية . أو بمعنى آخر ، يعيش الفرد منا فى حدود ضيقة يصطنعها داخل حدوده الحقيقية . إنه يمتلك قوى كثيرة مختلفة ، ولكنه عادة لا يفطن إليها ، أو يخفق فى استخدامها » .

وإن دراسة جادة منظمة فى حياتك العملية عن البشرية ، وعن الإنسان ، كما بينا لك من أمثال ، قمينة بأن تفتح لك آفاقًا رحبة ، وتتيح لك إمكانات عجيبة ، وتجعل حياتك أكبر وأوسع وأجدى مما هى عليه فى جميع الأحوال .

تمعن جيدًا فى هذه الحقائق الواضحة قبل أن تواصل السير فى هذه الرحلة العقلية فى الطريق إلى الرضا ..

ولقد حاولت جاهدًا فى هذه الفصول ، أن أعرض عليك طريقة السير لسلوك السبيل السوى ، الذى يجدر بالشخص العاقل أن يتبعه ، بعد أن يكون قد تأهب للقيام بجميع المستلزمات الضرورية التى لابد منها لمثل هذه الرحلة الشاقة ..

وآمل أن يكون إدراكك أو تصورك للطريق الوعر الشاق ، الذى أمامك ، قد وضحت معالمه ، واتضحت مسالكه ، بهذه المحاولات المتواضعة التى عرضتها عليك – أيها القارئ الكريم – وإنى لعلى يقين من أنك ستسير قدمًا ، بخطوات حثيثة ثابتة ، متوجًا بأكاليل الفوز والظفر والانتصار ، إلى غرضك الأسمى : الرضا الكامل أو منتهى الرضا .

الفهرس

الصفحة

الفصل الأول : كيف أوفق إلى العمل المناسب ؟ ... ٥

الحياة حركة – افهم نفسك – كوة لكل
إنسان – سبب الإخفاق .... ٩ –١٨

الفصل الثانى : ذلك الشعور بالتعب ١٩

الكراهية العقلية – طاقة لا تنضب – ابحث
عن السبب العقلى .... ٢١ –٢٧

الفصل الثالث : قيمة التأمل ٢٩

الضعف ناشئ عن العادة – الطلب
والالتماس – طرق ومسالك – معاهدة مع
الأنا – اذكر هذه القوانين .... ٣٢ –٤٥

الفصل الرابع : أنت سيد نفسك ٤٧

الميول الموروثة – وجهان من العقل مختلفان –
وراثة الصفات – هل يمكن تهذيب العقل

الصفحة

الباطن ؟ رواسب من حالات الماضى - مأساة
لم تتم .... ٥٠ - ٦٠

الفصل الخامس : اعمل بانسجام مع قوانين الطبيعة ٦١
الصحة والقوة والسعادة والنجاح - تعاون على
العمل مع قواك الخفية - قانون العلة
والمعلول - طاقة هائلة .... ٦٣ - ٧٤

الفصل السادس : انفعالاتك : كيف تستخدمها ؟ ٧٥
ما هو المزاج العصبى ؟ - الإدراك والإدارة -
عناصر العقل - سيادة الانفعالات - احكم
مشاعرك .... ٧٩ - ٩٦

الفصل السابع : قواك المدخرة ٩٧
تنفس بعمق - طاقة لا تنضب - الطريق إلى
الرضا ١٠١-١١٤

كتب أخرى للمؤلف

	السنة
١ – آمال : شعر منثور	١٩٣٢
٢ – هيام : شعر منثور	١٩٣٣
٣ – مسألة الجنسين : من الوجهة السيكولوجية والبيولوجية	١٩٤٥
٤ – القوى العقلية : تدريب نفسانى	١٩٤٦
٥ – دليل الإسكندرية : أول دليل من نوعه عن الإسكندرية	١٩٤٧
٦ – الأحلام والرؤى – دار المعارف (سلسلة اقرأ)	١٩٥٦
٧ – لكى تكون سعيدًا – دار المعارف (سلسلة اقرأ)	١٩٦١
٨ – نحو حياة مشرقة – دار المعارف (سلسلة اقرأ)	١٩٦٣
٩ – الطريق إلى النجاح – دار المعارف (سلسلة اقرأ)	١٩٦٦
١٠– الروح والخلود بين العلم والفلسفة (سلسلة اقرأ)	١٩٧٠
١١– العقل منبع الحكمة : عن دار الفكر العربى	١٩٧٧
١٢– العودة للتجسد فى المفهوم العلمى الحديث « منشأة المعارف »	١٩٧٤
١٣– الروحية طريق الحياة : المركز العربى للنشر والتوزيع	١٩٧٩
١٤– الشيخ طنطاوى جوهرى : دراسة ونصوص عن « دار المعارف »	١٩٨٠
١٥– علم النفس : وكيف يمكن أن يساعدك المركز العربى للنشر والتوزيع	١٩٨٢
١٦– عقدة النقص : معناها وعلاجها المركز العربى للنشر والتوزيع	١٩٨٢

رقم الإيداع	١٩٨٣/ ٥٣٤٢
الترقيم الدولي ٤-٠٦٦٤-٠٢-٩٧٧	ISBN

١/٨٢/٢٤٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



د. حسين فوزى النجار

الإعلام المعاصر



اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٤٩٥] - يناير - ١٩٨٤

رئيس التحرير أنيس منصور

د. حسين فوزى النجار

الإعلام المعاصر



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإعلام قديمًا وحديثًا

الإعلام قديم قدم المجتمع الإنسانى ، فحيث ظهرت الجماعة المنظمة – وهى قوام الجماعة السياسية فى علم السياسة ، ظهرت معها وسائل الإعلام والحاجة إليه ، ولعل الحاجة إليه قد بدت مع قيام أول خلية اجتماعية وهى الأسرة ، فقد كان على رب الأسرة أن يحذر أولاده مما يعرض لهم من أخطار البيئة ، سواء كان وحشًا كاسرًا أو رعدًا قاصفًا أو عاصفة جائحة أو مطرًا منهمرًا أو سيلاً جارفًا . فلما قامت العشيرة كانت حاجتها إلى الأمن والحماية تحملها على انتهاج ما يحقق لها حاجتها من اتقاء غارة الوحوش على منتجع اختارته لإقامتها فترقب الطرق التى تنفذ منها الوحوش إليها ، ولعلها كانت ترصد تجمعاتها وتحركاتها بمن يقومون برصدها ليخطروا بها قبل أن تدهمهم بغارتها ، فلما نمت العشيرة وتحولت إلى قبيلة ، وكان هذا النمو وليد التماسك الاجتماعى بين عشائر متقاربة غدت حاجتها إلى حماية نفسها

من بنى جنسها تغلب حاجتها إلى حماية نفسها من كواسر الغابة أو وحوش الفلاة ، والتماسك الاجتماعى صنو الخوف ، بل إن الخوف من الغير هو الذى أدى إليه ، ومادام الخوف من الغير قائما فإنه يقود إلى عداوة هذا الغير ، والعداوة توجب الحذر ، والحذر يوجب الرقابة ، وللرقابة أدواتها بداية من قص الأثر إلى رؤيا البصر ، ويحكى عن الزباء أو زنوبيا ملكة تدمر أنها كانت من حدة البصر بحيث ترى الأعداء قبل اقترابهم من مدينتها بما يتيح لها الوقت الكافى لمواجهتهم .

فلما نما المجتمع واتسع حجمه ، نمت حاجته إلى التواصل والتآلف الذى يمزج أفراد الجماعة بعضهم ببعض ، بتنمية المشاعر المشتركة والمعتقدات الواحدة ، قد تفرضها السلطة كما يرى برتراند رسل ، أو تنشأ من نفسها لحاجة الجماعة إليها ، ونستطيع أن نتصور دور الإعلام سواء عن طريق السلطة أو عن طريق الجماعة نفسها عندما يتناثر أفرادها أخبارًا تعنيهم . أو يلتقون فى حفلاتهم العامة ، ويبدو دور الإعلام بارزًا فى توكيد قيم جديدة للجماعة الجديدة فى اتساعها وامتدادها عندما تضم أقواما جددًا إليها عن طريق الغزو أو التحالف ، فلما قامت الدولة ، كما قامت فى مصر القديمة ، كانت المشاعر المشتركة من وحى أساطير ارتدت مسوح الدين وغذاها الكهنة بقيم يلتف حولها الناس ، وكان الاحتفال بوفاء النيل والمناسبات الدينية وتتويج الملك أدوات إعلامية بالغة الأثر ، فأصبح للمعبد دوره الخطير فى توجيه الرأى العام ، ولما قامت الإمبراطوريات بحروب قورش وفتوح الإسكندر والغزو الرومانى للعالم كان نشر ثقافة الفاتح هدف الإعلام المباشر .

وترتبط وسائل الإعلام القديمة بحضارة زراعية سادت طوال العصور الخوالى منذ أدت الزراعة واستئناس الماشية فى مناطق الرعى إلى قيام المجتمعات البشرية فى القرى حيث استقر الناس للزراعة ، وفى المراعى حيث يطيب للناس رعى ماشيتهم ، وفى كلا الحالين عرف الناس وسائل الإعلام بسيطة فى بداوتها بساطة

المجتمعات التى نشأت فيها ، ولعل ساحر القرية وعراف القبيلة كانا أول إعلاميين فى التاريخ فهما أصحاب المعرفة والتنبؤ والتوجيه والإرشاد حيث كان الإعلام قاصرًا على الوفاء بحاجات المجتمع .

إلا أن التقدم الهائل فى وسائل الإعلام نتيجة الانقلاب الصناعى بعد اكتشاف القوى المحركة وقوانين الطاقة قلب موازين الإعلام رأسًا على عقب ، فتحرر من إطاره الضيق إلى رحاب الدنيا الواسعة حتى أصبحت هذه الدنيا على فسحتها – كما يقال – قرية صغيرة يلم الساكن فيها بما يدور حوله من أقصى أنحاء المعسورة إلى أدناها .

ومع تقدم المجتمع ونموه المعاصر تعددت مطالب الإعلام وإن لم تتغير وسائله ، فقد بقى الصوت إعلاما بخبر يهم الجماعة نداءً بتحذير أو بلاغا من حاكم إلى الرعية كما هو لم يتغير حتى اخترعت الكتابة فأصبحت وسيلةً جديدة من وسائل الإعلام ظلت تنمو وتتطور حتى غدت على ماهى عليه الآن قوةً وازدهارًا تتضاءل دونها كل وسيلة حديثة من وسائل الإعلام المتطورة مادامت الكلمة تكتب قبل أن تذيعها وكالات الأنباء أو دور الإذاعة أو الكتب والصحف والدوريات فى الوقت الحاضر أو تنقش على الحجر كما كان شأن الفراعنة فى مصر أو تتضمنها رسالة ينقلها الرسل من مكان إلى آخر أو الحمام الزاجل حين اكتشف الناس قدرته على ذلك . كما كان من قبل .

وكان امتداد وسائل الإعلام على بداوتها وقصورها مرتبطا بامتداد الدولة ونموها فوجد أقصى مداه فى دول الحضارات القديمة مصر وبلاد الرافدين والهلال الخصيب والهند والصين ، ثم فى بلاد الإغريق وفى الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية ثم الدولة الإسلامية التى ازدهت بها حضارة العصور الوسطى ، وكان الامتداد امتدادًا فى المدى دون الوسيلة ، حين أخذت الدول بوضع نظام للبريد

يكفل لرسائلها أن تصل إلى أقاليمها فى أمان ويسر على طرق معبّدة يسلكها عمال البريد كما تسلكها قوافل التجارة والجند الذين يؤمنون لها سلطانها ، وقد أتيح لروما أن تنشئ شبكة من الطرق الجيدة مكنتها من تأمين أملاكها والسيطرة عليها سيطرة تامة ما كان لها أن تتم لولا هذه الطرق الجيدة ، كما أتاح لها نشر ثقافتها فى عالمها الفسيح .

ثم كان اختراع الورق ما يسر للإعلام وسيلة جديدة للنشر والذيوع ، فأصبح الكتاب المنسوخ أروع وسيلة للإعلام وإن بقى قاصرًا على تدوين المعرفة ودون حاجة الناس إليه وإن حفلت به المكتبات العامة يؤمها من يحفى بالمعرفة فى دورها التى غدت مراكز للعلم والدراسة فى أثينا وروما والإسكندرية ومن بعد فى بغداد وطليطلة وقرطبة والقاهرة وبخارى وسمرقند والقيروان وفى كل مكان عمته حضارة الإسلام . حتى انتقلت الشعلة إلى أوربا حين أخذت تنفض عنها غبار العصور الوسطى ، ولكنها ثوت فى الكنائس والأديرة وكانت الهوة عميقة « بين العامة المتردية فى الجهل والأمية – كما يقول هرمان راندال – فى مؤلفه الفذ « تكوين العقل الحديث » وبين الخاصة المثقفة ، وكان العامة الأميون لا يعرفون من شئون العالم الخارجى إلا ما يتلقفونه من أفواه الحجاج والتجار العائدين ، فإذا أتيح لهم نوع من المعرفة الجديدة فعن طريق راهب القرية على جهله ، ولم تكن وسائل المعرفة السائدة فى يومنا هذا كالصحف والمجلات والسينما ، فضلا عن التعليم الذى يتيح للفلاح أو الصانع معرفة ما يجرى ومايدور من أحداث فضلا عن الأفكار موجودة كلها أو بعضها قبل ستمائة عام .. هذا إلى أن الكتب والوثائق كانت تدون باللاتينية التى لايعرفها الناس ، حتى الكتاب المقدس كان باللاتينية التى نقله إليها القديس جيروم ، وحين ترجمه « ويكليف » و « هس » إلى لغة العامة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر اتهما بالمروق والخروج على طاعة الكنيسة .

وحين انتقلت المعرفة من الأديرة والكنائس إلى الجامعات . لم يكن لهذا الانتقال من أثر على الإعلام بقدر ما كان له من أثر على طبيعة المعرفة ، فلم تعد أسيرة التعاليم الثيولوجية وإن لم تكن منها بنجوة فظلت قوية الصلة بالطابع الأكليريكى ، وإن أخذت تتحرر منها على التوالى ، بقدر ما أخذت تتحرر من النظرة الأرسطية إلى المعرفة ، فلم يكن غريبا أن يثور الأسقف الإنجليزى روجر بيكون (ت ١٢٩٠) بتعاليم أرسطو ، وأن يعلن أن « هذا كان طريق السلف ، وكان ذلك هو العرف السائد والنظرة الغالبة ، وعليها أن تزول » فينادى بالنظرة العلمية إلى الحقائق والأشياء ، « فالعلم كفيل بأن يحقق العجائب وأن يغير من وجه الأرض ، وسيأتى اليوم الذى يخترق فيه الإنسان أجواز الفضاء طائرا ، ولن يكون للعربات التى تجرها الخيول مكان ، وستجرى السفن فوق اليم بلا مجاديف وتقام الجسور بلا دعامات :

من المجتمع الزراعى إلى المجتمع الصناعى :

ولم تكن ثورة الانقلاب الصناعى قد بدأت بعد ، وهى التى قدر لها أن تقلب أنماط الحياة رأسًا على عقب ، وقد سبقها ماينم عن تطلع العقل الجديد للمعرفة والإبداع فكان اختراع العدسات والبوصلة والأسطرلاب خطوة نحو عالم جديد يوشك أن يسفر عن نفسه فى قوة وعنف ، فقد كانت العدسات البداية فى صناعة الميكروسكوب والتلسكوب ، فكشفا للرائى الكثير من مغاليق الأرض والسماء ، كما قادت البوصلة الملاحين ورجال البحر نحو البحار العالية فكانت حركة الكشوف الجغرافية الباهرة ثم الاستعمار بكل عنفه ومساوئه ، وأخذ الناس يعرفون عن بعضهم البعض أكثر مما كانوا يعرفون من قبل على ألسنة البحارة وجوابى الآفاق ، ثم كان اختراع البارود فمضت الحضارة الأوربية الوليدة تغزو العالم مسلحة بالحديد

والنار ، ولم تعد أى بقعة فى العالم بمنأى عنها وغدت شعوب الأرض إما قاهر أو مقهور ، ولكن العالم أصبح عالما واحدًا .

وما كان هذا كله ليصنع حضارة تشيع وتمتد لولا اختراع الطباعة ، فهى وحدها التى صنعت العالم الجديد حين زودته بوسيلة الإعلام الأولى للفكر والتقارب الإنسانى ، وإن كنا نرى فى تلك الصورة الجديدة للعالم بعد الكشوف الجغرافية التى كشفت عن مجاهله نوعًا من التقارب والاتصال الإنسانى والعلاقات الناجمة عن هذه الصلات الإنسانية ما يحقق غاية الإعلام فى صورة من الصور تقف ندًّا للسياحة والتزاور بين الشعوب فى الوقت الحاضر تعدّها الدولة بعض وسائل إعلامها الدولى ، ثم كان اختراع الطباعة فى هذا العالم الجديد ما أضفى على الإعلام دفعة جديدة حين يسر تداول الكتاب وانتشاره بعد أن كان قاصرا على المكتبات فى الأديرة وفى الجامعات وعلى قلة من القادرين يقتنونه استكمالا للوجاهة أو حبًّا للمعرفة ، فلم تعد المعرفة ، قاصرة على السماع وعلى أخبار الجوابة والرحالين والتجار المتنقلين ، وأخذت الكلمة المطبوعة تزحم الكلمة المسموعة والخبر المنقول على ألسنة الرواة والقصاصين ، وقد صاحب اختراع الطباعة أو سبقه بقليل انتشار الورق فى أوربا فحل محل الرقاق من الجلد خلال القرن الثالث عشر ، وفى القرن الرابع عشر عمت الطباعة أكثر أنحاء أوربا ففى عام ١٤٦٤ أنشأ « سوينهيم » و « بانارتز » الألمانيان مطبعة فى « موبياكو » بالقرب من روما ، كما أقام « يوحنا ووندلن » مطبعة فى البندقية عام ١٤٦٩ ، وبعد ذلك بعام أقام ثلاثة من الألمان هم « كرانتر » و« جيرنج » و « فريبيرجر » مطبعة فى باريس على مقربة من السوربون ، وبدأ « لامبرت » الأسبانى عمله فى الطباعة بمدينة بلنسية عام ١٤٧٤ ، وكان « وليم كاكستون » أول من بدأها بإنجلترا وكان قد تعلمها فى ألمانيا وطبع أول كتاب له عام ١٧٤٦ ، وكانت أول مطبعة فى فينا عام ١٤٨٢ وفى

أيسلندا عام ١٥٣١ ، وفى بولندا عام ١٥٧٨ ، وانتقلت الطباعة إلى العالم الجديد فكانت أول مطبعة فى المكسيك عام ١٥٣٩ . ولم تشهد الولايات المتحدة الطباعة إلا فى القرن السابع عشر ، على يد المستوطن الإنجليزى « ستيفن داى » ولم تعرف مصر الطباعة إلا خلال الحملة الفرنسية فى بواكير القرن التاسع عشر ، وكان أكثر ما يطبع فى أوربا من الكتب الدينية .

وعلى مدى الزمن أصبحت الكلمة المقروءة وسيلة الإعلام الأولى فى العالم ، ولم تعد للكلمة المسموعة مكانتها الأولى ، وكانت هى وسيلة الإعلام الأولى فى العصور الوسطى وفى بدايات عهد النهضة الأوربية على يد التجار والرحالة وجماعات « التروبادور » من المنشدين الذين يتجولون منشدين أهازيجهم الشعبية وملاحم البطولة بلغاتهم الدارجة .

وقد كانت اللاتينية أكثر وفاء بحاجات المجتمع المسيحى وتعاليم الكنيسة من اللغات الشعبية الناشئة التى يتكلمها العامة جميعا فى كل بلد أوربى ، لذلك كانت هى لغة الإعلام فى صورته الدينية السائدة ، أما الأخبار وملاحم البطولة وأناشيد التروبادور فقد كانت جميعًا باللغات الشعبية التى يتكلمها الناس فى كل بلد من بلدانها .

وبقيت اللاتينية لغة المعرفة والإعلام الدينى فى أوربا حتى وقت متأخر ، وكانت هى وحدها وسيلة التفاهم بين شعوب أوربا المختلفة ، وأتاحت للبابوات والأساقفة سبل الاتصال بالشعوب المسيحية الناشئة فى غرب أوربا ، حين يتنقلون من بلد إلى آخر أو حين يبعثون برسائلهم إليها ، وكانت هى لغة المثقفين ومن ينشدون المعرفة وما من سبيل سواها لمن ينشدها ، وعلى كل من يؤم دور العلم أن يبدأ بتعلمها كما أنها لغة الاتصال والتفاهم المشتركة لكل الناس ، وهى لغة القانون والعلم ومازالت مصطلحاتها سائدة فيهما حتى اليوم ، وحتى القرن السابع

عشر نرى « فرانسيس بيكون » و« ملتون » و « سير إسحق نيوتن » يكتبون بعض مؤلفاتهم باللاتينية .

إلا أن اللاتينية كانت لغة قلة من المثقفين ، بينما عامة الناس يتكلمون لغاتهم المحلية ففى الشمال بقيت الشعوب النوردية حفيظة على لغتها ، وما وافى القرن الثانى عشر والثالث عشر حتى أخذت تكتبها بعد أن تباينت لهجاتها وتفرقت لغات عديدة ، وهو ما حدث فى الجنوب على نفس الصورة ، ففى الشمال أفرخت اللهجات الجرمانية اللغة الألمانية الحديثة والإنجليزية والهولندية والسويدية والنرويجية والدنماركية والأيسلندية وهى التى تعرف بمجموعة اللغات الشمالية أو النوردية .

وفى الجنوب حيث سادت الإمبراطورية الرومانية وحيث كان للاتينية مكانتها الأثيرة ، كانت مجموعة اللغات ذات الأصل اللاتينى وهى الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية .

وكان أكثر ما كتب فى هذه اللغات الحديثة الملاحم الشعبية مما كان يدور على ألسنة جماعات التروبادور ، وهم أشبه مايكونون بشعراء الربابة فى مصر . والمواوى الذى كان يطوف راكبًا فرسًا على الأعيان فى الريف مادحًا اياهم ذاكرًا محاسن أسلافهم لقاء جودهم وهباتهم ، وقد إندثر المواوى وقفز شاعر الربابة إلى الإذاعة والتلفاز .

وأشهر تلك الملاحم « أغنية رولان » بالفرنسية وتروى بعض أمجاد الفرنجة و « الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة » بالإنجليزية وتروى قصة الملك آرثر وفرسانه فى حربهم للسكسون المغيرين ، إلى جانب أناشيد الحب والفروسية التى يرددها جماعات التروبادور فى كل محفل وفى بلاط كل ملك ، وكان لها تأثيرها الكبير فى الشعر الأوربى فيما بعد .

وحين أخذت هذه اللغات الجديدة تعم وتصبح لغات قومية كانت المطابع قد

انتشرت فأصبحت أكبر دعامة لنشرها وتداولها واتّساق مترادفاتها لفظًا ومعنى ، وغدت الكلمة المطبوعة وسيلة الإعلام الأولى للشعوب ودرع القوميات الناشئة .

وحينما كانت المعرفة قاصرة خلال العصور الوسطى وحتّى القرن الثانى عشر على الفلسفة والفلك واللاهوت ، وكانت البوادر توحى بتطور العقل الأوربى فى النظر إلى طبيعة الأشياء حين أخذ « أبيلار » وكان أستاذًا للمنطق ، يعرض للأشياء بالتعليل والحوار ، فبدلا من المسلمات التى حفل بها الفكر القديم ، جعل يناقش ويتساءل ويعنى باختبار الحقيقة السائدة على ضوء العقل وإن جلب عليه ذلك سخط الكنيسة ونقمتها .

وكان أبيلار يحاضر فى المدرسة الكاتدرائية بباريس . وكانت باريس هى البؤرة التى شعّت منها المعارف المدرسية الجديدة إلى البقاع الأخرى ، وفيها أنشئت فى ختام القرن الثانى عشر أول جامعة وإن كان جل اهتمامها بالدراسات اللاهوتية دون غيرها ، ولكنها دراسات تفوح بريح البحث ، فقد كان سعى أبيلار « أن يفهم لكى يؤمن » وكان السؤال الذى يلح على فلاسفة المسيحية حينذاك هو « الله الإنسان » و « وماهو الله الإنسان Cure Deus homo Deus homo

ويرى « هرمان راندال » أن هذه الرغبة العارمة والشوق الجارف لمعرفة الحقيقة كانت فى جوهرها هى الروح العلمية ، وإنها وقد استيقظت لم تكن لتشبع قط ، فلم يكن لفلاسفة تلك الحقبة ينسقون الحقائق القديمة فى وحدة متسقة ، كما كانوا يظنون ، ولكنهم كانوا يضعون حقائق جديدة زودتهم بها المعرفة الجديدة التى أخذوها عن عرب الأندلس وعرب المشرق ، وقد عرفوا أرسطو أول ماعرفوه عن العرب . حتى جاء « توما الإكوينى » فى القرن الثالث عشر فشد اللاهوت إلى حمى العقل وأكد أن العقل بالرغم من أخطاره يقود بصورة أكيدة إلى الله قدر مايقود إليه الحدس الصوفى .

وما وافى القرن الثالث عشر حتى أنشئت جامعة « بولونا » فى إيطاليا . وكان جل اهتمامها بدراسة القانون المدنى والكنسى على السواء ، كما أنشئت جامعتا أكسفورد وكمبردج فى إنجلترا ، وأخذت الجامعات تعم وتنتشر فى بقاع كثيرة .

وإلى جانب الجامعات واختراع المطبعة وظهور اللغات الجديدة كانت نشأة الدولة القومية وتميز الشعوب الأوروبية وتحررها من ربقة الإقطاع وسلطان الكنيسة ، ثم كان الانقلاب الصناعى الذى هز أركان المجتمع الإنسانى ، وبدأ ثورةً جديدة هزت أركان المجتمع كما هزت الفكر الإنسانى هزًّا عنيفًا ، ودارت بالحضارة الإنسانية دورة جديدة هى التى نسميها « الحضارة الصناعية » حلّت محل حضارة زراعية سادت آلاف السنين منذ اكتشف الإنسان الزراعة واستأنس الماشية وسخرها لمطالبه .

ومع حداثة هذه الحضارة الصناعية إذ لم يمض عليها أكثر من أربعة قرون إلا أن تأثيرها فاق كل ما كان للحضارة الزراعية من تأثير برغم آلاف السنين التى سادت خلالها . فقد تقارب العالم إلى حد كبير لم يكن معروفًا من قبل ، ولولا اختراع الأسطرلاب والبوصلة ما استطاعت الكشوف الجغرافية أن تشق طريقها إلى العالم الواسع ، فقد كانت تلك هى بداية الاتصال العالمى الواسع ، كما كانت البداية لحضارة عالمية هى سمة حضارة العصر حلت محل الحضارات الإقليمية السابقة ، ولنا أن نتصور تلك الحضارات القديمة فى الشرقين الأدنى والأقصى وفى بعض البقاع الأمريكية كحضارة المايا والأزتيك ، وكل منها لا يدرى عن الأخرى شيئا ، كما وأن علينا أن نتصور كيف حررت القوى الميكانيكية الإنسان من آفتين كانتا أكبر سوءات العالم القديم هما « القنية » و « والجهل » المتفشى بين الكثرة الغالبة من الأميين . فقد كان الإنسان والحيوان هما مصدر القوى المحركة فى العالم . فسواعد البشر وقوتهم البدنية إلى جانب بعض الحيوانات المستأنسة كالحمير والخيل

والثيران هى التى تعمل . فالسفن تدفعها المجاديف التى تحركها أيدى الرجال وهى الأيدى التى تقطع الصخور وترفعها من محاجرها ، والمحراث الذى يشق الأرض لزراعتها يتعاون على جره الإنسان والحيوان ، فكانت السخرة وكان الرق هما قوام العمل قديما ، ولم يكن العمل فى حاجة إلى العقل أو المهارة أو الذكاء قدر حاجته إلى القوة العضلية . كما يقول هـ . ج . ويلز فى كتابه « مختصر تاريخ العالم » – فغدا العقل – كما يقول . « أداة كاسدة لا حاجة إليها » وبقى التعليم العام قاصرًا لا حاجة لإنسان إليه ، فإذا كان ثمة حاجة إليه فللوفاء بالتعاليم الدينية والإعلام الدينى . فلما سادت الآلة حررت الإنسان من العبودية والرق والسخرة ، بل أصبح الرقيق عالة على صاحبه إلا فى المجتمعات الزراعية كما كان فى الجنوب الأمريكى حيث تعتمد الزراعة الواسعة على سواعد الرجال وهو ما يفسر لنا الخلاف بين الشمال الصناعى والجنوب الزراعى فى الولايات المتحدة حول قضية تحرير الرقيق وهو الخلاف الذى أدى إلى الحرب الأهلية الأمريكية بين ولايات الشمال وولايات الجنوب . كما حررته من الأمية السائدة حين أدرك رجال الصناعة ألا محيص عن التعليم لكى يحصل العامل على الكفاية الصناعية على الأقل . ولنا أن نقول – كما يقول ويلز – إن التعليم الشعبى كان ثمرة من ثمار حلول الآلة محل العمل اليدوى . بل إنه يرى أن حاجة العامة إلى التعليم قد فاقت مقابلها لدى الصفوة ، وفاق الاهتمام به الاهتمام بتعليم الصفوة ، وهو ما يفسر لنا كيف أصبح التعليم الأولى إلزاما لدى كافة الدول .

ولم تعد غاية الإعلام أو وسيلته إطارها القديم حتى كان الانقلاب الصناعى فقلب موازين الحياة والحضارة ، إلا أن التغير كان وئيدًا فى البداية فلم يسفر عن آثاره ولم تتضح معالمه إلا فى بدايات القرن التاسع عشر حيث أفرخ الانقلاب الصناعى ما يعرف بالثورة الصناعية وهى ثورة الفكر والمجتمع بكل ما هو قديم . فمنذ خطا الإنسان خطواته الثابتة على مدرج الآلة كانت خطوة حياته المادية أوسع

كثيرا من كل خطاه خلال الفترة التى عاشتها الإنسانية من العصر الحجرى حتى الانقلاب الصناعى ، بل إن خطاه خلال نصف القرن الأخير تزيد على كل ماخطاه فى ميدان التقدم خلال القرنين الأخيرين أضعافًا مضاعفة ، ولنا أن نتصور أن نابليون قطع مسافة ألف وأربعمائة ميل من ڤلنا إلى باريس فى انسحابه إثر هزيمته فى روسيا فى ثلاثمائة واثنتى عشرة ساعة بمعدل خمسة أميال فى الساعة مع كل ماكان يملك من قدرات الإمبراطور الذى دانت له كل أوروبا بينما يقطعها راكب القطار فى أقل من يوم الآن ويقطعها راكب الطائرة فى ساعتين ، فما بالك بالوصول إلى القمر. وكان معدل سرعة القاطرة « روكت » التى صنعها جورج ستيفنسون عام ١٨٢٦ لايزيد على أربعة وأربعين ميلا فى الساعة ، ولم تكن حمولة أى سفينة تزيد حينذاك على ألفى طن . وقد حققت الولايات المتحدة وحدتها الفدرالية التى تكاد تسع قارة بأكملها بفضل السكك الحديدية وما كان يمكن لها أن تحققها بغير ذلك .

وسار الإعلام بخطى متوافقة مع خطى هذا التقدم المادى فى الوسيلة دون الغاية ، فإذا كان الورق والطباعة وقيام الجامعات قد زوده بوسائل جديدة أكثر سعة وامتدادًا إلا أن هذه الوسائل لم تزوده بغايات جديدة فقد اقتصرت الطباعة فى البداية على نشر الكتب الدينية وبقيت الجامعات تدور فى آفاق اللاهوت وتعاليم الكنيسة فحظيت برضاء البابوية وتشجيعها فى البداية ، فلما بدأت الجامعات تتحرر من سلطان اللاهوت وترنو إلى النظرة العلمية ظل الإعلام قاصرًا على المعرفة المدرسية وإن كانت معرفة من نوع جديد ، ولم تكن السلطة فى الدولة القومية فى حاجة إلى استهواء الرأى العام ، فحتى القرن السادس عشر كانت سلطة الملوك تعلو على كل سلطة سواها ، كما كانت الجامعات خاضعة لهم تدين بالولاء لأشخاصهم . إلا أن خواتيم القرن السابع عشر شهدت كما هائلا من الكتابات

السياسية والاجتماعية فنرى جون لوك فى إنجلترا يخوض فى طبيعة البناء الاجتماعى للدولة ، كما نرى مونتسكيو وقد جاء بعده بقليل يضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية فى بوتقة الفحص والاستقراء فيهلهل الأردية الزائفة للحكم المطلق وقام الموسوعيون فى منتصف القرن الثامن عشر باستقراء عالم جديد منشود ، وخاض رجال الاقتصاد فى نظام العمل والعمالة وإنتاج السلع وطبيعة الملكية ، وكان هذا الصخب الفكرى الذى لم تتكشف غمامته حتى الوقت الحاضر وإن ظل حبيس وسائل الاعلام القديمة حتى وقت متأخر ، وإن كان الانقلاب الصناعى قد يسر للإنسان سبل الانتقال وزود الإنسان بمعارف جديد عن الشعوب والبقاع البعيدة إلا أن وسيلتها كانت الرؤية والرواية ، حتى كان اختراع التلغراف عام ١٨٣٥ ومدّ أوّل كابل بحرى بين فرنسا وإنجلترا عام ١٨٥١ ، وآخر عبر المحيط الأطلنطى عام ١٨٦٦ ، فكان مولد وسائل الإعلام الجديدة وبداية قصة الإعلام الحديث ، أو ثورة الإعلام كما نحب أن نسميها حين أخذ التقدم التكنولوجى يسفر كل يوم عن جديد ، كما أخذت العلاقات والمصالح الدولية المتشابكة ، والفلسفات والمذاهب السياسية الجديدة ، وقوة الرأى العام القومى والدولى ، واتساع رقعة المواصلات البرية والجوية والبحرية وامتدادها وتقدمها ، وقيام المنظمات الدولية والإقليمية تزود جميعا الإعلام بغايات ووسائل جديدة طوت صفحة الزمان والمكان .

فإذا كان اختراع الطباعة قد أدّى إلى ذيوع المقروء وانتشاره فإن أول مطبوع نشره جوتنبرج فى منتصف القرن الخامس عشر كان إنجيل مازران ولم تكن الصحافة كما نعرفها اليوم وليدة هذا الاختراع الهام ، وإن عرف العالم أنواعًا من الإخباريات فى وقت مبكر سبق اختراع الطباعة بقرون ، ففى روما كان يوليوس قيصر يصدر نشرة يعلقها فى الأماكن العامة ، كما يقال إن الصين قد عرفت نوعًا من الصحافة فى القرن الثامن ، كما كان الإخباريون فى إيطاليا وفى إنجلترا وألمانيا

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ينسخون الأخبار يمدون بها من يعنى بها ثم أخذوا يطبعونها بعد ذلك .

وقد سبقت إنجلترا غيرها فى إصدار الصحف حين أصدر « ناثانيل بتر » صحيفة « ويكلى نيوز » عام ١٦٢٢ ، وبعد ذلك بتسع سنوات أصدرت فرنسا أول صحيفة رسمية خلال حكم « الكاردينال ريشليو باسم « لا جازيت دى فرانس » وتوالى بعد ذلك إصدار الصحف الرسمية فى دول أوربا .

إلا أن الصحافة الحديثة لم تعرف إلا فى نهاية القرن الثامن عشر حين أثبت الرأى العام وجوده قبل الدول وحين تحررت الكلمة المنشورة من قيود الرقابة التى فرضتها السلطة عليها من قبل ، وحيث أدى الانقلاب الصناعى إلى تقدم هائل فى الطباعة بعد أن استخدم « فردريخ كوينيج » .. الألمانى الطاقة التجارية فى تشغيل المطبعة ، عام ١٨١٠ ، ثم أخذت وسائل الطباعة تتقدم بتقدم الآلة ، ففى عام ١٨٤٧ ، وضع « ريتشارد مارس » تصحيحا لمطبعة دوارة ثبتت فيها الحروف على أسطوانة ، وفى عام ١٨٦٦ سجلت بإنجلترا آلة طباعة ذات ألواح منحنية تسبك عليها الحروف ، وعند نهاية القرن التاسع عشر اخترعت آلات جمع الحروف ، وأخذت الطباعة السريعة التى تطبع آلاف الصفحات فى الساعة تعم العالم وأصبحت الكلمة المقروءة زاد المعرفة وصاحبة السلطان الأعلى فى أول وسيلة إعلامية فى العصر الحديث ، حيث بدأت الصحافة ثورة الإعلام الحديث .

فإذا كان الانقلاب الصناعى قد زود الطباعة بالآلة المحركة ، وإذا كان اختراع التلغراف قد يسر سبل الاتصال ، وجاء بعده الاتصال اللاسلكى إثر اكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية بعد الدراسات التى قام بها « جيمس كلارك ماكسويل » و « هينرش هيرتز » ونجاح « ماركونى » فى الاتصال عن طريق الموجات ، ليزود الإعلام بوسائل جديدة ، فإن الإعلام فى غاياته لم يكن نتيجة

هذا التقدم التكنولوجي في وسائل الاتصال والمواصلات وإنما كان نتيجة القوة التي أصبحت للرأى العام على المستويين القومي والدولي ، وحاجة العالم إلى المعرفة الجديدة في كل دروبها ومعانيها واتجاهاتها ، فأصبحت الصحافة والإذاعة الصوتية والمرئية ووكالات الأنباء والسينما ، فضلا عن الكتاب ووسائل الإعلام القديمة ، وهي وسائل لم تستطع وسائل الإعلام الجديدة أن تزيحها عن مكانها بل غدت عونًا لها ودعامة هي أقوى دعاماتها ، فالخطبة والندوة والحديث والدعوة والدعاية لم تعد حبيسة الأماكن الضيقة بل حملتها وسائل الاتصال الحديثة إلى أبعد الجهات .

وقد رأينا كيف عجزت المطبعة عن أن تكون وسيلة من وسائل الإعلام في البداية وقصرت همها على الإعلام الديني وإن يسرت نشر الكتاب وذيوعه ، وإن وكالات الأنباء قد أنشئت في البداية لتكون في خدمة الدبلوماسية والتجارة وأسواق المال ، فإنها لم تستهو ولم تجذب إليها الصحافة الناشئة، فحين أسس « هافاس » أول مكتب للأنباء في باريس عام ١٨٢٥ ، لم يلق من الصحف تأييدا أو قبولا فرفضت عرضه بمدها بالأنباء . ولم تكن وكالة أنباء هافاس في باريس ووكالة أنباء نيويورك التي سبقتها بخمس سنوات أكثر من صورة مطورة للبريد حل فيها الخبر العام محل الرسالة الخاصة . ثم أصبحت وكالات الأنباء مع نشأة الإعلام الدولي ، وقوة الرأى العام الجديد أبرز وسائل الإعلام الدولي وتداول الأنباء الدولية فلم تعد تستغنى عنها وسيلة من وسائل الأخبار مكتوبة أو مذاعة .

الإعلام وثورة التكنولوجيا :

ولئن أمدت المطبعة الإعلام بزاد جديد من السعة والانتشار إلا أنه ظل قاصرًا على الفئة القارئة وإن عداه عن طريق هذه الفئة القارئة ، إلى الاستماع ، فإن عداها إلى السلطة في أية صورة من صورها فإن الاستماع هو وسيلته الوحيدة ،

ونعنى به الاستماع المباشر فى الندوات والمحافل ودور العبادة . إذ أن الاستماع سيبقى وله المكانة الأولى فى عالم الإعلام ولكنه سيغدو مع ثورة التكنولوجيا استماعًا غير مباشر ، فمازال المتحدث والحديث والمستمعون كما أشار إليهم أرسطو فى حديثه عن الخطابة . هى العناصر الأساسية للإعلام . ولكن الحديث لم يعد من الفم إلى الأذن مباشرة ولكنه يطرقها عبر وسائل رائعة طوت صفحة الزمان والمكان . غدت معها الكلمة المطبوعة والمقروءة ، وإن فاقت فى الوقت الحاضر ما كانت عليه منذ اخترع جوتنبرج الطباعة ، وسيلة قاصرة فى عالم جديد تسيطر عليه قوى الكهرباء ، فلم تكن الكلمة رسالة أو كتابا أو صحيفة تتجاوز سرعة حاملها ، فلما اخترع التلغراف عبرت الكلمة حاجز المكان كما عبرت معها وسائل الانتقال باختراع القاطرة البخارية الحواجز التى كانت تفصل بين الجماعات البشرية وذابت معها العوائق التى كانت تجعل من هذه الجماعات البشرية وحدات مجتمعية قائمة بذاتها مكتفية بعالمها المحدود وإنتاجها الضيق . كما كانت فى العصور الوسطى أو فى الإمبراطوريات التى يتهاوى فيها سلطان المركز على توابعه البعيدة . ولقد كان للقاطرة البخارية حين امتدت خطوطها عبر القارة الأمريكية الفضل الأول فى نشأة الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان لها دورها البارز فى نقل المعدات والجيوش فى الحرب الأهلية التى دارت بين الشمال والجنوب .

وانتقلت الكلمة المطبوعة مع هذه السرعة النسبية للمواصلات إلى آفاق أكثر سعة وامتدادا حتى انفصلت الكلمة عن معابرها الأرضية لتسلك أجواز الفضاء ، وكان اختراع التلغراف ثم التليفون هو البشير بهذا الانفصال وإن لم يجاوز حدود الانفصال إلى الانفصام ، فقد بقيت للمعابر الأرضية التى تسلكها السيارات والخطوط الحديدية وتهبط إليها الطائرات أهميتها البالغة فى الاتصال ، فإذا كانت وسائل المواصلات بما حققته من تقدم يفوق كل تصور للعقل حتى وقت قريب

فإنها وإن طوت صفحة المكان لم تطو إطلاقًا صفحة الزمان ، فالمسافر الذى يتناول إفطاره فى القاهرة وغذاءه فى لندن وعشاءه فى نيويورك قد تحرر من أبعاد المكان ولكنه حين يصل نيويورك قد يجد فى انتظاره برقية أرسلت إليه بعد قيامه بساعات وسبقته قبل وصوله بساعات . إلا أن هذه النقلة لم تحدث فى يوم وليلة ، فبين اختراع التلغراف عام ١٨٣٢ واكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية عام ١٨٧٣ وقيام ماركونى بنقل الإشارات الطويلة عام ١٨٩٥ . ثم أجرى أول اتصال عبر الأطلنطى عام ١٩٠١ وما انتهت إليه دراسات الموجات الكهرومغناطيسية من اختراع الراديو والرادار وأخيرا التلفزيون كانت هذه الثورة التكنولوجية تأخذ أبعادها التى أدت إلى هذا التطور الذى انتهت إليه بالتسيير الذاتى والسبرناطيقا والكمبيوتر والتليستار .

وفى الوقت الذى كانت فيه الثورة التكنولوجية تحقق أبعادها فى عالم الاتصالات ، أخذت تطرق آفاق الإعلام وتدق أبوابه بعنف أشد وأقوى مما كان منها فى عالم النقل والمواصلات والاتصال ، فبينما سار التلغراف فى كنف الخطوط الحديدية ينظم مسيرتها ، حتى غدت صورة عامل التلغراف لدى الأمريكى – كما يقول مارشال ماكلوهان - لصيقة بصورة ناظر المحطة ، وهو مارأيناه نحن فى مصر فى النصف الأول من هذا القرن أيام كانت تمتد سكك حديد الدلتا فقد كان ناظر المحطة هو عامل التلغراف ، نراه يقتحم عالم الأنباء ، ولما يتجاوز عمره أربع سنوات ، فيحمل كبريات الصحف الأمريكية على إنشاء أول وكالة للأنباء عام ١٨٤٨ ، أصبحت فيما بعد الأساس الذى قامت عليه وكالة الأسوشيتدبرس للأنباء وقد سبقتها وكالة « هافاس » إلى الوجود عام ١٨٢٥ وإن قامت فى البداية على خدمة المال والتجارة ولكن سرعان ماجذبتها الصحافة إليها بعد أن احتل الخبر مكانته فى الصحيفة ، وكانت الصحافة قد أخذت تحتل مكانتها الأثيرة النامية فى

عالم الإعلام ، ولم يزحزحها عنها أية وسيلة إعلامية أخرى حتى وقتنا هذا ، وغدا للخبرِ من التأثير على الرأى العام أكثر مما لمقالات الرأى والمقالات الافتتاحية بل غدت الأخبار المثيرة أداة لجذب القارئ وزيادة التوزيع ، وقامت صحافة جديدة وجدت لها سوقًا رائجة بين القراء تستغل عنصر الإثارة والتشويق فى أى خبر غريب قد لايعنى الرأى العام بقدر ما يمتع القارئ ويسليه ، وأخذت الصحافة تغفل مقالات الرأى والافتتاحيات المطولة ليحل محلها « العامود » أو التحقيق الصحفى لخبر أو واقعة بتفصيل مسهب يقوم على التشويق حتى انزوى الفكر فى الصحافة اليومية فى حيز ضيق ، مما أدى بالتالى إلى قيام صحافة فكرية تتناول ماتفعله الصحف اليومية فتصدر صحفية التيمس الإنجليزية ملحقيها الأسبوعيين الأدبى والاقتصادى وتصدر صحيفة السياسة المصرية ملحقها الأسبوعى « السياسة الأسبوعية » كما يصدر البلاغ « البلاغ الأسبوعى » فى العقد الثالث من هذا القرن كما صدرت من قبل مجلتا المقتطف والهلال لتسدّ هذا النقص فى الصحافة اليومية التى طغى عليها الخبر حتى فيما يتعلق بالرأى السياسى .

وقد لانردّ ذلك إلى إيثار الناس للخبر على المقال قدر مانرده إلى الثورة التكنولوجية فى وسائل الإعلام بدءًا باختراع التلغراف والتليفون وانتهاءً بالتلفزيون والأقمار الصناعية (التلستار) حين جعلت مايحدث فى أية بقعة فى العالم قريبًا إلى أذن السامع وبصره .

وما من شك فى أن التغير الاجتماعى وليد تكنولوجيا مستحدثة مهما بدت أمامنا ضئيلة ، فاستخدام الفراعنة للعجلة الحربية فى الدولة الحديثة قد أدى إلى انسياح المصريين خارج حدودهم وقيام الإمبراطورية المصرية التى امتدت إلى أعالى الرافدين شمالا وإلى أرض كوش والشلال الخامس جنوبًا ، ويرى « لين هوايت »

فى « تكنولوجيا العصور الوسطى والتغير الاجتماعى »[1] أن استخدام الغرب للسرج والمهموز فى ركوب الخيل قد أدى إلى ظهور طبقة الفرسان فى أوربا العصور الوسطى ، فأصبح المحارب الراجل منذ عصر شرلمان يعرف « بالفارس » بل إن هوايت ليرى فى « اللجام » و « حدوة الحصان » أداة تكنولوجية مستحدثة مكنت الفارس من السيطرة على حصانه ، كما ضاعف من سرعة الحصان وقدرته على التحمل .

وإذا كانت الطباعة قد أدت إلى انتشار المطبوع وتداوله فكانت سندا للكتاب فإنها هى التى أدّت دون غيرها إلى قيام هذا العالم الفريد الذى نسميه عالم الصحافة تغذيها تكنولوجيا العصر بالانتشار والذيوع والثبات ، فقد أفادت من وضع نظام للبريد ولكنها أفادت أكثر من تقدم تكنولوجيا النقل والمواصلات . فإذا كان « هافاس » قد استعان بنظام البريد حين أنشأ وكالته عام ١٨٢٥ ، كما استعان بإشارات السيمافور والحمام الزاجل ثم بالتلغراف بعد اختراعه فأغناه عن وسائله القديمة ، فإن اختراع التلغراف كان هو الأداة التى قامت عليها وكالات الأنباء التى امتدت ونمت مع التقدم التكنولوجى لتربط العالم برباط وثيق من المعرفة المتبادلة ولتحول العالم إلى تلك القرية الصغيرة التى لا يغيب فيها شىء عمن يقطنون فى حواريها البعيدة ولتكون زادًا للصحافة يمدها بكل ما يجرى من أحداث فى العالم على سعته ليعلم بها كل إنسان فى الأرض لحظة وقوعها أو بعدها بدقائق .

ولقد سار التقدم التكنولوجى فى خدمة الإعلام مواكبًا بعضه البعض ، فالتقدم التكنولوجى فى وسائل المواصلات قد يسر نقل المطبوع والمنشور والمسموع والمصور بسرعة تفوق أى خيال يتصوره أى إنسان قبل نصف قرن أو أقل كما كان لتكنولوجيا الطباعة الحديثة من الأثر ما يفوق تكنولوجيا النقل والمواصلات فالمطبعة

---

(١) White, L.: Medieval Technology and Socia lChange.

تقذف بآلاف الأعداد من الصحيفة إلى يد الموزع فى ساعات قلائل ، حتى اقتحمت التكنولوجيا ميادين أخرى للإعلام لم تخطر على بال إنسان فانتقلت بالرسالة وبالصورة من إطارهما المباشر إلى إطارهما غير المباشر بمعنى أن الكلمة لم تعد حديثا من الفم إلى الأذن بين شخصين أو من شخص إلى مجموعة من الناس يواجهونه ويستمعون إليه بل أصبحت حديثًا يقتحم الآذان مع صورة تتجلى للعين على مدى آلاف من الأميال فطوت بذلك صفحة الزمان والمكان على سطح الكرة الأرضية وغدا تسجيل الأحداث بالكلمة والصورة وثيقة تاريخية للأجيال القادمة . وقد تنجح هذه الأجيال فى بعث الأقوال والأحاديث التى طواها الماضى ولكنها مازالت تسبح فى أجواء الأثير فيغدو العالم من مبتداه صورة بينة أمامها ولاندرى كيف يكون حال العالم وفكره حينذاك يوم يكتشف مساره التاريخى على حقيقته .

ولئن سبقت الرسوم والخرائط عالم الفوتوغرافيا فقد كانت وافية بحاجات العالم القديم ولكنها مع اتساع المعرفة وذيوع الكلمة المطبوعة فى كتاب أو صحيفة فقد غدت أدوات وإن بقيت لها مكانتها المدرسية قائمة ولكنها أصبحت قاصرة عن مواكبة التطور فى عالم الطباعة وفى عالم الصحافة وقد أخذت الصحيفة تشد الناس إليها بشوق بالغ وزودها انتشار التعليم الشعبى بحاجتها إلى الذيوع والانتشار كلما انتشر التعليم فى جماعة من الجماعات كلما ازداد توزيع الصحف وتعددت أنواعها ومنابرها .

وللصور والرسوم جاذبيتها فى عالم الصحافة ومازلنا نذكر فى صبانا « مجلة الأولاد » التى كان يصدرها الإخوة مكاريوس عن دار اللطائف المصورة فى العقد الثالث من هذا القرن ، فقد كان لكل موقف من مواقف القصة فى تسلسلها رسم يبرزه ويمكنه ، وكان الإخوة مكاريوس من الرواد الذين استعانوا بالصورة الفوتوغرافية فى الخبر عندما أصدرو مجلة « اللطائف المصورة » الأسبوعية ، ثم كان

الكشكول الذى أصدره سليمان فوزى عام ١٩٢١ فاتخذ من الكاريكاتير الملون أداة للتعبير الساخر وإن سبقه فى هذا المضمار يعقوب صنوع وكانت رسوم مجلاته العديدة التي أصدرها فى مصر وفى باريس من رسمه هو نفسه . إلا أن الكشكول كان الرائد الحقيقى لفن الكاريكاتير بفضل الرسام سانتس . ثم شق طريقة من بعد على يد صاروخان ورخا ومن جاء على أثرهم كصلاح جاهين .

وقد واكب التصوير الضوئى التلغراف فى نشأته ، فى الوقت الذى نجح فيه « جوزيف مينسفور بينبس . فى اخراج أول صورة ضوئية عام ١٨٢٢ ، وتوالت الجهود من بعده حتى أدخل جورج إيستمان الشريط الملفوف فحل محل الألواح الزجاجية فى آلة التصوير عام ١٨٨٤ فأخذ التصوير الضوئى يقتحم ميدانه فى حياة العصر ، وكان التلغراف قد أثبت وجوده وإن جاء اختراعه لاحقا لاختراع التصوير الضوئى بعقد من الزمن فاقتحم دنيا الإعلام قبل أن تقتحم الفوتوغرافيا ميدانها فى عالم الصحافة . وإن أخذت الصورة باختراع السينما فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر وظهور أول عرض للصور المتحركة عام ١٨٩٥ ، وأخيرا التليفزيون وظهوره فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ثم انتشاره هذا الانتشار العالمى الواسع ، تزحم الكلمة وتكاد تقصى الكتاب والصحيفة عن مكانتهما الأثيرة على الأقل فى البلدان النامية حيث تتفشى الأمية فلم تعد القرية المصرية مثلاً تشهد تلك اللقاءات حول قارئ الصحيفة فما من بيت يخلو من الراديو بل أصبح الترانزستور فى صحبة كل إنسان وحل اللقاء حول التليفزيون محل اللقاء بقارئ الصحيفة .

إلا أن انتشار التعليم سيبقى للصحيفة وللمقروء المكانة الأثيرة التى أثبتت بعض الإحصاءات قصور التلفزيون عن اللحاق بها ، بل كان فى بعض الأحيان سببا فى الإقبال على قراءة الصحف ابتغاء مزيد من التفاصيل عن خبر يسوقه التلفزيون أو الراديو .

وتتواكب مستحدثات التكنولوجيا الجديدة على خدمة الإعلام فالصورة

والكلمة ينقلها اللاسلكى إلى أبعد أقطار الأرض لساعتها ، والتلستار أو القمر الصناعى ينقل الصوت والصورة إلى أجهزة الاستقبال كما أصبح الكمبيوتر والتسيير الذاتى والسبرباطيقا فى خدمة الصحافة وكل وسيلة من وسائل الإعلام الأخرى وزادًا لكل فصائله .

عصر الإعلام

أصبح الإعلام ظاهرة من ظواهر العصر، وغدا قوة كبرى فى حياة الأمم وفى علاقات المجتمع الدولى، فلا تستطيع مؤسسة من المؤسسات أن تتسع وتمتد إلى عملائها دون أن يكون لها جهازها الإعلامى الذى يصلها بهم، ويجذب إليه برهم، ويدعو إلى إنتاجها ويربط أجهزتها الإدارية بعضها ببعض كما أصبح لكل إدارة حكومية أو أهلية جهازها الإعلامى ممثلا فيما نسميه « إدارة العلاقات العامة » تقوم بالتعريف بعملها، وتنشر على الناس مدى ما أحرزت من تقدم أو نجاح فى عملها. فهى الداعية لها المنوهة بأثرها مستعينة بكافة البيانات التى تزودها بها الأجهزة المختلفة للعمل، كما تقدم بين كل حين وآخر ألوانا من الترفيه تمتع العاملين بها، وتوثق صلات الود والتعارف بينهم، وتقيم الحفلات وتنظم اللقاءات بين رجال المؤسسة والعملاء، ورجال الصحافة ووكالات الإعلان والمعلنين للتعارف

والتنويه بعملها والإعلان عنه ، فمثل هذه الحفلات واللقاءات إعلان غير مباشر عن عملها ونشاطها وإنتاجها .

ولا تستغنى دولة من الدول أو حزب من الأحزاب السياسية أو أى جماعة تعمل فى الميدان العام عن جهاز إعلامى ينوه بنشاطها ويدعو إلى سياستها ، فلكل دولة جهازها الإعلامى يبث رسالتها وينوه بثقافتها فى غيرها من الدول توثيقا لصلاتها بها ، أو جذبًا للسائحين إليها ، وقد أصبحت السياحة مصدرًا هاما من مصادر الدخل القومى ، كما يقوم فى نفس الوقت بتأييد السياسة الحاكمة على المستويين القومى والدولى ، وكلما اتسع نشاط الدولة الخارجى ، كلما اتسع وامتد نشاطها الإعلامى فى الخارج عن طريق الإذاعات الموجهة . أو وكالات الأنباء أو مكاتب الإعلام الخارجى التى تلحقها بسفاراتها ، ولم يعد عمل السلك السياسى أو القنصلى للدولة وقفًا على الاتصالات الدبلوماسية وحدها بل امتد نشاطه إلى كافة جوانب النشاط الأخرى ، فأصبح فى كل سفارة ملحق تجارى وثقافى وإعلامى بل وملحق عسكرى ولكل مايعنيها من نشاط خارجى ، ومع تباين العمل بينها جميعا فإن طابعها جميعا إعلامى فى الدرجة الأولى .

وقد احتلت الإذاعات الموجهة بعد الحرب الثانية ميدانًا هاما من ميادين الإعلام الدولى ، وأصبح لوكالات الأنباء مكانتها المرموقة فى التنويه بسياسة الدولة ونشر أخبارها ، حتى أصبح لكل دولة وكالتها القومية للأنباء ، وكان من حرص الدول النامية أو حديثة الاستقلال أن يكون لكل منها – كمظهر من مظاهر الاستقلال والكبرياء القومى – وكالة أنباء خاصة ، وأصبحت وكالات الأنباء القومية ظاهرة من ظواهر التطور السياسى فى الدول النامية . كما أصبح للاتحاد السوفيتى وتوابعه – كنوع من التكتل السياسى والمذهبى أشبه ما يكون بالتكتل القومى – وكالة تاس السوفيتية للأنباء تلتزم بسياسته وتذيع أنباءه . إلا أن وكالات

الأنباء القومية ، بقيت دون وكالات الأنباء العالمية قدرة وانتشارا .

ومع تقدم تكنولوجيا المواصلات وتشابك المصالح الدولية أصبح للإعلام الدولى أهميته البالغة فى الصراع الدولى وفى التعاون الدولى على السواء فلم تعد هناك بقعة فى العالم بمعزل عن الأخرى . فالصورة كالكلمة مسموعة ومرئية تنتقل عبر المسافات الطويلة وتطوى فى انتقالها حدود الزمان والمكان حتى غدت الكرة الأرضية – كما يقولون - قرية صغيرة .

فصائل الإعلام :

وقد اختلف الشراح حول وظائف الإعلام . وإن أجمعوا على أنها قديمة قدم المجتمع الإنسانى ، فعندما تنشأ الجماعة السياسية ، وهى الجماعة المنظمة التى يدرك الفرد فيها ذاته فى غيره . تبدو الحاجة ماسة إلى الإعلام ، فإذا كان البعض قد قصره على الجانب الاجتماعى بمعنى أنه المعبر عن ضمير الأمة وعلاقة الأفراد والمجاميع ، فإن آخرين قد عبروا به إلى آفاق أرحب وأبعد مدى وأكثر شمولا حتى غدا لتعدد آفاقه وشموله وله ولائده التى نسميها فصائل الإعلام لكل منها ميدانه الأثير به ، فإن جمعت بينها القنوات والوسائل فإنها تختلف فى الغاية وفى المدى الذى تقصده

هذه الفصائل نستطيع أن نجملها – كما نرى – فى نوعيات أربع هى : التعليم والدعوة والدعاية والإمتاع .

إلا أن هذه الفصائل مع اختلافها فى الوسيلة والغاية تعبر عن ضمير الأمة الاجتماعى وعلاقات أفرادها وجماعاتها . وإنها تصب فى النهاية فى مجرى واحد يعبر عن ثقافة الأمة واتجاهاتها العديدة .

وهذه الفصائل الإعلامية وإن كانت لها جذورها الضاربة فى القدم إلا أنها قد غدت فى حاجة إلى جهد الجماعة أو الفريق منها إلى جهد الفرد . بعد أن غدا

العمل الجماعى وجهد الفريق طابع حضارتنا المعاصرة منذ تعدى العلم والاختراع نطاق الفرد إلى نطاق الفريق حيث تتعاون الأدمغة العديدة فى ميدان معين كميدان الذرة والطاقة النووية وعلوم الفضاء والتسيير الذاتى وغير ذلك من ميادين العلم والاختراع ، فقد انتهى عصر ماركونى وآديسون وفلسنج مكتشف البنسلين وسولك مكتشف طعم شلل الأطفال ، ولنا أن نقول إنهم كانوا آخر المخترعين والمكتشفين العظام ، حل على إثرهم جهد الجماعة والتعاون العلمى والعقلى المشترك لنخبة من العلماء والباحثين فى ميدان معين .

وبالتالى أصبحت وسائل الإعلام كما أصبح الإعلام ذاته جهدا جماعيا لايقدر عليه فرد بذاته ، تضطلع به جماعة متخصصة ومتعاونة تجتمع على هدف معين ، فإصدار صحيفة مثلا لم يعد مما يقوم به فرد بنفسه فقد غدت الصحافة صناعة كبرى لها قواعدها وأصولها لا تقوم على تمويل فردى . ولا يغامر بتمويلها فرد مهما أوتى ثراءً عريضا ، وغدت لها شركاتها المساهمة ، أويسهم فى إصدارها جماعة من المؤتلفين حول رأى أو فكر معين وغالبا ما يطلبون اكتتاب أعوانهم ومؤيديهم المالى لإصدارها . ولم يعد نشر الكتاب عملا يقوم به ناشر فرد بل أصبحت دور النشر مؤسسات كبرى أو شركات يسهم فيها الأفراد كما هى فى البلاد المتقدمة ، وغدا التعليم فى أى دولة واجبا على الدولة تجاه الأفراد بوصفه حقًّا من حقوق الإنسان فى عالم العصر ، فإذا قامت به جماعة اعتمدت على المنح والتبرعات كما يجرى فى أمريكا حيث تقوم الجامعات الحكومية إلى جانب الجامعات العامة التى تعتمد فى تمويلها على المنح والهبات والتبرع الفردى والجماعى وأعظم الجامعات فى أمريكا كهارفارد وييل وبرنستون وكلومبيا وبيركلى تقوم على المنح والهبات ، وقد حضرت كارنيجى فى حفل لجامعة برنستون وقد تبرع لبعض منشآتها بثمانية ملايين دولار ، كما رأيت جامعة هارفارد وعلى رأسها مدير شاب يصغر غيره من أساتذتها العظام سنًّا ،

فلما سألت قبل إنه أقدر الجميع على جمع الهبات والتبرعات من مصادرها العديدة ، كما أصبحت الإذاعات الصوتية والمرئية ووكالات الأنباء أجهزة حكومية كما هي في مصر وبريطانيا والاتحاد السوفيتي ، أو تقوم بها شركات أو مؤسسات كبرى كما هي في أمريكا .

فالعمل الجماعي هو طابع العصر وهو طابع حضارة تكنولوجية يزودها جهد العلماء المشترك بكل ما ينميها ويدفعها نحو التقدم والارتقاء ، تمتد معالمها إلى كل جانب من جوانب الحياة بما فيها أجهزة الإعلام بشتى فصائلها .

ولم تعد أجهزة الإعلام - كما نقول - قناة صغيرة تصب في أرض مغلقة أو موجة عالية تتكسر على شاطئ مجهول بل غدت أشبه بنهر دافق يشق طريقه وسط القفر والمعمور فيزود القفر بالعمران ويضفي على المعمور زادًا أبعد وأكثر سعة وأقوى نماء .

ولا تنفصل فصائل الإعلام عن بعضها ولا تستقل واحدة منها عن الأخرى ، بل إنها تتصل وتتداخل وتبدو وكأنها تدور في فلك واحد ، وإن كان علينا ألا نخلط بينها ، فلكل منها إطاره ومداه . فالإعلام - كما قلنا - مصطلح حديث وإن كانت له دلالاته وصوره القائمة منذ القدم . إلا أنه في وقتنا هذا ومع اتساع المجتمع الإنساني وتقاربه ووحدة الحضارة العالمية والتقدم التكنولوجي في وسائل الإعلام وأدواته قد أصبح علمًا له أصوله وفلسفته التي يقوم عليها ، كما أصبح لكل فصيلة من فصائله صورها وأنماطها العديدة ، فالتعليم وإن اتحد مرماه يتخذ أساليب ووسائل عديدة وقد يكون وسيلة لتأييد نظام سياسي على الآخر ، أو أداة لدعم النظام الاجتماعي في مجتمع مفتوح أو مغلق . كما هو في المجتمع الشيوعي والمجتمع الرأسمالي . والدعاية هي الأخرى لها أنماطها العديدة ، تختلف بين كل دولة وأخرى وبين مجتمع ومجتمع آخر وفقا لاتجاهات كل دولة ونظامها السياسي ، فالدعاية

السوفيتية غير الدعاية الأمريكية وغير الدعاية النازية ، بل إن الإمتاع ذاته قد يصبح أداة للدعاية ويمضى فى الاتجاه الذى يرضى عنه النظام السياسى ، أو يكون صورة لما يرضى عنه الناس ويشبع مزاجهم الاجتماعى والثقافى .

وهذه الأنماط المتفاوتة لفضائل الإعلام هى التى تسمى خطأً « بالنظرية » فليست هناك نظرية للإعلام وإنما هناك فلسفة إعلامية تتعدد وتتفاوت من خلالها أنماط الفضائل الإعلامية ، وإن اتخذت من وسائل الإعلام أداةً لها ومسلكا إلى غايتها .

فإذا قلنا إن الإعلام هو التعبير عن حقيقة واقعة بصورة موضوعية فإنه يغدو بهذا أقرب ما يكون إلى التعليم وتزويد الناس بالمعرفة ، فالتعليم وهو أبرز فضائل الإعلام وأبعدها أثرًا ، يقوم على تزويد الأفراد والمجموع بالخبرات والمعارف القديمة والجديدة على السواء إعدادًا لحياة قادمة يستقبلها الناشئ قادرًا عليها متمكنا منها ، أو تزويد الكبار بالجديد من الخبرات والمعارف التى فاتتهم فى سن التنشئة وإن اعتمدت على التعليم الذاتى ، فإنها جميعا تقوم على ما يقوم عليه الإعلام من التعبير عن حقيقة واقعة بصورة موضوعية ، ويبدو بذلك قريبا منه أو شبيها به وإن لم يكن إلا فضيلة من فضائله ، فالإعلام أبعد مدى . وأكثر رحابة من التعليم وأشمل منه استيعابا للحقائق والمعارف والخبرات العامة غير ملتزم كالتعليم بمنهج محدد .

وإذا كان التعليم إلمامًا بالمعارف الثابتة والتعبير عنها بصورة موضوعية مجردة ، أو بعبارة أخرى ، نقل التراث الاجتماعى والثقافى من جيل إلى جيل ، أو بلغة التربويين تزويد الناشئة بخبرات الماضى لتكون أساسا وقاعدة للتعامل والتكيف مع معرفة جديدة طارئة ، فإن معارف الماضى الثابتة أو حقائق الحاضر المعلومة قد تفسر وفقًا لمفهوم الدولة السائد بما ينقلها من ميدان المعرفة الخالصة إلى ميدان المعرفة الموجهة . وفى هذا يختلط إطار التعليم بإطار الدعاية وتكون رسالة التعليم تفسير هذه

المعارف الثابتة تفسيرا يتفق واتجاه الدولة القائمة ديمقراطية كانت أم أوتوقراطية . فردية كانت أم جماعية أبوية هى أم دستورية .

وإذا كان هذا التفسير مما يصعب فى العلوم البحتة ويتيسر فى العلوم الإنسانية فإن العلوم الإنسانية هى ميدان الإعلام الرحب ، وهى التى يتكون من خلالها ضمير الأمة الاجتماعى ، فإذا التوت التوى معها ضمير الأمة الاجتماعى وتمزق فيبهت تفكيرها وتتخبط خطاها ويعجم عليها سبيلها للتقدم والارتقاء ، فالإعلام حين يفتات على الموضوعية ويتجرد من الحقيقة يفقد حرية التعبير ، ويجرد الإنسان من حريته ويقضى على استقلاله الذاتى وتميزه الفردى فيتمزق فكره ووجدانه .

وقد يرى البعض فى هذا التعليم ضربًا من الدعاية ، أو هو الدعاية ذاتها ، فالدعاية كما يراها المعلق الأمريكى « ولتر ليبمان » هى محاولة التأثير فى تفكير الناس لغاية معينة لاتستقيم مع الحقيقة أو القيم السائدة فى زمان ومكان معينين ، فهى إلى الاستهواء أقرب منها إلى الإقناع » . إلا أننا نرى أن هذا الاستهواء ليس بذى جدوى مالم يقم على نوع من الإقناع ، وفى هذا تبدو قدرة الداعية على إبراز الحسن وستر القبيح ، ولكنها لاتجور على الحقائق الصلبة التى يتفق عليها الناس ، فإذا جارت عليها فقدت قدرتها على الاستهواء وجذب الناس ، إلا أن بعض الحقائق الصلبة قد يختلف فيها التفسير كما تختلف نظرة الناس إليها ، حيث تحكم المنفعة نظرة الناس وتفسيرهم للأشياء فبقدر ما كانت دعاية النازى للمجال الحيوى للريخ الثالث تلقى قبولا من الألمان بقدر ما كانت تلقى العداء والاستهجان من جانب الفرنسيين والإنجليز ، فكان الألمان يفسرونها بأنها حقهم فى الحياة وكان الإنجليز والفرنسيون يفسرونها بأنها الرغبة فى العدوان والنزعة إلى الحرب ، وإن كانوا جميعا قد تناسوا مصالح البلدان الأخرى التى يدور حولها الصراع الاستعمارى ، وقد قامت نظرية المجال الحيوى للريخ الثالث على تقنين جيوبوليتيكى للعلامة الألمانى

هوسهوفر وهو تقنين يقوم على حقائق موضوعية صلبة تستهوى الألمان وإن لم تستهو غيرهم .

فالميل هو أساس الاستهواء ، والدعاية ليست عملية استهواء فارغة من المضمون أو خالية من الحقائق الموضوعية التى ترتكز عليها وتؤيدها ، ولابد أن تقوم على ما يقوم عليه التعليم من الحقائق الثابتة ، ولكنها تختار منها ما يؤيد دعواها ويسند دعايتها .

فالدعاية مهما لجت فى الإثارة والاستهواء فإنها لا تحقق غايتها مالم تنفذ إلى عقول المستمعين عن طريق الحقائق السائدة وإن فسرتها على مزاجها « فالواقعة مقدسة والرأى حر » كما نقول فى المنهج العلمى لفلسفة التاريخ .

وللدعاية أنماطها وميادينها العديدة فهناك الدعاية السياسية والدعاية الحزبية والدعاية التجارية والسياحية وغير ذلك مما يخضع للاستهواء .

أما الدعوة وهى فصيلة من فصائل الإعلام فإنها تأتى وسطًا بين التعليم والدعاية ، كما تقوم عادة على شيء جديد كل الجدة كالدعوات الدينية ودعوات الإصلاح الاجتماعى أو الدعوة إلى فكر سياسى أو مذهب اقتصادى جديد .

فالدعوة إلى نبذ القديم وسلوك الجديد دعوة وليست دعاية ، فالدعاية هى لما هو قائم وماثل ، والدعوة هى لشيء جديد يخرج به صاحبه إلى الناس داعيا إياهم إليه وقد تكون الدعوة لشيء قائم وماثل فعلا ولكن البعض لا يعرفونه ، كالدعوة إلى الإسلام أو المسيحية بين جماعات لاتعرفهما كالجماعات الوثنية فى أفريقية ، أو الدعوة إلى سنن السلف الصالح والعودة إلى نقاء الإسلام والوحدانية الخالصة كما كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب فى نجد أو دعوة جمال الدين الأفغانى إلى الجامعة الإسلامية ودعوة محمد عبده إلى فتح باب الاجتهاد من جديد ودعوة ماركس إلى الشيوعية .

فالدعوة ترمى إلى تغيير مفهوم قديم بآخر جديد ، وفى هذا تتحرر من عامل الشك الذى يلتبس بالدعاية ، فإذا كانت الدعاية عملية استهواء فإن الدعوة عملية إقناع ، وإن كان الاستهواء يرمى إلى الإقناع أو يؤدى إلى الإقناع ، والخيط الدقيق الذى يفصل بين الدعوة والدعاية أن الدعوة تلتزم بأفق ثابت لايتغير ، الغاية فيها بينة واضحة تسفر عن نفسها فى قوة وجلاء لاتلتوى ولا تتحيف ، ولكن الدعاية وإن التزمت بالغاية فإنها تتخذ إلى غايتها مسارب شتى للاستهواء لاتعنيها الحقيقة قدر ما تعنيها الغاية ، فأى وسيلة إلى الاستهواء هى المثلى . وقد يلفها الطمع والنفع فالناس ينكرون ويؤيدون تبعا لما يجره عليهم التأييد أو الإنكار من منفعة أو مضرّة .

والإمتاع أو التسلية فصيلة من فصائل الإعلام هى الأخرى ، ولكنها فصيلة تشارك الفصائل الأخرى فى غايتها ، فليس الإمتاع للترفيه أو التسلية فحسب ، ولكنه التعليم مغلفًا بالحلوى ، والدعوة متسترة وراء الملحة أو الطرفة أو القصة المزجاة أو الأسطورة السارية أو فى أغنية أو نشيد يرددهما الناس لما فيهما من تنغيم وطرب أو فى مسرحية تعرض أو فلم سينمائى يراه الناس ، وكذلك الدعاية وخير دعاية لسلعة من السلع ما كان فى أغنية أو تمثيلية قصيرة ، وقد تتخذ الدعاية السياسية أمشاجًا من البطولة تستثير الإعجاب فتحجب الإثارة الحقيقة وتشفع للخطأ ، وقد أثار الإعجاب بنابليون وحروبه وجدان الفرنسيين فنسوا ما لحقهم من خسائر الحرب وهاموا بالإمبراطورية بديلا للجمهورية التى ثاروا من أجلها وحملهم المجد النابليونى على تتويج نابليون الثالث إمبراطورًا على فرنسا . فلما أسر فى معركة سيدان أول سبتمبر ١٨٧٠ كانت تلك نهاية المجد الإمبراطورى وعودة الجمهورية .

وكانت تلك الحرب التى عرفت بالحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا الناشئة بقيادة بسمارك عملا من أعمال الإثارة التى أورتها الدعاية ، فقد كان بسمارك ينشد إثارة فرنسا وجرها إلى الحرب تحقيقا لسياسته فى الوحدة الالمانية وكان يعرف أن

فرنسا لن تسمح له بضم الولايات الألمانية الجنوبية إلى الوطن الأم فعمل على أن يثير فرنسا لتعلن الحرب عليه وتكون هى البادئة بالعدوان ، وكان الخلاف على وراثة العرش الأسبانى حين طلبت فرنسا أن يعلن أل هو هنزلرن رفضهم لعرش أسبانيا واهتبل بسمارك الفرصة وعد ذلك إهانة لحقت بملك بروسيا وسرب الخبر محرفًا إلى الصحف الألمانية وتناولت الصحف الفرنسية الخبر وعدته إساءة لحقت بفرنسا ، فأثارت خواطر الفرنسيين ، وكان ذلك يوم ١٤ يوليه حيث يحتفل الفرنسيون بعيدهم القومى ، ولم يملك البرلمان الفرنسى أمام ثورة الرأى العام إلا أن يعلن الحرب على ألمانيا .

الإعلام والمعرفة :

وتستند فصائل الإعلام بكل أنماطها وفى شتى مناحيها على حصيلة من المعرفة العامة والخاصة ، فالمعرفة هى الدعامة الكبرى لرجل الإعلام وأداته التى لا يستغنى عنها ، والمعرفة العامة هى المعرفة العريضة الواسعة التى يستمد منها رجل الإعلام مادته الإعلامية ويصوغ من خلالها أفكاره ، والمعرفة الخاصة هى ذلك الإطار المحدود من المعرفة العميقة فى فرع من فروع المعرفة العامة ، وهى الأساس الذى يقوم عليه النمط الإعلامى لأى فصيلة من فصائل الإعلام ، فالمعرفة الدينية هى قوام الإعلام الدينى ، والمعرفة السياسية هى قوام الإعلام السياسى ، ومعرفة السوق هى قوام الإعلام التجارى ، والمعرفة بالتاريخ والمعالم والآثار هى قوام الإعلام السياحى .

إلا أن المعرفة الخاصة لابد وأن تستند لدى رجل الإعلام إلى ركيزة حافلة من المعرفة العامة تتصل بالمعرفة الخاصة بأوثق رباط ، فليس الحديث فى الدين كالحديث فى السياسة أو الحديث فى الأدب أو فى العلم ، وحتى هذه الأنماط من

المعرفة الخاصة لها فروعها وتشعيباتها . فالمعرفة الدينية وهى فرع من فروع المعرفة العامة تقوم على شعب عديدة من الدراسات الدينية هى فى الإسلام علوم القرآن والحديث والسنة والتفسير والمذاهب الأربعة ، تستند إلى حصيلة وافرة من المعرفة العامة بالتاريخ الإسلامى وعلم الاجتماع وعلوم الإنسان والدين المقارن ، كما تقوم المعرفة السياسية على دراسة النظرية السياسية والعلاقات الدولية والقانون الدولى فضلا عن المعرفة العامة بالتاريخ السياسى والاقتصادى وعلوم الاجتماع السياسى والجيوبولتكس ودراسة الرأى العام وتحليل الخبر . وإن كنا لا نطلب من رجل الإعلام أن يصل إلى درجة التخصص الدقيق ولكن عليه أن يلم من كل منها بطرف مالم يتخذ ميدانا معينا من ميادين المعرفة أساسًا لنشاطه الإعلامى فإن عليه أن يلم بكل ما يتصل بميدانه من المعارف الدقيقة ، فرجل الإعلام الإسلامى يجب أن يكون على معرفة واسعة ودقيقة بكل فرع من فروع الدراسات الإسلامية فضلا عن حفظ القرآن والإلمام بتفسيره ، كما أن على رجل الإعلام السياسى أن يلم بكل خوافى السياسة وحوشيها إلمامه بمسيرة العلاقات الدولية . وعلينا أن نعرف أن البسيط جزء من المركب وأن الخاص جزء من العام وان المعرفة المجردة تقوم على إدراك المحسوس .

ولما كان الإعلام يقوم أصلا على الاتصال بالناس فهناك من يريد أن يبث رسالته إلى جماعة من الناس فليس هناك إعلام بين فرد وآخر فمثل ذلك لا يعدو كونه حديثًا بين شخصين سواء كان حديثا مباشرا أو عن طريق المسرة أو رسالة يكتبها إنسان إلى آخر وإن تضمنت معرفة جديدة أو خبرًا يهم كليهما ، فشرط الإعلام أن يكون بين مرسل له شخصيته العامة التى يهم الناس سماعها فهو إنسان مسئول فى قيادة نقابية أو حزبية أو قيادة حكومية أو صاحب معرفة أو فكر يعنى بها الناس ، والمستقبل جماعة أو فريق تجمع بينهم اهتمامات مشتركة ، وبين المرسل والمستقبل

يكون الفعل ورد الفعل وبين الفعل ورد الفعل تقع المعرفة الوسيطة وهى قدرة المرسل على التأثير بذكائه ومعرفته العامة بالمستقبلين واتجاهاتهم وثقافتهم ومعرفته الخاصة بما يبثه إلى مستمعيه أو مستقبلى رسالته ، وبقدر ما يكون التأثير يكون ردّ الفعل إيجابيًا ، فإذا عدم التأثير يكون ردّ الفعل سلبًا وإن تكن دورة الإعلام قد تمت كاملة ومرت بكل عناصرها من المرسل أو المصدر والرسالة التى يبثها إلى القناة التى تمر بها رسالته إلى المستقبل ليكون التأثير ورد الفعل .

اللغة والمعرفة :

اللغة هى أداة التعبير والتفاهم المشترك بين جماعة من الناس . وكلما امتدت اللغة واتسعت كانت أداة كبرى للثقافة الإنسانية والوعى الحضارى ، فاللغة الغالبة كالحضارة الغالبة تفرض وجودها – كما يقول ابن خلدون – على غيرها ممن هم دونها .

والاعلام بفصائله المعدودة هو اللغة مقولة أو مكتوبة تصدر بها الصحيفة وينشر بها الكتاب وتبث فيها الرسالة ويفضى بها المعلم بمعارفه إلى تلاميذه ويخاطب بها الزعيم أعوانه وينادى بها المصلح من يدعوهم لفكره ، والداعية مريديه وأعوانه ، كما ينمق بها المعلن إعلانه . ويحيى بها الناس بعضهم بعضًا ، ويسرون بها إلى بعضهم البعض بما يجول فى خواطرهم ، ويتناقلون بها أخبارهم ، ويخطون بها رسائلهم وهى أغنية المغنى ونشيد المنشد وسانحة الشاعر والطائر المحلق على أجنحة الخيال . وبها يتكامل المجتمع ويتآلف وتثبت دعائمه وتتسع آفاق المعرفة لدى أفراده فهى عنوان التماسك القومى والثقافى والاجتماعى للأمة ووحدتها الفكرية .

واللغة هى دعامة الوعى القومى ، وباختلافها اختلفت الشعوب والقبائل فما زالت القبائل الأفريقية ومن قبل كانت قبائل الهنود الحمر تتكلم كل منها لغة خاصة

بها ، وحينما برزت الدولة القومية فى أوربا إلى الوجود فى أعقاب العصور الوسطى كانت اللغات المحلية قوامها حين اغتالت اللاتينية لغة الثقافة والعلم والدين فى العصور الوسطى ، وحين نزل القرآن كان بلغة قريش بعد أن غلبت ماعداها من لهجات فى الجزيرة العربية ، وحملها المناذرة إلى تخوم فارس والغساسنة إلى بقاع الشام . وبعد أن نزل بها القرآن حملها حيث انساحت بها دعوة الإسلام إلى بقاع استعربت وهجرت لغاتها القديمة فى مصر والشمال الأفريقى والأندلس ، وغدت أمة العرب أمة واحدة تتكلم لغة واحدة ، وأصبحت العربية أداة فكر وحضارة لأمة متميزة بثقافتها ووحدتها الحضارية وإن افتقدت الوحدة السياسية ، ولولا القرآن ووحدة الثقافة العربية لغلبت اللهجات المحلية للشعوب العربية اللسان العربى وغدت الأمة العربية شعوبا متباينة لاصلة بينها ولا يربطها غير رباط الدين كما أصبحت الأمم الأوربية حين تحللت إلى قوميات عديدة .

فاللغة هى رباط الحضارة ووعاء الفكر تتميز بها أمة من الأمم وتبرز من خلالها ثقافتها ومأثوراتها وأصولها التاريخية ، وانحدار اللغة سمة على انحدار الحضارة حيث تغيض الكلمات ويجمد التعبير . وقد تتمرق لغة الأمة إلى لهجات أو لغات متباينة . وقد مرت اللغة العربية بهذا الدور من الجمود وقصور الكلمة وضحالة الفكر حين انتاب الدولة من الوهن مامزقها دويلات وإمارات متناحرة ، ولولا القرآن لأفلت شمس العروبة وغَدت العربية رسمًا من رسوم الماضى ، وإنك لتنساح فى البلاد العربية فتسمع من اللهجات المحلية ما يعسر عليك فهمه أو إدراك لفظه ، بل إن الكلمات لتتباين حتى يغدو معناها مختلفا عنه فى بلد آخر ، فكلمة بسطة .. فى العراق تعنى الضرب بينما هى فى مصر تعنى السرور والابتهاج والكندرة هى الحذاء ، والزول هو الرجل فى السودان وهو الولد فى الجزيرة العربية والختيار فى العراق ، والمرأة هى السيدة وهى الهانم وهى الخاتون .

واللغة هى المقولة وهى المحرر الإعلامى وهى الحديث يدور بين الناس فيفهم بعضهم بعضا ، وهى العبارة المكتوبة أو المذاعة أو المدونة فى وثيقة أو المسجلة على شريط أو غير ذلك من أدوات التسجيل الحديثة ، وهى بذلك الأداة الأولى لكل فصائل الإعلام ، وهى الصلة بين المعرفة والعقل فحيث يندّ الفكر لابد له وأن يصدر فى كلمة أو عبارة يعيها الغير ويدرك معناها ومرماها القارئ أو المستمع .

واللغة موكب الحضارة الدافق تغذيها بكلمات جديدة لم يكن لها وجود من قبل وإنما جاءت إلى الحاضر وثبًا على كل جديد وكل كشف لم يعرفه الماضى ، فكل اختراع لابد له من مسمى وكل كشف لابد له من كلمة يتعارف الناس عليها ، « وهى أداة العصر للوفاق الاجتماعى والثقافى فى الأمة ، وهى وسيلتها التى تغزو بها آفاق العالم الفسيحة الرحبة لتحقيق ذاتها وكيانها الدولى فى مجتمع الأمم .

وكلما ذاعت لغة أمة كان ذلك سمة على تفوقها الحضارى والفكرى ، فحين ذاعت اللغة الفرنسية وعمت فى القرن التاسع عشر ، كانت فرنسا تتبوّأ حينذاك أعلى مكانة فى الفكر العالمى ، فأصبحت الفرنسية هى اللغة الثانية لكل أمة تنشد التحضر والفكر الرفيع ، وبالرغم من ذيوع اللغة الإنجليزية مع امتداد الإمبراطورية البريطانية وانسياحها فى الأرض لم تكن لها مكانة اللغة الفرنسية فى الفكر الرفيع والتمدن الحديث إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية ، حتى إذا أخذت اللغة الإنجليزية الأمريكية تغزو العالم مع الانسياح الأمريكى ، وغلبة الفكر الاقتصادى والسياسى على الفكر الإنسانى تقدمت اللغة الإنجليزية واحتلت المكانة الأولى ، يحتاجها كل غريب ليصل نفسه بالعالم وأحداثه .

وحين قامت الأمم المتحدة اتخذت من اللغات الذائعة والتى يتكلمها أكبر عدد من البشر لغاتها الرسمية وهى الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية والصينية وقد أضيفت إليها اللغة العربية أخيرا بعد أن احتل العرب مكانتهم فى مجتمع الأمم .

وليست اللغة اختراعا فرديا أو كشفًا لمجهول لم يكن معروفا من قبل . وإنما هي وليدة القدرة التي أودعها الله في الإنسان وميزه بها على سائر خلقه ، وهي القدرة على إخراج الأصوات والتمييز بينها وهي مانسميه النطق ، حتى قيل إن الإنسان حيوان ناطق ميزه الله بالنطق على كافة مخلوقاته .

وليست القدرة على النطق هي وحدها التي أبدعت اللغة وإنما هي القدرة على إدراك المدلولات التي تعنيها كل كلمة من كلمات اللغة ، وهذه القدرة على إدراك المدلولات ليست تصورا فرديا وإنما هي تصور جماعي لكلمة تعبر عن واقع قائم ملموس وهو أول مراحلها ينتقل بعدها التصور لما يندّبه الخاطر من فكر هو أقرب إلى التجريد منه إلى الواقع المحسوس .

فاللغة اختراع جماعي ينم عن توافق عقل الجماعة ونشاطها المشترك ، فإذا استوت في حياة الجماعة على وفاق توارثها الجيل تقليدًا عن الجيل الذى سبقه فهي أول ما يتعلمه الأبناء من الآدباء ، فإذا جدّ مالم يكن معروفًا من قبل اختارت له الجماعة الكلمة التي تعنيه وتدل عليه . وتغدو اللغة من بعد ظاهرة اجتماعية تخضع لكل ما تخضع له الظواهر الاجتماعية من نمو وتطور ودراسة فلكل مجتمع لغته المعبرة عن ضميره وحاجاته وواقعه ، فتمايزت اللغات كما تمايزت المجتمعات ، وليست هناك لغة عامة مادامت الجماعات الإنسانية مبعثرة متمايزة في شتى أنحاء المعمورة ، فإذا أتيح للغة من اللغات أن تمتد وتنتشر فلأن الجماعة التي تتكلمها قد أصبح لها من الغلب والقدرة والتفوق الحضارى ما يجعل سلطانها غالبا على غيرها .

وقد تؤدى وحدة الحضارة المعاصرة إلى وحدة اللغة أو أن تكون هناك لغة عامة يتعارف عليها المجتمع الدولى بعد أن غدا المجتمع الدولى مجتمعًا إنسانيا تجمعه مصالح مشتركة وغدت حضارة العصر عامة ولم تعد إقليمية كالحضارات التي سبقتها .

فإذا كانت المعرفة هي قوام الحضارة فإن اللغة هي أداة المعرفة وهي خزانتها التي .

تصونها وتحفظها للمستقبل وتحميها من البلى الذى يعدو عليها فتنسى . فلولا الكتابات التى خلفها الفراعنة على أوراق البردى وأحجار المعابد لما عرف العالم شيئا عنهم ولولا أننا عرفنا رموز اللغة الهيروغليفية لما عرفنا هذا الماضى الحافل للتاريخ الفرعونى ولبقيت الآثار أحجارًا صماء لا تنطق .

لغة الإعلام :

واللغة هى أداة الإعلام بفصائله المختلفة ، فالإعلام – كما قلنا – هو اللغة مقولة أو مكتوبة . إلا أنها فى كل فصائل الإعلام وفى كل أنماطه تختلف فى الأداء ولا تختلف فى التعبير ، فالأداء فى الخطابة غيره فى الكتابة أو الحديث ، ولكن المدرك فى كليهما واحد إذا ما عرضا لموضوع واحد ، ونعنى بالتعبير فيما نذهب إليه هنا ، قدرة الكلمة على تصوير المضمون ولقله إلى الغير كما يريده الخطيب أو الكاتب أو المتحدث وإدراك الغير لهذا المضمون كما يتصوره الخطيب أو الكاتب أو المتحدث . فالأداء فى التعليم غيره فى الدعوة أو الدعاية وفى كل ضروب الإمتاع . بل إن الطرفة أو الملحة لا تبدو فى إطارها المنشود ما لم يتخير لها صاحبها الكلمة التى تناسبها .

ومن العبث أن نفترض للإعلام لغة متميزة ، فالإعلام بكل فصائله هو التعبير – كما قلنا – عن واقع قائم نعيشه أو نرنو إليه ، عن طريق قنوات متباينة يختلف الأداء اللغوى فى كل منها عن الآخر ، فهو فى الصحافة غيره فى الإذاعة صوتية أو مرئية ، بل إنه فى الإذاعة الصوتية يصدر فى صورة تختلف عما هى عليه فى الإذاعة المرئية . والأداء فى القصة غيره فى التاريخ وإن اقتربا من بعضهما فى السرد ، والأداء الأدبى غير الأداء العلمى ، ويعبّر المعلم عما يريد بأداء يختلف عن أداء الخطيب ، فإذا عمد إلى أسلوب الخطيب وأدائه عدّ معلمًا فاشلاً ، وقد يبدو

المحاضر كالمتحدث من حيث الأداء إلا أنهما يختلفان تمامًا لا من حيث الأداء اللغوى فحسب بل من حيث الإيماءات والإشارات المعبرة .

وليس فى الإعلام جديد إلا من حيث الأداء والوسيلة وقد تأثر كل منهما بالآخر فقد أدخلت وسائل الإعلام الحديثة كالإذاعة والسينما ووكالات الأنباء ألواناً جديدة من الأداء على التعبير اللغوى لم تكن مألوفة من قبل ، كما أصبحت فصائل الإعلام تخضع فى الأداء لتقنين علمى يستعين بالمعرفة الجديدة فى علوم الإنسان والاجتماع وعلم النفس والتربية والسلوكيات والدعاية وغير ذلك من مستحدثات المعرفة الإنسانية على تحقيق ما ينشده ، وقد أصبح هذا التقنين العلمى للأداء الإعلامى مجالاً لدراسات وبحوث عديدة كتحليل الدعاية إلى أنماط وأساليب ، ودراسة صور الكلام فى الأداء اللغوى ، والتحليل الكمى للأساليب الأدبية . ومدى تأثير الكلمة فى موقف معين ، وقياس المعرفة مع العمر الزمنى ، بحيث أصبح الأداء اللغوى دراسة علمية لا يستغنى عنها أى مشتغل بالإعلام ، معلّمًا أو كاتباً أو صحفياً أو مذيعاً أو ممثلاً أو داعياً أو معلناً . وأصبح على رجل الإعلام أن ينقل الأفكار والمشاعر والأحداث والاتجاهات فى صورة من الأداء اللغوى الفعال والمؤثر .

ويقوم الأداء اللغوى على إلمام واعٍ بأساليب التعبير وصياغة الكلمات بما يؤدى إلى المعنى المقصود مباشرة ، فإذا كان العمل الأدبى يحتاج إلى الإفاضة والمحسنات اللفظية ، فإن صياغة الخبر لا يحتاج إلى تلك المحسنات اللفظية بل يحتاج إلى أقل قدر من الكلمات التى تعبّر عن الواقع مباشرة ، لذلك تبدأ الأخبار الإذاعية بإذاعة ملخص الأخبار قبل أن تبدأ فى تفصيلها ، فإذا أخذت فى تفصيلها كان ذلك على قدر ما تقدمه من واقع الحدث دون تعليق قد يؤثر على الواقع ودون إسهاب قد يخل بالمضمون ، وإذا كان الأداء اللغوى فى الفن والأدب مما يعبّر عن

المشاعر والأخيلة فإنه فى الإعلام عامة يقوم على التعبير عن الواقع كما هو غير متأثر بالذاتية أو المشاعر الخاصة . وإن كان فى بعض فصائله مما يحتاج إلى الإقناع ويتطلب نوعاً من الذاتية فالمعلم حين يقدم نوعاً من المعرفة إلى تلاميذه ، فإنه يعتمد على طريقته الخاصة وأسلوبه الذاتى فى تحريك قدرة التلاميذ على الفهم والاستيعاب وأن يصل بهم إلى درجة من الاقتناع الذاتى بما يقدمه لهم من معارف ، ولا يمكن أن يتم التفاعل بين المعلم والتلميذ ما لم يكن المعلم قادراً على التدليل والإقناع .

وقد تبدو المسرحية مثيرة للإمتاع ، ولكنها فى الواقع تتضمن نوعاً من التأثير الذى تشيعه فكرة المسرحية فى المشاهد .

كما يبدو فى إيراد الخبر سواء عن طريق الصحافة أو الإذاعة نوع من التأثير الذى يقوم على الإقناع الضمنى الذى يتستر بالأداء اللغوى فيما يبغيه المخبر أو المذيع من هذا الأداء . فالخبر عن جريمة تقع يصحبه فى العادة نوع من الاستهجان للجريمة ، والخبر السياسى لابد وأن يتضمن نوعاً من التوجيه السياسى الذى يتفق وسياسة الدولة التى تصدر أجهزتها الإعلامية به .

إلا أن أقسى ما يعانيه الأداء اللغوى أن يغيم المعنى الدقيق للكلمة بين المتكلم والمستمع حين يعجم على كليهما إدراك الفروق الدقيقة للمترادفات اللغوية ويبدوان كما لو كانا يتكلمان لغتين مختلفتين وهو ما يظهر أحياناً فى ندوة أو نقاش عام فترى ردّ الفعل عند المستمع غير ما يريده المتكلم فالمستمع لا يدرك تماماً ما يعنيه المتكلم بألفاظه وكلماته فيعجم عليه اللفظ ويعيه بمعنى آخر مختلف تماماً عما يدور فى ذهن المتكلم ، ولا يعد هذا عيباً من عيوب الترادف بقدر ما يعد جهلاً بإدراك المعنى الدقيق للكلمة فى مترادفاتها العديدة .

وقد يبدو عجز الأداء اللغوى فى العربية ناجمًا عن القصور فى إدراك المعنى

الدقيق للكلمة فى اللغة التى ننقل عنها ، أو الاختلاف فى ترجمة المستحدثات اللغوية الجديدة فى اللغات التى أبدعتها تعبيراً عن مدرك جديد للإبداع العلمى أو الأدبى أو الفنى لحضارة العصر. فكم تعددت لدينا المصطلحات الفلسفية والسياسية والأدبية والعلمية للفكر الجديد عند ترجمتها إلى العربية . وهو ما غال مصطلحات الإعلام بدورها عند ترجمتها إلى العربية ، فحيث اصطلحنا على مصطلح «الإعلام» تعبيراً عن هذا العلم الجديد وكان من ابتكار شيخ الصحافة المصرية المغفور له الدكتور محمود عزمى – كما بينت من قبل – ذهب آخرون إلى الترجمة الحرفية للمصطلح الإنجليزى فقالوا «الاتصال الجماهيرى» مع سقم هذا المصطلح فى العربية مما أدى إلى التفاوت والخلل الذى شاب إدراك كل منهما على حدة . وحين ترجمنا عبارة Theory of Mass Communication «قلنا «نظريات الإعلام» أو «نظريات الاتصال الجماهيرى» ولم يدرك المترجم أن كلمة Theory كما تعنى كلمة «نظرية» فإنها تعنى أيضاً كلمة «الشرح» القائم على فكرة أو ملاحظة وبرهان ، وتعنى المنهج أو الأسلوب فى العلم أو الفن دون التطبيق ، كما تعنى الفكرة أو الخيال فى مقابل الواقع أو الممارسة ، وحين نختار لها الترجمة الدقيقة نقول : «الفكر الإعلامى» بدلاً من نظريات الإعلام ، فليس للإعلام نظرية – كما قلت – ولكن هناك نمط إعلامى يقوم على فكرة معينة ، فلا نقول النظرية الليبرالية أو الجماعية فى الإعلام وإنما نقول الفكر أو النمط الليبرالى فى الإعلام ، والفكر أو النمط الجماعى فى الإعلام . فإذا كان علينا أن نقول نظرية الحرية أو النظرية السوفيتية فى الإعلام ، فإن الأصح أن نقول «نظرة» بدلاً من نظرية ، وقد أفجعنى أن أرى رسالة جامعية تناقش بعنوان «النظرية الإنسانية وحرية الصحافة» ومنح صاحبها درجة الدكتوراه . وكان الأصح أن نقول «النظرة الإنسانية» فلا أعتقد ولم أقرأ فى أى مذهب من مذاهب الفلسفة أو التاريخ

أو العلوم الإنسانية أو حتى فى مصطلحات اللغة ما يسمى « النظرية الإنسانية » وإن عرف التاريخ ما يسمى بالحركة الإنسانية فى بداية عصر النهضة الأوربية .

فالأداء اللغوى إذا اختل أو غام فى ذهن صاحبه غام واختل فى ذهن المتلقى . أو المستمع .

ويختلف الأداء اللغوى باختلاف الفصيلة الإعلامية أو النمط الإعلامى أو وسيلة الإعلام ، فالأداء اللغوى فى التعليم غيره فى الدعوة أو الدعاية أو الإمتاع ، بل إنه فى التعليم وهو فصيلة تتوحى المعرفة فى واقعها ، يكون فى المعارف العلمية غيره فى المعارف الإنسانية ، وقد يبدو فى الدعوة أقرب ما يكون إلى التعليم ولكن الدعوة تحتاج إلى الأداء المؤثر إلى جانب الأداء المقنع ، أما الدعاية فإن الأداء اللغوى فيها يعتمد على الإثارة والاستهواء وإن اختفيا تحت ستار من القدرة على الإقناع ، حتى أصبحت سيكلوجية الدعاية تقوم على نبذ كلمة الدعاية متسترة وراء كلمة الإعلام بما فيها من شمول وتعميم ولأنها توحى إلى المستمع سمة الحقيقة .

فإذا خضع الإعلام لنمط من أنماط الفكر أو مذهب من السياسة والحكم كالنمط الليبرالى أو الجماعى أو النعرة القومية كما هو فى العالم الثالث فإنه يصبح أسير الاتجاهات التى تحكم هذا النمط فكرية أو سياسية ، ولعل أبرز مثل للإعلام الموجه كان المثل الذى صاغه جوبلز للدعاية النازية فى فترة ما بين الحربين ، إلا أن أخطر ما فيه أنه يقيد حرية الإعلام بإرادة السلطة سواء كانت هذه السلطة جماعية كما هى فى الاتحاد السوفيتى وكما كانت فى ألمانيا النازية أو فى أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حين ساد حكم الطاغية أو الملك المستبد قبل شيوع الأنظمة الدستورية التى أطاحت بالحكومات الملكية كما حدث فى فرنسا بعد الثورة الفرنسية وفى أمريكا بعد حرب الاستقلال وفى إنجلترا بعد استقرار النظام البرلمانى .

ومن قبيل الإعلام الموجه ما يسود بعض الدول النامية فى الوقت الحاضر ،

وهي الدول التي تحررت من الاستعمار ولكن سادتها نزعة قومية حادّة وحيرة سياسية اختلط فيها الفكر الرأسمالي بالفكر الاشتراكي ونزعة إلى التسلط كما حدث في بعض البلدان العربية والأفريقية والآسيوية ، ففي هذا الطراز من الدول النامية يخضع الإعلام للسلطة الحاكمة سواء كانت سلطة فرد أو جماعة عسكرية أو حزب كحزب البعث وصل إلى السلطة بالسيطرة على الجيش ، وإن كان بعض هذه الدول النامية ما زال يخضع لنوع من السلطة الأبوية وإن كان في طريقه إلى الزوال كما حدث في أثيوبيا وفي إيران إلاّ أنه كان يسيطر على أجهزة الإعلام سيطرة تامة ويوجهها وفق إرادته ، وإن بقيت هذه السيطرة وهذا التوجيه في ظل الأنظمة التي خلفتها مما يدل على الحيرة الفكرية والتهويم السياسي ، وتطلعات الطبقات الجديدة النامية .

ويخضع الأداء اللغوى في مثل هذه الأنظمة السياسية لما يسمى بالنمط الإعلامي ، فهو في نمطه الليبرالي غيره في نمطه الجماعي ، وغيره في البلدان النامية وهو ما يمكن أن نطلق عليه «النمط الوسيط» فلا هو ليبرالي خالص ولا هو جماعي ملتزم ، ففي مثل هذه الأنماط يغدو الأداء اللغوى مركباً ذلولاً للنمط الذى يحتذيه ، وإن جهد في أن يقنع السامع بحقيقة مضمونه . وهو ما ترمى إليه كافة أنماط الإعلام في تأثيرها على الرأى العام كما يرى – والتر ليبمان – في حديثه عنه ، إذ يرى أن الإنسان قاصر في إدراكه ، فهو لا يعى محيطه أو عالمه برؤيته الذاتية له أو ملاحظته ، وما دام هذا المحيط أو العالم مما يقع خارج المدركات الحسية بعيدًا عن أبصارنا فتعجم عقولنا عن إدراكه ، فإننا في حاجة إلى الوعى الناضج والمعرفة الواقعية بالمسائل العامة ، وحيث تستوى هذه المعرفة العامة على وفاق في عقول الناس ينشأ الرأى العام ، وهو ما تسعى إليه وسائل الإعلام بكل أنماطها واتجاهاتها وبقدرتها على التعبير المقنع عما ترمى إليه وتحب أن تؤكده لدى الناس ، بكافة الوسائل والأسانيد .

وقد يبدو الأداء اللغوى فى نمط من الأنماط الإعلامية قاصراً عن الوفاء بغايته التى تنشدها الجهة الغالبة عليه أو النظام السائد ، فتستعين هذه الجهة الغالبة أو النظام السائد بتكوين صور ذهنية لدى الناس كثيراً ما تكون بعيدة عن الواقع الموضوعى عن طريق الرقابة على مواد الإعلام ، والعوائق التى تفرضها عليه فتحول دون معرفة الحقيقة ، فضلاً عما يعانيه فى مثل هذا النظام من قهر ينأى بهم عن الاهتمام بما يجرى ، فتسود الأوهام وتفرخ الإشاعات وتتشوش الأفكار ويتمزق الرأى العام وتغلب المنفعة ، ويصبح لسيف المعز وذهبه السلطان القاهر. ويغدو الأداء اللغوى تعبيراً عن الخوف والطمع ، ومع التكرار ومرور الزمن تتكون أخيلة وتصورات بعيدة عن الواقع ولكنها تتحكم فى سلوك الناس واتجاهاتهم العقلية والعاطفية .

ولهذا غدا الأداء اللغوى فى الإعلام بكافة فصائله وهو يخضع لدراسة علمية وتقنين لغوى تكون الكلمة فيه أداة طيعة لنمط الإعلام السائد .

الإعلام والرأى العام

نشأة الرأى العام :

لا نغالى إذا قلنا إن نشأة الرأى العام وتطوره كان هو الأساس فى ثورة الإعلام الحديث ، وهى ثورة تطبع العالم المعاصر بطابعها الغلاّب المؤثر.

ولكن أيهما سبق الآخر ، أهو الرأى العام أم الإعلام ، أم أنهما بدءا معًا وأثر كل منهما فى الآخر ، فكان الفعل ورد الفعل بقدر ما كان أثر وتأثير كل منهما فى الآخر ؟

فإذا قلنا إن الإعلام قديم قدم الجماعة الإنسانية وأنه نشأ معها وصاحبها فى نموها وتطورها ، فإن الإعلام فى بعض مراميه كان يرنو إلى تكوين رأى عام حول شىء ما يعنى السلطة القائمة ويهمها ، سواء كانت سلطة الكاهن أو الساحر فى الجماعة البدائية الأولى أو شيخ القبيلة أو الملك فى الدولة . فالكاهن أو الساحر لا يملك

أيهما سلطة الإرغام ما لم يكن الإرغام قائماً على اقتناع ، فسلطان الكاهن لا يعلو إلاّ فى جماعة تؤمن بالعقيدة التى يمثلها الكاهن ويتصدرها ويقوم على رعايتها ويضطلع برسومها ومراسمها ، وساحر القبيلة لابدّ وأن يكون ذا موهبة خارقة على الإقناع ، فإذا كان الرجل البدائى يؤمن بسلطانه على الرياح والعواصف والمطر ، فإن الرجل المعاصر لا يتقبل هذه التعلاّت ، التى يؤمن بها البدائى إن لم ينظر إليها بنوع من السخرية ، ولعل الساحر قد أوتى ذكاء يفوق ذكاء الآخرين ، ويستطيع أن يدرك من علامات الرياح والعواصف والأمطار ما يسبق بها غيره فى التنبؤ بها ، فإذا آمن البدائى بقدرته تلك سهل عليه أن يؤمن بقدرته على تذليل ما هو عسير على البدائى من علاقات الزواج والحب والعسر واليسر وشفاء الأمراض مما لا يزال قائماً حتى اليوم فى كثير من الجماعات المتقدمة .

وقد يكون للملك أو الحاكم من سلطة الإرغام ما يحمل رعاياه على الخضوع والإذعان ، إلاّ أن سلطان القهر والإرغام لا يكفى وحده لتحقيق الامتثال ، ولابدّ له من أن يشيع بين الناس تميزاً ينفرد به وحده دون الآخرين ، فهو الملك المؤلّة سليل الآلهة فى مصر القديمة ، يؤمن الناس بعلوّه وتميزه وقداسته فيخافونه ، وهو خوف يبرره الخيال بالرضا ، وكثيراً ما يتحول الرضا إلى نوع من الحب الشعورى وإن طوى نوعًا من الخوف والرهبة اللاشعوريين .

ومثل هذه الخرافات التى حفل بها التاريخ القديم وأضفى عليها الخيال صوراً عديدة من الإذعان هى ولا ريب وليدة فصيلة من فصائل الإعلام نراها فى شيوع هذه العقائد الخرافية بين الناس ، عن طريق الامتصاص الاجتماعى فى سن التنشئة والتعلم فى سن البلوغ ثم الدعوة والدعاية لها والتى تحمل الناس على توفيرها والإذعان لها . فالناس – كما يرى برتراند رسل – يخترعون الخرافات التى تبرر لهم مخاوفهم التبرير العقلى الذى يريحهم ، وللخيال قوى قاهرة يحمل الناس – كما يرى

شكسبير – على الإيمان بحقيقته « فإذا أحس الإنسان فى الليل خوفًا ، فإنه يرى فى الشجيرة دبا » .

ومهما يكن من إرهاص بوجود رأى عام لدى الإنسان البدائى وأن هذا الرأى العام ماثل فى الإجماع على تلك الخرافات ، وأن هذا الإجماع وليد نوع من الإعلام البدائى فإن الرأى العام فى حاضره شىء آخر .

ولكن علينا أن نتوخى الحذر فى تحديد تلك المصطلحات الجديدة التى أفرزتها حضارة العصر ، وثقافته ، وإن كانت لها جذورها القديمة ، كالوطنية والقومية والجماعية والفردية ومن بينها الإعلام والرأى العام فحيث تتحدد أمامنا المصطلحات العلمية نجد مصطلحات العلوم الإنسانية هلامية غير محددة ، يدركها كل إنسان وفقاً لردود أفعالها عنده . فكلمات العدالة والنظام والحرية والشخصية والتحضر والفائدة الحدية وغير ذلك مما يدور على ألسنة علماء الإنسانيات والعلوم الاجتماعية فى كثير من الثقة ولكنها ثقة تعوزها الدقة كما هى فى المصطلح أو الكلمة العلمية ، فالعالم يعرف دلالة الماء والبخار والقوى المحركة ، فى الوقت الذى لا يستطيع عالم السياسة أن يحدد المعنى الدقيق لعبارة « الصوت المستقل – كما يقول « برنارد هينيسى » فى كتابه الرأى العام – الصادر عام ١٩٧٥ .

ويتباين لذلك تعريف الرأى العام بتباين الكتّاب الذين كتبوا عنه ، إلاّ أننا نجد أن مكيا ڤللى كان أول من ذكر عبارة « الرأى العام » بمعناها الجديد فنراه يقول فى كتابه « الأحاديث » « لا يستطيع إنسان واع أن يغفل الرأى العام فى مسائل معينة كتوزيع الوظائف وإجراء الترقيات » ولكنه لم يعرض لتعريف الرأى العام ، حتى جاء « روسو » فوضع تحليلاً وافياً لمقومات الرأى العام ، فلم يكتف بالحديث عن علاقة الفرد بسياسة الحكومة ، وفكرته عنها ، ولكنه أبرز الفكرة الحديثة للرأى العام بالنسبة للكافة والتمثيل النيابى ، وأنه ظاهرة اجتماعية أكثر منها ظاهرة طبيعية

وأن الحكومة لا تعيش بالقانون أو القهر وإنما تبقى برضاء الناس عنها فلا تستطيع أن تغفل التغير الاجتماعى الذى يرضى عنه الرأى العام .

إلا أن تحليل روسو للرأى العام كان فجًّا فى رأى « هانس سباير» فيقول : « وحتى روسو الذى وضع الرأى العام فى مضماره الحديث ، حين أكد أن القانون يجب أن يكون وليد الإرادة العامة ، فإنه تناول الرأى العام فى أصوله القديمة وقبل أن تتضح مسيرة الديمقراطية» .

وقد ظل الرأى العام كظاهرة اجتماعية وسياسية ملك السلطة قبل أن تسفر الثورة الفكرية عن اتجاهاتها فى القرن الثامن عشر ، ولم يكن ثمة تأثير للرأى العام على مجريات السياسة ، ولم تعن آراء « لوك » و « روسو» و «كوندرسيه » و « جيفرسون » وغيرهم من مفكرى القرن الثامن عشر عن فكرة المساواة ورأى الأغلبية شيئاً بالنسبة للفكر العام ، حتى انتعشت فكرة الفردية والمساواة السياسية مع التغيرات الاقتصادية والتقدم الصناعى فى أواخر القرن الثامن عشر فأصبح من لم يكن لهم صوت فى سياسة الحكومة هم أصحاب الصوت الأعلى ، وغدا كل ما يدور فى أفكار عامة الناس وله تأثيره البالغ ، وما وافى القرن التاسع عشر حتى شاعت عبارة الرأى العام على ألسنة المثقفين . وإن لم تكن قوة الرأى العام الجديد موضع رضائهم جميعاً ، فنرى «سير روبرت بيل» يكتب إلى صديق عام ١٨٢٠ منكراً « الترهات ، والضعف ، والمشاعر السيئة والطيبة ، والعناد ، ومقولات الصحف ، المسماة بالرأى العام » كما نرى « دى توكفيل» صاحب الكتاب الخالد « ديمقراطية أمريكا » يلقى بأوضار الغثاثة والفجاجة والتقلب فى الرأى على كاهل الأغلبية القادرة المستبدة ، وهى الأغلبية التى تكون الرأى العام .

وعند نهاية القرن التاسع عشر أدرك كثير من الساسة والمفكرين وأصحاب الحكم أهمية الرأى العام ، إلاّ أن الاهتمام بدراسته ومعرفته لم يبدأ إلاّ مع الحرب

العالمية الأولى حين بدت حاجة المتحاربين إلى الدعاية واستهواء الرأى العام ، وكان كتاب « لورنس لوول » الرأى العام والحكومة الأثيرة ، عام ١٩١٣ أول دراسة من نوعها عن الرأى العام ، حتى كتب « ولتر ليبمان » كتابه « الرأى العام » عام ١٩٢٢ ، بعد أن عرف العالم ماكان لاتجاهات الرأى العام من أثر على مسيرة الحرب ، ثم توالت البحوث خلال العشرينيات والثلاثينيات وهى تخوض فى تحليله وردّه إلى أصوله النفسية والاجتماعية ومؤثراته الطارئة وتفترض النظريات وما ينجم عنه من اتجاهات عملية فى الحكم والسياسة ، فسبق اهتمام الساسة به ، اهتمام الدارسين والكتّاب ، وإن أصبح اليوم موضوعاً لدراسات وإحصائيات وبيانات جامعة فى كافة الجامعات وفى كليات الإعلام والعلوم السياسية والاجتماع ومعاهد التدريب الإعلامى .

ومع ذلك فما زال تعريف الرأى العام متبايناً لا يستقر فيه كتّابه ودارسوه على تعريف واحد ، ولعل آخر تعريف له هو تعريف « برنارد هينيسى » وهو « إن الرأى العام رأى بين آراء عديدة حول موضوع عام له أهميته تعبّر عنه جماعة متميزة من الأفراد » وهو رأى يراه بعيداً عما هوسائد من طباع وعادات وتقاليد اجتماعية ، كما هو بعيد عما يشغل الناس من اهتمامات خاصة لا تعنى المجموع ، وإن رأى « جون ديوى » فى كتابه « الجماعة ومشكلاتها » أن المجتمع يضم جماعات عديدة يؤلف بين أفراد كل جماعة منها اهتمام عام تجذبهم إليه مؤثرات واحدة تكوّن ما نسميه بالرأى العام ، وإن تفرقوا فى غيره ، كالجماعات الدينية وجماعات البريدج مثلاً أو هواة الكرة أو المسرح ، وهو ما نراه فى انقسام هواة كرة القدم حول الحماس لفريق دون الآخر ، فهناك جماعة المتحمسين لنادى الزمالك وجماعة المتحمسين للنادى الأهلى . وإن كان مثل هذا الحماس لا يبرز إلا فى أوقات معينة ، ولكنه يعبر عن رأى عام لفريق من الناس فى ساعة ووقت معينين ، ويبقى كامناً فى غير هذا الوقت وفى غير

تلك المناسبة .

ومهما يكن ، فإننا نستطيع أن نقول إن الرأى العام كالإعلام قديم قدم الجماعة الإنسانية المنظمة ، وأن كليهما قد نشأ مع نشأة الجماعة السياسية إلاّ أنه كالإعلام برز وتطور منذ أخذ الانقلاب الصناعى يسفر عن آثاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيما نسميه بالثورة الصناعية ، وإن الإعلام قد أصبح هو الأداة المهيمنة على الرأى العام .

وقد بدت أهمية الرأى العام وتقديره لدى السلطة حين بدا تأثيره فى سياسة الحكم وفى اتخاذ القرار ، فكل ما لا يرضى عنه المجموع يكون موضع سخطه ويرمه وقد يؤدى هذا السخط إلى نوع من الاحتجاج والثورة ضد القرار .

إلا أن تقدير الرأى العام والاهتمام باتجاهاته لم يكن وليد الثورة الصناعية ، وما كان لها من أثر فى التغير الكبير الذى حل بالمجتمع ، هذا التغير الذى قفز بالقرية إلى المدينة وبالحرفة إلى المصنع الكبير وبالتجمعات الزراعية الواهنة إلى الحشود الصناعية المتآلفة ، وبرأس المال التجارى إلى الرأسمالية الصناعية وبطلب التوابل إلى طلب الخامات والبحث عن أسواق التجارة وتوزيع السلع الجديدة . إذ أن هذا التغير لم يكن ليستطيع أن يلد شيئاً لولا الفكر الجديد الذى أخذ يعصف بعقول الناس واتجاهاتهم وسلوكهم ، وقد يبدو أن اللاعب الأوّل على مسرح الفكر الجديد كان جماعة الفلاسفة والمفكرين ، وهو خطأ كثيراً ما نتردى فيه ، فليس الفيلسوف أو المفكر إلا ناطقاً بروح عصره وإن بدا أكثر استلهاماً لروح العصر من غيره ، ومن هنا تبدو جدة فكره ، فإن كان إرهاصاً بالمستقبل ، فإن هذا المستقبل ما برح جنينا فى ضمير الغيب ، ولكن هذا الجنين هو نطفة قذف بها المجتمع ذاته تتشكل على مهل حتى تكتمل جنينًا فيه كل مقومات الحياة ، فلولا الحشود العمالية فى المصنع والاستغلال البشع للرأسمالى الجشع ما تلقى العمال تعاليم « روبرت أوين »

وأضرابه من رواد الاشتراكية ، ولولا نظام المصنع وعامل الربح والأجور الحدية للعمال والربح والخسارة ما صاغ ماركس نظريته فى فائض القيمة وما استطاع أن يضع قوانين الاشتراكية العلمية ، ولولا الجوع الذى عصف بالفرنسيين ما استطاعت ترهات المحامين وأقاويل الخطباء أن تدفع الناس للثورة .

إذ أن منطق الواقع القائم – كما يقول ويلز – ينتصر دائما على كل فكر نظرى . إلا أن هذا الواقع لابد وأن يلهم شيئا ما يبدو فى صورة رأى عام تجتمع عليه الكثرة وتقوده القلة ، وهى قلة تعلو مواهبها على مواهب العامة ، وهى قلة إما محافظة تتعلق بأذيال الماضى وإما مجددة تنظر إلى الحاضر من خلال المستقبل ويقدر مايكون لإحداهما من القوة المادية بقدر ما يكون لها من القدرة على صياغة السياسة العامة واتخاذ القرار .

فى مؤتمر فينا عام ١٨١٥ اجتمع سادة النظام القديم يقررون مستقبل أوربا بعد الثورة الفرنسية التى زلزلت أركانه إثر الحروب النابليونية الظافرة التى حملت مبادئ الثورة إليها وهوت بالتيجان القديمة لتضع بذرة النظام الجديد ، وقد استطاع سادة النظام القديم أن يعوقوا بذرة النظام الجديد عن النمو لجيل قادم ولكنهم عجزوا عن وأده ، وهو ماعبر عنه نابليون فى منفاه حين كتب يبرر مغامراته العسكرية لتبقى صورته ، صورة نابليون العظيم . باقية على الزمن ، فيقول إنه ابن الثورة الفرنسية وهى التى رفعته إلى السلطة بإرادة المجموع ، وأنه حارب دائما انتصارًا للحرية والسلام ، وما كانت ديكتاتوريته إلا لتحرير الحكم من الفوضى وقد أعاد النظام وطهر الثورة ورفع أعلام المجد لفرنسا ، وما كان فى وقت ما معتديًا ولكن أعداءه وأعداء الثورة هم الذين اضطروه للحرب ، كما يقول : « إن مجدى ليس فى أننى كسبت مائة معركة أو تزيد وإنما صفحة مجدى الحقيقية هى القانون المدنى الفرنسى وما لبثت فرنسا أن استعادت صورة بطلها القديم كما صورها لتضعه على قمة

الخالدين من أبنائها .

وقد لانرى فى موقف أقطاب مؤتمر فينا ما يكون رأيًا عامًّا بالرغم من أنه يمثل اهتمامًا معينًا لجماعة من الناس وسط الجماعة العامة إلا أن هذه الجماعة تملك السلطة وهى فى موقفها تعبر عن مصالحها ، ولا نستطيع أن نرى فارقًا بينها وبين جماعة البريدج أو الجماعة الدينية فى أن كلا منها يدين برأى معين يمثل اهتماماتها أو مصالحها . فالرأى العام كما نرى غير ذلك فليس هو اهتماما خاصًّا لجماعة من الناس ، وإنما هو اهتمام عام ينبع من المجموع وإن اختلف عليه المجموع اختلافًا يؤدى إلى مواقف متباينة ، فإذا انحازت الأغلبية لموقف منها كان هو الموقف الغالب الذى يمثل رأى الأغلبية وهم المجموع الذى غلب رأيه رأى الآخرين .

فإذا كان مؤتمر فيينا يمثل اتجاهًا معينا فى السياسة الدولية فإن هذا الاتجاه كان مما ينكره الرأى العام السائد ، هذا الرأى العام الذى كان ثمرة الثورة الصناعية التى هزت كل قواعد المجتمع ومازالت تدك كل مابقى من معالمه القديمة ، فظهور الطبقة الوسطى ونشأة المدن الكبيرة كان وليد الرأسمالية التجارية التى سبقت الانقلاب الصناعى والتى أدّت إليها الكشوف الجغرافية أوكانت الكشوف الجغرافية ثمرة من ثمارها بعد أن ازداد حجم التجارة الدولية وبدت الحاجة إلى أسواق أوسع ومواصلات أيسر . وبظهور الطبقة الوسطى والمدن الكبيرة تقوض بناء اجتماعى ظل سائدا طوال العصور الوسطى ولاح فجر جديد لعصر جديد فلما كان الانقلاب الصناعى وحررت الآلة الإنسان من القنية والأمية بدت تباشير الثورة الصناعية بظهور الرأسمالية الصناعية ونظام المصنع وطبقة جديدة ستغدو على الزمن ولها الكلمة العليا فى النظام الجديد حرا هو أو جماعيا هى الطبقة العمالية وإلى جانبها جماعة المثقفين من الأساتذة والطلاب والكتاب والمفكرين ودعاة الإصلاح . وهذه الطبقة الجديدة هى التى تصدت لقرارات مؤتمر فيينا وقاومتها وفيها تمثل الرأى العام

بأجلى معانيه ، ولم يكن هذا الرأى العام وليد ساعته أورد فعل لقرارات مؤتمر فيينا ، بل على العكس كانت قرارات مؤتمر فيينا رد فعل لهذا الاتجاه الجديد للرأى العام ، أخذ مفكرو القرن الثامن عشر يعبرون عنه بعد أن اكتشفوا زيف القداسة التى صانت الماضى ورفعته فى أعين الناس ، وقد زودهم العلم الجديد والمخترعات الجديدة بالمنطق الغلاب لتقويض معالمه ، فحين يرى الناس فى الجديد ما يثير ريبتهم أو حذرهم يكون لبعض المفكرين من بعد الرؤيا والنظرة إلى المستقبل مايكشف للناس ماغاب عنهم ، فالمفكر بطبيعته أبعد استشفافًا للواقع من غيره ، ومن خلال النظرة العميقة للواقعيتين صورة المستقبل كما يجب أن تكون فلا تتناقض مع التغيير الذى تؤدى إليه طبيعة التطور وهو ما نعنيه حين نقول : إن المفكر هو الناطق الحق بضمير عصره .

فإذا كانت القلة المحافظة من الساسة وأصحاب المصالح قد تسودت مؤتمر فيينا وصاغت قراراته على هواها ، فإن القلة المجددة كانت قد وضعت بذرة التعبير ، وما من سبيل لاجتثاثها أو وقف نموها . ولم تكن تلك القلة المجددة من المفكرين والكتاب بعيدة عن التغير الجديد الذى يوشك أن يقوض أركان الماضى ويقضى على آخر معالمه الباقية من الاستبداد والتسلط ، فقد ظل « فولتير » على مدى حياته الطويلة (١٦٩٤ – ١٧٧٨) طوال القرن الثامن عشر وهو يبشر بالتقدم وسيادة العقل وأخذ « دنيس ديدرو » وجماعة الموسوعيين يحشدون المعارف العلمية الجديدة أمام الناس يبثون أفكارهم للتقدم والإصلاح فحملوا عل التعصب الدينى تجارة الرقيق ، والضرائب الجائرة والقوانين الظالمة القاسية التى تسود النظام القديم واتجه « روسو » (١٧١٢ – ١٧٧٨) إلى محاربة الاستبداد والحكم الجائر وجاء كتابه « العقد الاجتماعى » بشيرا بالديمقراطية المنشودة ، « فإذا كان من حق الملك أن يحكم – كما يقول – فليس من حقه أن يصدر القوانين ، فهى من حق الناس وهم

الذين يضعونها ، حتى يتسنى لهم طاعتها فالقانون هو مثال الإرادة العامة » ، وكا روسو هو المبشر بشعارات الثورة الفرنسية : الحرية - الإخاء - المساواة - ويعد الكثيرون « أب الديمقراطية الحديثة » .

فإذا كان البرم بقرارات مؤتمر فيينا هو رد الفعل الطبيعى لاتجاه الرأى العا الجديد ، فإن رد الفعل الطبيعى للرأى العام أيضا هو التصدى للقرارات ومقاومتها . وهذا الرأى العام -كما قلنا - وليد النظام الجديد للانقلاب الصناعي والآثار الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة الصناعية وقد بذره ورواد رواد الفكر الجديد . ولم يعد هناك مايقف دونه أو من يرده عن غايته فلم يشرف القرن التاسع عشر على منتصفه حتى كانت الثورات تلهب النظام القديم بشواظ من سعير فى كل أنحاء أوربا وبدا الرأى العام مثال الارادة العامة فى تمام نضجه واكتماله .

وكانت تلك هى الفترة التى ولد فيها الرأى العام الحديث ظئرًا للإعلام الحديث وكانا معًا سمة على مولد عالم جديد هو الذى نعيشه ومازال يكشف كل يوم عن غرائبه .

وأصبح الإعلام من بعد صورة للرأى العام والتأثير فى الرأى العام وخداع الرأى العام وتصويب الرأى العام بجمع النقائض إليه كما تنمّ النفس البشرية عن كل نقائضها فحيث يبدو الإعلام حرا من كل قيد يغدو مثالا للرأى العام ، وحيث يرسف فى قيود السلطة أو قيود الجماعة يغدو مثالا لرأى السلطة أو رأى الجماعة ضد المجموع أو للتأثير على المجموع وخداعه أو تضليله لتحقيق منفعة السلطة أو الجماعة .

فالرأى العام هو الفكرة التى يدين بها المجموع تجاه موقف من المواقف الطارئة أو الممتدة ، وحيث يتوافق رأى أفراد المجموع أو جلهم تجاه هذا الموقف فى حرية كاملة .

وغالبا ما يكون هذا الرأى حصيلة نوع من الحوار حول العناصر التى يختلف عليها الأفراد فى الرأى فإذا استقر بهم الحوار على رأى تراه الأغلبية كان على الأقلية أن تذعن له وهذا هو جوهر الديمقراطية ، لذلك يكون الحوار ميدانًا للحجة ونقيضها حتى يسفر عن الحجة القاطعة التى يرى الأفراد أنها تحقق مصلحة الأفراد كمجموع متكامل .

فالديمقراطية تقوم على الرأى والرأى الآخر فتتعدد الأحزاب السياسية تبعًا لتعدد الآراء لدى جماعات المجموع العام ، وليس للحزب الواحد فى الكيان السياسى أن يحمل لواء الديمقراطية أو يدعيها ، حيث يخضع المجموع لإرادة واحدة يختفى فيها الرأى والرأى الآخر فكثيرًا ما يسفر هذا الرأى الواحد عن ارادة واحدة للتضليل والخداع وإخفاء الحقائق وتغدو وسائل الإعلام أداة طيعة للإرادة الواحدة . ويصبح الرأى العام هدفا للدعاية والاستهواء .

وإذا كان مؤتمر فيينا هو رد الفعل الطبيعى لاتجاهات الرأى العام الجديد الذى بدأ يكتسح القارة الأوربية بامتداد الثورة الفرنسية إليها فإنه كان قبل أى شىء آخر صراعًا بين نظامين وبين اتجاهين ، فإذا كان النظام القديم قد استطاع أن يفرض إرادته فإنه قد عجز تماما أن يخمد تلك الثورة الجائحة التى تكتسح الرأى العام ، حتى انفجرت فى فرنسا ضد أسرة البوربون التى عادت إلى العرش بعد مؤتمر فيينا فأعلنت الجمهورية الثانية فى فبراير ١٨٤٨ وعلى رأسها لويس بونابرت وقد انتخب بأغلبية كاسحة كانت مؤشرا لاتجاه الرأى العام الفرنسى . فقد بقى الفرنسيون يذكرون مآسى الجمهورية الأولى وكيف حررهم نابليون بونابرت منها وأعاد الاستقرار إلى فرنسا ولم يكن عسيرًا على لويس بونابرت وقد أدرك اتجاه الرأى العام . أن يستقطبه إلى جانبه وأن يعلن قيام الإمبراطورية الثانية « بعون الله وإرادة الناس » وأن يدعى نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيين ووئدت الجمهورية الثانية بعد

أربع سنوات من قيامها وكان له من الصحافة الموالية التي سخرها لمآربه أعظم العون في توجيه الرأى العام الفرنسي لما يبتغيه .

وما لبثت الثورات أن اجتاحت بوهيميا والمجر وامتدت إلى إيطاليا وألمانيا تطالب بالدستور والحريات العامة والوحدة القومية ولكنها باءت جميعا بالفشل أمام صولة النظام القديم ، إلا أن الديمقراطية والنزعة القومية بقيتا تلهبان الرأي العام وتهددان النظام القديم بالزوال حتى حققتا أعظم انتصاراتهما في أعقاب الحرب العالمية الأولى بإعلان حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وباتساع النظرة الديمقراطية لتشمل حياة الإنسان وخيره وراحته فتتخطى بذلك إطارها السياسى إلى الإطارين السياسى والاجتماعى معًا . وكان اتساع الرأى العام هو القوة المحركة التي صاغت الاتجاه الجديد . فإذا كانت القوى الاجتماعية الجديدة التى أفرزتها الثورة الصناعية هى التى صاغت هذا الاتجاه الجديد ، فإن هذا الاتجاه الجديد ما كان يستطيع أن يحقق غايته مالم يتشيع له أفراد المجموع ويسيطر على اتجاهاتهم وهو مايفسر لنا فشل ثورات ١٨٤٨ ، حين عجز زعماؤها عن تحريك الرأى العام لصالحها وحين أعوزتهم الخبرة والواقعية فكانوا أكثر كلامًا وأقل عملا ، وحين انقسمت القوميات الناشئة على نفسها ولم يجمع بينها اتجاه واحد ، وحين اختلف الرأى بين أفراد الطبقة الجديدة من العمال والفلاحين والطبقة الوسطى وفرقت بينهم المصالح .

وحين اجتمع الرأى العام على وفاق نحو الديمقراطية والقومية عجزت كل قوى القمع عن قهره . بل أصبح منشد القوى الغالبة لاستهوائه والفوز بثقته تستند إليه الديمقراطيات وتعمل على خداعه واستهوائه وتعمل القوى الطاغية على تمزيقه حتى لا يكون بينه وبينها صدام مؤثر قد يعصف بها .

مقومات الرأى العام :

وحتى يتسنى لنا أن نلم بحقيقة الرأى العام ومضمونه وأن ندرك ما أصبح عليه من قوة فى عالمنا المعاصر فأصبح موضوعًا للدراسة العلمية المقننة وأن نعرف كيف انتقل من إطاره المحلى أو القومى الضيق إلى إطاره العالمى الفسيح ، فإن علينا أن نتناول المقومات التى يستند عليها الرأى العام وتعمل على تكوينه وتوجيهه .

وقد كان للبيئة أثرها فى تكوين الرأى العام وقد ردّه ابن خلدون إلى طبيعة الاجتماع عند البشر ولكنه يشير إلى طبيعة الاستهواء لدى البشر ، وهو بعض مايؤثر فى الرأى العام فيقول : « ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه ، فمنها التشيعات للآراء والمذاهب ، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع فى قبول الكذب ونقله .

إلاّ أن التشيع لخبر من الأخبار لايكون مالم يكن الخبر سندًا لما يراه الفرد أو الجماعة ، فهو لا حق على الرأى العام ونتيجة له . ولايكون الاعتدال فى قبول الخبر إلا وليد الموضوعية التى تحكم الميل أو الهوى ، وقد يكون وليد المجانفة أو عدم التوافق مع مايدور فى ذهن الفرد أو الجماعة وقد يسبق التشيع نوع من الاستهواء ، إلا أن الاستهواء لا يكتمل ولا يتم مالم يتوافق مع موقف الأفراد وحاجاتهم فحيث تسود النزعة القومية كما سادت أوربا بعد الحروب النابليونية يتشيع الناس لها بعد أن تستهويهم نزعة الاستقلال القومى والتحرر من أى سلطان أجنبى ، وحيث يتشيع

الناس للديمقراطية فإن حكومة تحكم بالشعب ولصالح الشعب لا لصالح طبقة أو جماعة هى التى تستهويهم وهى التى تحكم الرأى العام .

فإذا كانت البيئة تلعب دورها فى إبراز الرأى العام وشيوعه فإن الثقافة العامة والمأثورات السائدة هى التى تلعب الدور الأول فى تكوين الرأى العام يصوغها التعليم ويشكلها لتأخذ طابع العصر ومقوماته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وقد يكون لأحد هذه المقومات الغلبة على غيره فيستحوذ وحده على اتجاه الأفراد ويغدو قوامًا للرأى العام السائد ، ففى ثورة ١٩١٩ فى مصر كان الاتجاه القومى هو الغالب ، فاجتمع المصريون بكافة طبقاتهم ونحلهم على طلب الاستقلال والتحرر من النفوذ البريطانى فلما تحقق لهم نوع من الاستقلال الذاتى تشيع الرأى العام للديمقراطية والحكم الديمقراطى وكان الخلاف حول أسلوب الحكم ، إلا أن هذا الخلاف لم يؤثر فى اتجاه الرأى العام وإن فرقه بين كثرة ترى رأيًا وقلة ترى رأيا آخر .

إلا أن هذا الرأى يقف بنا أمام سؤال آخر ويثيره قبل أن نتبين الأثر الناجم عه أو تحكم عليه . هذا السؤال هو : أيهما أسبق الرأى العام أم السلوك ، وبعبارة أخرى ، هل يسلك الناس وفقًا لأفكارهم التى يؤمنون بها ، وهل يتشيعون لما يدور فى أفكارهم . وهل مايقولونه هو ما يفعلونه ؟ .

وللإجابة عن هذا السؤال علينا أن نتبين كما يقول برنارد هينيسى – الرباط الذى يحكم ثلاث صور من المتغيرات ، الصورة الأولى : صورة المواقف ، والثانية : صورة الأفكار . والثالثة : صورة السلوك فهل ينم موقف ما عن اتجاه فكرى هو ماندعوه بالرأى ، وهل ينم الموقف حيال حدث معين والرأى الناجم عنه عن سلوك معين ؟

ولعل ما يذهب إليه علم النفس الاجتماعى من الصلة الوثيقة بين المواقف والأفكار قد يبدو حقا ، فالمواقف اتجاهات مكتسبة وليست غريزية سواء كانت

قبل الأشياء أو الأفراد أو الجماعات ممن تعنيهم أولهم صلة بها ، وقد تمثل الأفكار مواقف حادة ومحددة قبل الأشياء أو الأفراد أو الجماعات كموقف البيض من السود فى أمريكا أو موقف العرب من إسرائيل ، أو موقف الكاثوليك من البروتستانت ، وإن كان من الخطأ أن نضع ذلك موضع التعميم ، وإن كان للرأى الخاص أهمية كبرى حيال بعض المواقف ، إلا أنه كثيرا ما يتناقض مع السلوك الفعلى لصاحبه ، كما يحدث حين تحتفى بأناس لاتحبهم أولا تنتمى إليهم ، فليس السلوك دائما مما ينم عن رأى الناس أو معتقداتهم حين تحكمهم اتجاهات أخرى اقتصادية أو سياسية تفوق الاتجاهات الفكرية أو الاجتماعية .

والرأى الذى يراه فرد من الأفراد ما هو إلا محصلة تجربة فريدة أو خبرة مكتسبة للفرد فى محيطه وفى اتصاله بالآخرين ، وليس كل الناس سواسية فى تشرب الخبرة أو التجربة أو القدرة على التعلم حيث تختلف بينهم القدرات العقلية والعاطفية وحتى يصل الفرد إلى رأى ما فإن هذا الرأى يتكون من خلال الإدراك العقلى والإحساس العاطفى .

إلا أن الرأى يجب أن يتوافق إلى حدما مع الحقيقة القائمة لدى الفرد وإن كانت رؤيا الحقيقة والتوافق معها مما يخضع غالبا للهوى الشخصى وهو ما يطبع الرأى بالتحيف والبعد عن الموضوعية ، فاعتناق الفرد لمذهب سياسى أو اقتصادى أو لفكرة دينية كثيرًا ما يغمض عينيه عن الحقيقة القائمة ، ومن البداهة أن يكون الرأى مريحًا لصاحبه ، فإذا كان للفرد من صحة التقدير ما يمكنه من الحكم على طبيعة الأشياء فإن الرأى لديه غالبا مايتوافق مع طبيعة الأشياء وإن نم عن حاجة فى نفسه وإن مثل هذه الحاجة قد تكون عامة لدى بعض الناس كما يحدث عند الحكم على التيارات السياسية أو أمام صناديق التصويت فى الانتخابات العامة حيث يكون التفاعل بين ماهو واقع وبين الناس أكثر إثارة مما هو لدى الفرد على حدة .

حين تغدو حياة الناس أكثر قدرة على صياغة الرأى العام من حياة الفرد فى ذاته.

ويبدو التماسك الاجتماعى أقوى العوامل فى صياغة الرأى العام، فالتماسك الاجتماعى نتاج ثقافة متسقة وتنشئة اجتماعية متآلفة تغلفها البئة بكل مقومات القدرة والنماء حين يتسنى لها من المقومات ما يؤلف بين جماعتها، كما كانت مصر فى التاريخ حيث كان النيل – كما يرى برتراند رسل – أقوى عامل فى توحيد الدولة واتحاد مملكتى الشمال والجنوب، ومن ثم توحيد المعتقدات ووحدة المشاعر والسلوك العام مما خلدها – كما يقول – وكفل لها الدوام والاستقرار، وهو مالم يتأت لدولة أخرى غيرها.

الثقافة والرأى العام:

والثقافة وهى أقوى عوامل التماسك الاجتماعى، إلى جانب البيئة لها دورها المتميز فى تكيف الرأى العام واتجاهاته، ففى إطارها يتوافق الأفراد مع بعضهم البعض.

والثقافة كما يرى عالم الاجتماع الأمريكى «جون كيوبر» عامل أساسى فى فهم الناس والأفراد ففى إطارها تدور كافة الأفكار التى تقوم عليها العلوم الاجتماعية بل هى عمادها الأول ويكاد الاجماع يكون عامًّا على أنها جماع القيم الاجتماعية المكتسبة والتقاليد السائدة والأساطير الجارية إلى جانب السلوك العام الذى يسود الجماعة ويجمع بين أفرادها.

ومن خواص الثقافة أنها مكتسبة يتلقاها الفرد ويتشربها منذ نشأته الأولى فى البيت والمدرسة، وأنها قابلة للامتداد والانتشار بين المجاميع فلا تقف على فرد دون الآخر وإن اختلفت مستوياتها من حيث الخبرة والقدرة على الامتصاص بين فرد وآخر تبعًا لدرجة التعليم والتنشئة الاجتماعية وأنها متسقة فى أصولها ويشترك فيها

الأفراد جميعا ، فما من سلوك فردى أو جماعى إلا وكان نتيجة التفاعل بينه وبين المعالم الأصيلة للاتساق الثقافى مهما ألم بهذا الاتساق من عوامل التغيير.

وتبدو هذه الظاهرة ، ظاهرة التغير الثقافى بارزة فى مجتمع العصر أكثر مما كانت عليه فى الماضى وهى أكثر بروزًا اليوم فى المجتمعات المتقدمة حيث استوت الثقافة على وفاق مع نمط الحياة القائمة ، فالمجتمعات النامية تواجه حضارة تختلف جذورها عما كانت عليه من قبل حيث يفرض التقدم التكنولوجى ووسائل الإعلام الممتدة إلى آفاق أبعد وأوسع مما كانت عليه أنماطًا جديدة من السلوك والقيم والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، بل والاتجاهات والمواقف السياسية تبدو فى كثير من صورها مختلفة عما كانت عليه فى الماضى . وقد مرت المجتمعات المتقدمة بهذا حتى استوت لديها القيم الثقافية والسلوك الاجتماعى على وفاق مع المتغيرات الجديدة للعالم الصناعى النامى .

والجديد غالبا ما يفرض وجوده ، إلا أن إيثار القديم يقف عائقًا دون سرعة التغير ، فالعادة تغلب التطبع ، ولكن سرعان ماتستوى العادة مع الجديد النامى حين يفرض وجوده عليها وحيث يتضاءل التباين الثقافى أمام التوافق مع الجديد .

فحين نادى قاسم أمين بتحرير المرأة فى العقد الأول من هذا القرن لم يجد آذانًا صاغية ، وواجه هجوما عنيفا من الكثرة المحافظة حتى فرض التغير وجوده وظفرت المرأة من الحقوق فى مدى عقدين من الزمان بأكثر مما طالب به لها قاسم أمين ، وحين واجهت السعودية فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود مستحدثات الحضارة الحديثة ، لقيت مقاومة عنيفة ، ولم يمض عقدان حتى أخذت السعودية بكل مستحدثات هذه الحضارة وفرض الجديد وجوده على القديم المحافظ .

وتتميز الثقافات القديمة بالندرة فيما هو جائز وما هو ممنوع فهى أكثر استواءً فى داخلها من الثقافات الحديثة فى داخلها أو بعبارة أخرى أكثر ثباتا مما هى حديثا فلم

تكن هناك مثل هذه الاتجاهات العديدة وحرية الاختيار كما هى فى المجتمعات الحديثة ، ولم يكن للفرد شخصيته البارزة المتميزة فهو أسير التقاليد الجارية والقيم الاجتماعية والدينية الجامدة التى سادت خلال العصور الوسطى وإذا كان المسلمون فى صدر الإسلام قد نعموا بحرية الإرادة إلا أنهم سرعان ما ارتدوا إلى الجمود الذى ساد أوربا خلال العصر الوسيط وعلى أية حال كانت مطالب الناس قليلة تضاءلت معها حاجتهم للاختيار ، فالنبلاء والسادة يعيشون فى قلاعهم لايبتعدون عنها ، والناس ليسوا أحرارا فى اختيار منازلهم أو مهنهم أو أخدانهم ، فما كان عليه آباؤهم أصبحوا هم عليه كل منهم ملتصق بماضيه وليست لديه القدرة على تغييره . وتبدو هذه الظاهرة ماثلة فى النظم السياسية الجماعية فى وقتنا هذا ، فحيث تسود القنية والعبودية أو التواتر الثقافى تتضاءل حرية الاختيار وحرية السلوك وينعدم الرأى العام . ومازلت بعض المجتمعات القائمة تحول دون بعض الأقليات الدينية أو العنصرية من الدخول إليها ، بل إن بعض الأقليات الحاكمة كما فى جنوب أفريقية تحول دون الأغلبية الملونة وحرية الاختيار فتفرض عليها السكن والعمل وتضرب عليها نطاقًا من العزلة بعيدا عن مجتمع البيض ، وفى أمريكا ذاتها مازال الزنوج يعانون من التفرقة الاجتماعية وإن سوت الدولة بينهم وبين البيض ، ومازال المجتمع الأمريكى يرى فى جماعة المورمون جماعة خارجة يرفضونها وإن سوى القانون بينهم وبينها ، كما أن الاقليات الصفراء لاتجد القبول والرضا من جانب كثير من غلاة الأمريكيين ، إلا أن هذه الظواهر لاتحول دون قيام رأى عام يجمع هذه الأقليات أو الجماعات إليه ، بل إنها ظواهر فى طريقها إلى الزوال حيث تخترق ثقافة العصر صفوف الجميع على السواء .

وقد اكتسبت الثقافة فى القرن الأخير طابعًا عالميا يزداد يوما بعد الآخر حتى يكاد يودى بالثقافات المحلية ويقضى عليها ، حيث تحكم التكنولوجيا طريقة الحياة

وحيث تتحكم المذاهب الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أخذت طابعًا عالميا فى أفكارهم واتجاهاتهم ومهما يكن الحنين إلى الماضى – كما يقول جون كينيث جلبريث أستاذ الأقتصاد بجامعة هارفارد – فإن الحاضر بأنماط حياته المتقدمة والمريحة تشدّ الناس إليها ، فقد يشتاق الإنسان إلى ركوب القاطرة البخارية بعجيجها وصفيرها ودخانها ، ولكنه لايرضى عن القاطرة الكهربائية أو ماهو أكثر راحة منها بديلا .

فثقافة العصر ثقافة عالمية يحكمها التقدم ، بكل ما تسفر عنه مخترعات العصر وأفكاره الجديدة ، فالسيارة والثلاجة الكهربائية وجهاز التكييف قد أصبحت جميعا وسائل ضرورية يتطلع إليها الناس لحياة أكثر راحة ، كما أصبح السفر بالطائرة أكثر وفاء بسرعة الانتقال ، وغدا المذياع والتلفاز حاجة ملحة للناس فى الشعوب النامية والمتقدمة على السواء تجوب بهم شتى بقاع العالم وتنقل إليهم أخباره وأحداثه ساعة وقوعها . مما يفرض على الناس ثقافة مشتركة تكتسح فى طريقها جمود الثقافات المحلية القديمة وهو مايؤدى بدوره إلى قيام رأى عام عالمى .

الثقافة القومية والرأى العام :

إلا أن هذا النمط من الثقافة العالمية النامية لا يحجب الثقافات القومية أو الإقليمية القائمة فلكل شعب ذاتيته الخاصة ، ولكل شعب من التنشئة الاجتماعية والتربوية أو ضاعه الخاصة به ، وله من مصادر المعرفة ما يختلف كل شعب فيه عن الآخر ، بداية من الأسرة إلى المدرسة ، فالحياة العامة بما تتيح للإنسان من وسائل المعرفة فالشعوب النامية حيث تشيع الأمية وحيث يصل قلة من الناس إلى أرقى درجات التعليم العصرى نرى الهوة واسعة بين الأميين والمتعلمين مما يحول دون استواء الرأى العام وتماسكه حيث تسيطر هذه القلة على المؤسسات الاجتماعية

والثقافية وأجهزة الإعلام وسلطات الدولة مما يجعل لها الرأى الأعلى والمقدم .

فالأسرة فى أى مجتمع نام أو متقدم أو دون النمو لها دورها البارز فى صياغة الرأى والسلوك فحيث تسود المأثورات القديمة يكون لها من الثقل الاجتماعى فى الأسرة ما يسيطر على سلوك الأفراد فيها ومن خلالها يمتص الاطفال رأى الكبار حقيقة مسلمة لا تقبل الجدل أو النقاش ، بينما نرى من الأطفال فى مجتمع متقدم كالمجتمع الأمريكى أو بين الصفوة المثقفة فى بلد من البلدان النامية كمصر من يناقش رأى الآباء ولا يقبله على علاته ، وإن كان ذلك لايودى بتأثير الآباء على الأبناء إن لم يكن من خلال الأمر فمن خلال النصيحة والتوجيه ، كما أن الأبناء كثيرا مايقلدون آباءهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، على الأقل فى دور الطفولة ، فإذا تقدمت بالطفل السن وأصبح أكثر اتصالا بالمجتمع من حوله ، تمثل منه مايستهويه ، ويبقى فى نفسه من تأثير الآباء ما يحكم سلوكه وآراءه ، فإذا كان أكثر قابلية للاستهواء غلب التأثير الاجتماعى تأثير الأسرة .

إلا أن المؤثرات الأسرية ليست ذاتية ولاتدور فى دائرة مغلقة على أفرادها فهناك الجيرة والجيران ، وهناك أصدقاء الأسرة وهم فى العادة من نفس المستوى الاجتماعى والثقافى ، وأحيانا من نفس العنصر والطبقة كما أن مصادر المعرفة لديهم متقاربة إلى حدّ بعيد من المدرسة إلى وسائل الإعلام والعظات الدينية وأقوال الكبار والقادة فى المحيط البيئى وكثيرا ما يكون لهذه المصادر من المعرفة تأثيرها على الاتجاهات السياسية لكافة أفراد الأسرة والجماعات اللصيقة فتكون أكثر تماسكا وائتلافا .

ويرى « هربرت هيمان » – كما يذكر فى كتابه التنشئة السياسية – أن الأسرة هى عماد التنشئة السياسية ، وهو مايبدو واضحًا فى أمريكا أكثر منه فى أى بلد آخر حيث تقوم العلاقات الأسرية وعلاقات الآباء بالأبناء على المناقشة والاقتناع .

أما مايثور من خلاف فى الرأى بين أفراد الأسرة الواحدة فإن مرده فى العادة إلى اختلاف مستويات التعليم حين يتضمن هذا التعليم قيمًا ومعرفة جديدة وأنماطًا أخرى للحياة أو إلى اختلاف المستويات الاقتصادية بين أفراد الأسرة ، بانتقال أحد أفرادها إلى مستوى آخر مختلف ارتفاعا أو انخفاضا .

وكثيرا مايؤدى تعدد الطوائف الدينية فى مجتمع ما إلى تعدد الرأى واختلافه فيما بينها . كما يؤدى إلى تباين الفكر السياسى بين طائفة وأخرى ، كما هو فى لبنان ، حيث تتحكم الطائفية فى نظام الحكم ووظائف الدولة وإن جمعتها المصالح الاقتصادية والصالح العام .

وقد يكون الدين وسيلة إعلامية لتعبئة الرأى العام وسببا من أسباب الصراعات الطائفية بين أبناء الدين الواحد كما كان بين الكاثوليك والبروتستانت أو بين أبناء دين ودين آخر كما كان بين المسلمين والمسيحيين من حروب عرفت فى التاريخ باسم الحروب الصليبية ، فقد كان لخطاب البابا إربان الثانى فى كلير مونت عام ١٠٩٥ بدعوة المسيحيين إلى الجهاد المقدس ضد المسلمين ما أثار الرأى العام المسيحى فى أوربا فاندفعت الجموع من كل لون وطائفة يحملون الصليب لتحرير بيت المقدس ، ولم يرو التاريخ خطابًا أثار الرأى العام فى أوربا المسيحية ما أثاره خطاب البابا إربان الثانى ، وقد بلغ من تأثيره أن سار بطرس الناسك حافى القدمين ممتطيًا بغلا طاعما القليل مما يحسن به الناس إليه ومضت الجموع من النساء والأطفال والدهماء وراءه قاصدين بيت المقدس ، فلما نزلوا بالمجر تلقفتهم أسياف أهله خلاصا من الفوضى والنهب الذى أنزلته الجموع بهم حيث غلبت المصلحة المشتركة لأبناء المجر على النزعة الدينية وتلقفت سيوف السلاجقة بقيتهم فى نيقية فلم ينج منهم أحد .

فإذا كانت المصلحة قد غلبت النزعة الدينية فى حملة بطرس الناسك ، فإن المصالح الاقتصادية والسياسية هى القوى الغالبة التى حركت الجموع فى الماضى

وهى أقوى ما يثير الرأى العام ويحرك الناس فى الوقت الحاضر . فالناس تحكمهم مصالحهم ويسيرهم الحفاظ عليها ، فحيث تتوافق مصالح المجموع فإنها تغذى الرأى العام بالوفاق والعمل من أجلها ؛ لذلك كان النظام الاقتصادى والسياسى للمجموع هو أقوى ما يحرك الرأى العام ويجمعه فى الدول الديمقراطية ، إلا أنه يفقد قدرته وفاعليته فى نظم الحكم الاستبدادية ويقف عاجزًا وإن بقى ساخطا ولكنه لايستطيع أن يعلن عن سخطه فى مسار عام ولاينفى هذا وجود رأى عام ولكنه رأى عام عاجز قليل البينة .

وتفوق القوى الاقتصادية فى فاعليتها القوى السياسية ، بل إن القوى السياسية هى نتاج القوى الاقتصادية ومحورها ، ومما يؤثر عن مارك توين قوله « خبّرنى أين يجد المرء قوته لأقول لك ماهو رأيه » ، فما من رأى عام إلا وتقف وراءه رؤيا اقتصادية ومن العسير أن يكون رأى عام دون أن يكون من حوافزه عامل اقتصادى ، فإن كان هناك رأى عام لايحفزه عامل اقتصادى فإن مثل هذا الرأى العام نادر ولا أهمية له .

وتتمثل القوى الاقتصادية فى حاجات الناس المادية إلى ما يشبع بطونهم ويوفر لهم الخدمات العامة ويهيىء لهم فرص الرفاه والراحة وكل ما يشبع رغباتهم ومطالبهم وليست القوى الاقتصادية بضائع وخدمات فحسب ، ولكنها العلاقات الاقتصادية التى تحكم المجموع وتصل بين أفراده وترضى تطلعاتهم .

إلا أن القوى الاقتصادية غالبا ما تخضع للقوى السياسية ، وإن قيل إن السياسة تابع للاقتصاد فحيث تسيطر القوى الاقتصادية يفوق تأثيرها أى تأثير آخر على مجريات السياسة ، وإن بقيت متوارية لاتسفر عن نفسها صراحة ولكنها تسخر القوى السياسية لصالحها ، بما لها من سيطرة على وسائل الإعلام وقدرة على الدعاية الانتخابية واختيار المرشحين المساندين لها ، وحين تلجأ إلى ذلك فإنها تعبد الطريق

للسيطرة على المؤسسات الاجتماعية والثقافية والإعلامية والسياسية التى توجه الرأى العام ملتزمة بالمبادئ والأسس الديمقراطية التى يدين بها ، فالفيصل أمامها هو صناديق الانتخاب وبقدر ماتقوم به هذه القوى للسيطرة على الرأى العام وتوجيهه فإنها لاتنكر نبض المجتمع وتطلعاته فبقدر ما تأخذ بقدر ما تعطى ، ويصبح عامل التوافق والرضا بين الطرفين ، المؤسسات والناخب - هو العامل الأساسى فى توجيه أصوات الناخبين ، فإذا انفصلت هذه المؤسسات عن اتجاهات الناس وأنكرت مطالبهم فإن الصلة بينهما تنفصم ، ويعلو رأى الناس ويكون هو الفيصل فى الرضا وعدم الرضا .

ويتفاوت الإطار الديمقراطى لهذه الصلة بتفاوت التنشئة السياسية والثقافية والعلاقات الاجتماعية فى بلد عن الآخر ، فهى فى أمريكا وبلدان غرب أوربا حيث تتقارب هذه التنشئة وتتلاحم الفواصل غيرها فى البلدان النامية حيث يغيم الفكر السياسى وتبرز الفواصل الاجتماعية والثقافية ، بانتشار الأمية وشدة التفاوت الطبقى ويطر الانتلجنسيا والبيروقراطية على الحكم ، ولا سيما حين يغلب عليها الطابع العسكرى وسيطرة العسكريين ومن يلوذ بهم على الحكم كما هو سائد الآن فى البلدان النامية ، حيث تسيطر هذه الطبقة على مقدرات الحكم وتهيىء الأنظمة والمؤسسات السياسية والاقتصادية التى تضمن لها السيطرة والبقاء . ولا تغفل هذه الطبقة اتجاهات الرأى العام فتحاول أن تسوقها إلى ماتهوى وإلى ما يمكن لها من السيطرة وبقاء الحكم فى أيديها .

فإذا سادت الديكتاتورية تحت أى صورة من الصور كما هى فى النظام الجماعى فى الاتحاد السوفيتى والدول التى تدور فى فلكه حيث يسود فكر مقنن يخضع لفلسفة سائدة هى الفلسفة الشيوعية والفكر الماركسى ، فإن النظام يحجب ماينقضه أو يعارضه لأى اتجاه آخر ، فلايبدو من الرأى العام إلا مايساير النظام ، وليس للرأى

الآخر إلا أن يحتجب مؤثرًا السلبية أو يشايع مؤثرًا المنفعة ، وفى مثل هذا النظام لايكون ثمة رأى عام حقيقى أو سافر ، ولايكون ثمة صدى للحكم فى الرأى العام .

والديمقراطية أو النظام الديمقراطى هو أبرز وأقوى مقومات الرأى العام ، وقد عرف المجتمع الأثينى الديمقراطية قديما وميز فلاسفة اليونان بين صور الحكم ، فقال أفلاطون وأرسطو إن الملكيات تقوم على حكم الفرد ، فإذا كان الحكم لقلة من الناس فهو حكم الأرستقراطية ، أما إذا كان الحكم للمجموع الأكبر فهو الحكم الديمقراطى .

وقد يكون لحكم الفرد أو القلة من الصدى لدى الناس ما يستهويهم ويثير إعجابهم بالرضا ، إلا أن مثل هذا الحكم لايضع فى باله اتجاهات الرأى العام أو يحاول أن يتبينها كما هى فى النظام الديمقراطى ، فالملك المستنير كما كان صلاح الدين الأيوبى وكما كان الخليفة عمر بن عبدالعزيز ظاهرة فريدة فى التاريخ .

فالرأى العام هو وليد الديمقراطية والنظام الديمقراطى فى الحكم حيث يتاح لكل فرد أن يبدى رأيه وأن يختار من يصلح للحكم وأن يتقدم هو نفسه ليشارك فى الحكم ، وهو الصدى لما يقوم به الحكم فى أذهان الناس ، وكلما اكتملت شخصية الفرد وقدرته على الاختيار أمام صناديق الانتخاب متحررًا من الذاتية معنيا بالمسائل العامة يحدوه العقل وحسن التقدير والإدراك الواعى لما هو حق كلما كان صادق الاختيار قادرا على الحكم بين المرشحين ، وكلما كان التماثل الاجتماعى والثقافى بين الأفراد متقاربا امحت الفجوة بين الاتجاهات الفردية والاتجاهات العامة للأحزاب والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فالديمقراطيات الحرة - كما يرى الكاتب السياسى الأمريكى برنارد بيرلسون - ليست نظاما سياسيا يديره الناخبون والمؤسسات السياسية فحسب ، وحتى تثمر وتبقى فإن عليها أن تحد ما بينها من خلاف ، وأن تحول دون أى نزاع يجد ، وأن

يسودها التوافق الاقتصادى والاجتماعى ، وأن تأتلف الأحزاب على وفاق وأن تماثل الهيئات الاجتماعية بحيث تصدر عن الرأى الغالب .

المتغيرات الثقافية والرأى العام :

فإذا كانت الثقافة تعبيرا عن النمط السائد للحياة وأنها القدرة على التكيف مع هذا النمط السائد ، فإن التغير الدائب فى صور الحياة يضفى عليها أنماطًا جديدة تطبع الثقافة بطابع جديد ، لا يقل أثرًا عن طابع البيئة بكل مأثوراتها الخاصة وتقاليدها المحلية ونمط الحياة الذى تسلكه وتجد فيه أشباعا لحاجاتها ، فالجماعة الإنسانية وليدة البيئة التى تحياها بكل ماينوشها من تطور وما يحتويها من تغير ، والتطور سنة دائبة تخضع لها البيئة كما تخضع لها الجماعة الإنسانية ولا يملك أحدهما القدرة على تلافيها ، أما التغير فهو من عمل الإنسان وقدرته على التغيير الملائم للنمو ، وقد يكون هذا النمو من داخلها بفعل قوى جديدة غالبا ما يكون مصدرها فكرٌ جديد ، أوطارئا عليها بفعل قوى خارجية أخذت تلح عليها حين تجد فيها خيرًا لها . إلا أن الفكر الداخلى الذى يحدوها للتغيير ، غالبا مايكون أثرا لقوى خارجية طارئة غلابة مهما لقيت من مقاومة ، فإنها غالبة لأنها تملك القدرة على النمو المتوافق مع حاجة الإنسان للارتقاء والتقدم ، فحين جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر جاءت معها بصور وأنماط للحياة تختلف عما كان لدى المصريين ، فأضاءت الحوارى وكنست الشوارع « ونبهوا على الناس – كما يقول الجبرتى – بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن .. ونادوا أيضا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة .. ومن قولهم أيضا : إن مرض مريض لابد من الإخبار عنه ، فيرسلون من جهتهم حكيما للكشف عليه .. ثم يرون رأيهم فيه » .

إلاّ أن ماجاء به الفرنسيون كان غريبا على المصريين فما ألفوه من قبل وكان عسيرا عليهم أن يألفوه فى بدايته ، فلما انقضى الزمن وعرفوا الخير فيه ، انتهجوه وساروا عليه ، وجاءت الحاجة إلى التغيير نابعةً من ذواتهم لتصوغ حياتهم على نمط جديد رأوا فيه نفعًا لهم . فالتغير الفكرى قد سبق التغير العضوى وصاغ ثقافة جديدة ، تبدو فى ظاهرها تلقائية ، ولكنها فى حقيقتها كانت أثرا لاقتناع الرأى العام بها .

والرأى العام ينشأ ويربو فى ضمير الناس قبل أن يندّ به سلوكهم ، ولايبدو فى هذا إثارة عارضة ينبذ بها موقف عارض ، وهو ماينوش الرأى العام فى كل مالايألفه أو لا يرى فيه صالحه ، وهو ما يمكن أن نسميه الرأى العام العارض ، ولكنه الرأى العام الذى ينشأ على مهل وأناة حتى يسود فإذا ساد غدا رأيًا عامًّا جامعا يطبع ثقافة المجموع بصورة جديدة وغالبا ماينبذ بفكرته فرد متميز أو قلة من المجموع هم الذين نسميهم دعاة الإصلاح ، فلم يكن الشيخ حسن العطار على رأى الجماعة فى نظرتها لما رأت من الفرنسيين ، يقول عنه على مبارك فى ترجمته له : « اشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها .. واتصل بناس من الفرنساوية فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ماليس فيها ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة » .

إلا أن الشيخ حسن العطار لم يجد لأفكاره صدى فى الرأى العام ، فنراه يستشهد بما قاله ابن الجوزى فى مجالس وعظه ببغداد :

مافى الديار أخو وجد نطارحه　　حديث نجد ولاخلّ نجاريه

ثم يقول : « وهذه نفثة مصدور ، فنسأل الله السلامة واللطف »
فقد كانت الفجوة واسعة بين ثقافة هذا الشيخ وثقافة المجموع ، وحين تتسع

الفجوة بين المثقف والعامة يصبح غريبا بينهم ولا يملك إلا أن يخاطب القريبين إليه النازعين إلى فكره ، فنراه يخاطب تلميذه رفاعة الطهطاوى بعد أن رشحه لدى الوالى ليكون إماما لمبعوثيه إلى فرنسا ، ويشير عليه أن « ينبه على مايقع فى هذه السفرة ، وعلى مايراه وما يصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة » ليثير فيه نزعة البحث والتأمل والاستقراء . فطالما نبه الشيخ إلى قعود الأزهريين عن طلب العلم فيما لايتصل « بالعلوم الشرعية » .

إلا أن الطهطاوى كشيخه العطار لم يكن إلا هاديًا ومرشدًا وما كان داعيًا فلم يتصدَّ لثقافة الجماعة بالإنكار ، بل رادها بالفكرة والرأى وما كان للفكرة أن تثمر ولا للرأى أن يشيع إلا فى بيئة أخذت من التعليم قدرًا يتيح لبعض جماعتها أن تدعو بدعوته فكان يسوق الرأى مغلفا بالرواية لايفصح فيها عما يدين به أو يحبذه ، فإذا نمت الرواية عن حقيقة غريبة على قومه لم يفصح برأيه فيها « كالقول بدوران الأرض ونحوه » فأثبت رأى غيره دون إنكار أو تأييد فى كتابه « تخليص الإبريز » .. فقد كان يرى أن الناس إذا تعلموا فإنهم مدركون غدًا ما يعسر عليهم إدراكه اليوم ، وليس له أن يتصدى للرأى العام بما يخالفه فيه .

وبقدر ما يكون عليه الرأى العام من ثقافة متقدمة بقدر ما يتقبل كل جديد ويتشيع له ، فالرأى العام هو المعيار الذى نستطيع أن نحكم به على ثقافة المجموع الذى يصدر عنه ، أهى ثقافة نامية متطورة تتكيف مع التغير النامى لروح العصر وتقدمه ، أم هى ثقافة آسنة راكدة جامدة تتشيع للقديم ولا تبغى به بديلا .

ولم تكن مصر حينذاك بقادرة على تمثل هذا الجديد الذى رأته من الفرنسيين أو استيعابه ، ولم يظفر هذا الجديد باهتمام الرأى العام إلا من حيث غرابته ونقده والتندر به ثم أنكروه لأنه من بدع الإفرنج ، وكل ما أثارهم وظفر باهتمامهم وأجمعوا عليه الرأى هو تلك القارة الأوربية التى ترتبط دائما فى أذهانهم بذكريات

الحروب الصليبية والعدوان على بلاد الإسلام والمسلمين .

ولا يبدأ دعاة الإصلاح خطاب الناس والاتجاه إلى الرأى العام إلا حيث توجد الجماعة ، وإن كانت قلة التى تمثل هذا الاتجاه بين اتجاهات الرأى العام ، وعادة ماتكون هذه القلة سابقة عصرها فاستوعبت معالم الثقافة المعاصرة فى أرقى صورها وأخذت تدعو لما تراه قمينًا بغيرها أن يسلكوه ، أو تقف سندًا للداعية الذى يتصدى للرأى العام ، فلم يتجه قاسم أمين بدعوته إلى تحرير المرأة . إلا بعد أن رأى فى الناس من يصيغ السمع إليه ويساند دعوته ، فإن هذه القلة من الناس هم طلائع الوعى الجديد الذى يسلك طريقه إلى دائرة اللاشعور من ضمير الناس ، وحين نادى الإمام محمد عبده بإصلاح الأزهر وتجديد الإسلام أو بعبارة أخرى بعث الوعى الأصيل بالتعاليم الإسلامية كانت هناك قلة تسانده وكثرة تناوئه ، وحين قام لطفى السيد بدعوته إلى نبذ القديم إلى معالم الحياة العصرية ، التف حوله قلة من المثقفين ممن وعوا روح العصر فكانوا أعلام النهضة الفكرية فى مصر المعاصرة كهيكل وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومحمود عزمى والعقاد والمازنى وازدان بهم العصر ، وكان أستاذهم وكانوا هم تلاميذه وحمل بحق لقب « أستاذ الجيل » .

فالثقافة تصنع الرأى العام ، فإذا كانت ثقافة آسنة راكدة كان الرأى العام آسنًا راكدا لايتشيع لغير البالى من القيم والتقاليد القديمة ويصبح الصراع بين القديم والجديد والمحافظين والمجددين سمة على بعث جديد لم يثو بعد فى ضمير الناس وإن أخذ يمثل اتجاها ناميًا من اتجاهات الرأى العام ، وقد يبدو هذا الصراع إرهاصًا بالتفاعل بين ظاهرتين أو نمطين من أنماط الثقافة ، وغالبا ما يسفر هذا التفاعل عن غلبة الجديد ، فإذا غلب كان اتجاهًا جديدا للرأى العام ، مادام التغير هو العنصر الغالب فى التفاعل ، وهو مايغلب على اتجاهات الرأى العام فى البلاد النامية ، حيث يعجز القديم أمام التطور المادى للحضارة وأمام أنظمة سياسية واقتصادية

غالبة لم يكن لها وجود من قبل ، قد تقمع الرأى العام ، ولكنها لا تستطيع أن تحجبه ، فإن حجبت اتجاها سياسيا أو اقتصاديا معينا فإنها لا تستطيع أن تحجب الامتداد المادى للحضارة ، بما لأدواتها من أثر فعال على سلوك الناس وعلاقاتهم وآمالهم وحاجتهم لإشباع المطالب الجديدة من الثلاجة الكهربائية والمسرة والمذياع والتلفاز فى الدار إلى السيارة والقاطرة والطائرة والطرق المعبدة التى يحتاجها خارج الدار .

فإذا كان لنا أن نصف ثقافة الماضى بالركود ، مهما تباينت أسباب الركود وتعددت بداية من العزلة إلى التخلف الحضارى فإن ثقافة العصر لا يمكن أن يأتيها الركود أو يعتادها الجمود ، فقد انقضى عصر العزلة إلى غير رجعة ، ولم تعد هناك حضارة إقليمية فقد أصبحت الحضارة عالمية لاتقف دونها سدود أو حدود ومايحدث فى أى بلد يعرفه الناس فى أقصى البقاع لتوه ولحظته فالطائرة تقرب القاصى من الدانى والتلفاز ينقل البعيد إلى القريب والمذياع يثرثر فى الدار وفى الحقل بأخبار العالم وأغانيه ولم يعد للجبل أو البحر من عاصم أمام الآلة التى تكشف أغواره ومراقيه . ولم تعد الثقافة ميراثا يتوارثه الأبناء عن الآباء ، أو نأمة ينم عنها ماضٍ بعيد . وإنما هى معرفة وتعليم ، وهو مانتفق فيه مع جون جيلين مؤلف « مسالك الرجال »[1] ومايراه الناس من دقة الملاحظة ، هى المعرفة التى يتعلمها الإنسان فى فترة التنشئة ، فليس هناك مايحمل الصبى أو الفتاة على نهج سيىء من سلوك الآباء ، ولايعدل تعاليم المدرسة أو المعلمين ما يمتصه الصبى أو الفتاة خلال التنشئة من تعاليم ومأثورات ، فقد أصبح التأثير الاجتماعى للبيئة والمجتمع أقوى من أى تأثير آخر للمدرسة أو الآباء ، ولم يعد للماضى من القداسة ما كان له من قبل ،

(١) Ways of Men, by Ghon Gillin, Copyrighk, 1948, D.Appleton Century Company, Inc.

بل إنه ليغدو فى بعض الأحيان سخرية الجيل الناشئ ، ولسدّ ماتتفاوت المؤثرات بين جيل وجيل فقد أصبح وقع الأحداث والمتغيرات بالغ السرعة ، والفرق بين جيل وجيل هو الفرق فى نبض الزمن ومايعكسه من تفاعل بين الفرد والحدث الجديد وثقافات الشعوب تتلاقى وتتفاعل والغلب فيها لعنصر التفوق ، فالمغلوب – كما يقول ابن خلدون – مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده .. بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب ، .. فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به . وذلك هو الاقتداء .. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه فى اتخاذها وأشكالها بل وفى سائر أحواله » .

ولعل فيما قاله ابن خلدون تفسيرا لما ذهبت إليه شعوب المستعمرات من تقليد المستعمر ، ولتفوق الثقافة الأوربية على غيرها من الثقافات ، حتى احتل الأمريكيون ذروة القوة والتفوق المادى فى العالم . فأصبحت ثقافتهم على حداثتها هى الغالبة فانتشرت الأزياء الأمريكية من البلوجينز والقمصان الزاهية كثيرة النقوش ، وعبارات التحية وموسيقى الجاز والرقص الأمريكى وامتدت إلى كل صقع من أصقاع العالم ، حتى أصبحت هوى الروس أنفسهم على بعد مابينهم وبين الأمريكيين من تباين فى نظام المجتمع ونمط الاقتصاد وأساليب الحكم .

إلا أن مثل هذا التغير فى معالم الثقافة ، مهما كان من القوة ، كما نراه فى الشعوب الأفريقية والآسيوية النامية أوبدا جامدا أو بطيئا كما كان فى أوربا خلال العصور الوسطى ، فإن قوة الجذب بين القديم والجديد فى ثقافة أى مجتمع – كما يرى برنارد هينيسى مؤلف « الرأى العام » [1] – أو بين التجديد والمحافظة هى حافز

---

(١) Public opinion by Bernard C. Hennsay: the Wadsworth publishing Company Inc.

التغيير يغلب فيها الجديد القديم الجديد من الآراء والجديد من المخترعات وتكنولوجيا العصر ، وإن بقيت التقاليد وتواتر الواقع دعامة الجمود الثقافى ، فإن ما حفل به العصر من معالم الحضارة الحديثة قد زود التغيير بقوى هائلة خبت إلى جوارها كل قوى الثبات والجمود وأصبح التباين فى البناء الثقافى أقوى مما هو بين الأفراد فلم يعد هناك قهر أو إملاء أو توجيه كما كان منذ بضعة قرون ، فلكل فرد أن يختار ما يشاء وأن يسلك مايريد ، وليس من بين رجال العلوم الإنسانية والاجتماعية ، أو الكتاب ورجال الإعلام أو المربين وغيرهم من الدعاة والمبشرين من يدعو إلى الاتساق والتناغم والتشابه بين الأفراد أو المجاميع بما يفرضه هذا الاتساق من قهر الناس عليه ، أو قمع الفكر ، أو حمل الناس على سلوك ما ، كما كانت مجتمعات الرق - كما يقول هينيسى - حين حرمت الرقيق من أى فكر أو سلوك ذاتى .

والطواعية والاختيارهما طابع الثقافة المعاصرة حيث تسود الحرية الفردية كما هى فى الولايات المتحدة مثلا ، ومادامت أدوات الحضارة الحديثة تمتد إلى أبعد مدى فإن تأثيرها على سلوك الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية يبدو جارفًا حتى وإن بدا تأثيرها السياسى فى الشعوب النامية أقل مما هو فى الشعوب المتقدمة ، مما يبشر فى القريب العاجل بتقارب الأبنية الثقافية على تعددها ، وإن بقى لكل بناء ثقافى معالمه الثقافية التى تصله بماضيه ومأثوراته الدينية وقيمه الأخلاقية ، فلئن اقترب سلوك الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية بعضها من بعض داخل الأبنية الثقافية المتباينة ، فسيبقى لكل بناء ثقافى معالمه الثقافية الخاصة التى يحكمها الدين كما تحكمها مأثورات القيم والأخلاق .

فإذا قلنا إن الثقافة إحدى المقومات الأساسية للصورة التى يبدو عليها الرأى وامتداده ، فإننا لاندعى أنها هى التى تكون الرأى ولكنها تطبعه بطابعها قوة وضعفا

فإن ما يتشيع له الرأى هو مايتوافق مع الثقافة الغالبة على شيعته ، فإذا تباينت لأنماط الثقافية فى البناء الثقافى العام كان التباين فى الرأى العام حيال موقف من المواقف ، والرأى الغالب لمن كانت شيعته أكثر عددا ، وليس من اليسير أن يكون الرأى العام على إجماع ، فليس هناك رأى عام جامع إلا فى حالات نادرة ، كما لايوجد بناء ثقافى لاتتعدد أنماطه الثقافية وإن غلب فيها نمط على غيره من الأنماط الأخرى . وإن كانت شيعته قليلة العدد ، وغالبا مالايكون للثقافات القديمة التى تمنح وتمنع تأثير على الرأى العام كما أن الثقافات الضيقة المحدودة ليس لها هى الأخرى من تأثير على الرأى العام إلا فى القليل النادر ، فإذا تضاءل المنح والمنع بدا أثر الثقافة على الرأى العام واضحا : حيث يتث للفرد أن يستوعب الأنماط المتباينة للأبنية الثقافية المتعددة ، ويختار منها مايشاء فتضيق هوة الخلاف فى اتجاهات الرأى العام .

حوافز الرأى العام :

ويرى برتراند رسل أن مرد النشاط البشرى هو إلى الرغبة أو النزعة دون الواجب والأخلاق . فنراه يدين نظرية الأخلاقيين فى تقديم الواجب والإخلاص على الرغبة والنزعة ويراهما وهمًا كبيرًا ، فالواجب لايحضز الإنسان مالم تكن لديه الرغبة فى أن يفعل ما يمليه عليه الواجب ، فإذا أردت أن تعرف اتجاه الناس ورأيهم وغلبة اتجاه أو رأى على الآخر ، فى مسألة من المسائل ، فإن عليك أن تعرف رغبتهم فى تلك المسألة وأهميتها لديهم .

والرغبة الأساسية عند الإنسان هى حاجته الى المأوى والمأكل والملبس ، فإذا تعذر عليه الحصول عليها ، فلا حدّ لجهده فى تذليل مايحول دون رغبته تلك ، وليس هناك مايحول بينه وبين أى سبيل للعنف يسلكه فى سبيل ذلك ، وأحداث

التاريخ مليئة بما يؤكد ذلك ، فقد أدى القحط فى جزيرة العرب إلى انسياح أهلها إلى المناطق المجاورة حيث تطيب الحياة ، كما كان انسياح القبائل الجرمانية من الشمال إلى الجنوب طلبًا لوسائل العيش ، ومازالت الرغبة فى الطعام أقوى حافز للإنسان فى كل مايقوم به .

ورغبات الإنسان لاتقف عند حدّ ، فعندما استولى العرب على ثروات الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وهم الذين كانوا يعيشون على القليل مما تجود به البيئة . نمت رغباتهم فى التنعم والرفاه بقدر ما أضفت عليهم هذه الثروات الجديدة من أسبابها ، وعندما أفاض عليهم البترول من دخله تغيرت حياتهم تماما عما كانت عليه من قبل ، فالإنسان تحكمه رغبات أخرى مماثلة تظل كامنة حتى تتوفر لها أسبابها يراها برتراند رسل فى حب التملك ، والتنافس والرغبة فى الخيلاء والقوة ، ومازال حب التملك وخاصة لمن يملك القوة من أقوى الدوافع لدى الإنسان ، وهو الحافز الأساسي فى النظام الرأسمالى ، إلا أن التنافس أقوى وأبعد مدى ، فقد يقبل الإنسان الحرمان ليقضى على منافسه ، فالحروب التى يخوضها متحاربان تقضي عليهما معًا إلا أن التنافس بينهما يعميهما عن الحقيقة ، فالتنافس بين أمراء المسلمين فى الأندلس أدى إلى نهايتهم والتنافس بين دول الوسط ودول الغرب فى أوربا أدّى بهم إلى الحرب العالمية الأولى والثانية وانتهت الحربان بهما إلى التبعية لقوى أخرى غالبة جنت ثمار التنافس بينهما فظهرت إلى الوجود قوتا أمريكا والاتحاد السوفيتى بدلا من القوتين البريطانية والألمانية المتنافستين ، ويخوض العرب فى الوقت الحاضر معركة من معارك التنافس تجعل لإسرائيل التفوق عليهم .

وللخيلاء والرغبة فى المباهاة والشهرة وشهوة المجد أثره البالغ فى حوافز النفس الإنسانية يمتد مع الإنسان من الطفولة إلى الشيخوخة والهرم ، وللخيلاء أثرها على النابهين من أرباب السياسة والأدب والفن والاقتصاد ، وقد تبدو الخيلاء أقوى أثرًا

لدى الأفراد منها لدى الشعوب ، ولكن للشعوب من حب الخيلاء ما يدفعها إلى التعالى على غيرها من الشعوب الأدنى ، كما هو الحال بين الشعوب المتقدمة والشعوب النامية أو المتخلفة أو كما هو بين البيض والزنوج فى أمريكا ، أو بين رجال الإمبراطورية البريطانية وبين من يعيشون بينهم فى المستعمرات ومن يرى سلوك الإنجليز الآن فى البلاد التى كانوا يستعمرونها يرى الفرق بيّنًا بين اليوم والأمس القريب .

وتتصل الرغبة فى الخيلاء بالشهوة إلى القوة . فإذا كان فى المجد إشباعًا للخيلاء فإنه يبقى قاصرا على الفرد فى ذاته وليس له ثمة تأثير على المجموع أو اتجاه الرأى العام ، فإذا كانت القوة مصدر الخيلاء كما هى فى العادة لدى من يملكونها ، غدت القوة هى الحافز الذى يغلب أى حوافز أخرى سواه ، سواء فى العلاقات التافهة بين الخدم والسادة أو بين الرئيس والمرءوس . أو بين الموظف الصغير الذى يملك قضاء حاجة لقاصد ، وهذا القاصد ، فإن الموظف الصغير ينتشى بالرفض أكثر مما ينتشى بقضاء الحاجة ، فإذا كانت القوة لدى من يملك مصير الشعوب من المستبدين والذين يحكمون حكما مطلقا فإن نزوة القوة ذات أثر بالغ فى اختفاء الرأى العام ، وإن كانت لاتمنع تكوينه حين ترهق الشعوب نزوات الحاكم وتبدو الفرصة سانحة للتعبير عن السخط العام .

وهذه الرغبات العامة التى تحفز الإنسان للنشاط هى أقوى مايؤثر على الرأى العام حين تتصل بالسياسة والحكم ، فالرغبة فى التملك والتنافس هما محور النشاط الاقتصادى والرغبة فى الخيلاء والقوة هما محور النشاط السياسى للحكام والشعوب . وفى هذه الرغبات يتبلور اتجاه الرأى العام .

وقد تكون الإثارة من محركات الرأى العام وإن كنا لانعدها من مقوماته ، وإن قصرنا بحثها فى هذا الصدد على حاجة الإنسان إلى الإثارة كمتنفس للضجر دون الإثارة كوسيلة لتحريك الرأى العام ، فإنسان العصر وقد وقته الآلة من الإرهاق

البدنى وقسوة العمل اليدوى فى حاجة إلى متنفس لطاقته البدنية المختزنة . وقد يكون المتنفس ضارا أو بالغ الشر ، كان يسوق الضجر أو الملل الناس إلى العنف ، وقد يكون المتنفس بريئًا يضفى على الناس المتعة والراحة ، فبينما ترى لاعبى كرة القدم يستمتعون باللعب ويستمتعون بالاسترخاء بعد اللعب نرى المتفرجين الجالسين يدفعهم الحماس للمباراة إلى التعصب لأحد الفريقين وينتهى الأمر بهم إلى الشجار ، وحاجتهم إلى الشجار هى التى توحى إليهم بالتعصب ، وليس التعصب هو الذى يدفعهم إلى الشجار ، إذ يجدون فى حمى الجماعة التى تتعصب لفريق ما يصدرون به عن حاجتهم للتحرر من الضجر الذى يسود حياتهم النفسية والطاقة التى تختزنها قوتهم العضلية حيث يعجز الفرد أو يجبن وحده عما يتاح للجماعة أن تقوم به . ويفسر برتراند رسل هذه الظاهرة بأن قوانا العقلية تتلاءم وتتوافق مع عمل بدنى شاق بالغ القسوة ، ويقول إنه تعود فى صغره أن يسير على قدميه خلال إجازته خمسة وعشرين ميلا فى اليوم « فإذا جاء المساء لم تكن بى حاجة إلى ما يبعد عنى الضجر . وكانت متعة الجلوس تكفينى تماما ، ولايرى غرابة فى أن يحتشد الناس فى ميدان الطرف الأغر ليهتفوا بأعلى أصواتهم للحكومة التى قررت أن تبعث بهم إلى الحرب ليموتوا .

أما الإثارة كمحرك للرأى فإنها تقوم على شحن الناس بفكرة تتوافق مع مايدور فى أذهانهم عن حالة ما ، فالأحداث التى سبقت الحرب العالمية الثانية والتى وضع بها هتلر العالم على حافة الهاوية قد عبأت مشاعر الناس فى إنجلترا وفرنسا بالنقمة على ألمانيا حتى غدت محاولات تشمبرلن رئيس الوزارة الإنجليزية لتسوية النزاع سخرية الناس فى بريطانيا ، فلما اجتاحت ألمانيا بولندا كان الرأى العام الإنجليزى والفرنسى مهيئا لقيام الحرب ، وفى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٣ سبتمبر ١٩٣٩ أعلن تشمبرلن قيام حالة الحرب بين بريطانيا وألمانيا . وفى الساعة الخامسة من مساء

نفس اليوم أعلنت فرنسا أنها فى حالة حرب مع ألمانيا وبدأت الحرب العالمية الثانية والرأى العام لكلا المتحاربين مهيأ لها . بعد أن أثارته تحركات ألمانيا العدوانية . بينما كان الرأى العام فى ألمانيا معبأ منذ معاهدة فرساى ١٩١٩ للثأر من هزيمتها أمام الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى . وأخذ هتلر يغذيه وينميه طوال حكمه وبدأت ألمانيا الحرب وهى معبأة بفكرة الثأر أكثر مما هى معبأة بأحلام المجال الحيوى التى نادى بها هتلر .

فالإثارة من أهم محركات الرأى العام تلجأ إليها حكومات المعارضة فى الدول الديمقراطية لتحويل الناخبين إلى صفها والفوز بالحكم .

وعنصر الإثارة هو ما يلمس أهواء الناس ، فالناس فى الشعوب الفقيرة لايحركهم غير الجوع ، وقد لايحركهم أن يتساوى الناس فى الجوع ، وإنما يحركهم التفاوت كأن تتخم القلة وتجوع الكثرة ، فإذا برز العامل المثير الذى يحرك الجياع كانت الثورة . وتضرب الشيوعية على هذا الوتر الحساس فى الشعوب الفقيرة لإثار الناس ضد نظام لايدين بها ، فإنها لاتعنى بشرح الفلسفة الشيوعية إلا من هذا الجانب الذى يقسم المجتمع إلى برجوازية مستغلة وبروليتاريا كادحة تستغلها البرجوازية لتزداد على حسابها ثراء ونعمة ، بينما تضرب الرأسمالية على وتر التقدم الذى يحقق الرخاء للجميع فإذا لم يتحقق الرخاء تحت حكم القلة الأثيرة ، كانت الشيوعية أقرب إلى استهواء الناس حيث يغفل الناس عن أى قيمة أخرى غير الجوع الذى يعصف بهم ، ويلتبس الجوع بالجور والظلم وبكل مايعصف بقيم المجتمع القائم .

فالرأى أو الفكرة التى تستهوى الرأى العام مما يجب أن يرتاح لها الفرد ، وهذه الفكرة أو الرأى مما يجب أن يستند إلى واقع قائم وحالة بارزة يدركها الناس ويحسون بها ويعقلونها ، أما الغموض والبعد عن الواقع فإنه لا يحرك الناس بقدر ما يثير

البلبلة بينهم ، فالرأى يحكمه حاجة الفرد وتصوره الذاتى ، حيث يختار الناس من الرأى مايوافق أهواءهم وتصورهم .

والإثارة وسيلة إعلامية لتحويل الرأى العام عما هو يؤرق الحاكم ويخشاه من جانب المجاميع بأن يحول اهتمامهم إلى ماهو أكثر إثارة وأشد تحريكا لانفعالاتهم مما يعلو فى نظرهم عما هو قائم لإثارتهم ، وغالبًا مايكون هذا المثير الأكبر متصلا بسلامة الوطن وأمن المجموع من غوائل الأزمات الخارجية كتوتر العلاقات السياسية التى تهدد بحرب أو نزاع مسلح يحمل الناس على نسيان نوازعهم الداخلية أو الإغضاء عنها تأمينًا لسلامة الوطن ، وكثيرا ما تلجأ الدكتاتوريات الحاكمة إلى هذا النوع من الإثارة تلهية للناس عن أوضار الطغيان والأزمات الداخلية وأكثر ماتكون هذه الأزمات الخارجية مختلفة وإن لم تأمن العثرات والتورط الحقيق فهى فى هذا سلاح ذو حدين إن نجح مرة فشل مرات .

الإعلام وسيكلوجية الرأى العام :

ما من مضمون تباينت مصطلحاته كما تباينت فى الإعلام ، حتى غام مع هذا التباين مدلوله وتعريفه وإن أجمع فى النهاية على غاية واحدة ومرمى محدد . وهذا هو طابع العلوم الإنسانية على أصالتها وقدمها ، مما يحملنا على أن نتلمس لأنفسنا العذر فى هذا التباين ، فالإعلام وإن أولج فى الماضى وصاحب الإنسان فى طفولته الباكرة ، إلا أنه لم يصبح علمًا مقننا يشغل الدارسين إلا فى هذا القرن ومنذ بضع عشرات من السنين ، وإن نشأ فتيا عارمًا درج من الطفولة إلى عنفوان الشباب بقوة وحيوية بالغة . حتى أضفينا عليه وصف الثورة فقلنا « ثورة الإعلام » وإن كانت وصفًا للقنوات والوسائل التى زودتها التكنولوجيا الحديثة بالقوة والغلبة والسيطرة على الرأى العام وتوجيهه فرسالة الإعلام بكل فصائله هى رسالة إلى الرأى العام

ماثلا فى المجموع وليست رسالة من فرد إلى فرد وإن عدّها البعض من قبيل الإعلام . وإن كنا نعدها من قبيل الحديث الشخصي وليس لها مكان فى عالم الإعلام فالإعلام إعلام للرأى العام ، ولا إعلام بدون جماعة تمثل رأيا عاما .

وخطاب الرأى العام هو الذى أضفى على الإعلام أهميته حتى فى بداوته الأولى حين كان حديثًا مباشرا فى ندوة أو محفل ، أو إلى الجماعة ككل من حاكم أو صاحب سلطان يصدر بتعاليمه إلى الجماعة التى يحكمها سواء كانت طاعتها له عن رضى أم قامت على الإرغام . ومنذ أصبح للرأى العام تلك الأهمية التى أضفتها عليه الديمقراطية والحريات الفردية يخضع للتقنين العلمى والبحث الاستقرائى لاستهوائه مادام قد تحرر من القيد والطغيان والكبت الذى ينطوى عليه . فأصبح الاستهواء محورًا لدراسات عديدة تسخر العلوم الإنسانية لغايتها بكل ما تحفل به من معارف تزود الناس بالقدرة على الاستقراء والحكم .

إلا أن صاحب الرسالة فى ميدان الإعلام لابد وأن يتميز على غيره لابالكم الوافر من المعرفة فحسب ولكن بالقدرة على التأثير وامتلاك الوسيلة فالكاتب لايصل برأيه إلى القراء مالم ينشر مايكتب ، والصحفى لايدلى برأيه من غير صحيفة والمعلم مالم يجد التلاميذ لايعلم ، والمعلن من غير مستهلك لايعلن ، والواعظ لايعظ دون منبر أو محفل ، والخطيب مالم يجد مستمعًا فكأنما يصرخ فى بلقع .

والقدرة على التأثير والاستهواء مالم يتميز بها صاحب الرسالة لايؤثر ولا يستهوى وإن امتلك الوسيلة ، فالإقناع هو الغاية التى ينشدها ومالم يصل إلى الإقناع فقد انزوى من ميدان الإعلام ولا نعده من رجاله وإن توفرت له عناصر الإعلام الثلاثة كما حددها أرسطو .

والإقناع هو الميدان الذى تصول فيه سيكلوجية الإعلام . وهى سيكلوجية لها خصائصها المتميزة ، فهى ليست قاصرة على الميادين المألوفة لعلم النفس وإنما تمتد

إلى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم السياسة والاقتصاد ودراسات البيئة والعقائد والمذاهب الفكرية والاجتماعية ، فسيكلوجية الإعلام لاتكتفى بتشريح النفس الإنسانية ولكنها تضع الإنسان على مسرح الحياة فى امتدادها من الماضى إلى الحاضر وبكل مايحيط بها من مؤثرات يفرضها الواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى بيئة لم تعد لها حدود ولكنها تمتد لتشمل العالم بأسره ، وفى هذا الإطار ينشأ الجانب الفلسفى للإعلام ومادام الإعلام رسالة إلى المجموع لتقرير حقيقة موضوعية كما هو فى ميدان المعرفة ، أو لتقرير حقيقة تستهوى الناس وتجذب إليها الرأى العام كما هو فى الدعوة أو الدعاية ، أو حتى للرمز إلى حقيقة فى قالب درامى كما هى فى المسرح والسينما ، وإن طغى عليها عنصر الإثارة والتشويق عن طريق الإمتاع فإن رسالة الإعلام لاتكتفى بالجانب الفلسفى أو النظرى لوضع قاعدة عامة ، فإن هذه القاعدة تتحول من الجانب النظرى إلى الجانب التطبيقى فى محيط ينفعل بواقعه أكثر مما ينفعل بالفلسفة والنظرية مادامت النظرية هى غاية الفلسفة ومرماها لتقرير حقيقة أو واقع معين فإذا كانت الفلسفة هى ماتعنى أولئك الذين يخططون للإعلام ويرسمون مراميه دون كافة الناس ، فإن أول مايعنيهم قياس الفعل ورد الفعل عند الناس ، أو بلغة الإعلام مدى مايتركه المحدث والحديث من أثر فى المستمعين .

وغلبت دراسة هذا الأثر على أبحاث الرواد الأوائل فى دراسة الإعلام ، فكانت دراسة « جابرييل تارد » عن الرأى العام ودراسة « أ .ف . بنتلى » للحكومة ودراسة « جراهام ولاس » للطبيعة البشرية فى السياسة فى العقد الأول من هذا القرن ، هى النواة لدراسات امتدت واتسعت حتى شملت الجانبين النظرى والتطبيقى للإعلام . فقننت له الطريقة التى يقوم عليها استقراء الرأى العام فى أمرما أوموضوع يشغله كما يجرى فى انتخابات الرئيس الأمريكى أو الانتخابات النيابية للرئاسة والبرلمان فى أوربا وغالبا ماتسفر هذه الاستقراءات عن نتائج مذهلة ،

صادقة أو كاذبة فإن أى التواء فى اللفظ أو التعبير قد يكون مضللا للرأى فلا يسفر عن واقع حقيقى واقتحم الإحصاء وبنوك المعلومات والكومبيوتر الميدان فأصبحت وسائل عملية لقياس الرأى العام ولكل منها دوره فى القياس .

وعلى هذا القياس يتحدد دور الاعلام وخاصة فيما يتصل بالمسائل العامة التى تعنى الناس وتشغلهم كما يتحدد الإطار الذى تدور فيه سيكلوجية الاستهواء فيما نسميه « حرب الدعاية » فى الإعلام الدولى ونسميه « الجاذبية » فى الإعلان ، كما نسميه « حرب الإقناع » حيال التناقض الفكرى فى اتجاهات الرأى العام .

وقد استحوذت الدعاية على ميدان الإعلام فى البداية بتأثير عاملين كان لظهور الراديو والسينما تأثير كبير عليهما ، ففى خلال الثلاثينيات كان الراديو قد غمر الأسواق وأثبت وجوده وتأثيره الكبير فى ميدان الإعلام وقد سبقته السينما إلى الميدان ولكن لم يكن لها من الأثر ما أصبح للراديو من بعد فى ميدان الدعاية فقد بقيت قاصرة عنه فى المدى وفى الغاية . فلم تبلغ من السعة والانتشار مابلغه الراديو ، وظلت تجول فى ميدان الإمتاع أكثر منها فى أى ميدان آخر من ميادين الإعلام أو فصائله .

أول هذين العاملين حاجة السوق إلى الدعاية كوسيلة للإعلان عن السلعة ، وقد بدت هذه الظاهرة فى الولايات المتحدة قبل غيرها من البلدان الأوربية التى شهدت مولد الإذاعة وانتشار الراديو فى دورها حيث أخذت وكالات الإعلان تتجه إلى هذه الوسيلة الجديدة التى تقتحم المجتمع وتفرض وجودها عليه أكثر من غيرها ، كما كان لقيام الإذاعات الأمريكية على أساس تجارى بعيدا عن احتكار الدولة ما جعل للإعلان مكانته فى تمويلها .

أما العامل الثانى فكان أكثر استئثاراً بالدعاية في أوربا منه فى أمريكا وكانت بداية الإعلام الدولى فى الإذاعات الموجهة التى استشرت فى فترة ما بين الحربين ،

حين أخذ هتلر ووزير دعايته البارع جوبلز يستغلان هذه الوسيلة الجديدة استغلالا حاذقًا فى الدعاية النازية الموجهة التى غمرت العالم وأخذت تغزو الأسماع البريطانية والفرنسية .

وقبل أن تبدأ الإذاعة النازية جولتها الحادة أخذت الإذاعة البريطانية تبث إرسالها إلى شعوب الكومنولث البريطانى عام ١٩٣٢ وبدأت إرسالها إلى الشعوب العربية عام ١٩٣٨ لمقاومة الدعاية النازية .

وكانت تلك هى البداية فى حرب الإرسال الإذاعى التى أخذت تتسع وتمتد إلى ماصارت إليه فى الوقت الحاضر ، حيث أخذ الإرسال الإذاعى فى أكثر دول العالم يبث إذاعاته بكل اللغات إلى دول العالم أجمع .

ثم كانت الحرب الثانية الملحمة التى استشرت فيها معركة الدعاية الإذاعية وكانت المعركة كما هى فى الحرب بين القوتين اللتين حملتا عبء القتال : بريطانيا من ناحية وألمانيا من الناحية الأخرى ، لعب فيها الاستهواء دوره الكبير فكان الخبر وكانت الحقيقة المذاعة ، لاتصدر قبل أن تمر على خبراء الدعاية ، ولم تكن الدعاية حتى ذلك الوقت قد تعدت أسلوبها التقليدى بالكلمة المباشرة أو الرسالة غير المباشرة عن طريق الصحف والمنشورات ولم تكن لمثل هذه الصحف والمنشورات أن تقتحم خطوط الأعداء فانفردت الإذاعة بالميدان وكانت لها صولتها خلال الحرب ، وحين تحجب السلطة الخبر عن الناس فإنهم يجدون فى الراديو جهازا لا يخضع للرقابة وإن خضع للتشويش . ولكنه بالرغم من التشويش فإنه يمسك بالناس فما من وسيلة غيره لمعرفة ما تحجبة السلطة عنهم بل إنهم يلتمسونه لمعرفة مايدور فى بلدهم مادامت السلطة تحجبه عنهم أو تصدره على هواها ، فنى اليوم التالى لمعارك ٥ يونية ١٩٦٧ ، أخذ المصريون يتجهون إلى الإذاعات الخارجية حين أيقنوا أن إذاعتهم لاتصدقهم الخبر . حتى أصبحت الإذاعة المصرية حينذاك (نكتة) الرأى العام .

وكان الاستهواء العاطفى هو اللاعب الأول على مسرح الدعاية خلال الحرب فالحرب إجراء لايحكمه العقل قدر ماتحكمه العاطفة ، تلك العاطفة التى يراها برتراندرسل ماثلة فى تلك المشاعر المبهمة ، مشاعر العامة ، لاتلبث أن تلهبها حمى الحرب حتى تنطلق بأصحابها إلى القتال مؤتمرة بأوامر رجال السياسة .. تحدوهم عادات مشتركة وميول غريزية وإحساس عارم بالكبرياء القومى ، وشعور بما يقع عليهم من ضغط خارجى ويصبح للاستهواء السياسى دوره البارز فى الإعلام الداخلى وفى الدعاية لأهداف الحرب .

وقد سبقت الدعاية النازية غيرها فى الاستهواء العاطفى على أسس علمية من الدراسات السيكلوجية والإعلامية يصفها الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتابه « دراسة فى التاريخ الأوربى المعاصر بقوله : « واعتمد النازيون على الصحافة والراديو فى نشر الدعوة إلى النظام الجديد ، ووجدوا فى إثارة الإشاعات والأقاويل سلاحًا ماضيا لا يقل فى أثره عن فعل الكلمة المكتوبة أو الأحاديث التى ينقلها الأثير إلى كافة الأرجاء ، واستند النازيون فيما كانوا يذيعون إلى مبادئ معينة ، وصلوا إليها كما قالوا بعد دراسة سيكلوجية الجماعات والشعوب وأهمها : أن التكرار الكثير من شأنه أن يلصق فى ذهن المخاطب نوع الصورة أو الفكرة التى يريد أصحابها أن تعلق فى ذهنه وتتغلغل فى فؤاده وأن الكذب الفاضح يجد من سامعه قبولا وتصديقا ، لأن الشخص إذا اعتاد الكذب « الصغير » فى حياته اليومية ، صار لا يصدق الأكذوبة الصغيرة ، بل الأكاذيب الضخمة وحدها هى التى تترك أثرا عالقا فى نفسه ، وأن مثل الجماهير فى قدرتها على التفكير كالقطيع من الغنم الذى لاإدراك له ولا تمييز عنده » .

واستعان النازى بالصحافة فى دعايتهم بين الشعوب المغلوبة فأصدروا الصحف العديدة فى كل بلد احتلوه فأصدروا فى باريس صحيفة **Pariser**

Zeitung وفى وارسو Warschauer Zeitung وصحفا أخرى ومجلات عديدة فى كركاو وبلجراد وبراج وكوبنهاجن وأوسلو وكرواتيا وسلوفاكيا ، تتسق جميعا فى الطريقة وفى الأداء .

وفى الجانب الآخر بدأت الدعاية المضادة تغذيها المقاومة السرية للشعوب المقهورة فى الداخل ، وأخذت الصحف تتحايل على الرقابة بأساليب كثيرا ما كانت تثير السخرية ، فحين نشرت صحيفة بلجيكية أن خمسين طائرة أغارت على بريطانيا ولم يعد منها ست وأربعون طائرة وأنذرتها الرقابة فنشرت بعد ذلك خبرا عن غارة ألمانية أخرى . قالت فيه : « شوهدت اليوم ٣٤ قاذفة ألمانية تطير صوب إنجلترا وقد عادت منها ٤٣ طائرة إلى قواعدها سالمة » وكان نصيبها هذه المرة الإغلاق والتعطيل . وحين أغارت الطائرات البريطانية فدمرت مصنعًا فى الدنمارك يعمل لحساب الاحتلال ، منعت الرقابة الألمانية نشر الخبر على حقيقته وقالت إن الغارة قد أسفرت عن إصابة بقرة واحدة وأضافت الصحيفة الدنماركية قائلة « ومازال البقرية تحترق » .

فإذا كان الاستهواء هو قوام الدعاية وإذا كان الاستهواء يستوحى العاطفة ، فإن العاطفة لايثيرها غير الإقناع ، وليس الإقناع يسيرًا فى جماعات تتفاوت نزعات أفرادها ، إلا أن هذه النزعات الفردية غالبا ماتتوحد أمام أمر عام يؤثر فى المجموع بصورة واحدة ، ويوحد نزعاتهم نحوه ، وفى هذه يستوحى الإقناع تلك النزعات العامة التى يتسق فى إطارها الشعور العام حيال أمر معين يجمع عليه الرأى العام ، وقد يكون هذا الأمر طارئا كفرض ضريبة جديدة مثلا فإما أجمع الرأى العام على رفض الضريبة والتصدى لها وإما رأى مصلحة فيها فتقبلها راضيا ، إلاّ أن هناك مايتصل بالضمير الاجتماعى للناس ، وليس من اليسير التصدى له مالم يكن هناك مايدين به ويتقبله راضيا .

وليس الضمير الاجتماعي للأمة أو المجموع قيمًا هلامية يصوغها الهوى والنزوات الطارئة ولكنها قيم وإن تكمن فى زوايا اللاشعور فإنها تحدد الفكر والسلوك فى الفرد وفى الجماعة وتطبع ثقافة الأمة أو المجموع بطابع مميز ، تحدوها فى الغالب نزعات معنوية كالدين والتقاليد والقيم والمأثورات أو نزعات مادية كالرفاه والمنفعة والمصلحة المشتركة مما أصبح موضوعا لدراسات الأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعى ، وشغل به رجال السياسة والإعلام .

وقد يتساوى فى هذا الاستهواء العاطفى والاستهواء العقلى ، والاستهواء العاطفى تحكمه الميول والرغبات الكامنة أما الاستهواء العقلى فيحكمه المنطق وإن جفا الميل والرغبة . ولكن لكل منهما مكانه وموضعه ، وإن جمع الإقناع بينهما ، فغاية كل منهما إقناع من يتجه إليه فإذا كانت العاطفة هي المثير الأول فإنها لاتبقى ولا تستمر مالم تستند إلى فكر سوى ومنطق يتقبله العقل ليصل به إلى الإقناع .

وقد حاولت الدعاية الألمانية أن تجذب الشعوب المقهورة إلى فلسفتها السياسية ووجدت من يشايعها ممن عرفوا باسم (الطابور الخامس) فأخذت تبشر بجدوى النظام الجديد وتقارن بينه وبين الأنظمة المنحلة للديمقراطيات الفاسدة مستدلة بالمنطق والبرهان والشواهد الزائفة أو الحقيقية ، ولا تعدم أن تجد من الحقائق مايعينها على تأييد تلك الشواهد إلا أن الواقع كان يكذب كل مايقولون ، فالحياة الوادعة التى يبشرون بها يكذبها مايعانونه من وقر الاحتلال النازى حين قام بتسخير النساء والمسنين وصغار السن فى الإنتاج العسكرى لمصلحة الريخ ، وحين سلب الناس أقواتهم وتركهم يتضورون جوعا وحرمهم وسائل التدفئة فى الشتاء الأوربى البارد الذى عصف بالأطفال والمسنين والمرضى وأوردهم موارد الهلاك .

وعندما يفشل الاستهواء سواء كان مصدره العاطفة أو العقل فى استمالة الرأى العام لايبقى من سبيل غير إثارة الخوف ، مما يضع الإعلام فى إطار آخر لايقوم على

استهواء الرأى العام أو استمالته ، وإنما يقوم على تخويف المجموع فلا يصدر عن رأى ولاينم عن اتجاه مخالف . وقد ينساق هذا المجموع فى ظل التوتر الذى يثيره الخوف إلى مشايعة المخيف ، فيغير من اتجاهه لتجنب الخطر القائم أو المحتمل . وإن كان لايثير التشيع ، فإن كبت الرأى العام لايعنى أنه غير موجود فإن بقى مكبوتا لا يسفر عن ذاته فإنه يبقى فى داخل كل فرد على حدة وقد يبلغ الخوف بالفرد أنه لايستطيع أن يتحدث بما يرى لأقرب الناس إليه ، بل ويطلب من أقرب الناس إليه إلا يتحدثوا فى هذا الأمر .

وهناك فرق بين الخوف والتخويف ، فالخوف انفعال ناجم عن رد فعل أو ردود أفعال للقسر والإرغام الذى يخضع له المجموع بفعل سلطة قاهرة تسيطر على الحكم وترغم الناس على الطاعة ، وهذه السلطة إما خارجية كاحتلال دولة لدولة والسيطرة على إرادتها وإما داخلية كقيام حكم ديكتاتورى يرغم المجموع على الطاعة غير آبه بإرادته .

والتخويف هو التهديد بمضرة قد تنال الفرد أو تنزل بالمجموع مالم يستجب لفعل معين ، كالتخويف من إهمال التطعيم ضد مرض معين أو التخويف من عدوان خارجى تبريرا لزيادة الاعتمادات العسكرية .

وفى كلا الحالين الإعلام يلعب دوره الأصيل فى التأثير على الرأى العام ، كالحملة الإعلامية للتحذير من شلل الأطفال مالم يحصن الأطفال بالطعم الواقى ، أو الحملة لتنظيم الأسرة مخافة الانفجار السكانى مع قلة الموارد ، وغالبا مايثمر التخويف أثره فى الاستجابة تجنبا للخطر المحتمل .

إلا أن الخوف من السلطة قد يؤدى إلى ردود أفعال متباينة ، ويختلف رد الفعل باختلاف الفعل ومصدر الفعل ، فمصدر الفعل أشد وقرًا إذا ماكان داخليا عما إذا كان خارجيا ، إذ أن السلطة الغريبة كسلطة الاحتلال أدعى إلى توتر المجموع

وإثارته مما لو كانت داخلية ، فحيث تقوم السلطة على الإرغام من الحاكم الوطنى تجد لها أشياعًا ممن يؤمنون بالحاكم وسلطانه ، أو متشيعين ممن تحدوهم المنفعة وابتغاء الخير بالتلاحم مع الحاكم ومشايعته مما يمزق إرادة المجموع فلا يجمع على اتجاه ، ويلعب الاستهواء دوره فى الخلل الذى يصيب الإرادة العامة فلا يستوى معها المجموع على اتجاه واحد وغالبا مايقوم الاستهواء على الخداع الذى تسوقه أجهزة الإعلام حين تقدم للمجموع ما يرضيه وتبعد عنه مايغضبه وغالبا مايثمر الخداع ، فالمشايعون يتحمسون لكل ما يسوقه الإعلام والمخالفون يحذرون المضرة من قول الحقيقة ، فإذا قالها أحدهم أصبح ضحية للإعلام حين تصمه أمام المجموع بالخيانة وتلصق به من الاتهام ما يشينه ولايملك لنفسه دفاعا أو ردّ مضرة .

وقد تعمد السلطة الداخلية إلى إثارة الخوف لدى المجموع باتخاذ إجراء عنيف ضد بعض المخالفين بتلفيق الاتهامات ومايترتب عليها من اعتقال ومحاكمات وتعذيب أحيانا كما كان من بعض الأنظمة الديكتاتورية مدنية أو عسكرية فى الشرق الأوسط وفى أفريقية وفى كثير من النظم الشيوعية ، والقصد من مثل هذا الإجراء إرهاب المجموع وإخراس الألسنة .

ولاتجد السلطة الخارجية ماتجده السلطة الداخلية من قدرة على الاستهواء أو جذب المشايعين حيث تتوحد الإرادة العامة على مقاومة السلطة الخارجية ، ولاتخشى من تلفيق الاتهامات . ولا يخشى الناس من وصمهم بالخيانة أو بما يشين ، والاعتقال والتعذيب مفخرة لصاحبه وليس أمام السلطة الخارجية غير القمع الذى يزيد المقاومة قوة وإصرارا . كما كانت ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال وكما كانت مقاومة غاندى للإنجليز وثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى .

ومع ثورة الإعلام فى نصف القرن الأخير احتلت دراسات الرأى العام مكانها الأثير الذى تحظى به فى الوقت الحاضر . وأصبح للإعلام مكانه المرموق فى تلك

الدراسات فلم يعد ملكا للبيئة أو المحيط أوقاصرًا على الاهتمامات القومية ، ولم تعد تحكمه ثقافة نوعية بعد أن اهتزت الثقافات البيئية أمام زحف حضارة عالمية غازية تفرضها الآلة بكل خصائصها السلوكية ، فسلوك راكب السيارة غير سلوك راكب الدابة ، فإذا كان راكب الدابة حرًّا فى اختيار طريقه فإن سلوك قائد السيارة يخضع لقواعد المرور ، وإذا كانت القافلة تجمع بين أناس متقاربى المشارب فإن القطار يجمع شتيتًا من الناس لايعرف بعضهم بعضًا ولاتربطهم علاقة ما غير الحشد فى عربات متعددة ، كماتفرض الكهرباء والثلاجة وأفران البوتاجاز سلوكا معينا على أصحابها فى استخدامها غير سلوكهم الأول حيال وسائل التبريد والطهى والمواقد . كما تفرضها وسائل الإعلام الحديثة فالراديو ينقل إلى الأسماع مالم يكن فى قدرة السامع أن يسمعه والتليفزيون والسينما ينقلانه إلى عالم كان بعيدا عنه ، وكل هذا قد ترك تأثيره على اتجاهات الرأى العام وماينجم عنها من سلوك الأفراد والجماعات .

واتسع مجال الدراسات الإعلامية فغز فى ميادين السياسة وأوغل فى بيداء فسيحة من الدراسات السيكلوجية التى لم تدع ميدانا فى حنايا الإنسان إلا اقتحمته وولجت آفاقا عديدة من العلوم الرياضية والاجتماعية والإنسانية على اختلافها بل وعلوم اللغة والأداء والإلقاء .. إلخ .

هذا عدا البحوث التحليلية والتجريبية والميدانية التى غدت أساسًا لقياس التأثير الإعلامى فى الأفراد والجماعات وما لوسائل الإعلام من أثر على فصائله التى يدور فى ميدانها منذ القدم وهى كما قلنا التعليم ، والدعوة والدعاية والتسلية .

فأى تغيير كان لوسائل الإعلام الحديثة فى تلك الفصائل ؟

الإعلام : الخدعة الكبرى :

حين أراد بسمارك أن يجر فرنسا إلى الحرب تحقيقا للوحدة الألمانية لم يجد سبيلا

لذلك غير إثارة الرأى العام الفرنسى لتكون فرنسا هى البادئة بالحرب وسنحت له الفرصة ، عندما رشح أحد أمراء البيت المالك البروسى لاعتلاء عرش أسبانيا . مما أغضب فرنسا . فأبلغت سفيرها أن يطلب وعدًا من ملك بروسيا ألايعتلى أحد أفراد البيت المالك البروسى عرش أسبانيا ، وكان الملك يستجم فى مدينة « ايمز » وغضب الملك وأبرق إلى بسمارك بما كان ، وهى البرقية التى عرفت « ببرقية أيمز » إذ سرب بسمارك البرقية محرفة إلى الصحف فنشرتها بما يفيد أن إهانة لحقت بسفير فرنسا وهاج الرأى العام الفرنسى ، فأعلنت فرنسا الحرب على بروسيا ، ورأت ولايات الجنوب الألمانى . أن العدوان لايقع على بروسيا وحدها وإنما يقع على الشعب الألمانى جميعا فاتخذت جانب بروسيا ولم تكن من قبل راضية على زعامة بروسيا وإن كانت تخشى فى نفس الوقت أطماع نابليون الثالث ، وانتهت الحرب بهزيمة فرنسا فى معركة « سيدان » ودانت ولايات الجنوب الألمانى بالولاء لبروسيا وطلبت من نفسها الانضمام إلى الاتحاد الألمانى وتوج ملك بروسيا إمبراطورًا على ألمانيا فى قاعة المرايا بقصر فرساى .

وهكذا كان الإعلام البارع الخدعة الكبرى التى طوحت بعرش نابليون الثالث وبانتزاع ألمانيا للألزاس واللورين فى معاهدة فرانكفورت ١٨٧٢ .

وكانت الدعاية سلاحًا قويا فى يد الفاشية والنازية حتى خيل للعالم أن موسولينى يستعيد مجد الإمبراطورية الرومانية وأخذت عبارة Mari Nostrum - بحرنا - أى البحر المتوسط تشيع على لسان كل إيطالى ، حتى بعد أن تعثرت إيطاليا فى حربها مع الحبشة قبيل الحرب العالمية الثانية ظل شبح الدعاية الإيطالية مخيما على الأذهان ولم يكن هناك من استطاع أن يدرك ماوراء الطنين الإعلامى من خواء .

وقد استغل هتلر سلاح الإعلام الدعائى أبرع استغلال فى بناء النازية فى نشأتها الأولى فى ألمانيا عندما استهوى الألمان إلى دعوته استهواءً قام على معرفة عميقة

بالنفسية الألمانية التى هزتها هزيمة الحرب ، وبالنزعة العسكرية الكامنة لدى الألمان فأحيت عروض النازى العسكرية بقمصانهم البنية وأرديتهم العسكرية الحماس فى شعب مهزوم ينشد الثأر وكان بارعًا فى استغلال الأزمة الاقتصادية التى عصفت بالعالم فى الثلاثينيات وامتدت آثارها إلى ألمانيا بصورة مروعة قذفت بملايين العمال إلى البطالة ، براعته فى استغلال الظروف الدولية للاعلان عن قوة النازية وقدرتها فى داخل بلاده وفى خارجها حين أخذ يمزق قيود معاهدة فرساى واحدًا بعد الآخر ويعيد تسليح ألمانيا ويحمل الدول على التودد له . وأخذ يشيع فى الألمان نعرة الاستعلاء ولم تكن غريبة عليهم .

وكان الإعلام الألمانى بارعا غاية البراعة فى الدعوة للنظام الجديد الذى تنادى به النازية لسعادة العالم ، بفضل إعلامى بارع ، بل لعله أبرع رجال الإعلام فى القرن العشرين هو الدكتور جوبلز وزير دعاية هتلر ، وخدع الكثيرون فى دول عديدة فى هذا النظام النازى الذى قفز بألمانيا إلى الصدارة وقضى على البطالة بين العمال حتى أقبلوا فى بلادهم على تكوين أحزاب على غرار الحزب النازى يستوى فى هذه الدول الاستعمارية والمستعمرات ، وكانت تلك الخدعة الكبرى خدعة إعلام بارع قوى مسيطر ، فلم تعدم ألمانيا حين سيطرت على أوربا خلال الحرب أنصارا يتشيعون لها ويتعاونون معها . وحين صحا الإعلام المضاد للحلفاء خلال الحرب وصمهم بالخيانة ونعتهم «بالكويسلنجية » نسبة إلى « فيدكون كويسلنج » الضابط النرويجى الذى تشيع للنازية وأيدها فى بلاده خلال محنة الحرب وأصبح نعت « كويسلنج » دليلا على الخيانة أكثر من دلالة لفظ الخيانة على معناها وكانت سمة بارعة من سمات الدعاية المضادة .

والدعاية هى خدعة الإعلام الكبرى وظيفتها ومرماها الإقناع « تحمل – كما يقول برون – الشر والكذب ، تعمل فى أناة على تهيئة عقل الفرد أو المجموع

بما يتسنى لها من وسائل خفية للغايات التى تنشدها[1] .

وقد اتخذت الدعاية صورتها الحاضرة خلال الحرب العالمية الأولى فاخترعت الأكاذيب وحيكت الخدع السياسية وأقاصيص الفظائع لإثارة الوساوس والتقزز من العدو ، وفاقت دعاية الحلفاء دعاية الألمان حينذاك مما حمل الألمان فى الحرب الثانية على هذا القصد وفاقت دعايتهم دعاية الحلفاء وسارت مع العمليات الحربية جنبًا إلى جنب ، بل سبقت وقوع الحرب وكانت لها السيطرة على أذهان الناس فى كل صقع ومنتدى .

وأصبحت الدعاية من بعد طابع الدولة الحديثة تمدها وسائل الإعلام الحديثة بكل ماتحتاج إليه للوصول برسالتها إلى عقول الناس من أى قبيل والتأثير على مشاعرهم بما ترمى إليه من غايات ، هى فى الغالب – كما يرى « ليونارد دوب » الأستاذ بجامعة ييل فى كتابه « الرأى العام والدعاية » وضع الفرد أو المجموع فى اتجاه معين ليسلك سلوكا معينا .

والدعاية على أية صورة غلّ فى عقول الناس إقناعًا أو اقتناعًا ، « فحيث تنثر أقاويلها لتسوق الناس إلى مراميها فإنها فى عرف الناس – كما يرى دوب – شىء كريه لايقوم على حق ولا توجبه الضرورة » .

وقد تتباين الصورة إلى حدّ التناقض فى الوسيلة وإن اختلفت فى الغاية فالإقناع بتذليل الإرادة وإخضاعها بما يعرف « بغسيل المخ » وسيلة كريهة والإقناع بإثارة الجاذبية فى الإعلان التجارى بالصورة والموسيقى وسيلة ممتعة وإن لجّ كلاهما فى الكذب والادعاء وتمويه الحقيقة .

---

(١) J.A.C. Brown: The Techniques of Persuasion From Prpaganda to Brainwashng.

إلاّ أن الإقناع قد يتم دون اقتناع حين يخضع الفرد أو المجموع لمؤثرات تسلبه دقة الحكم والتقدير الصحيح فحيث يبدو العقل الواعى على ضرب من الاقتناع يبدو فى صورته الظاهرة صحيحا حتى تزول المؤثرات التى حملته على الاقتناع وتطفو المشاعر الداخلية على السطح فيدرك أن اقتناعه كان ضربا من المير والتزوير ، فغالبا ماتكون الدعاية لشيء لايقبله العقل ، وقد تم بوسائل غير معقولة كما كانت دعاية الكنيسة ضد نظرية كوبرنيق عن المجموعة الشمسية كما يرى برون .

وتغلب الدعاية غيرها من فصائل الإعلام فى عصرنا هذا ؛ فقد تشابكت المصالح الدولية والمحلية وتعددت المذاهب الفكرية والسياسية واتسعت التجارة وأسواق المال والمصارف واختلفت مصادر السلع ونوعيات البضائع ، ومع حرية التجارة أصبحت الدعاية للسلعة والإعلان عنها ضرورة أساسية لرواجها ، وأصبحت لها المكانة الأولى فى عالم الإعلام فاقتحمت ميدان التعليم وكان من قبل أهم فصائل الإعلام ، كما ولجت ميدان الدعوة والإمتاع أو التسلية واتخذت منها جميعا وسائل لغاياتها .

فالدعاية لنظام الحكم القائم تحمل السلطة على طبع برامج التعليم بما يساير الدعاية ويؤكدها أو على الأقل تفريغها من كل ما يتناقض معها ، فروح التعليم كما يرى « دوب » وإن كانت تساير الحقائق العلمية السائدة فى عصرٍ ما ، فإن روح الدعاية ترمى إلى طبع سلوك الناس وأهوائهم ومواقفهم بطابعها ، وإن جفت فى اتجاهاتها ووسائلها العقل والمنطق ، فقبل كوبرنيق لم تكن هناك فجوة أو تناقض بين المعرفة العلمية السائدة والمعرفة التعليمية ، فلما سادت نظرية كوبرنيق عن شكل وحركة المجموعة الشمسية وأصبحت حقيقة علمية لم ترض عنها الكنيسة ولها السلطان الزمنى والدينى ، فحجبتها عن الناس وفرضت عليها الرقابة ودعت إلى تكذيبها ، وهو ماعده دوب نوعًا من الدعاية ضد النظرية الجديدة ، فالتعاليم

الكنسية هى التى تسيطر على برامج التعليم .

فإذا كان التعليم يقوم على الواقع العلمى المجرد والأحكام المستقلة فإن الدعاية تقوم على الأحكام المسبقة والمعدة من قبل ، وإذا كان المعلم ينشد النمو الوئيد للمعرفة العلمية فإن الداعية بنشد النتائج العاجلة السريعة ، وبينما يدعو المعلم الناس إلى التفكير الحر ويعلمهم كيف يفكرون فإن الداعية يقدم لهم مايفكرون فيه .

فإذا جاء المعلم ليقوض مايقيمه الداعية . فأيهما يكون له الغلب ؟

والغلبة قطعا للنظام السياسى والاجتماعى القائم ، فإذا كان النظام الاجتماعى هو الغالب ، فإنه يحكم النظام السياسى كما هو فى عالم الديمقراطيات ، وإذا كان النظام السياسى هو الغالب فإنه يحكم النظام الاجتماعى ويسيره لأغراضه ومراميه وغالبا ماتقوم على حماية وجوده ، فالنظام الحاكم إذا قام على الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية فإن السلطة الزمنية تخضع لسلطة الدين ورجاله ، كما كانت البابوية وسلطان الكنيسة فى العصور الوسطى ، وكما هو لدى أئمة الشيعة فى النظام الإسلامى ، حيث يكون للإمام المعصوم السلطان الأعلى على الرعايا وعلى جهاز الدولة .

وفى الأنظمة التى يسودها الحكم المطلق كالحكم الأبوى أو الاليجارشى فى الأنظمة القديمة وإن بقيت منها صور عديدة فى عالمنا المعاصر ، أو الحكم المذهبى كالفاشية والنازية والشيوعية التى حفل بها القرن العشرين ، أو الحكم العسكرى الذى ظهر واستشرى فى أكثر الدول النامية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وإن تخفت جميعًا وراء دعوى الديمقراطية فإنها تقوم على طابع من الاستبداد يغلب فيه النظام السياسى النظام الاجتماعى ويحكمه ويسيره لصالح النظام والطبقة الحاكمة .

وفى هذه الأنظمة تغلب الدعاية فتسيطر على وسائلها وتحكم اتجاهها الإعلامى كما تحكم نظام التعليم وبرامجه وتسيرها للتوافق مع اتجاهها الإعلامى وقد مرت مصر

بهذا الدور فى فترة حالكة من تاريخها اختفت فيها الحرية تحت وقر الاستبداد .

وقد يغلب على النظام الديمقراطى سطوة رأس المال ونفوذه ودهاء جماعات الضغط وأساليبهم ومناوراتهم ، فإن غلبت دعايتهم بمالهم من نفوذ فإن النظام التعليمى يبقى سليما ليس فى قدرتهم الاقتراب منه أو التأثير عليه ، وتسود حرية الرأى وحرية الفرد مما يصون قواعد النظام الاجتماعى ، ولكن يبقى للدعاية ميدانها الفسيح فى عالم الاستثمار والتجارة والتسويق وإن لم تخل من الاستهواء الخادع .

ويبدو خطر الإعلام المعاصر فى امتداده واتساعه ، فإذا كان للدول المتقدمة مايحميها من البلبلة ، ولا أقول الخداع ، فالخدعة قائمة فى صورة من الصور يستوى فى ذلك الدول المتقدمة والدول النامية إلا أن البلبلة الإعلامية هى من نصيب الدول النامية وحدها ، أو ما يطلق عليها الآن « دول العالم الثالث » وقد تحررت هذه الدول من ربقة الاستعمار . وكانت الخدعة الأولى التى تردت فيها ، وكان للإعلام دور كبير فيها ، أنها ظنت ظنًّا بلغ حدّ اليقين أن استقلالها كان ثمرة كفاحها الوطنى وأنها قهرت القوى الاستعمارية وأجبرتها على الفرار ، وماعرفت أن امتداد الحضارة الغربية إليها ، وتطور الاقتصاد العالمى وحاجيات السوق والعلاقات الدولية الاقتصادية التى نمت عن قيام ماعرف « بالشركات المتعددة الجنسية » كانت جميعا العامل الأول فى رحيل الاستعمار أوبلغة أدق الاحتلال العسكرى والإدارة الاستعمارية ، فقد أدّى رحيل الاحتلال العسكرى إلى خلاص الدول الاستعمارية من نفقاته ، حتى وإن كانت على كاهل المستعمرات ، فإن بقاء قوات الاحتلال مما يثير الإحن نحوها من جانب المواطنين ، وقد تؤدى الإحن إلى ثورات تبهظ كاهل الاحتلال عسكريا وماليا .

فإذا كانت الإدارة الاستعمارية قد زالت فقد جاء أفرادها خبراء وفنيين كطلب الدول النامية لتقود خطاها فى التنمية والتقدم ، كما أن امتداد الحضارة الغربية إليها

قد جعلها فى حاجة ملحة إلى تكنولوجيا الغرب حاجتها إلى أدوات الراحة والترفيه التى عرفتها فى اتصالها بالغرب من قبل ، وقد اتسعت هذه الأدوات فى أعقاب الحرب فلم تعد قاصرة على المنسوجات والملابس ووسائل المواصلات الحديثة كالسيارات للصفوة المتميزة والترام وقطارات السكك الحديدية بما تقتضيه مصلحة الاستعمار لنقل الخامات إلى مراكز التصدير والمنتجات الصناعية إلى أسواق الاستهلاك ولإحكام السيطرة العسكرية على البلاد.

ولم تعد أدوات الراحة والترفيه مقصورة على الصفوة بل امتدت إلى الانتلجنسيا الجديدة التى نشأت فى ظل الاستعمار امتدادها إلى كثير من افراد الطبقة الوسطى من سكان المدن بنوع خاص ، والمدن فى دول العالم الثالث هى مركز النشاط التجارى والثقافى ، وهى الميدان الذى تتلاقى فيه حضارة الشرق والغرب أو حضارة الماضى الآسنة وحضارة العالم الحديث النامية المتحركة ، فأقبلت هذه الطبقات الناشئة كبيرها وصغيرها على منتجات الغرب وأدواته كالثلاجة الكهربائية ومواقد البوتاجاز والسخانات والراديو والتلفزيون والسيارات التى لم تعد قاصرة على الصفوة بل امتدت إلى غيرها ممن يحرزونها لاستعمالهم الخاص أو ممن يلجأون إليها كوسيلة مريحة للانتقال بل أخذت هذه الشعوب تهجر غذاءها القديم إلى مواد الغذاء التى يصدرها الغرب إليها ، فحل القمح محل اليام والدخن والذرة كلما كان لهذه الدول النامية من خامات الصناعة ماتبتاع بثمنها ما تحتاجه من منتجات الحضارة أدواتها الجديدة ، فإذا صدرت طنًّا من الكاكاو استوردته حلوى بثمن يزيد أضعافًا على ماتقاضته من بيعه وإذا صدرت برميل البترول بأربعين دولارا استوردته مصنعا بألف دولار ، وهكذا فى غير ذلك من المواد الخام مما أدّى إلى انتشار المجاعة فى بلدان لاتملك من الخامات ماتصدره ، أو تملك منها ما تعجز عن استغلاله وتسويقه ، أو اكتفاء الدول الصناعية المتقدمة منها بما هو أيسر وأقرب منالا لسهولة

استغلاله أو لقربه من مراكز الاستيراد والتصدير .

فإذا كانت دول العالم الثالث فى حاجة ملحة إلى منتجات الدول المتقدمة فما حاجة الدول المتقدمة إلى الاحتلال العسكرى وإحن الاستعمار إذا كان ماتحتاجه من خامات يأتيها رضا وامتنانا .

وقد نجح إعلام الدول المتقدمة فى أن يوحى إلى دول العالم الثالث نوعًا من الكبرياء القومى ، فاستكثرت من أدواته بتكوين الجيوش الوطنية وتسليحها بما تسمح لها به الدول المتقدمة وقفز معدل تجارة السلاح من صفر قبيل الحرب العالمية الثانية إلى ١٢٪ من حجم التجارة العالمية ، وحملها الكبرياء القومى وقد أورى الاستعمار القديم لهيبه إلى التنافس فيما بينها وجرّها التنافس القومى إلى الإحن والعداوات فاستكثرت من السلاح وتجييش الجيوش ، فالتهمت من ايراداتها ماهى فى حاجة إليه للتنمية والتقدم والرخاء .

ومازالت بلدان العالم الثالث –كما يرى كثير من خبراء التنمية وما أسفرت عنه المؤتمرات المنبثقة عن الأمم المتحدة للتجارة والتنمية وتقرير البنك الدولى لعام ١٩٧٨ – محكوما عليها أن تقوم بدور المصدر البدائى للمواد الخام بأبخس الأسعار ، ودور المستهلك للإنتاج الصناعى الذى تبتاعه بأغلى ثمن ، مما أدّى إلى قصور بالغ فى خطط التنمية ، وخلل الميزان التجارى وتراكم الديون ذات الفوائد العالية والسداد قصير الأمد .

وإذا كان الاستعمار بصوره القديمة قد زال من الوجود ، فقد حل محله نوع من الاستعمار الجديد يقوم على الرضا ، يسنده إعلام قوى مسيطر بارع الخداع فوكالات الأنباء الدولية التى تزود العالم بأكثر من ٨٠٪ من أخبار العالم تخضع للدول المتقدمة وتعتمد عليها وكالات الأنباء المحلية فى البلدان النامية فى حصيلتها الإخبارية ، وإن كانت لاتفرد للعالم النامى غير القليل من حصيلتها الإخبارية ،

هذا العالم النامى الذى يربو عدد سكانه على ثلثى سكان العالم ، فإذا أولت أخباره بعض الاهتمام فإنها تذيعها بما يتفق والاتجاه الغالب عليها . فإذا كان للصحف فى العالم النامى حرية نشرها أو التعليق عليها ، فإن هذه الحرية تتضاءل أمام الإذاعات الموجهة وأفلام السينما والعروض التلفزيونية للمسلسلات الأجنبية والأمريكية بنوع خاص ، التى تغزو العالم وتسيطر على مشاعره والدول النامية دون شك هى المستهلك الكبير لمثل هذه المسلسلات التلفزيونية والأفلام السينمائية ، والأثر الناجم عن مشاهدتها هو البلبلة التى تعصف بالمشاهدين من التقاء ثقافتين بعيدتين عن بعضهما بعدا كبيرا مما يؤدى إلى اهتزاز القيم والموروثات الحضارية والثقافية للشعوب النامية ، ويؤكد تبعيتها للدول المتقدمة . وقد لاتهمنا هذه التبعية فى عالم ينشد الوحدة والتآخى ، ولكن البلبلة التى تنجم عن التقاء ثقافتين وما يتأتى عن ذلك من تمزق فكرى وعاطفى هى الخطر الأكبر ، لاسيما وأن المنتجات السينمائية والتلفزيونية يغلب عليها الجانب الترفيهى دون الجانب الثقافى وترمى إلى الإمتاع دون المعرفة ، وتتدنى بالفكر الرفيع إلى إخراج هزيل ، وترمى إلى الإثارة التى تجلب الكسب دون إبراز المشاعر السوية الطيبة فأفلام الجريمة والعنف تحتل حيزًا كبيرا من العروض السينمائية وغدت صناعة السينما صناعة رابحة وأصبحت خامس صناعة فى الولايات المتحدة وغزت بإنتاجها العالم شرقه وغربه ، إلاّ أن تأثيرها فى الدول النامية كان أشد منه فى الدول المتقدمة حيث تتقارب النظم الاجتماعية والقيم الثقافية بين أوربا وأمريكا وتتباين إلى حد كبير بينهما وبين البلاد النامية فى آسيا وأفريقية .

ويقبل الشباب والصبية على العروض السينمائية أكثر مما يقبل عليها الشيوخ لذلك كان تأثيرها فى هذه السن الباكرة خطيرًا حيث ينزع الشباب إلى محاكاة نجوم السينما وتقليدهم من خلال ما يشاهدونه من أدوارهم وبخاصة أدوار المغامرة ، وقد

رأينا كيف أطلق الشباب فى مصر على ممثلى المغامرات قبيل الحرب العالمية الثانية لقب « الشجيع » أى الشجاع ، وكيف غدت أفلام رعاة البقر عنوانا على أمريكا ثم اتجه الشباب إلى أفلام العنف والجريمة ورقصات الديسكو.

وبالرغم من العروض السينمائية الجيدة لبعض الروايات والمسرحيات العالمية كروايات هيمنجواى ومسرحيات شكسبير فإن الغث فيها أكثر من السليم ، لعل أخطر ما فيها - كما يقول ديماس رئيس بنك التنمية الكاريبى - أنها تقوم بدور هدام فى بناء الشخصية القومية ، والتطور الاجتماعى والثقافى فى بلدان العالم الثالث ، وبخاصة فى الكاريبى وأمريكا اللاتينية بل إنها تقوم بنوع من « غسيل المخ » لنبذ مجتمعاتهم ومأثوراتهم وتقليد المجتمعات الغنية الراقية .

وقد أشار الزعيم الهندى غاندى إلى هذا التقليد الأعمى بقوله :

« لا أحب لبيتى أن تحجبه الحوائط العالية ولا لنوافذه أن تغلق »
« دون الهواء النقى .. وكم أحب أن تهب ريح الثقافات جميعًا على دارى »
« طليقة لا تعوقها سدود ، إلا أننى لا أحب منها أن تنتزع قدماى من »
« دارى ولا أرضى أن أعيش فى دور الآخرين طفيليا »
« أو متسولاً أو مستعبدًا » .

ويأتى التلفزيون ليضاعف من هذا الأثر الخطير للبلبلة الثقافية والاجتماعية فى البلدان النامية حين تطالعهم الشاشة الصغيرة بصور من الحياة بعيدة عن حياتهم وبعديد من القصص والحكايات تجذبهم إليها فتلم بهم الحيرة بين واقعهم وما تنقله إليهم هذه الشاشة من صور غريبة لاتنشد الحقيقة قدر ماتنشد الرواج عن طريق الاستهواء فيقعون فى الخدعة الكبرى خدعة الإعلام المضلل .

وللتليفزيون تأثير بالغ على الأطفال - كما يرى دونالدب . ايلى أستاذ التربية بجامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة - ولعله قد أصبح فى عالمنا هذا أول ماتتفتح

عليه عيونهم ، وهو وسيلة هامة لفيض من القصص والحكايات والأساطير التى أغنتهم عن حكايات الأمهات قبل النوم . مما حمل كثيرا من المربين على التحذير من هذا الضيف الثقيل مالم يروض ليكون كريما فى إقامته ، وليكون أداة نافعة لتعليم مثمر وقيم نافعة لاتحمل الأطفال على أجنحة الخيال الجامح الذى أدّى بطفل مصرى إلى القفز من شرفة مسكنه تقليدا لبطل فى مسلسل تلفزيونى كان يهبط من عل لينقذ أو يغيث – على قدر ما اذكر – من هو فى حاجة إليه ، وكان مصير الطفل الموت ، وكانت تلك الخدعة الاسطورية التى أودت بحياة الطفل .

وكم سمعنا عن انحرافات للشباب كانت المسلسلات التليفزيونية وحيها الأول .

ولكن الإعلام إذا كان خداعًا كبيرا فإنه من ناحية أخرى سمة على حضارة عالمية سريعة التطور ، وأداة فعالة للتقارب والتفاهم بين الشعوب ووسيلة ناجحة من وسائل التربية والتعليم وما من شك فى أن ثورة الإعلام الحديث تقود الإنسانية إلى عالم موحد .

وسائل الإعلام الحديث

الإعلام هو الكلمة والوسيلة :

الإعلام هو الكلمة تصدر من فم المتكلم إلى أذن السامع ، فإذا حلّ الرمز محل الكلمة كالنار على قمم الجبال لهداية السارى ، أو دق الطبول للإنذار ، أو الدعوة للحرب ، بين القبائل الأفريقية أو الإعلان عن وفاة فى بعض القرى المصرية ، أو الناقوس أو الأذان دعوة للصلاة ، فإن الرمز لا يكتمل إلا من خلال الكلمة ، لماذا أوقدت النار ، فقد تكون لهداية قوم منتظرين ، وإذا دق الطبل فلم الحرب ولمن ومن هو المتوفى ؟

وكان مدى الكلمة محدودة بقدرة الأذن على استقبال الصوت فقد ثبت أن الأمواج الصوتية لا نهائية يحملها الأثير إلى أبعد مداه ، مثلها فى ذلك كمثل موجات الضوء تحمل الصورة إلى كل جنبات الأرض ، وما ثورة الإعلام إلا الوليد

الشرعى لثورة التكنولوجيا أو ما يسميها ماكلوهان منجزات عصر الكهرباء ، فقد انتقلت بالكلمة إلى أقرب مدى للأذن كما انتقلت بالصورة إلى أقرب مدى للعين ، وأصبح كل ما يدور فى العالم قريبًا من الأذن والعين على السواء .

وعندما كانت الكلمة محدودةً بالقدرة على السماع ، كان الحديث وكانت الخطبة وسيلتى الإعلام فى خبر يزجى أو رأى يذاع فى مجمع أو سوق أو لقاء لأمر بين الناس . وحينما أمر محمد ﷺ بأن يجهر بما بعث من أجله ، ونزل الوحى :

(وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برىءٌ مما تعملون)[1]

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)[2]

صعد على الصفا ، ونادى يامعشر قريش ، وسمعت قريش وأقبلت تسعى ماشأنه ، ولم تكن هناك وسيلة أخرى للبلاغ غير الكلمة يلوكها اللسان لتصل إلى أذن السامع . وكانت أسواق العرب فى الجاهلية ، والأسواق فى أثينا محفل الكلمة ومجمع الناس للسماع ، حتى احتلت المساجد والكنائس مركز الإعلام الأول فى العصور الوسطى للدعوة والوعظ والنظر فى أمور الناس .

وقد ظلت الكلمة المباشرة هي وسيلةالإعلام الأولى حتى عرف الناس الكتابة فانتقلت بالإعلام إلى مدى أبعد وأصبحت الرسالة المدونة تحمل إلى أصحابها وسيلة لإذاعة الكلمة على مدى أبعد ، فلما عبدت الطرق وانتظمها البريد إلى مسافات بعيدة كان مدى الكلمة هو البعد الذى يصل إليه البريد ، وقد استطاعت الإمبراطورية الرومانية أن تحكم قبضتها على ولاياتها البعيدة فى أفريقية وبلاد الغال والجزر البريطانية بما يسرت لها الطرق المعبدة التى شقتها هذه السيطرة .

---

(١) سورة الشعراء : الآيات من ٢١٤ إلى ٢١٦ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩٤ .

ثم كان اختراع الطباعة فأصبح للكتاب مكانته فى العالم الأعلام ، كما أشرنا من قبل ، حتى أفرزت المطبعة مع تقدمها وتطورها أخطر وسائل الإعلام : الصحافة والصحف .

الصحافة

من المأثورات التى تروى عن عبقرى الحرب « نابليون » أن صحفًا ثلاثا تعادينى تثير من خوفى أكثر مما تخيفنى ألف بندقية .

وقد كان للكلمة المطبوعة دورها البالغ فى نشأة القوميات الأوربية الحديثة وتحولها عن اللغة اللاتينية إلى لغاتها المحلية ، كما كان أثرها بارزًا فى الثورات الكبرى التى شهدها العصر الحديث : الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية والثورة الروسية فإن الذين قاموا بها وقادوها كانوا من القراء الذين نالوا حظًّا كبيرا من المعرفة . حتى لينسب « دى توكفيل » قيام الثورة الفرنسية إلى الطبقة الجديدة من الأدباء والمحامين ، وإن رأى كارليل أن الجوع هو الذى حمل الفرنسيين على الثورة أكثر مما حملتهم عليها ترهات الفلاسفة وجدل المحامين ، فالسياسة – كما يقول لينين – لا تكون إلا حيث تكون الملايين من الجماهير وليس الآلاف من الناس ، ولن تكون تلك الملايين ما لم يكن بينها رباط فكرى واحد ، هو فى الواقع أبرز آثار الامتداد الإعلامى .

وقد جاءت الصحيفة بعد الكتاب : « لتكون – كما يرى ماكلوهان – كرسى الاعتراف العام للناس جميعا ، حيث كان الكتاب كرسى الاعتراف لفرد يتقدم برؤيا ذاتية .. وبينما يكشف الكتاب عن فكر المؤلف ومغامرته العقلية ، تكشف الصحيفة عن الرؤيا العامة لجماعة من الناس وتفاعلها معًا .

ولم تكن المطبعة وحدها هى العامل الأول فى ظهور الصحافة ، بل إن التغيير

الجذرى الذى ألمّ بالعالم فى أعقاب العصور الوسطى وظهور الدولة القومية والأسواق التجارية وامتداد التجارة إلى أسواقٍ أبعد والكشوف الجغرافية التى امتدت إلى بقاع ظلت مجهولة أمدًا طويلا ، وانتشار المصارف وبيوت المال ، وحاجة أوربا إلى محطات البريد ، كل هذا أدّى إلى ظهور هذا النوع البدائى من الصحف الذى ينشر أخبار الدولة بالإضافة إلى أخبار المال والتجارة فى أضيق ما يمكن أن تصل إليه طرق النقل والمواصلات وحدود العلاقات الاجتماعية ، واتساع التعليم الشعبى .

وظلت الصحافة فى نمو مطرد لا تقف دونه عوائق ، يمدّها العلم والاختراع بكل ما يدفعها قدمًا إلى الأمام بداية من تطور الطباعة إلى تقدم وسائل المواصلات حتى بلغت مكانتها الحاضرة ، ومازال العلم والتكنولوجيا يزودانها بالضخامة والذيوع والانتشار حتى غدت فى الوقت الحاضر صناعة ضخمة متميزة ، لها أصولها الفنية والإدارية ، إلى جانب أصولها الفكرية من المعرفة العامة القديمة والجديدة على السواء .

والغريب أن الصحف لم تتأثر بظهور التليفزيون – كما يقول ماكلوهان – فارتفع توزيع مجلتى « تايم » « ونيوزويك » وزادت شعبيتهما ، ولا يجد تعليلاً لذلك ، فلم تقم أى من المجلتين بحملة إعلانية لمواجهة هذا المنافس الجديد .

وليس ذلك بمستغرب كما يرى ماكلوهان ، فلا التليفزيون ولا الراديو ولا أى وسيلة أخرى من وسائل الإعلام يمكن أن تغنى عن الصحافة ، إلاّ فى النادر عندما يجىء بخبر لم تلحق به طبعات الصحف ، ومازالت النظرة إلى التليفزيون على أنه أداة للتسلية أو لتزجية أوقات الفراغ ، وقد لا يشعر الإنسان بما ينقصه ، حين يعوقه عائق من مشاهدته ، أما قارئ الصحيفة إذا ما تخلفت عن موعدها معه فإنه يحس بأن شيئًا ما ينقصه أو أنه قد حرم مما اعتاده صباح كل يوم حين يفتح عينيه على

الصحيفة بجواره ، وقد يصحبها معه إلى الحمام ، والإصباح بالصحيفة أو النوم على قراءتها مما يصبح عادة لدى المرء لا يستغنى عنها .

وللصحيفة جاذبيتها التى تفوق بها وسائل الإعلام الأخرى ، فالصحيفة تنقل إليك صورة المجتمع فى كافة ملابساته وظروفه وكل ما يدور فيه وما يعنيه ، وتقدم إليك الطريف والجديد خبرًا أو تحقيقاً أو ريبورتاجا أو مقالا يدعوك لشىء أو يكشف لك عن شىء ، أو عامودا يفسر لك أمرا من الأمور أو يدلّك على شىء قد يكون غائبا عنك أو يدلى إليك برأى ما ، ولا تهمل الصحيفة أن تمدك بما يسليك من الكلمات المتقاطعة ، أو ما يمتعك من الطرف والملح أو يهمك أو يستهويك من الإعلانات ، وتنقل إليك الصورة سواء كانت لشخص أو لحدث ، ولا تحرمك من الكاريكاتير الساخر ، وتلك المحتويات جميعا مما يعجز عنها الراديو أو التليفزيون .

وللصحافة ألوانها وميادينها العديدة ، فالجريدة اليومية غير المجلة الأسبوعية أو الشهرية أو الدوريات الفصلية ، وإذا كانت الجريدة تشدّك إلى الحياة اليومية فإن المجلات – كلٌّ فى ميدانها – تمدّك بالمعارف والمعلومات ، والتحقيقات الضافية لحدث من الأحداث لا تحتمل الجريدة الإفاضة فيه أو الإلمام بكافة نواحيه ، كما أن المجلات المتخصصة تمدك بكل جديد فيما تخصصت له من العلوم والآداب والفنون ، حتى الأطفال والمراهقين وأندية القمار والمراهنات والمسابقات الرياضية وعالم المسرح والسينما وشئون المرأة ، قد أصبحت لها مجلاتها التى تدور حول هذه المسائل وتقتصر عليها .

والصحافة هى مرآة الرأى العام ومنبر الدعاية والغول الهائل الذى يجتاح عقول الناس فتوحد بينهم أو تفرقهم شيعًا ، وهى الناطق بلسان الجماعات والهادى والمضلل البارع لأفكار الناس وأهوائهم .

وغالبًا ما تسبق صناعة الصحافة غيرها من الصناعات الكبرى فى سلم التطور ، فتفيد قبل غيرها من التقدم العلمى ومن أى اختراع جديد حتى غدت وسائل الإعلام الأخرى خادمًا ذلولاً لها ، وستبقى ما بقى المجتمع الإنسانى عملاق الإعلام الضخم الذى يحمل ألوية الرشاد أو يرعد بالدمار .

والصحافة اليومية هذا الغول النهم الذى يسابق الزمن ليلحق بالقارئ أشبه ما تكون فى سباقها بلعبة الكراسى الموسيقية ، فالسابق الأول الذى يلحق بأول الكراسى يتقدم على غيره ويسبقه إليه ، وهكذا الصحيفة لابد وأن تلحق بالقارئ قبل أن تسبقها إليه صحيفة أخرى ، وأداة السباق لديها هى سرعة الماكينة فى الانتهاء من طبع الصحيفة ، فإذا كانت تطبع على ماكينات أقل سرعة من غيرها ، فإنها تضطر للانتهاء من الطبع فى وقت معين لتلحق بالقارئ فى الوقت الذى ينتظرها فيه ونضحى ببعض الأخبار المتأخرة حفاظا على موعد صدورها ، بينما تلحق صحيفة أخرى بتلك الأخبار وتصدر فى نفس الوقت بسرعة ماكيناتها فى الانتهاء من طبعها فى وقت متأخر ؛ لذلك تعمل المؤسسات الصحفية على التزود بأحدث ماكينات الطباعة وأسرعها ليكون لها الوقت لإدراك آخر خبر ولتصدر فى الوقت المناسب لحاجة القارئ فلا تسبقها إليه صحيفة أخرى ، ويؤدى هذا السباق المرير إلى صدور الصحف اليومية فى وقت واحد تقريبا ، ويبقى لمحتوى الصحيفة دون السرعة أهميته فى إقبال القارئ أو ابتعاده عنها ، وهو ما يتوقف على مستوى التحرير وقدرة المحررين على معرفة اتجاهات القارئ وتحقيق رغبته .

ولم يعد إصدار الصحيفة اليومية عملاً فرديا يموّله شخص ما يتخذ من الصحافة حرفة ، فقد أصبح إصدار صحيفة يومية فوق جهد الفرد وقدرته المالية ، فإذا أتيحت له القدرة المالية والتمويل فإنه فى حاجة إلى مؤسسة ضخمة تقترب إلى حدٍّ كبير من العمل الاستثمارى حتى وإن كانت من صحف الرأى أو الصحف

الحزبية ، فالصحيفة لا تستطيع البقاء ما لم تعتمد على موارد ثابتة من الإعلان ، والمعلن يتوخى الذيوع والانتشار ولا يعلن إلاّ فى صحيفة ذائعة لها مكانتها وجاذبيتها لدى الجماهير ، والإعلان هو المصدر الرئيسى لسدّ نفقات إصدار الصحيفة وتحقيق نوع من العائد للمستثمر ، وقد يكون هذا العائد فى صحف الرأى والصحافة الحزبية قدرتها على الاستمرار والصدور .

وقد تعتمد الصحيفة على موارد خفية من جانب هيئات أو مؤسسات أهلية أو حكومية لا تحب أن تبدو سافرة فى الدعاية لما تنشده من أهداف ومرام لا تهم صاحب الصحيفة بقدر ما تهم أصحاب هذه الأهداف والمرامى . وكثيرًا ما تعتمد الصحيفة الحكومية أو التى تنتمى إلى الحكومة وخاصة فى البلدان النامية أو فى البلدان التى تخضع لنمط معين من الحكم كالحكم الديكتاتورى أو لأنظمة جماعية فى الحكم ، على التمويل الحكومى سواء فى صورة معونات مالية أو بتزويدها بالإعلانات الحكومية التى تستطيع أن تكفّها عن صحف وتغدقها على صحف أخرى .

وتقوم المؤسسة الصحفية على أربع إدارات لكل منها مهامها واختصاصاتها المستقلة . وهى : التحرير ، والإدارة والتوزيع ، والإعلانات ، والطباعة ، وإن بدا التحرير أقواها وأبرزها على المستوى العام ، إلاّ أن إدارة الإعلان قد تتقدمها وتتحكم فيها ، وكثيرًا ما يحتل الإعلان مساحة قد أعدت للتحرير ، بل وكثيرا ما يحذف مقال ليحتل مكانه إعلان .

وقد يؤثر ذلك على رسالة الصحافة بوصفها هديًا أصيلا للرأى العام ونافذة لثقافة العصر لتصبح فى النهاية بوقًا لقوى غالبة ، يسيطر عليها فى الدولة الرأسمالية قوى الضغط السياسى والمصالح الرأسمالية المتشابكة ، كما يسيطر عليها فى الدول ذات الحكم الجماعى اتجاهات أيديولوجية محددة وسياسة مرسومة . تخضع الرأى

العام لاتجاهاتها وتسوقه نحو الاقتناع ببرامجها لا تترك له حرية القياس أو الاختيار حين تغفل الرأى الآخر بل وتحمل عليه إذا كان ثمة ما يدعو للحملة أو التوجيه ، وفى الحملة تجريح ، وفى التوجيه قد تغدو الدعاية أحيانا نوعًا من الإرغام العقلى وإن كان لا يقترب من الإقناع وإن حمل الرأى العام على رأى دون سواه يصبح حديث الصحافة ومحور ما تدعو إليه السلطة .

وكالات الأنباء :

وتعتمد الصحافة اعتمادا كبيرا على وكالات الأنباء ، وقد ظهرت الصورة البدائية الأولى لأول وكالة أنباء بعيدة عن الصحافة ، حين افتتح شارل هافاس مكتبا للأنباء فى باريس عام ١٨٢٥ لتزويد رجال الأعمال والتجارة والساسة بمايعنيهم من أخبار خارجية تتصل بأعمالهم . يبعث بها إليه مندوبون فى الخارج بالبريد ، ولم تستهو أخبار هافاس الصحف فأعرضت عنه ، ولم تكن الأخبار قد احتلت مكانتها الأثيرة فى الصحف حينذاك ، ومع اتساع التعليم الشعبى وزيادة عدد القراء ، وتشابك المصالح الدولية وتزايدها بعد الحروب النابليونية ومؤتمر فينا ، وظهور الحركات الاشتراكية المنظمة ونمو الفكر الديمقراطى ، أخذ اهتمام الناس يتزايد بما يحدث خارج بلادهم ، وبدأ اهتمام الصحف بالأخبار الخارجية ، فأخذت تقبل على مصادرها ، وكان أن حوّل هافاس مكتب الأنباء إلى وكالة هافاس للأنباء عام ١٨٣٥ ، وأخذ هو بدوره ينمى وسائل الحصول على الأخبار باستخدام الإشارات « اسيمافور » والحمام الزاجل ، وما وافى القرن التاسع عشر على منتصفه حتى كانت هناك وكالة ولف الألمانية (١٨٤٩) ، والأسوشيتدبرس الأمريكية (١٨٤٨) ورويتر الإنجليزية (١٨٥١) ، وأخذت وكالات الأنباء تحتل المكانة التى صارت إليها بعد اختراع التلغراف الكهربى . ومدّ أول كابل بحرى

بين إنجلترا وفرنسا عام ١٨٥١ ، وأول كابل عبر الأطلنطى بين أمريكا وأيرلندا عام ١٨٥٨ ، ولم تمض سنوات أخرى حتى عم الإرسال البرقى كافة أنحاء العالم عبرالبر والبحر على السواء . وسارت الخطوط البرقية محاذية للخطوط الحديدية ، وكانت بدورها وسيلة متقدمة لنقل البريد والصحف إلى الأماكن التى تمتد إليها .

وما وافى القرن العشرون حتى كان لكل بلد وكالته للأنباء ، تلقى من رعاية الدولة ما تلقاه شركات الطيران ، فخطوطها هى الشريان الذى يصلها بأقطار العالم كما أن وكالات الأنباء هو صوتها فى بلدان العالم الأخرى .

ومع ما لوكالات الأنباء من أهمية بالغة للصحف ، إلا أن أخبارها مع أهميتها وعظم الحاجة إليها لا تحتل غير جانب بسيط من الصحيفة إلى جانب الأخبار المحلية والمقالات والأبواب الأخرى المتعددة فى الصحيفة العصرية .

ويبدو أن وكالات الأنباء قد فقدت بعض أهميتها الأولى ، فلم تعد وحدها مصدر الأخبار الخارجية ، ولعلها لا تعرض الآن إلا لما يمكن أن نسميه « الخبرالبارد » ونعنى به الخبر الخالى من الإثارة ، أو الخبر المتواتر عن حدث مستمر كأخبار حركة التضامن البولندية ، أو أخبار المقاومة الأفغانية لقوات الاحتلال السوفيتية ، فإذا حدث أن شنّت القوات السوفيتية حملة للقضاء على حركة التضامن البولندية ، كما حدث عند اجتياحها لثورة المجر عام ١٩٥٦ أصبح الخبر البارد « خبرًا حاميًا » لا تغطيه وكالات الأنباء وحدها إذ ينثال مندوبو الصحف العالمية والإذاعات الصوتية والمرئية إلى مكان الحدث لتغطيته عن قرب ، كما حدث عندما امتلأت بيروت بهم عندما اجتاحت القوات الإسرائيلية بيروت الغربية للقضاء على المقاومة الفلسطينية صيف ١٩٨٢ .

وقد أدّت سرعة الانتقال التى حققها الطيران وخطوط المواصلات الجوية إلى سهولة انتقال مندوبى الصحف ومراسلى وكالات الأنباء والإذاعات الدولية والمحلية

إلى مكان الحدث فى الوقت المناسب وبأسرع ما يمكن وأصبح هؤلاء المراسلون والمندوبون وكالات أنباء متنقلة ، وإن كانت لا تغنى عن وكالات الأنباء فى نقلها للخبر البارد .

الصحافة العربية :

كانت مصر أول بلد عربى يعرف الصحافة الحديثة حين أصدرت الحملة الفرنسية صحيفتى « كورييه دى ليجيبت » و « ديكاد اجيبشين » باللغة الفرنسية ، فلما آلت مصر إلى محمد على أصدر جريدة « الوقائع المصرية » عام ١٨٢٨ ، ومازالت تصدر كجريدة رسمية لمصر حتى الوقت الحاضر ، كما صدرت أول صحيفة عربية أهلية فى إستانبول عام ١٨٥٥ ، أصدرها رزق الله حسون الحلبى باسم « مرآة الأحوال » وتوالى إصدار الصحف والمجلات الحكومية وأبرزها « روضة المدارس »(١٨٧٠) ويديرها رفاعة رافع الطهطاوى ، وكان لروضة المدارس طابعها الثقافى المتميز ، فقد كانت صحيفة ديوان المدارس ، وكانت توزع على التلاميذ مجانا ، كما كانت محفلاً لكل كتّاب العصر وعلمائه .

وشهد عام ١٨٦٧ ، ما يمكن أن نسميه ثورة صحفية كانت سمة على صحوة فكرية غلب عليها الطابع السياسى ، حين أخذت البلاد ترهص بالثورة وأخذ المصريون يتطلعون إلى تحقيق ذاتهم إلى جانب الطبقة التركية السائدة – طبقة الذوات – وهى الطبقة التى وضع محمد على بذرتها الأولى ، حين آثرها بمناصب السلطة وملكية الأرض ، فقد صدرت حينذاك جريدة « وادى النيل » أهلية أسبوعية ، سياسية ، علمية ، زراعية ، مالية ، تجارية – كما جاء فى تعريفها برسالتها – وبعدها بعامين أصدر إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال جريدة « نزهة الأفكار » أسبوعية ، ولم يصدر منها غير عددين عطلت بعدهما بأمر

إسماعيل ، حذرًا من لهجتها وما تسببه من إثارة ، وتوالى صدور الصحف الأهلية ، فأصدر ميخائيل أفندى عبد السيد جريدة « الوطن » عام ١٨٧٧ ، كما أصدر أديب إسحق جريدة « مصر » أسبوعية فى نفس العام ، وفى العام التالى أصدر جريدة « التجارة » فى الإسكندرية ، وشارك فيها جمال الدين الأفغانى بقلمه وبقيتا حتى عام ١٨٨٠ حين عطلها رياض باشا ، وحين عطلت جريدة وادى النيل عام ١٨٧٢ ، أصدر محمد بك أنسى بن عبد الله أفندى أبو السعود « روضة الأخبار » واستمر عبد الله أبو السعود يحرر صفحتها السياسية ، كما أصدر سليم باشا الحموى « الكوكب الشرق » عام ١٨٧٣ ، واحتجبت بعد قليل .

وفى عام ١٨٧٥ أصدر سليم وبشارة تقلا صحيفة « الأهرام » أسبوعية فى الإسكندرية ثم أصبحت يومية وبقيت تصدر حتى اليوم ، وقد انتقلت إلى القاهرة ، ويعدّ تاريخها تاريخًا لتطور الصحافة المصرية على مدى نيف وقرن من الزمان .

ومن أبرز صحف تلك الفترة من تاريخ مصر ، صحيفة « أبو نضارة » لصاحبها يعقوب صنوع صدرت عام ١٨٧٧ ، تعارض سياسة إسماعيل وتحظى بتأييد جمال الدين الأفغانى ، ذات طابع هزلى سياسى ، وكان مصيرها التعطيل ومصير صاحبها النفى من مصر ، فرحل إلى باريس ، وأخذ يصدرها بأسماء عديدة ، تحايلا على الرقابة ، فقد كانت تحمل على إسماعيل حملات شعواء ولقيت رواجًا كبيرًا ، واستمر يعقوب صنوع يصدر صحفه إلى ما بعد الاحتلال يحمل فيها عليه وينقد سياسته فى مصر .

ولقيت الصحافة من حكم توفيق كل عنت وإرهاق ، وفى عهده صدرت « الوقائع المصرية » يومية ، وتولى تحريرها الإمام محمد عبده ، وكان من كتّابها

الشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ سعد زغلول « باشا » والشيخ إبراهيم الطبلاوى (بك) والشيخ سيد وفا .

وبدأت الصحافة المصرية بعد الاحتلال البريطانى ، مرحلة جديدة من تاريخها ، ورأت سلطات الاحتلال ألاّ تقف دون حرية الصحافة ، فألغت العمل بقانون المطبوعات ، وكان الإنجليز حينذاك فى أمان من هياج الخواطر بعد النكسة التى أصابت الثورة العرابية وإحساس المصريين حينذاك بالإحباط ، فلم تجد بأسًا من إفساح الحرية للصحافة وأن تتبنى صحافة تدافع عنها وتقرب ما بينها وبين المصريين ، فلما اشتدت الحركة الوطنية أحيت قانون المطبوعات القديم وعادت إلى سياسة القمع والتعطيل من جديد ، ولقيت الصحافة الوطنية فى ظلّ سياسة الوفاق على عهد جورست كل ضيق وعناء ، ومع هذه الحرية التى أفسحتها سلطات الاحتلال للصحافة ، فقد حالت دون دخول مجلة « العروة الوثقى » التى يصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى باريس إلى البلاد ، ولم تطق صبرًا على بقاء عبد الله النديم فى مصر بعد أن عاد إليها وأخذ يصدر مجلته الأسبوعية « الأستاذ » عام ١٨٩٢ ، وتعد فى الواقع أول صحيفة وطنية تصدر فى عهد الاحتلال فأمرت بنفيه من مصر فنزح إلى يافا بعد أن أغلق صحيفته وودّع قراءه فى آخر عدد من أعدادها فى يونية ١٨٩٣ .

وفى ظل هذه الحرية الوانية ، وخلو الميدان من صحافة وطنية ، هيأ الإنجليز لصحفيين لبنانيين إصدار جريدة موالية لهم ، فأصدر يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس صحيفة المقطم عام ١٨٨٨ فى القاهرة ، وظلت تصدر حتى احتجبت عام ١٩٥٢ .

وما لبثت الصحافة الوطنية أن طرقت الميدان عندما أصدر الشيخ على يوسف صحيفة « المؤيد » عام ١٨٨٩ ، العام التالى لصدور المقطم ، وحفلت صفحاتها

بمقالات سعد زغلول ، ومصطفى كامل ، ومحمد عبده ، والمنفلوطى ، وأحمد تيمور ، وعبد الرحمن الكواكبى ، وقد نشرت كتابه « طبائع الاستبداد » مسلسلاً ، وكانت أول صحيفة تستورد طابعة « روتاتيف » عام ١٩٠٦ ثم كانت دعوة مصطفى كامل لمحاربة الوجود البريطانى فى مصر وكانت الصحافة بعد الخطابة منبر دعوته ، فأصدر « اللواء » عام ١٩٠٠ وإلى جانبها اللواء الإنجليزى « ستاندارد » واللواء الفرنسى « لبتندار » ، وبعد حادث طابا عام ١٩٠٦ ، صدرت « الجريدة » لمحررها أحمد لطفى السيد ، وكوّن لإصدارها شركة تمثل أعيان المصريين ومثقفيهم وما لبثت الشركة أن تحولت إلى حزب سياسى هو « حزب الأمة » كان أول حزب سياسى يقوم فى مصر بعد الاحتلال عام ١٩٠٧ .

وفى ظل الأحكام العرفية خلال الحرب العالمية الأولى احتجبت الصحف الوطنية ولم يبق فى الميدان غير الأهرام ، والمقطم ، والأهالى التى كان يحررها عبد القادر حمزة وتصدر فى الإسكندرية ، فلما انتهت الحرب وتفجرت ثورة ١٩١٩ ، صدرت الصحف الحزبية : أولها « السياسة » لسان حال حزب الأحرار الدستوريين عام ١٩٢٢ ، وفى العام التالى أصدر عبد القادر حمزة« البلاد » لتأخذ جانب الوفد ، ثم كوكب الشرق لصاحبها أحمد حافظ عوض عام ١٩٢٤ ، وفدية هى الأخرى ، حتى أصدر حزب الاتحاد الضالع مع السراى وصنيعتها صحيفة « الاتحاد » ، وعندما كون إسماعيل صدقى « حزب الشعب » إثر توليه الوزارة أصدر صحيفة « الشعب » عام ١٩٣٠ ، لسانا لحزبه ، وفى هذا العام أصدر محمد توفيق دياب صحيفته « الجهاد » وفدية ، تحمل على وزارة صدقى ، كما أصدر أحمد حسين جريدة الصرخة ناطقة باسم جماعة « مصر الفتاة » التى أعلن قيامها حينذاك وفى عام ١٩٣٣ أصدر الشيخ حسن البنا صحيفة « الإخوان المسلمون » تعبّر عن آراء جمعية الإخوان المسلمين ومبادئها .

توالى صدور الصحف الحزبية فصدرت« روز اليوسف » اليومية وفدية فى البداية ثم انقلبت على الوفد فكانت نهايتها فعادت أسبوعية كما كانت ، وبقيت تصدر حتى يومنا هذا ، كما أصدر محمد التبعى ، وكريم ثابت ، ومحمود أبو الفتح ، صحيفة المصرى عام ١٩٣٦ ، فلما استقل بها محمود أبو الفتح غدت أقوى لسان ينطق باسم حزب الوفد ، وأصدرت الهيئة السعدية عند تكوينها بعد انفصال أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى عن الوفد ، صحيفة « الدستور » عام ١٩٣٨ . وتحولت الصرخة إلى « مصر الفتاة » عندما تحولت الجماعة إلى حزب يقوم على تحريرها بجانب أحمد حسين رفيقاه فتحى رضوان ومحمد صبيح ، ولهؤلاء الثلاثة باع طويل فى ميدان الفكر والثقافة بما أصدروه من مؤلفات وكتب فضلاً عن مقالاتهم السياسية ، وللأستاذ محمد صبيح الفضل الأول فى بداية أول سلسلة من الكتب الشهرية احتذاها آخرون ، فأصدرت دار الهلال كتاب الهلال ودار المعارف « اقرأ » كتبًا شهرية تخوض فى شتى نواحى الفكر والمعرفة .

وحفلت تلك الفترة بالعديد من المجلات الثقافية كالسياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى ، فضلاً عن المجلات التى اتخذت طابعًا فنيا أو سياسيا كروز اليوسف والكشكول لصاحبها سليمان فوزى ، والمصور التى تصدرها دار الهلال ، وقبل المصور كانت اللطائف المصورة تصدرها جماعة المقطم إلى جانب مجلة الأولاد التى كانت تصدر أسبوعية حينذاك واستهوت أطفال ذلك الجيل ، ومجلة الصباح التى أصدرها مصطفى القشاش ذات طابع فنى ، وكان لهذه المجلات التى صدرت فى فترة ما بين الحربين أثرها البعيد فى تهيئة الفكر الجديد وصياغته .

وفى أعقاب الحرب كانت صحف قديمة قد اختفت وظهرت صحف جديدة كان أبرزها « أخبار اليوم » للأخوين مصطفى وعلى أمين ، وقد أصدراها عام ١٩٤٤ أسبوعية ، فكانت فتحًا جديدًا فى الفن الصحفى ما لبث أن تحولت إلى

دار صحفية كبرى تصدر الأخبار يومية وعددا آخر من المجلات مازالت تصدر عن دارها حتى اليوم ، كما أصدر ادجار جلاد « الزمان » يومية مسائية و « الجورنال ديجيبت » الفرنسية ، وكانتا قريبتين من دوائر السراى والسفارة البريطانية ، كما صدرت صحيفة الكتلة لسان حال الكتلة الوفدية التى ألفها مكرم عبيد بعد انفصاله عن الوفد ، وصحيفة « صوت الأمة » الوفدية ورأس تحريرها صبرى أبوعلم من أقطاب الوفد وزعمائه البارزين عام ١٩٤٦ ، وأصدرت الهيئة السعدية صحيفة « الأساس » عام ١٩٤٧ ، يشرف على تحريرها على أيوب أحد وزرائهم .

وبعد ثورة يولية ١٩٥٢ ، توقفت صحف كثيرة عن الصدور ، وإن ظهرت صحيفة جديدة هى « القاهرة » لصاحبها أسعد داغر ، ويراس تحريرها حافظ محمود ، ومن كتابها كان أميل الغورى ومحمد صبيح ، وبقيت تصدر حتى عام ١٩٥٩ .

وأصدرت الثورة بعض الصحف والمجلات ، منها الجمهورية والشعب ومجلة التحرير ، ولم تلق الشعب رواجا فاختفت كما اختفت مجلة التحرير ، وبقيت الجمهورية وحدها فى الميدان ، حتى صدرت قوانين يولية الاشتراكية فانتقلت ملكية الصحف جميعا إلى الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى ، واتخذت لقب « الصحف القومية » أخيرا .

ولما صدر قانون الأحزاب عام ١٩٧٧ ، وقامت الأحزاب التى سمح القانون بقيامها . أصدرت صحفا أسبوعية ، فكانت الأحرار لسان حال حزب الأحرار ، والأهالى لسان حال حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ، والشعب لسان حال حزب العمل الاشتراكى ، ورغم الإقبال عليها ، فإن مواردها تقصر عن تلبية حاجاتها .

وقد واكبت الصحافة فى البلاد العربية الأخرى فى تطورها ونموها صحافة

مصر ، فشهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر ظهور الصحافة العربية فى ولايات الدولة العثمانية فى المشرق والمغرب العربيين على السواء ، رسمية فى البداية ثم أهلية وكان أسبقها إلى الميدان لبنان وسورية والعراق فى المشرق العربى وليبيا فى المغرب العربى ، ثم اليمن والحجاز بعد ذلك . فأصدر خليل الخورى « حديقة الأخبار » فى بيروت عام ١٨٥٨ ، وكانت أول صحيفة عربية أهلية تصدر فى الوطن العربى أجمع ، ثم أصدر بطرس البستانى « نفير سوريا » عام ١٨٦٠ ، وبعدما أصدر الوالى العثمانى عام ١٨٦٥ صحيفة رسمية باللغتين العربية والتركية دعاها « سورية » وأصدر والى حلب صحيفة « غدير الفرات » عام ١٨٦٧ ، باللغات العربية والتركية والأرمنية ثم اقتصرت على اللغتين العربية والتركية فيما بعد ، وأصبحت تحمل اسم « الفرات » ، وفى لبنان أصدر داود باشا متصرف جبل لبنان صحيفة رسمية باللغتين العربية والفرنسية ، كما أصدر مدحت باشا والى العراق صحيفة رسمية فى بغداد عام ١٨٦٩ باسم « زوراء » باللغتين العربية والتركية هى الأخرى . وشهد العقد السابع من القرن مزيدًا من الصحف اللبنانية ، كما أصدر عبد الرحمن الكواكبى عام ١٨٧٧ صحيفته « الشهباء » فى حلب ، لم تلبث طويلا حتى عطلت ونزح صاحبها إلى القاهرة لاجئًا ، وفى صنعاء اليمن صدرت جريدة « صنعاء الأسبوعية الرسمية » باللغتين العربية والتركية ، وقد عرفت الطباعة منذ عام ١٨٧٧ ، وبقيت هى المطبعة الوحيدة فى اليمن حتى وقت متأخر . وصدرت عنها صحيفة شهرية باسم الإيمان عام ١٩٢٦ . وفى ولاية الحجاز صدرت صحيفة « حجاز » الرسمية عام ١٨٨٢ عندما جاءتها أول مطبعة فى نفس العام ، وعندما أعلن الشريف حسين ثورته على الترك أصدر صحيفته « القبلة » عام ١٩١٦ لتنطق باسم الثورة واستمرت تصدر حتى عام ١٩٢٤ . وشهدت ليبيا صدور أول صحيفة باسم « طرابلس الغرب » باللغة التركية عام ١٨٦٦ وكانت تطبع على الحجر حين صدورها حتى

استوردت مطبعة الحروف عام ١٨٧٠ ، فأخذت تصدر باللغتين التركية والعربية ، واستمرت تصدر حتى عام ١٩١١ حين غزت إيطاليا البلاد ، وفى تونس صدرت « الرائد التونسى » رسمية بالعربية وحدها دون التركية ، وبعد الاحتلال الفرنسى للبلاد ، رأت سلطات الاحتلال أن تصدر صحفاً باللغة العربية لم يقدر لها النجاح حتى فكر بعض شباب تونس فى إصدار صحيفة لها طابعها الإسلامى ، فأصدروا صحيفة « الحاضرة » عام ١٨٨٨ ، وتعتبر أول محاولة وطنية لإصدار صحيفة عربية . وبقيت تصدر حتى عام ١٩١٠ ، وكان لها أثرها على الحركة الوطنية الوليدة فى تونس .

وانتعشت الصحافة العربية بعد إصدار الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ ولكنها مالبثت أن تقوقعت وانتكست بعد أن آل الحكم إلى جماعة الاتحاد والترقى وبداية الحركة الطورانية التى انتهت بالقضاء على الدولة العثمانية .

ولم تعرف الجزائر الصحافة العربية إلا فى وقت متأخر حين أصدر حزب الشعب الجزائرى الذى ألفه مصالى حاج عام ١٩٣٧ صحيفة « الشعب » ، وكانت أول صحيفة عربية تصدر فى مراكش (المغرب) عام ١٨٨٩ ، ولكنها لم تستمر طويلا ، حتى صدرت صحيفة « الحق » عام ١٩١١ تدعو للجامعة الإسلامية وتأخذ جانب الألمان وتهاجم فرنسا ، وقد سبقها إلى الظهور صحيفة « لسان المغرب » عام ١٩٠٧ يعدها أهل مراكش أول صحيفة وطنية ، وكانت صحافة مراكش العربية نهباً مقسما بين الإسبان والألمان والعثمانيين ، وما لبثت الاتجاهات الفرنسية أن سادت فى الجنوب ، والإسبانية فى الشمال ، وبقيت الصحافة العربية دون الفرنسية فى مراكش بكثر حتى اشتد ساعد الحركة الوطنية وأصبح لها صحافتها التى تحارب قوى الاحتلال .

وأخذت الصحافة العربية تشق طريقها صعدًا إلى الأمام فى فترة ما بين الحربين

وإن بقيت تعانى من القمع والتعطيل حتى تحررت من كل سلطان أجنبى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وإن ناشتها تيارات أخرى داخلية وخارجية جديدة مازالت تخضع لها .

من العين إلى الأذن :

كانت الصحافة آخر صورة للإعلام المكتوب ، وإن لم تستطع أن تزيح الكتاب عن مكانته فبقى أقوى وسيلة إعلامية احتلت مكانتها على مدى قرون منذ عرف الإنسان الكتابة ليسجل بها معارفه على الحجر وأوراق الشجر وجلود الحيوان وغير ذلك من الرقاق ، حتى عرف الورق فنسخ معارفه وعلومه وآثاره الفكرية على صفحاته ، ثم عرف المطبعة مع تطور صناعة الورق وانتشار التعليم الشعبى فدخل الكتاب كل بيت وامتدّ إلى كل يد ليصبح وسيلة الإعلام للتعليم والدعوة والمذاهب الفكرية والسياسية العديدة التى ينضج العقل والفكر بها على مدى الزمن ، فلما اقتحمت الصحافة الميدان لم تستطع أن تقصى الكتاب عن ميدانه فى حقل التعليم والدعوة ، وإن استأثرت دونه بالدعاية والخبر الممتع المثير أو الخبر الذى يعلم الناس بعضهم ببعض ويصل بين المجتمعات الدولية والإنسانية فى شتى أنحاء المعمورة ، مع ألوان من الثقافة والمعرفة التى لا تثقل على الإنسان العادى ، فليست الصحافة الفكرية والعلمية والفنية والأدبية إلا امتدادا للكتاب تفسح فى رسالته وتمدها إلى أكبر عدد من الناس ما لا يستطيع الكتاب فى تفرده واستقلاله بموضوع معين أن يفيه حقه من التعدد أو القدرة على الانتشار كالمجلة الفكرية أو العلمية الجامعة .

إلا أن الكتاب وإن بقيت له مكانته الأثيرة فى حقل التعليم والمعرفة ، ليس منافسًا للصحافة ولا تستطيع الصحافة بدورها أن تزيحه عن مكانه أو أن تغنى عنه ، وسيبقى الكتاب ما بقى خزانة للعلم والمعرفة .

ويرى البعض أن الأبجدية الصوتية تحاول أن تزيح الأبجدية البصرية عن مكانها ، وبعبارة أقرب إلى الأفهام أن المسموع يحل محل المقروء فى استيعاب المعرفة ونقلها ، وأن عقلية العصر وإدراكه تنصت أكثر مما تبصر ، وهو قول فيه كثير من المبالغة ، وإلا لما خرجت الصحف بخطب الزعماء والقادة وبياناتهم بعد أن تذيعها فى وقتها الوسائل الصوتية من إذاعة وتليفزيون ، فإن القدرة على الاستيعاب الفكرى للمقروء أقوى وأشدّ منها للمسموع ، فالقارئ يستطيع أن يراجع العبارة مثنى وثلاث حتى يعيها ، بينما المسموع لا يدع له مثل هذه الفرصة ، فيضطر إلى قراءتها عندما تصدر مكتوبة إذا كان ممن يعنيه أمرها .

وقد يكتفى الإنسان بالمسموع فى أشياء معينة ، ولكنه لا يستغنى عن القراءة فى أشياء أخرى مما يحتاج إلى فكر وإمعان وقدرة واتية على الاستيعاب ، لذلك كان الكتاب وسيبقى وسيلة التعليم الأولى ، وإن استأثرت المسجلات بالأخذ فى الخطب والمواعظ والندوات والحوار ، وإذا كان المعلم يلقى دروسه سماعًا على الطلاب ، فإن الطلاب لا يكتفون بالسماع ، إما للمراجعة والتثبت وإما لزيادة المعرفة فيما لا يطرقه المعلم ، وقد يكتفى بالإشارة إليه وإلى مراجعه العديدة فى مصادرها المكتوبة . فالكتاب يتميز بالفهرسة وبيان صفحات المعلومة المنشودة مما لا يتسنى للتسجيلات الصوتية ، وقد يضع الباحث أمامه مجموعة المصادر التى يرجع إليها من الكتب والمؤلفات العديدة ، ويستطيع أن يصل إلى الصفحات التى يبتغيها أيسر مما يدير شريط التسجيل ليصل إليها .

وكان للأبجدية الصوتية مكانها قديما ، وكل ما انتهت إليه ثورة الإعلام الحديث فيها أنها صانتها وأبقت عليها وأفسحت من دائرة المستمعين إليها ، كما أفسحت المطبعة من دائرة القراء ويسرت اقتناء الكتاب . وقد يمضى الزمن طويلا لتحتل الأبجدية الصوتية مكان الأبجدية البصرية ، وما أظن ذلك يحدث

أبدًا مادامت المعرفة الفكرية والعلمية تحتاج إلى أناة ومراجعة ما كتب من قبل ليصح القياس والمقارنة عند الاستشهاد والمناقشة ، وكل ما تتميز به الأبجدية الصوتية فى حاضرها عنها فى ماضيها ، أنها فى الماضى ما كانت لتبقى ما لم تكتب قبل الإلقاء أو بعد السماع ، وتنتهى بذلك إلى الأبجدية البصرية ، أما اليوم فإنها تسجل بالصوت ، أو بالصوت والصورة معًا ، وامتد بقاؤها الصوتى كبقائها البصرى وأصبحت الأبجدية الصوتية بل والمرئية الصوتية عن طريق الفيديو منافسًا خطيرًا للأبجدية البصرية ، وإن كان ذلك لا يؤثر – كما أعتقد – على مكانة الكتاب ، وسيبقى الكتاب متعة العقل والفكر والقراءة المسترخية قبيل النوم أو القراءة الجادة عند البحث والاستقراء . وأداة التعليم فى المدرسة والجامعة .

وقد بدأت الأداة السمعية خادمًا للصحافة ثم أصبحت منافسًا خطيرا لها . فى البداية كان التلغراف فى صورته البدائية الأولى هو صلة البعيد بالقريب ، وحل محل الحمام الزاجل الذى استخدمه هافاس فى نقل الأخبار من لندن إلى باريس فى سبع ساعات ، ومن بروكسل إلى باريس فى أربع ساعات . وكانت بداية استخدامه للتلغراف الكهربى عام ١٨٤٥ على خط باريس – روان ، وكلما اتسعت دائرة الإرسال البرقى وامتدت كلما كان زادًا للصحافة وقوّة لها ، وتواكبت المخترعات الثلاثة : البرق والتليفون السلكى ثم اللاسلكى ، وامتداد الخطوط الحديدية لتكتمل بها قوة الصحافة وانتشارها .

الراديو :

وبقيت للأبجدية البصرية مكانتها الوطيدة ، حتى أطل عليها المذياع فأصبح وسيلة للإعلام تخطّت حدود الزمان والمكان ، لا تقف دون حدود ولا يعوقها عن الامتداد إلا قوة الموجة التى تحكمها ، مما حمل إعلاميًّا كمرشال ماكلوهان على

الادعاء بأن الوسيلة هى الرسالة ، ملقيًا بمضمون الرسالة وراء ظهره ، فليست الرسالة -كما يقول- هى العامل المؤثر وإنما الأثر الأكبر كله للوسيلة بما حققته من تقدم مذهل ، فالانتقال من المخطوطة إلى المطبوعة وما أفرزته المطبعة من هذا الكم الهائل من الكتب فى تعددها واتساقها قد طبع الفكر بالامتداد ، والتوافق المنطق والسياق المطرد ، وما كان لهذا الطابع من أثر على العلم الحديث وما أفرزه من بيروقراطية بقدر ما نجم عنه من ضياع الإحساس الأساسى بالاتساق مع عالم الصوت والرائحة واللمس ، على عكس ما كان حين ظهرت وسائل الإعلام الكهربية فحررت الإنسان من ثقافة المطبوع ، وغذته بنوع الخبرة وزودته بنمط من الإعلام العريض المبرقش - أكثر منه ممتدا - والواقع الحى - أكثر منه واقعًا مطردا - هذا الإعلام الذى يغوص فى الأسماع ونحسّه ملموسا - أكثر مما يقف على رؤيا البصر وحدها ، فالكهرباء -كما يقول- قد زودتنا بوسيلة غدت سياجًا قويا للإحساس بالألفة لدى الأفراد والشعوب بدلاً من العزلة والانطواء . وأصبح الحلم حقيقة .

وقد يبدو مارشال ماكلوهان على حق فيما يقول ، ولكنه غالى أكثر مما يوحى به الواقع فى أثر الوسيلة التكنولوجية الحديثة وقدمها على المحتوى الذى تتضمنه الرسالة ، فى قدرتها على التغيير الاجتماعى وما يتألفه من صور سياسية واقتصادية وثقافية بل وقدرتها على التأثير فى الحواس على حساب حواس أخرى ، فالمطبوع قد جذبنا إليه وحوّل أبصارنا عن أسماعنا ، ثم جاء المذياع فجذب الآذان إليه مرة أخرى ، وجاء التليفزيون ليشيع فينا قوة الإحساس بالسمع والرؤيا الملموسة ، ولم يلق ماكلوهان بالاً إلى عوامل أخرى سيبقى أثرها ممتدًا وقائمًا ، طالما اختلفت الثقافات وتباينت الشعوب حتى وإن أصبح العالم -كما يقول- « قرية صغيرة » . . وطالما ظلّ لكل إنسان طبيعته التى تميزه على غيره تميز بصمات الأصابع ، وإن بقى

للمؤثرات العامة قوتها وفعاليتها . فهذه المؤثرات العامة هى التى تخضع وحدها ، دون الطبيعة الخاصة للإنسان ودون طبيعة التراث الثقافى للبيئة ، لتكنولوجيا الإعلام الحديثة ، أو الوسيلة ، كما يدعوها ماكلوهان .

وكان الراديو أول صور الإعلام الصوتى للتكنولوجيا الحديثة حين بدأ بثّه لأول مرة مع بداية العشرينيات فى بعض الولايات الأمريكية . ولم ينتصف العقد حتى عمّت محطات الإذاعة عديدًا من بلدان العالم ، وعرفها العالم العربى فى أخريات العقد على نفس المستوى الخاص الذى بدأته فى الولايات المتحدة الأمريكية أول بلد يقتحم هذا الميدان حين بدأ مهندس أمريكى بإنشاء محطة إذاعة بسيطة خاصة فى بنسلفانيا ، فأنشئت فى مصر وفى الجزائر والمغرب فى العشرينيات الأخيرة محطات إذاعة خاصة ما لبثت أن خضعت لإشراف الدولة وتنظيمها .

ولكن الراديو بقى قطعة فجّة من الأثاث المنزلى إلى جوار الحاكى قاصرًا عن الحركة يسعى المستمع إلى مكانه حتى ظهر الترانزستور فأنقذه من المصير الذى لحق بالحاكى وغدا رفيقًا للإنسان فى حلّه وترحاله ، وقد تبقى له مكانته العتيدة تلك طالما بقى التليفزيون حبيس غرفة المعيشة أو غرفة النوم ، ففى الولايات المتحدة وهى بلد يهيم بالإحصاء والاستقراء واستطلاع الرأى زادت مبيعات الراديو عام ١٩٧٤ عنها عام ١٩٥٢ خمسة أضعاف ، ففى عام ١٩٥٢ بيع أحد عشر مليون راديو وفى عام ١٩٧٤ بيع أربعة وخمسون مليونا ، وإن قيل إن التلفزيون طرد الراديو من غرفة المعيشة إلى غرفة النوم والمكتب والسيارة ، وأصبح رفيقًا للإنسان فى كل مكان ، فالراديو ليس وسيلة للترفيه فحسب ، ولكنه وسيلة للثقافة والمتاع العقلى وهو طوع أمرك ينقلك من مكان إلى آخر ويوافيك بأخبار العالم حال وقوعها ويسبق الصحافة فى هذا المضمار . ومازال هو السابق بالخبر إلى الدنيا جميعًا فى الوقت الحاضر ، والسمة البارزة على التطور المذهل فى عالم الاتصال وبدأ الإعلام الصوتى

يستعيد مكانته مرة أخرى وبقوة مذهلة بعد ان ازاحته عنها المطبعة والكلمة المكتوبة ، وإن بقى إلى جوارها لا يزحزحها عن مكانها بعد أن أخذت الصحافة مكانها الوطيد فى عالم أصبحت الصحيفة فيه خبز القارئ أو قدح الشاى فى الصباح ، وبقى الراديو والصحيفة وكأنهما على وفاق فى السيطرة على عين الإنسان وأذنه ولكن الراديو بعد ظهور الترانزستور قد استأثر بعالم بقيت الصحيفة عاجزة دونه ، ذلك العالم النائى فى أعماق الريف وفى المناطق التى تشيع فيها الأمية وخاصة فى البلاد النامية .

ولئن كان البرق والمسرة قد استحوذا على سمع الإنسان إلا أنهما كانا أعظم عون للصحافة فى تطورها السريع وفى انسياحها على العالم . ولكنهما بقيا عاجزين عن الوفاء بحاجات الإنسان السريعة والعديدة قاصرين على الرسالة الخاصة والخبر المنقول حينما يوجدان ، ففى سبتمبر عام ١٩٠١ كان نائب الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت يمارس رياضة تسلق الجبال فى منطقة نائية حين جاءته برقية تفيد أن الرئيس الأمريكى « وليم ماكنلى » قد ساءت حالته منذ أطلق عليه الرصاص قبل ذلك بأسبوع فى مدينة بافلو ، وكان تيودور روزفلت على مسافة عشرة أميال من أقرب مكان يجد فيه جوادًا يحمله إلى أقرب محطة للقطار حيث عرف تفاصيل الخبر ، وما أن وصل بعد سفر ليل شاق حتى كان الرئيس قد مات ، وأصبح روزفلت رئيسا للولايات المتحدة ، ولم تعلم أمريكا بالخبر إلا عن طريق الصحف نهار ذلك اليوم وليلة ، وبعد ذلك بنيف وستين عاما . أطلق الرصاص على الرئيس « جون كينيدى » وفى غضون ثلاثين دقيقة من إطلاق الرصاص كان ٧٥٪ من المواطنين الأمريكيين قد عرفوا الخبر ، وفى غضون ساعة كان العالم كله قد عرفه بفضل الراديو .

ويكتب اثنان من أساتذة الإعلام ، هما « وليم ل . ريفرز » وولبر شرام »

يصفان ذلك التقدم المذهل فى وسائل الإعلام فيقولان :

« ترى ماذا كان يقول الناس قبل قرن من الزمان ، لو أن زيدًا من الناس
« قال لهم ، بأنهم فى القريب العاجل سيتاح لهم شراء صحيفة ببضع ،
« سنتات تزوده بأخبار تنقلها إليها وكالات أنباء مزوّدة بأحدث »
« وسائل الاتصال ، ومراسلون ينتشرون فى أهم مدن العالم تصلهم »
« الأخبار ويرسلونها إلى صحفهم فى دقائق ، وماذا كان يقوله هؤلاء »
« الناس قبل خمسين عاما ، لو أن قائلا قال لهم إنه سيكون لدى كل واحد
« صندوق صغير لا يكلف كثيرًا يسمع أو يرى من خلاله أوبرامتروبوليتان »
« والألعاب الأولمبية ، واجتماعات الأمم المتحدة ، والحرب فى آسيا ،
والمرشحين لرئاسة الدولة ؟ » .

لم تعد الكلمة تقال وجهًا لوجه ، ولم تعد بين فرد ومريديه فى حديث أو خطبة أو موعظة ، ولم تعد مطبوعة تقرأ فى وقت الفراغ أو للدراسة ، ولكنها أصبحت كلمة إلى حشد متباين من الجنسين من الكبار والصغار ومن المريدين والمعارضين ومن الأميين والمتعلمين ، ومن المثقفين وقليلى الثقافة ولا يستطيع المستقبل أن يحتج أو يعترض ، ولا يعلم المرسل بدوره من يخاطب ، ولعله لا يعرف أى حشد يخاطب وإن أدرك أن الناس جميعًا طوع صوته فغالبًا ما يستمعونه راضين أو ناقمين ونادرًا مايوقفون الوسيلة دون صوته كما يلقون بالصحيفة بعد أن يأخذوا منها ما يريدون .

والميزة التى يتميز بها الراديو على غيره من تكنولوجيا الإعلام هو السرعة البالغة فى الاتصال حتى غدا فوريًا يتم للحظته ، كما أنه عبر نطاق الحشد الإقليمى إلى الحشد العالمى ، وجعل من العالم « قرية صغيرة » كما يقول مارشال ماكلوهان وإن بقى لكل فرد فيها مزاجه وطبيعته .

ويدين الراديو بمكانته إلى عامل لاسلكى شاب يدعى « دافيد سارنوف »

ذاعت شهرته عندما التقط إشارة عن اصطدام الباخرة « تيتانك » بجبل ثلج طاف عام ١٩١٢ . ففي المذكرة التي تقدم بها إلى رؤسائه في شركة ماركوني الأمريكية عام ١٩١٦ : يقول : « إنه يضع نصب عينيه خطة لتطوير الإذاعة تجعل من الراديو قطعة من الأثاث المنزلي » وتحدث عن الإذاعة كوسيلة لنقل المحاضرات والأخبار والموسيقى ووصف المباريات الرياضية والأحداث الهامة ، ولم يكن هناك من يصدق ما يرهص به خبراء اللاسلكي من تنظيم وتكبير الإشارات الإلكترونية وتيسير نقل الصوت حتى كان يوم ٢٠ يناير ١٩١٠ حين أذاع الراديو صوت مغني التينور الذائع الصيت » أنريكو كاروزو » من دار أوبرا متروبوليتان في نيويورك » حتى أنشأت شركة وستنجهاوس أول محطة إذاعة استهلت عملها في ٢ نوفمبر ١٩٢٠ بإذاعة نتائج انتخابات « وارين ح . هاردنج » رئيسًا للولايات المتحدة ، وبدأت إرسالها بعد ذلك وفقًا لبرنامج منتظم . وبدأت الحكومة الاتحادية تصدر تراخيص للإذاعة وكانت الأغاني والإعلانات التجارية هي الحصيلة الأولى ، وما حل عام ١٩٣٠ حتى أصبح الراديو أبرز معالم الحياة الأمريكية حتى أنه في سنوات الكساد — كما يقول مؤرخ الإعلام « إريك بارنو » ظفر بحب لا يكاد يصدق « فالأسر التي أصابتها أزمة الكارثة المالية فباعت ثلاجتها الخشبية وأسرة البيت وأثاثه بقيت تحتفظ بالراديو باعتباره الصلة الوحيدة التي تربطهم بعالم يعيشون فيه » .

وقد أصبح الراديو سيد الأبجدية الصوتية دون منازع وقد أعاد لها سلطانها بعد أن ثلمتها الأبجدية البصرية أو الكلمة المطبوعة ، فإذا كان الكتاب بعد ذيوع الطباعة وانتشارها قد غدا رفيق الإنسان في حجرة الدراسة وأنيسه في السفر وإلفه في فراش نومه وعون التلميذ في استذكار دروسه فقد أزاحه الراديو عن مكانه بل وغدا ينافسه كأداة للتعليم ويكاد يحتل ميدان محو الأمية والترشيد الفني والثقافي في الأماكن النائية من الريف القاصي والأماكن المعزولة التي تعوزها وسائل التعليم

الحديثة وتفتقر إلى المدرسة .

وجذب الراديو الأسماع إليه بما يقدمه لحاجة كل مستمع خبرا يعنيه أو يشغله أو نوعا من المعرفة الجديدة وأكثر ما يجذبه إلى المستمع ما يقدمه له من بواعث الترويح والاسترخاء ، وإلى هذا كله فهو رفيق مريح لا يثقل على صاحبه ينطق بحساب ويصمت حين يريد له الصمت ، ولا يضنيه بجير ولا يشغله عن عمله .

وبقدر ما يصدق الراديو فى رفقته للإنسان بقدر ما يجذب الإنسان إليه ، فإذا خانه انصرف عنه ، ويقدم الراديو آيات ولائه بكل ما يملك من قدرة وجاذبية على امتلاك مشاعر صاحبه ، كالزوج لا تكتفى بالتزين لزوجها ، وإنما تقدم له كل ما يمتعه ويريحه عقلا وبدنا وإلا انصرف عنها إلى ما يريحه خارج الدار ، والصدق آية الوفاء ، فكلما ساق الخبر صادقًا ، التصق به صاحبه ووثق به فالخبر الصادق هو وثيقة الزواج بين الإذاعة وزبائنها ، وكثيرا ما ينصرف المستمع عن إذاعته المحلية ليسمع الخبر صادقا من إذاعة أجنبية ، أو ليسمع ما تقوله إذاعة عدو ، والخبر الصادق أقوى سبل الدعاية إذ أنه يجذب المستمع إليه ليبقى أذنه معه عند التعليق على الخبر « فالواقعة – كما يقول الصحفى الإنجليزى الكبير « س . ب . سكوت » – مقدّسة والرأى حر » . وحين كانت بريطانيا تمر بالعسير من أيامها خلال الحرب العالمية الثانية ، وتواجه الهزائم فى كل مكان أمام قوات ألمانيا الضاربة ، لم يكن تشرشل يحجم عن بيان الحقيقة ، ولكنه فى تعليقه كان يوحى بالأمل فى نصر أكيد ، والخبر الكاذب أو المحرف سرعان ما يسفر عن مينه وتحيّفه على الحقيقة ، فيفقد ثقة المستمع فى مصدره وإن صدق فى خبر آخر . وتلتزم هيئة الإذاعة البريطانية – كما نعرف وكما يقول أستاذنا طيب الذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة رائد المدرسة الإعلامية الحديثة فى مصر – بصدق الخبر ، فيقول إنها « تميز تمييزًا واضحًا بين الخبر فى ذاته من ناحية ، والتعليق من ناحية ثانية ، فأما الخبر فإنها

تحرص على نشره بدون تحريف ، وأما التعليق فإنها تمارس فيه كل حريتها ، وتبنى عليه كل ما تريد أن تبنيه من النتائج ؛ لذلك ينظر الإنجليز إلى الإذاعة البريطانية على أنها برلمان مستقل بذاته عن البرلمان الإنجليزى المعروف ، والبرلمان فى بلاد الإنجليز هو المكان المقدس لمناقشة القضايا السياسية وغير السياسية ، والإذاعة البريطانية فى نظر الإنجليز تستطيع أن تناقش البرلمان الإنجليزى فى جميع الحالات . .

ولما كان الخبر الصادق حقًّا من حقوق الإنسان يحول دونه أى تشويش على إذاعة معينة ، فقد نصّت المادة التاسعة عشرة من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، الصادر عن الأمم المتحدة على أن « لكل شخص الحق فى حرية الرأى وحرية التعبير ، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون تدخل ، واستقصاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون التقيد بالحدود الجغرافية . .

وعلى عكس الإذاعة البريطانية تلتزم الإذاعة السوفيتية بالغاية دون الوسيلة فليس الخبر الصادق هو الذى يعنيها ، ولكنه الخبر وإن كان مختلقًا الذى يؤيد اتجاهاتها السياسية وفلسفتها الجماعية فتحجب الخبر الصادق وتذيع خبرًا مضلّلاً وتلحّ عليه وتكرره ليبدو صادقا .

وتختلف الإذاعة الإسرائيلية عن غيرها من الإذاعات العالمية بقدر ما يختلف الإطار الشاذ الذى تقوم عليه دولة إسرائيل عن غيرها من دول العالم ، فالدولة الإسرائيلية تقوم على نبوءة كاذبة محرفة ، يعبر عنها « هـ . ج . ويلز » فى كتابه « مختصر تاريخ العالم » بقوله : « كان اليهود يؤمنون بأن الله رب العالم أجمع رب برٍّ وصلاح ، ولكنهم كانوا يقولون أيضا بأنه رب تاجر عقد لأجلهم صفقة مع أبيهم أبراهام ، صفقة رابحة جدا لصالحهم ، يتعهد فيها بأن يرتفع بهم فى النهاية إلى السيادة على الأرض »

وتلك هى عقدة اليهود الباقية من تراثهم الباطل المشتت ، وهى العقدة التى تخضع لها دعايتهم كما تخضع لها سياستهم ، دون أن يسفروا صراحة عنها فى أساليبهم ، فلكثرة ما عصف بهم على مدى تاريخهم . لا يفصحون عن الأمل إلا عندما يكون واقعًا ، فهم يطلبون وطنًا قوميا يجمع شتاتهم ولا يرضون به بديلا عن فلسطين ، فيشيعون بين ذويهم « من مشى على أرض فلسطين بضعة أقدام خصه الله بمكان فى الجنة » ويقولون لهم « أولى بك أن تعيش فى فلسطين من أن تسكن قصرًا منيفًا فى بلد بعيد » ثم يتحسسون حاجة غيرهم من الدول الكبرى ومصالحها فيتكيفون معها ويشايعونها ، ويستجدون الرأى العام العالمى باختراع أكذوبة العداء للسامية وليسوا من الساميين ويعرفون أن العالم لا يهمه البحث عن أصولهم التاريخية ، ويبدعون أعظم خدعة فى القرن العشرين عندما يدعون أن النازى أحرقوا ستة ملايين منهم فى غرف الغاز وأنهم كانوا يصنعون من جلودهم « أباجورات الإضاءة » ووجدوا من يميل إلى تأييد هذه الأكاذيب من الحلفاء قبل عام ١٩٤٥ وبعده ، تبريرًا لما ارتكبوه من فظائع فى ألمانيا فى الدور الأخير للحرب وفى أعقابها ، ولمحاكمات نورمبرج التى تعد أول انتهاك للقانون الدولى فى التاريخ ، ولابتزاز الحكومة الألمانية فى صورة تعويضات عما لحق باليهود خلال حكم النازى ، مستندين « إلى التأييد – اللامنطقى – لإسرائيل من الولايات المتحدة » –كما يقول « ا . ر . بوتز » فى كتابه « خدعة القرن العشرين [1] » وهو كتاب تتجاوز صفحاته الخمسمائة يكشف فيه عن زيف الدعاية الإسرائيلية فى ذلك . حيث كانت الولايات المتحدة هى المبدع والمحرك الحقيقى لمحاكمات نورمبرج ، فلما بهتت الصورة ، وظهر فى الولايات المتحدة زيف تلك الأكاذيب ، قامت إسرائيل باختطاف أيخمان ومحاكمته فى إسرائيل عام ١٩٦٠ وتلت ذلك بحملة إعلامية

---

(١) A.R. Butz: The Hoax of the Twentieth Century, 1975.

أحيت فيها أقاصيص بشاعات النازى الكاذبة ، وماكان النازى وأعداؤهم من الحلفاء إلا سواء فى تلك البشاعات التى بدت دليلاً بيِّنًا على انهيار القيم الحضارية فى الغرب بطرفيه الشرقى والغربى على السواء . والراديو والكتاب إلى جانب الصحافة الموالية أبرز وسائل الإعلام الإسرائيلية تتفوق على الإعلام العربى بالمكر والخديعة والتضليل فى استهواء الرأى العام العالمى ، فتارة هى واحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط ، وتارة هى الحفيظ على الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة وأخرى أنها تنشد السلام والحياة الآمنة بين قوم يعادونها ، وأنها تقيم دولة فى بقعة مقفره لتعمرها وتحييها ، وأبواقها عالية ودعاتها منظمون ، ونفوذها فى الدول البروتستانتية قديم .

وقد صدر فى أعقاب اختطاف أيخمان ومحاكمته فى إسرائيل عديد من الكتب تحيى من جديد ذكرى اضطهاد النازى لليهود ومحاولة تفريغ أوربا منهم ، فصدر كتاب « رول هيلبيرج » القضاء على يهود أوربا – عام ١٩٦١ ، وكتاب « جيرالد ريتلينجر » – الحل النهائى الطبعة الثانية عام ١٩٦٨ ، وكتاب « نورا ليفين » – الإبادة – عام ١٩٦٨ ، وكتاب « لوسى س . دافيد ودفس » – الحرب ضد اليهود ١٩٣٣ – ١٩٤٥ [١] – ومازالت مؤلفات دعاة الصهيونية تلح على ذلك .

أما الإذاعة الإسرائيلية فهى إذاعة مرنة تتصيد الأحداث وتتكيف مع المواقف المتاحة فى أوقات مناسبة ، تخضع خضوعًا تاما لاتجاهات السياسة الإسرائيلية الجارية دون أن تغفل مراميها البعيدة وهى السيطرة على العالم العربى بل والشرق الأوسط . وهى أخطر جهاز إعلامى على العرب ، فإذا كانت تسوق الخبر الصادق فإنها تغلفه بما يحقق مراميها .

---

(١) ا . و . باتز : خدعة القرن العشرين وقد قامت هيئة الاستعلامات المصرية بترجمته إلى العربية فى طبعة محدودة .

وسيبقى الراديو سلطان الإعلام المتوج يخاطب الناس بما يحبّون وبما يكرهون . يسوق الحقيقة والأكذوبة ويعلى من القيم ويزرى بها وينصح ويخدع . يصبحك ويماسيك وهو الرفيق الدائم فى كل مكان .

والأذن والعين معًا :

حين ظهرت السينما الصامتة لم يكن الراديو قد ظهر إلى الوجود وكانت الكلمة المطبوعة هى سلطان الإعلام الطاغى ، وأتيح للصحف والمجلات أن تستأثر وحدها بفصائل الإعلام الأربع : التعليم ، والدعوة ، والدعاية ، والإمتاع . وأصبحت زاد القارئ فيما ينشده من تلك الميادين . وإن بقى للكتاب هيله وهيلمانه ، ولكنه بقى قاصرًا فى امتداده وانتشاره عن امتداد الصحف وانتشارها . وأزاحت الأبجدية البصرية أبجدية الصوت عن مكانها المرموق ولم يبق لها وجود إلا فى المحافل والندوات والمدارس والجامعات ودور الوعظ والإرشاد .

وهاقد تحركت الصور ولكنها كانت أشباحًا صامتة وإن لعبت بألباب الجماهير فجذبتهم إليها « وأصابتهم بالذهول - كما يقول إدوار واكين(١) . فكان الجالسون فى الصفوف الاولى يستديرون جرعًا من بعض المناظر ، أما أجيال السينما فقد رأتها سحرًا مسلما به » وإن كان « سحرًا - كما يرى المخرج أنجمار برجمان - يقوم على خداع البصر »

وبدأت السينما وئيدة الخطى ، وإن سبقت غيرها من تكنولوجيا الإعلام السمعية والمرئية الحديثة ، إذ ظهر أول عرض للصور المتحركة عام ١٨٩٥ ، قبل ظهور الراديو بنيف وعقدين من الزمان وقبل ظهور التلفزيون بخمسة عقود ،

---

(١) Edward Wakin : Communicatisns : an Intoroduction to Media.

وما لبثت العروض السينمائية أن اجتاحت العالم أجمع بعد أول عرض لها فى باريس بقليل . وحتى قيام الحرب العالمية الأولى كانت باريس مركز الإنتاج السينمائى الرائج حتى غلبتها أمريكا وغدت هوليوود سيدة الإنتاج السينمائى فى العالم وأطاح الفيلم الأمريكى بغيره من الأفلام الأخرى فانزوت فى بلادها إلاّ القليل منها الذى وجد له مكانا فى سوق المنافسة الأمريكية ، وجذبت هوليوود إليها كبار النجوم والمخرجين والمصورين من أوربا ، ولم تستطع أن تنافسها فى ميدان الإنتاج فى فترة ما بين الحربين بلد آخر بالرغم من تقدم صناعة السينما فى الكثير منها .

ثم ظهرت السينما الناطقة . فجمعت بذلك بين أبجدية الصوت وأبجدية البصر وبقدر ما نالت الحرب العالمية الثانية من صناعة السينما فى أوربا كما حدث فى الحرب الأولى ، فإنها كانت زادًا لصناعة السينما الأمريكية ، إذ جمعت القوات المسلحة الأمريكية العديد من المصورين والمخبرين السينمائيين بين صفوفها كأداة إعلامية عن الحرب الدائرة خارج بلادها ، فإن الكثير من دور العرض فى العالم لم تتأثر بظروف الحرب وغدت ميدانا طيبا لدعاية الحلفاء ، كما أخذت الحكومة الأمريكية فى تدريب هؤلاء المصورين والمخبرين المجندين لمواجهة حياتهم المدنية الجديدة بعد تسريحهم من القوات المسلحة فكانوا مددًا طيبا لإنتاج هوليوود فى ميادين جديدة اقتحمت ميدان السينما بإنتاج الأفلام التعليمية والثقافية والعلمية والإخبارية[1] . وأصبحت أداة إعلامية تتسع لكل فصائل الإعلام ، فهى وعاء لبعث الماضى وسجل للحاضر ، وهى صورة ناطقة تواكب الأحداث فى تطورها ولا تقف عند حدث فى ساعته كأخبار التلفزيون ، وهى ملهاة ومسلاة للكثيرين فى عزلة قاعة العرض المظلمة . ينسابون فيها مع مشاعرهم وأحاسيسهم وحدهم .

وقد استطاعت الأفلام التاريخية أن تصور لنا الماضى كما كان على حقيقته حيث

---

(١) The american Cinema: Edited by Donald E. Staples. 1975.

يلعب البحث التاريخى دوره - كما يرى ماكلوهان - فى إعداد الديكورات والملابس ليدركها أى طفل كأيسر ما يدركها البالغ سواء بسواء . كما استطاعت الأفلام التى تصور رواية قديمة كرواية « مرتفعات وذرنج » أو « روميو وجولييت » لشكسبير ، أو « الحرب والسلام » لتولستوى أو « حادث قتل فى الكاتدرائية » لمؤلفها « ت . س اليوت » أن تبعث الماضى فى واقعه ويرى « ت . س . إليوث » أن إعداد روايته للسينما لم يكن قاصرًا على تجهيز ملابس - مثلا - ترجع لنفس الفترة ، بل عدتها « بسبب الدقة البالغة لعدسة الكاميرا ، إلى الطريقة التى كانت تنسج بها تلك الملابس فى القرن الثانى عشر » وهو ما يعجز عنه المسرح والتلفزيون كما يرى ماكلوهان .

ولعل قدرة السينما على تصوير الواقع هى التى صانتها من غزو التلفزيون ، وعجزه عن إزاحتها عن مكانتها الوطيدة كأداة إعلامية لها جاذبيتها الخاصة . « فقد حملها على تقديم ما يعجز التلفزيون عن تقديمه ، أو ما لم يسبق له تقديمه - كما يرى إدوارد واكين - حتى أصبحت الكثرة الساحقة من جيل الشباب الذى نشأ مع التليفزيون . هم الكثرة بين رواد السينما . ففى السبعينيات كان ثلاثة أخماس رواد السينما فى أمريكا من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثانية عشرة والثلاثين »

ومازالت دور السينما فى كافة أنحاء العالم حافلة بروادها ، وازداد عددهم أكثر مما كانوا من قبل ، فإذا كان التلفزيون يمسك بكبار السن فإنه قد عجز عن أن يمسك بالشباب إليه . فالشباب أميل إلى الحركة والانطلاق خارج دورهم ، ويجدون فى دور السينما ما يحقق لهم بغيتهم .

التلفزيون :

وجاء هذا الصندوق الصغير المسمى بالتلفزيون وتعنى الصورة القريبة ليحتل

مكانه المزعج والمريح معًا فى دنيا الإعلام الحديث . فساد الذعر عالم الإنتاج السينمائى . وقيل إن الراديو قد عفى عليه الزمان . وما حدث أن التلفزيون لم يستطع أن يزيح أيهما عن مكانه ، وبقى مكملاً لها . ولعله قد حثهما على الكثير من النشاط وبعث فيهما حيوية التغيير والمنافسة ، ولم يأخذ من الصحيفة والكتاب شيئًا . فقد وسعتهم أمزجة الناس واهتماماتهم جميعًا .

وبدأ التلفزيون خطواته الحثيثة فى بداية الأربعينيات . وكان فرانكلين روز فلت أول رئيس أمريكى يظهر على شاشته . ولم يبدأ إرساله الواسع إلاّ فى الخمسينيات فارتفع عدد أجهزة الاستقبال فى الولايات المتحدة إلى خمسة عشر مليون جهاز أوائل الخمسينيات ولم يكن قد جاوز نصف المليون أوائل الأربعينيات وفى عام ١٩٥٣ ظهرت الشاشة الملونة . وماوافى عام ١٩٧٠ حتى عمت أجهزة الاستقبال ٩٥٪ من البيوت الأمريكية . وكان الإرسال التلفزيونى قد عمّ أكثر بلدان العالم .

وقد ثبت أن أية وسيلة إعلامية قذفت بها إلينا التكنولوجيا الجديدة لم تقض على ما قبلها فقد ظل التلفزيون عاجزًا عن الإطاحة بالسينما ، فالتلفزيون أشبه بعين تشكو قصر النظر . فلا يبصر غير الأشياء القريبة ، بينما السينما تبصر عن بعد ، وتتسع آفاق الرؤية أمامها فتلمّ بالمناظر الكبيرة المتسعة التى تضيع على شاشة التلفزيون فتعجز عن احتوائها أو إبرازها .

وإذا كان التلفزيون – قد أزاح الراديو عن غرفة المعيشة – كما يقول « سدنى هين » فى كتابه الجامع « إذاعة أمريكا » فقد قذف به « إلى المطبخ وإلى غرفة النوم والمكتب والسيارة . ورفيقًا بصاحب كل إنسان فى تجواله من غرفة إلى غرفة فى داره ، وحينًا ينطلق فى شوارع المدينة ، أو يمضى فى رحلة »

وقد نقول إن هذه الأجهزة الجديدة قد أخذت بمبدأ « تقسيم العمل » الذى يدين به رجال الاقتصاد . فعرفت كل أداة ميدانها لا تنافس فيه الأخرى . فحين

أقبل الناس عام ١٩٢١ على ابتياع أجهزة الراديو لتستمع إلى وصف مباراة الملاكمة على بطولة العالم بين دمبسى وكار بنتييه » فى نيوجرسى ، فإنها ماكانت تلقى بالاً إليه فى وصف مباريات محمد على كلاى . وإنما تدع إلى الشاشة الصغيرة التى تنقل إليها واقع المباريات كما يراها الذين يشاهدونها حول الحلقة . وما كان الراديو بقادر على أن يقدم لسامعه ما قدمه التلفزيون لمشاهديه أصيل يوم الجمعة ٢٢ حتى يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر ١٩٦٣ لحادث اغتيال الرئيس جون كنيدى وتشييع جنازته ، فى هذين اليومين تسمرت أمريكا جميعًا أمام شاشات التلفزيون حتى أن شبكات التلفزيون قد أوقفت كل برامج التسلية والإعلانات لتتابع هذا الحدث الكبير مما كلفها خسارة ثلاثين مليون دولار من الإعلانات بالإضافة إلى عشرة ملايين دولار أنفقتها لتغطية الحادث تغطية إخبارية شاملة . كما كان للتلفزيون دوره فى تغطية تحقيقات « وترجيت » التى أذيعت على الهواء مباشرة . وشدت إليها أنظار مائة مليون أمريكى . فمشاهدة الخبر أكثر جاذبية من سماعه .

إلا أن ميادين العمل تبدو واحدة لها جميعا إلا أن لكل منها فى نفس الميدان مايتفوق به على الآخر ، فالخبر المشاهد أكثر جاذبية من الخبر المسموع إلاّ أن الخبر المشاهد قد لا يغطى كل جوانب الحدث ولا يلم به فى الغالب إلا بعد أن يقع ويستوى تفصيله على لسان المذيع التلفزيونى أو مذيع الراديو . إلا أن الراديو يوافى بالخبر أينما يكون المستمع ، والمسرحية المرئية أكثر جاذبية من المسرحية المسموعة . وحينما يفتقد المستمع الرؤية لا يبقى غير الاستماع وشىء خير من لا شىء . وقد يبدو سماع الموسيقى على موجات الإذاعة أقرب إلى إثارة الإحساس والمتاع الذهنى من رؤية الفرقة تعزفها على الشاشة الصغيرة . وهى أكثر إمتاعًا على الشاشة الكبيرة ، شاشة السينما ، منها على شاشة التلفزيون ، فالصورة بحجمها على شاشة السينما أقرب الى الواقع منها على شاشة التلفزيون ، وإن فاقها الراديو حين يفسح للخيال مجال التذوق .

وقد قيل إن ظهور السينما سيقضى على المسرح ، ولكن ما حدث أن المسرح بقى محتل مكانته كما كان من قبل وعجزت السينما عن النيل منه ، كما قيل إن ظهور التلفزيون سيقضى على السينما إلا أن رواد السينما قد ازداد عددهم عما كان من قبل .

وإذا كان للعرض السينمائى أوقاته ، وإذا كان للمسرح هو الآخر مراسيمه . فإن التلفزيون لا يفضلها فى ذلك ، إلا أنه على خلافها يقدم كل يوم جديدًا ، فالتمثيلية التى يقدمها التلفزيون فى سهرته لا يقدمها فى سهرة اليوم التالى ، ويستطيع التلفزيون أن يقدم مسلسلات متتابعة ، ولا تستطيع السينما أن تلجأ إلى ذلك حتى لا يهجرها روادها . فالتلفزيون عشير الإنسان وأنيسه فى غرفة المعيشة ، أما السينما فهى بمنأى عنه يسعى إليها ولا تسعى إليه . وقد يستغرق المسلسل التلفزيونى فى عرضه ساعات تمتد أياما ، أما الفيلم السينمائى فإنه يلتزم بوقت محدد وعرض واحد .

وعندما ظهر التلفزيون – كما قلنا – واجهت السينما اعصب فترة فى تاريخها . كما قيل يومها « أن الوسائل الأخرى من الصحيفة اليومية إلى دار السينما فى ركن الشارع . ومن الراديو على حامله ، إلى الكتب على رفوفها تواجه نهايتها ، وثارت انتقادات لاذعة ، من قبيل أن التلفزيون طرق فى عامين أبواب الطبقة الوسطى من الناس ، بينما أن الراديو لم يصل إليهم إلا بعد ربع قرن . وقال « نورمان كازنز » – محرر صحيفة سترداى رفيو : « إن المسلسلات الكاريكاتورية فى التلفزيون رديئة ومفزعة . وإنها تتصدر عروض التلفزيون فتجنح بالصغار وتسيء سلوكهم[1] »

إلا أن السينما سرعان ماواجهت المشكلة ، فنزعت جلدها القديم ، ووضعت جلدًا جديدًا لا يناله التلفزيون ، « أو أكرهها – كما يقول إدوار واكين – على تقديم ما لا يستطيع التلفزيون تقديمه . أو ما لم يسبق له تقديمه » ولم تصل إلى غايتها

---

(١) Edward Wakni : Communications : an Intoroduction to Media.

إلا بعد محاولات مريرة واجهت فيها الفشل والنجاح معًا ، ولعلها استوحت أسباب نجاحها مما حققته الأفلام الإيطالية من نجاح عندما طرقت موضوعات تمس اهتمامات العالم الجديد ، عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، بمشكلاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما أفرزته تلك المشكلات من عنف وتطرف يسود واقع الحياة القائمة ، فلم تعد مغامرات الضرب القديم ورعاة البقر والهنود الحمر والخيل والبنادق والبرارى الواسعة تثير الجمهور أو تحرك أحاسيسه بقدر ما أصبحت تثير السخرية والضحك . وعندما أخذت السينما الإيطالية بقدراتها المحدودة تجذب إليها الناس بما تقدمه من أفلام تمسّ واقع الحياة . أيقظت السينما الأمريكية على هذا الواقع الجديد الذى يمس مشاعر الناس ويلمس أحاسيسهم مما يفرزه العالم المعاصر من أحداث .

وليس للتلفزيون هذا الغول النهم لملئ ساعات الإرسال ما يميز به بين الغث والثمين . وما على المشاهد إلا أن يدير مفتاحه على البرنامج الذى يستهويه . أما السينما فإن عليها أن تقدم الثمين دائمًا وإلا أقفل شباك التذاكر أبوابه .

ومما يؤثر عن الممثل والمخرج السينمائى المعروف « أورسون ويلز » قوله عن التلفزيون : « هذا التلفزيون إننى أكرهه كما أكره الفول السودانى . إلا أننى لا أكف عن تناول الفول السودانى » فالتلفزيون رفيق مزعج يملى إرادته ولكنه يترك لصاحبه الحرية فى أن يعامله كما يشاء . يقبله أو يركله ، وفى الحالين يعرف أنه لا يستغنى عنه ، ويعرف أنه يملى إرادته ولا يملى عليه .

ويوشك التلفزيون أن يسخر أجهزة الإعلام الأخرى لخدمته ، ولعله يزيحها عن مكانها كما أزاح الراديو الحاكى واحتل مكانه فى البيت ، فالصحيفة تجرى وراءه وتذيع برامجه وتعلن عنها ، وإن عجز عن التغلب عليها ، ولكنه يوشك أن يغتال الراديو ويطغى على السينما ، فقد أتاحت له الأقمار الصناعية أن ينافس الراديو فى

المدى والبعد . ليجعل من الكرة الارضية بل ومن أجواز الفضاء داخل مدى الرؤية . فالمشاهد يستطيع أن يتابع براجه فى أى بلد يريد ، فيرى مباراة كأس العالم فى كرة القدم تذاع من البرازيل مثلاً وهو فى مصر أو فى أى بلد آخر ، كما يرى حفل تنصيب رئيس الولايات المتحدة ، أو مهرجانا فى استراليا أو تايلاند . أو عرضًا للمنوعات يذاع فى أى بلد .

ومع ظهور تلفزيون صغير الحجم يدار بالبطارية أصبح من اليسير أن يحمله الإنسان فى سيارته أو فى أى مكان يريد ، ولعل هذه الميزة التى استأثر بها الترانزستور وجعلت من الراديو رفيقًا للإنسان فى حلّه وترحاله توشك أن تنتقل إلى التلفزيون .

وجاء اختراع الفيديو المثير ليضيف ميزة جديدة للتلفزيون لاتهدد مسجلات الصوت فحسب ، ولكنها تشكل خطرًا على السينما ذاتها بعد أن أصبح قادرًا على نقل إرساله إلى شاشة بعرض الحائط ، كما أتاح لزبونه القدرة على تسجيل برنامج يريد أن يراه فى وقت آخر غير وقت الإرسال . ومع استخدام آلة ضبط الوقت يستطيع الزبون أن يسجل البرنامج وهو بعيد عنه أو مستغرقًا فى نومه ليراه فى الوقت الذى يرتضيه .

ولكنه مع ذلك يقف عاجزًا أمام الكتاب وأمام الصحيفة ، ولا نظن أنه يستطيع أن ينالها بسوء . فمازال الكتاب هو السباق إلى عالم المعرفة وهو الحفيظ عليها . ومازالت الصحيفة الوعاء الكبير لكل ما يطلبه الإنسان يمر على عناوينها فى لحظات ليختار منها ما يشاء بأسرع مما يمكن للتلفزيون أو الراديو أن يعرضاه فى نفس الامتداد الزمنى .

خاتمة

لئن أراد مارشال ماكلوهان بكتابه « فهم وسائل الاتصال » وقد صدر فى منتصف الستينيات ، أن يقرر أن « الوسيلة هى الرسالة » فإنه يعنى أن الوسيلة ، وهى وسيلة يزودها العصر الإلكترونى بكل ما لها من قدرة وسلطان ، تخلق بيئة جديدة تبرز من خلال البيئة القديمة ، بيئة تسيطر على عقل الإنسان ومدركاته ليحياها ملمًّا بها عارفًا بخوافيها . فتكنولوجيا الاتصال الكهربى قد جعلت ، كما يقول : « من العالم قرية صغيرة .. فالسرعة التى « جمعت بين الوظائف السياسية والاجتماعية وجعلتها كلاًّ واحدًا ، قد ضاعفت من إحساس الإنسان بالمسئولية إلى حد كبير ، وأدت إلى التغير فى موقف الزنوج والمراهقين وغيرهم من الجماعات الأخرى ، فلم يعد هناك من يستطيع أن يكبح جماحهم ، أو يحد من تجمعهم بالمعنى السياسى ، إنهم يشاركوننا حياتنا كما نشاركهم حياتهم فى الوقت الحاضر ، وذلك كله بفضل وسائل الاتصال الكهربية .. كما أن التطلع إلى ماهو كلى ، والتعاطف والإدراك العميق الواعى ، الذى يسود عالمنا ، هو نتاج طبيعى لتكنولوجيا الكهرباء » .

« فالوسيلة » بقدر ما تحدثه من تغير فى أنماط الحياة وعلاقات الأفراد والجماعات وطريقة تفكيرهم هى « الرسالة » وهى المحتوى الذى تؤثر به الوسيلة على طبيعة الأشياء فما من وسيلة جديدة إلا وتؤدى إلى تغيير جديد .

وقد نتفق مع ماكلوهان أو نختلف معه فى شروحه ، وتبريراته إلا أننا لانستطيع إلا أن نسلم بأن تكنولوجيا الإعلام والاتصال قد خلقت عالما جديدا ، لعل أصدق ماقاله أنها جعلت من العالم « قرية صغيرة » .

فالتكنولوجيا – إذا كانت كما يقول – قد غذتنا بوسائل جديدة لنقل المعرفة ، أو هي ترجمة لها بطريقة جديدة ، فإن أعظم ماقدمته هو امتداد المعرفة وشيوعها ، إلا أن هذا الامتداد وإن حفل بالكم والتنوع ، فإن أعظم ماقدمه هو التماثل . فقد تقاربت الثقافات العامة إلى حدّ بعيد ، وإن بقى لكل ثقافة محلية إطارها الخاص ، وإن هذا الإطار الخاص يجد من تكنولوجيا الإعلام الحديثة زادا لقوته واستمراره . إلا إنه ما يلبث أن يسلم للتيار الغالب فى ثقافة العصر ومادامت ثقافة العصر من نتاج الانقلاب الصناعى ، فإن الانقلاب الصناعى قد أدى إلى مايعرف بالثورة الصناعية ، وهى ثورة – كما رأى – تناولت سلوك الناس وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كما أدت إلى نشأة المدن الكبيرة والحشود العمالية فى المصانع ، والمذاهب الفكرية الجديدة ، وثورة القوميات ، وموجة الاستعمار التى قذفت بالدول الصناعية إلى ما وراء البحار وإلى عالم لم يطرقه الانقلاب الصناعى ، عالم بدا متخلفًا أمام القهر الصناعى . فإن تكنولوجيا الإعلام والاتصال الكهربى قد أخذت تغذيه بقوى جديدة تشيع التماثل بين ألوان البشر وتعلى من شأن الإنسان فى ذاته وفى علاقاته بالآخرين ، وتطيح بالعنصرية والتعصب القومى ، وتبدع نظمًا اقتصادية وسياسية جديدة ، وقوامًا اجتماعيًّا لعالم كبير يتقارب فى تفكيره ، ومن ثم فى وعيه الثقافى مايؤدى فى النهاية إلى نزعة عالمية يراها المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » بادرة لقيام حكومة عالمية .

وقد يبدو أمل توينبى بعيدًا ، ولكنه محقق على وجه التأكيد ، فقد أصبح العالم داخل بوتقة صغيرة تصهره وتحوله إلى شىء جديد ، هذه البوتقة هى القدرة الإعلامية الهائلة فى الوقت الحاضر التى تشيع التماثل والانسجام ، وإن كانت ميدانًا فى الوقت الحاضر للحرب الباردة ولصراع الأفكار والمذاهب .

إلا أن هذه الحرب الباردة تنذر بشر مستطير إذا ما تحولت إلى حرب حامية

وتحمل قادة الدول أو القوتين الكبيرتين على التفكير فى تحاشى هذا الموقف المدمر باختراع مايعرف بالتعايش السلمى أو الحد من الأسلحة النووية ، إلا أن الإدراك الإنسانى للخطر القادم هو الأمل الوحيد لقهر قوى الدمار والشر ، وغلبة نزعة الخير والسلام العام . والحرب الباردة حرب إعلامية بالدرجة الأولى ، ولكنها تحمل فى ثناياها نبرة السلام كما تحاول أن تطبع العالم برؤيا معينة لصالح أى الفريقين ، وتغذى الوعى الإنسانى العالمى بالإدراك المستنير لجدوى التماثل والانسجام .

فالثورة الإعلامية التى قذفت بها تكنولوجيا الإعلام المعاصر إلى مانسميه « التدفق الحر » للإعلام المباشر ، يوشك أن يودى بالثقافات القومية وخاصة فى البلاد النامية التى تكتسحها الثورة الصناعية بكل آثارها الفكرية والسلوكية فى الوقت الحاضر بأسرع مما كان فى أى وقت مضى .

فالإرسال الدولى أو العالمى الذى تغذيه الأقمار الصناعية بالسعة والامتداد ، أعظم زاد للتدفق الحر لألوان المعرفة الجديدة التى تطبع ثقافة العصر بالتماثل والانسجام . ولكنها تخلق فى الشعوب النامية نوعًا من البلبلة والقلق بين ماهو قديم قائم وماهو جديد طارئ ، كما تخلق نوعا من الشك والحذر فيما يقدمه العالم المتقدم من بيانات ومعلومات ، فحينما كانت الطباعة تعيد بناء الماضى فى الشعوب النامية كانت المطبعة لا تنقل إليها إلا مايقع عليه اختبارها من ثقافة العالم المتقدم ، بينما اقتحم الإرسال التليفزيونى عن طريق الأقمار الصناعية حياتها ، وقدم إليها مالا تستطيع منعه أو منع تدفقه ، وطالما كان التدفق الحر للمعلومات قائمًا على سلامة الاختيار والموضوعية فإنه يلقى آذانًا صاغية ثم إن هذا التدفق الحر قد يستهوى الراغبين فى التحديث كما يستهدى الطرق والوسائل التى يقوم عليها التحديث ،

وطالما كانت الشعوب النامية تنشد التقدم ، فإنها لاتلبث أن تستسلم لكل مايغذى ثقافتها القديمة بصور ثقافية جديدة تغذى ثقافتها القديمة أو تنميها أو

تفوقها . فما لاريب فيه أن المنجزات التكنولوجية الأخرى التى اقتحمت حياة الأفراد كالسيارة والطرق وأنظمة المرور وتسللت إلى المنازل كالثلاجة الكهربائية والسخان وموقد الغاز وجهاز التكييف ، قد خلقت أنماطًا ثقافية جديدة تتكيف معها وتعززها . والإنسان بطبعه يميل إلى كل مايريحه ويخفف عنه متاعب حياته ، فلا يستطيع أن يرفض أو ينبذ ماتقدمه له تكنولوجيا العصر من وسائل الراحة ، وإن شابه الحذر مما يمسّ تقاليده وقيمه وتراثه الثقافى الباقى ، إلا أنه يكتشف فى النهاية أن الآلة قد غيرت الكثير من سلوكياته ، وللتدفق الحر للمعلومات التى يقدمها الإعلام الخارجى أو الدولى مايحمله على التفاهم معها ليتقبلها فى النهاية ، وقد يبقى الكثير من العادات القديمة قائمًا ، ولكنها فى الغالب عادات قد تتصل بالمظهر دون الجوهر ، فهذا الشرقى الذى يغشى لندن أو نيويورك أو موسكو أو برلين أو باريس بردائه الشرقى الأخاذ ، لايرفض الاندماج فى حياة تلك المدن التى يؤمها ، وإن غدا لباسه الشرقى وحيًا لمودة جديدة يبتكرها مصمم الأزياء .

والتكنولوجيا تفرض وجودها على إنسان العصر ، فى نفس الوقت الذى يغذيه التدفق الإعلامى من عالم بعيد بثقافة جديدة تدين بنمط عالمى متماثل فسيح .

ويرى « د . ليرنر »[1] أن : « المتمسكين بالتقاليد القديمة هم فى العادة من غير المتعلمين ، بينما العصريون هم فى العادة من سكان المدن المتعلمين ، الذين يرون فى الإعلام الخارجى مصدر معلوماتهم الأساسى » وكثيرا مانرى فى بلادنا من يدير مفتاح الراديو إلى إرسال خارجى ليستمع إلى خبر تغفله وسائل الإعلام الداخلى .

ويؤمن كثير من المفكرين أن التدفق الحر للإعلام الخارجى يؤدى إلى التماثل

---

(١) Learner. D. : The Passing of Traditional Society : Modernising the Middle East. Glencoe, Illinois, 1958.

الثقافى ، وينصح « إيثيل بول » [1] الدول النامية بحرية الاتصال الخارجى مع أحسن المصادر المتاحة للمعلومات من أى مكان فى العالم .... فكلما تدفقت المعلومات حرة من غير قيد اتسع المجال أمامها للتعلم ، وإن كان ذلك سيؤدى من ناحية أخرى – كما ترى – إلى نوع من التناقض الثقافى طالما بقيت الكثرة من أبنائها تعانى أوضار الأمية ، وإن قيل إن التلفزيون والراديو قناتان للمعرفة تخففان من أثر أمية القراءة .

ولعل المثل الإيرانى خير شاهد على هذا التناقض ، فقد غزت الدولة بخطًا واسعة وسريعة نحو التحديث ، وزودها البترول بالقدرة الاقتصادية على إدخال النموذج الغربى على حياة إيران الاجتماعية بأسرع مما يمكن أن يستوعبه ، أو يتمثله المجتمع الإيرانى بأعرافه الإسلامية العريقة ، فكان التناقض البالغ بين نظام غربى حديث فى التعليم والاقتصاد والقانون ونظام إيرانى جامد ، يراه البعض قد تحيف على روح الإسلام ، ويراه آخرون أنه يمضى متوائمًا معه ، ولعل العيب فى تحديث ايران خلال العقود الثلاثة الماضية ، أنه فصل بين ماضيه الإسلامى وحاضره تمامًا . وكان الانتقال أقوى مما يمكن أن يتقبله عقل مازال يعيش فى ماضيه ، وعندما أراد شاه إيران قبل سقوطه أن يحيى عظمة إيران نزع إلى إحياء مجد إمبراطورية قورش دون تراثها الإسلامى الذى عاشته طوال أربعة عشر قرنًا . فاحتفل بعرش الطاووس وأضفى عليه الكثير من الأبهة والجلال ، قبل أن تتمثل ايران روح العصر ورحابة التدين الإسلامى ، فكانت تلك الردة التى أطاحت بعرشه ، فبينما كان الإعلام الإيرانى مقيدًا باتجاهات الحكم منكرا لأى رأى آخر يحول بينه وبين إبداء رأيه ، لجأ المحافظون والمتطرفون والغاضبون من استبداد الشاه إلى وسائل الإعلام القديمة

---

(١) Pool, Ithiel de Sola: Direct Broodcasting Satellites and the Entegity of National cultures. 1979.

وكانت الغلبة لهم ، لا لقدراتهم الإعلامية ، ولكن لأن إعلام الشاه لم يجد له صدى فى آذان الجماهير .. ولم يكن الخطأ خطأ الإعلام الإيرانى بفصائله العديدة ، ولكنه كان خطأ الإرغام والبيروقراطية المتفشية والثراء والفقر معًا وفشل التحديث فى تحقيق مراميه ، والتناقض بين فكر قديم ثابت وطيد وفكر غائم مهوش تغذيه أيدولوجية غريبة مغرضة وصراع دولى طامع . حتى قيل إن التحديث الإيرانى لم يكن غير خميرة لمأساة قومية .

إلا أن هذه التناقضات التى يواجهها الإرسال العالمى للإعلام عن طريق الأقمار الصناعية التى قربت البعيد . توشك أن تتضاءل أمام الاكتساح الحضارى للبلدان النامية ، فإن صانت عاداتها ومأثوراتها الثقافية فإنها لاتستطيع أن تحمى سلوكياتها من التحدى الحضارى الذى يطبع العالم بطابع واحد ، وقد تجد ثقافة شعب متقدم فى ثقافة شعب تاريخى كالهند ومصر القديمة ، مايغذيها يقيم إنسانية كريمة عجز الغرب المتقدم عن تحقيقها ، والإعلام البعيد هو الذى يحملها فيقرب بين الثقافات المتباينة فيطرد ماهو سيىء فيها جميعًا ويبقى على الصالح ، ليتواءم من بعد الفكر العالمى على الانسجام والتماثل ، وتصدق نبوءة أو رجاء توينبى فى قيام حكومة عالمية أو نظام عالمى يقوم على التوافق .

ومع تقدم وسائل الإعلام فمازالت « الكلمة » هى الرسالة ، وما تتضمنه الكلمة من معان تنفذ إلى الوجدان ويسيغها العقل ومهما قيل : إن « الوسيلة هى الرسالة » ، فإن ذلك قد يصدق على الإنجاز الحضارى وأثره على القرب والبعد أو بمعنى آخر ، تقريب المسافات بين الناس بما يتيح لهم مزيدًا من التواصل والاتصال ، لذلك يتسع مفهوم « الاتصال الجماهيرى » ليشمل كل مايعين الناس على الاتصال والتواصل ، وكانت كل وسيلة تساعد على ذلك - كما يرى ماكلوهان هى من وسائل الاتصال الجماهيرى وامتداد الإنسان إلى آفاق أوسع

وأبعد ، وما من وسيلة جديدة إلا وأبدعت محيطًا جديدًا إن كان ينبثق من المحيط القديم ، فإنه بالأحرى من نتاج هذه الوسيلة الجديدة ، ولكنها جميعًا تعتمد على الكلمة والمعنى الذى تتوخاه وتحمله ، ثم كانت الكتابة وسيلة لتسجيل الكلمة وبقائها وامتدادها ، وجاءت الطباعة لتغزو بالكلمة المكتوبة إلى آفاق أوسع وأبعد ، وكانت الكلمة هى الحروف المتراقصة على صفحات الجريدة ، وصفحات الكتاب . ثم كانت الصورة الفوتغرافية تجسيدا للواقع الطبيعى وإن كان واقعًا صامتًا لا ينطق وليس لها مكان إلا فى كتاب أو صحيفة أو إعلان مطبوع ، وبقيت الطباعة ومازالت ولها سلطانها الوطيد فى دنيا الإعلام أو الاتصال الجماهيرى جريًا على المصطلح الأمريكى .

ولكن الطباعة لم تقض على المشافهة ولم تحطم الكلمة المسموعة ، فإذا كانت الطباعة قد زودت الأبجدية البصرية بتلك القدرة الهائلة التى أصبحت لها ولم تتنازل عنها ، فإن الأسلاك قد طوحت بالأبجدية الصوتية إلى آفاق أبعد ، ولعل السيمافور كان البداية لوسائل الاتصال الصوتى البعيد . فإذا كانت الكلمة أو اللغة –كما يقول نوربرت فينر– مؤسس علم السيبرناطيقا ، هى أداة الاتصال بين شخص وآخر ، فإن هذا الشخص يمكن أن يتحدث إلى آخر من خلال آلة إلى آلة أخرى . وهكذا . وكان الاتصال قديمًا مشافهة بين إنسان وآخر ، فكان على « فيدبديس » أن يعدو من ماراثون إلى أثينا ليبلغ القوم خبر انتصارهم على الفرس عام ٤٩٠ ق .م . ثم كان الحمام الزاجل أكثر قدرة من أقدام الإنسان ، حتى استطاع صمويل موريس عام ١٨٤٥ أن يستخدم سلكًا كهربيًا فى نقل برقيات شفرية بين واشنطون وبالتيمور ، حتى اكتشف « جراهام بل » بعد ذلك بثلاثين عامًا أن الأسلاك تستطيع أن تحمل حديث إنسان إلى إنسان آخر ، واستطاع « جوليلمو ماركونى » أن يحل الموجات الكهرومغناطيسية محل الأسلاك فى نقل الحديث عام ١٨٩٥ ، وتم

أول حديث عبر الأطلنطى عام ١٩٠١ ، ثم كان العقد الثانى من القرن العشرين ليصبح الاتصال اللاسلكى عبر الأطلنطى واقعًا مألوفا ، وكان على العالم أن ينتظر حتى عام ١٩٥٦ ، امتداد الكابلات البحرية عبر المحيطات والبحار ليخاطب الناس بعضهم بعضًا عن طريق التليفون . وكان الراديو قد غمر العالم بموجاته وحديثه المباشر إلى الأذن . ثم ظهر التليفزيون ليجمع بين الأبجدية البصرية والأبجدية الصوتية وكانت الكلمة فى كل تلك الوسائل مكتوبة أو منطوقة أداة الاتصال أو الإعلام بتعبير أدق .

فالكلمة هى أداة الإعلام أما الاتصال الجماهيرى فلايقف عند الكلمة وحدها ، فالعربة والسيارة والقطار والطائرة وسائل اتصال كبرى بين الناس والبلدان فى كافة أنحاء العالم ، وقد حلت الدواب محل أقدام الإنسان ، وعندما استأنس الإنسان الحصان سخّره لقطع مسافات أبعد ، وعدما حلّ الشراع فى السفن محل المجاديف ، ضاعف من سرعتها وامتدادها حتى ساقها البخار إلى مسافات أبعد ، وكان من آثاره قطارات السكك الحديدية ، واخترعت الطائرة ، وغذت التكنولوجيا الحديثة المواصلات البرية والبحرية والجوية بقدرات أقوى وأوسع . ولم تعد أية بقعة بعيدة فى الأرض بمنأى عن الأخرى ، وغذت بالتالى وسائل لاتصال جماهيرى أوسع صلة وأبعد مدى .

وقد نرى نوعًا من التباين بين الإعلام بمدلوله العلمى والاتصال الجماهيرى ، فالإعلام كمايراه العالم الألمانى « أوتو جروت » هو التعبير الموضوعى لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها فى نفس الوقت ، وهو تعريف يراه الدكتور عبداللطيف حمزة أوضح تعريف للإعلام ، ويفصله بأنه « تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة ، التى تساعدهم على تكوين رأى عام صائب فى واقعة من الوقائع ، أو مشكلة من المشكلات . بحيث يعبر هذا الرأى تعبيرًا

موضوعيًّا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم »[1] .

ونضيف إلى ذلك أن الإعلام إذا كان تعبيرًا موضوعيًّا لعقلية الجماهير وروحها وأنه يزود الناس بالأخبار الصحيحة ، فإن التعريف يقصر عن الوفاء ببيان المضمون العام للإعلام ، فإن الإعلام إذا كان تعبيرا موضوعيا لعقلية الجماهير ، فإنه يكاد يخرج بذلك عن دائرة الدعاية والترفيه ، ويقصر وظيفته على التعليم والمعرفة ونقل الخبر ، وقد قلنا من قبل إن الإعلام بفصائله الأربعة : التعليم أو نقل المعرفة ، والدعوة أو التعريف بشيء جديد واستهواء الناس إليه ، والدعاية أو التأثير بأى وسيلة فى الناس وفى أهوائهم ، والترفيه أو إمتاع الناس وإرضاء النزعة الفنية لديهم ، ويشمل بذلك كل ماتعبر عنه الكلمة بأى وسيلة من الوسائل قديمة أو حديثة ، وكل ماينقل الكلمة أو يسجلها أو يحفظها وسيلة إعلامية ، ويختلف بذلك عن الاتصال الجماهيرى الذى يتجاوز المنطوق إلى الحركة ومايترتب على الحركة من نتائج .

وسواء وقفنا عند الإعلام بمدلوله المحدد ، أو الاتصال الجماهيرى بمدلوله الفسيح فإن كل مايساعد على اتصال الناس والمجتمعات والبلدان بعضها ببعض ، فهو من وسائل الأعلام أو الاتصال الجماهيرى ، وإن كان علينا أن تميز بين الاثنين فى المدلول العلمى .

ويرى « رسل نويمان » فى مقال له بمجلة « رسالة اليونسكو » أن ماكلوهان قد عكس الآية . ويتفق معنا فيما نذهب إليه من أن الأداة لا تحدد المضمون ، وإنما الذى يحدده هما الثقافة والفكر ، وأن الثقافة والفكر حين تصبح التكنولوجيا قادرة

---

(١) دكتور عبد اللطيف حمزة :

١ – الإعلام : له تاريخه ومذاهبه .

٢ – الإعلام والدعاية .

على بثهما ، فإن هذه القدرة هى التى تضفى على الوسيلة أهميتها . ولا يمكن لاية وسيلة تكنولوجية حديثة ، أن تتحرر من الطابع الثقافى الذى يسيطر عليها ويبثها ، فإذا كانت وسيلة الإعلام القديمة سمعية أو بصرية لا تتجاوز نطاقها القومى ، فإن الوسيلة التكنولوجية الحديثة قد امتدت بالإرسال عبر الحدود القومية ، وإنها تستطيع أن تملى طابعها الثقافى والفكرى ، ويغدو التدفق الحر للبرامج على اختلافها خاضعًا لمن يملك ولمن هو أقوى . وليس من المستبعد مع التركة البغيضة للاستعمار فى البلدان النامية ، أن تنظر بعين الشك والحذر إلى التدفق الإعلامى من جانب البلدان المتقدمة ، وأن ترى نوعا من الاستعمار الجديد ، وإن بدا فى كثير من الأحيان حتما لا يمكن رده ، فالبرامج الترفيهية من مسلسلات درامية أو موسيقية أو عروض لمناسبات قومية تغرق الإرسال التلفزيونى فى كافة أنحاء العالم ، وبالذات العالم النامى الذى يعتمد إلى حدّ كبير على استيراد البرامج الأجنبية ، فإن نمت عن شيء من التناقض بين مضمونها الثقافى والفكرى وبين ماهو قائم ، فإن الغلبة ولاشك ستكون للموجة الغالبة التى تتكيف مع حضارة معاصرة ، ويغدو التفاعل الثقافى بين الجديد والقديم حتمية قائمة .

إلا أن هذا لايتم ولا يتحقق مالم يتوازن الإنتاج الإعلامى بين البلدان النامية والمتقدمة ، فالبلدان النامية مازالت فى حالة تبعية لإعلام البلدان المتقدمة ، إذ أن أكثر من ٨٠٪ من الأنباء التى تذيعها على العالم تصدر منها وعنها ، وليس للبلاد النامية منها أكثر من ١٠٪ إلى ٣٠٪ ، وهذا التباين البالغ يخل بالتوازن ، وهو مايعوق عملية التفاعل بين ثقافة واردة وثقافة قائمة ، بل قد يؤدى إلى نوع من التحدى والرفض لكل ماهو غريب ، لاسيما وأن مايتلقاه الإعلام الغربى ويذيعه عن الدول النامية ، يبدو مشوشًا وأحيانا شائهًا مما يباعد بين اللقاء والتفاهم ، ويثير النعرات العرقية والقومية .

وأخطر مايواجهه العالم فى هذا الوقت ، هو التفاوت البالغ فى مستوى المعيشة بين الشعوب المتقدمة والشعوب النامية والخلل الاقتصادى بين الجانبين ، بل إن هذا الخلل الاقتصادى يكاد يجرف فى طريقه التوافق بين دول الغرب الصناعى ، فقد أخذت السوق الأوربية المشتركة تتحسب من الضغط الأمريكى حين يتعرض للتيارات السياسية بين الجانبين .

ولا يثمر التدفق الحر للإعلام ، مالم تتوازن القدرات الإعلامية بين الدول المتقدمة والدول النامية ، ومالم يتقارب الدخل القومى ومستوى المعيشة فى الدول النامية من مستواه فى الدول المتقدمة ، وإلا كان غذاء للموجدة والحقد والصراع الاجتماعى والسياسى ، وعائقًا أمام التقارب الثقافى والاجتماعى والسلام العام .

فهرس

صفحة

● الإعلام قديمًا وحديثًا ٥
من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي ٩
الإعلام وثورة التكنولوجيا .. ١٩
● عصر الإعلام .... [illegible]
فضائل الإعلام .. [illegible]
الإعلام والمعرفة . [illegible]
اللغة والمعرفة ..... [illegible]
لغة الإعلام ..... [illegible]
● الإعلام والرأي العام [illegible]
نشأة الرأي العام [illegible]
مقومات الرأي العام [illegible]
الثقافة والرأي العام [illegible]
الثقافة القومية والرأي العام [illegible]
المتغيرات الثقافية والرأي العام [illegible]
حوافز الرأي العام [illegible]
سيكلوجية الرأي العام [illegible]
الإعلام [illegible] [illegible]
● وسائل الإعلام الحديثة [illegible]

صفحة

الإعلام هو الكلمة والوسيلة ١٠٧

الصحافة ١٠٩

وكالات الأنباء ١١٤

الصحافة العربية ١١٦

من العين إلى الأذن ١٢٤

الراديو ١٢٦

الأذن والعين معًا ١٣٦

التليفزيون ١٣٨

● خاتمة ١٤٤-١٥٤

للمؤلف

	السنة
١ - السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط	١٩٥٢
٢ - مع الأحداث فى الشرق الأوسط ١٩٤٦ - ١٩٥٦	١٩٥٧
٣ - ثورة فى التعليم	١٩٥٨
٤ - أرض الميعاد	١٩٦١
٥ - وحدة التاريخ العربى	١٩٦٢
٦ - الشرق العربى بين حربين	١٩٦٣
٧ - لطفى السيد والشخصية المصرية	١٩٦٣
٨ - أحمد لطفى السيد : أستاذ الجيل	أعلام العرب ١٩٦٥
٩ - رفاعة الطهطاوى : رائد فكر وإمام نهضة	أعلام العرب ١٩٦٦
١٠- على مبارك : ابو التعليم	أعلام العرب ١٩٦٧
١١- هيكل وحياة محمد	١٩٧٠
١٢- الإسلام والسياسة	١٩٦٩
١٣- التاريخ والسير	المكتبة الثقافية ١٩٦٤
١٤- الفكر السياسى الحديث	المكتبة الثقافية ١٩٦٧
١٥- بريطانيا والجنوب العربى	المكتبة الثقافية ١٩٦٧
١٦- وعد بلفور	اخترنا للطالب ١٩٦١
١٧- الأمة العربية	اخترنا للطالب ١٩٦١
١٨- قصة الاستعمار	اخترنا للطالب ١٩٦٢

	السنة
١٩- بترول العرب	اخترنا للطالب ١٩٦٢
٢٠- التناقض الطبقى فى ثورة ١٩١٩	اخترنا للطالب ١٩٦٤
٢١- الإسلام وروح العصر	كتابك ١٩٧٩
٢٢- المرأة والإبارتهيد فى جنوب أفريقيا	الأمم المتحدة ١٩٧٩

كتب مترجمة عن الإنجليزية :

١ - ساعة الحسم : چون كينيث جلبريث	١٩٥٩
٢ - معلمتى : آن سوليفان ماسى : هيلين كيلر	١٩٦٠

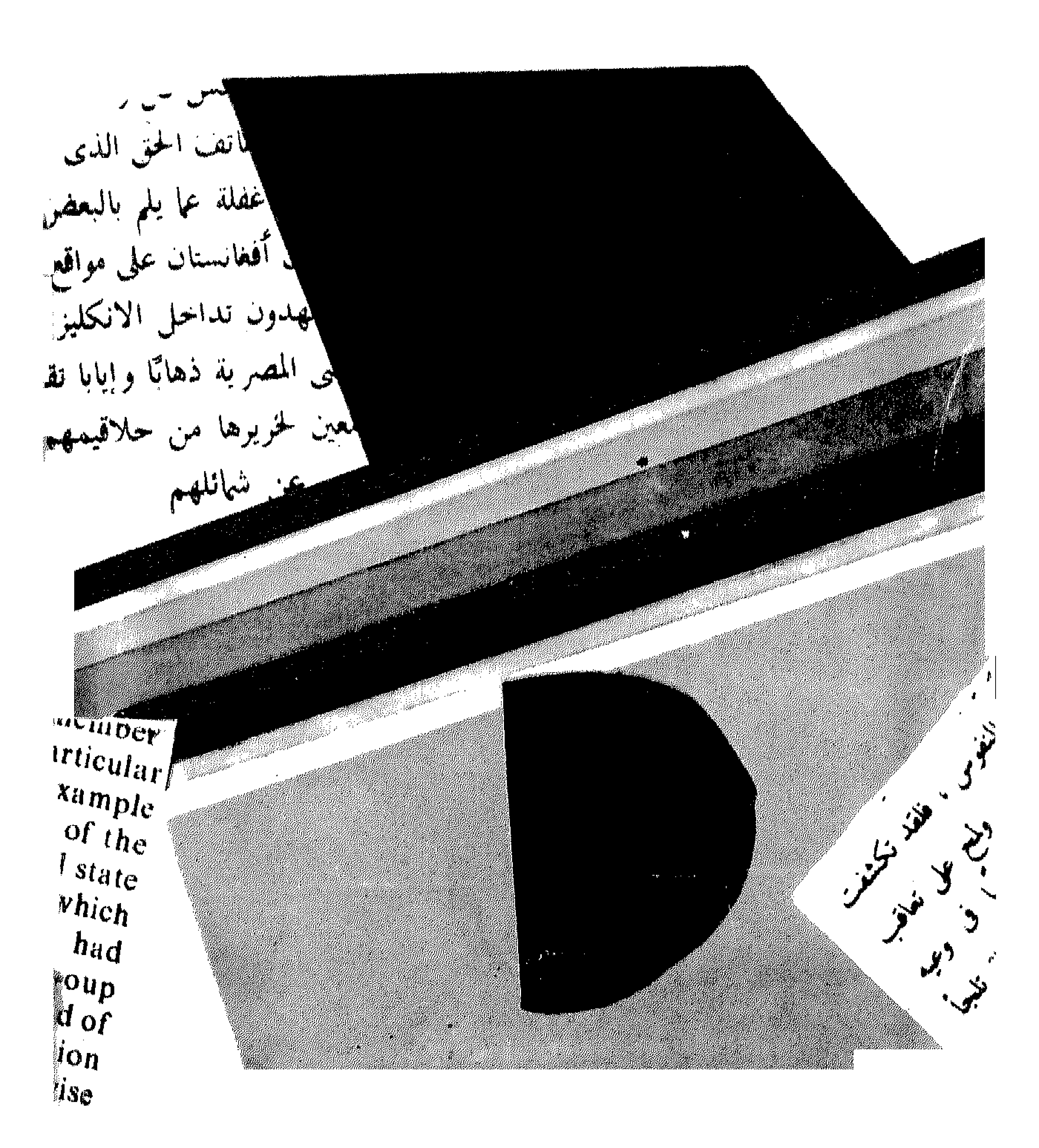
تحت الطبع :

١ - الدولة والحكم فى الإسلام
٢ - الدولة الإسلامية : البداية والنهاية
٣ - الدكتور هيكل وتاريخ جيل
٤ - حياة جيل
٥ - قادة الفكر الدولى - مترجم
٦ - التعليم وتحديات العصر
٧ - ذكريات معلم
٨ - الإعلام الإسلامى

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ١٥٢٤
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٧١١-X

١ / ٨٣ / ٢٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



اتف الحق الذى
غفلة عما يلم بالبعض
أفغانستان على مواقع
هدون تداخل الانكليز
المصرية ذهابًا وإيابا تق
لعين لخريرها من حلاقيمهم
عن شمائلهم
rticular
xample
of the
state
which
had
oup
d of
ion
ise
النفوس ، فلقد تكشفت
ولح على تعاقب
) و وبعد

